جيفري أرشير

JEFFREY ARCHER

كان رجلًا مقدامًا

THIS WAS A MAN

الجزء السابع

رواية



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

جيفري أرشير

JEFFREY ARCHER

كان رجلًا مقدامًا

THIS WAS A MAN

الجزء السابع

رواية

ترجمة

غيلدا العساف

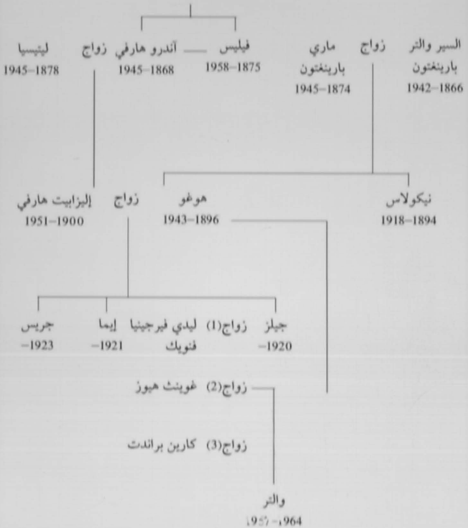
مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الطبعة الأولى: شباط/فبراير 2021 م - 1442 هـ

ردمك 9786140265035

الدار العربية للعلوم ناشرون


آل بارينغتون
السير والتر بارينغتون
1942–1866
زواج
ماري بارينغتون
1945–1874
فيليس
1958–1875
آندرو هارفي
1945–1868
زواج
ليتيسيا
1945–1878
نيكولاس
1918–1894
هوغو
1943–1896
زواج
إليزابيث هارفي
1951–1900
جيلز
–1920
زواج(1) ليدي فيرجينيا فنويك
إيما
–1921
جريس
–1923
زواج(2) غوينث هيوز
زواج(3) كارين براندت
والتر
1957–1964

آل كليفتون

هارولد تانكوك 1871–1941 زواج فيرا بريسكوت 1876–1959

راي 1895–1917

ألبرت 1896–1917

ستانلي 1898–1956

مسي 1901–1972

زواج

آرثر كليفتون 1898–1921

إلسي 1908–1910

هاري 1920–

زواج

إيما بارينغتون 1921–

سمانثا سوليفان

زواج

سيباستيان 1940–

جيسيكا (بالتبني) 1943–1964

جيسيكا 1963–

تمهيد
1978

كانت إيما دومًا تلقي نظرة ثانية إلى أي سفينة ترفع العلم الكندي، ثم تتفقد الاسم التي تحمله على هيكلها قبل أن تهدأ ضربات قلبها مجددًا.

ولكن عندما نظرت هذه المرة تسارعت ضربات قلبها إلى الضعف وكادت قدماها أن تنهارا. أمعنت النظر مرة ثانية، كان اسم السفينة نوتا، اسمٌ سيعلق بذهنها غالبًا. وقفت وشاهدت القاطرتين الصغيرتين تملآن مدخل المرفأ بدخانهما الأسود المنبعث من مداخنهما بينما قادا سفينة الشحن الصدئة القديمة نحو وجهتها الأخيرة.

غيرت اتجاهها، وبينما كانت تشق طريقها نحو ساحة التحطيم، لم تستطع سوى التساؤل حول العواقب المحتملة الحدوث لمحاولتها إيجاد الحقيقة بعد كل تلك السنوات.

من المؤكد أن عودتها إلى مكتبها ستكون منطقيةً أكثر من البحث في الماضي... الماضي البعيد، لكنها لم تتراجع، وعندما وصلت إلى الساحة، توجهت مباشرةً إلى مكتب رئيس العمال، وكأنها تقوم بجولاتها الصباحية المعتادة ثم خطت إلى المقصورة وتنفست الصعداء عندما لم تجد فرانك، فلم يكن هناك أحدٌ سوى سكرتيرة تطبع شيئًا ما، ووقفت حين رأت مديرتها قائلة: "أخشى أن السيد غيبسن ليس هنا، سيدة كليفتون. هل ترغبين بأن أبحث عنه؟".

قالت إيما: "لا، لن يكون ذلك ضروريًا". نظرت إيما إلى مخطط المواعيد المعلق على الحائط، لتجد أن أسوأ مخاوفها قد تحقق، فقد قُرر أن ذا إس إس

ميبل ليف ستحطم وسيبدأ العمل على ذلك يوم الثلاثاء، على الأقل أعطاها ذلك قليلًا من الوقت لتقرر ما إذا كانت ستحذر هاري أو ستتجاهل الأمر مثل نيلسون. ولكن إن اكتشف هاري أن ذا ميبل ليف قد ذهبت إلى مقبرتها وسألها إن كانت تعلم بالأمر، لن تتمكن من الكذب عليه.

"أنا متأكدة من أن السيد غيبسن سيعود خلال عدة دقائق، سيدة كليفتون".

"لا تقلقي، إنه ليس بالأمر المهم. ولكن هل بإمكانك أن تطلبي منه أن يأتي لمقابلتي عندما يمر بجانب مكتبي في المرة القادمة؟".

"هل أخبره بشيء محدد؟".

"لا، سيعرف بنفسه".

نظرت كارين من النافذة إلى الريف بينما كان القطار منطلقًا بسرعة في رحلته إلى ترورو.

لكن أفكارها كانت في مكان آخر بينما كانت تحاول تقبل وفاة البارونة.

لم تكن على اتصال بسينثيا لعدة أشهرٍ، ولم تقم الاستخبارات البريطانية بأي محاولةٍ لاستبدالها كمديرةٍ لكارين. هل فقدوا الاهتمام بها؟ لم تعطها سينثيا شيئًا مهمًا لتخبر بينغلي به لفترة من الزمن، وأصبحت اجتماعات غرفة الشاي نادرة الحدوث.

وقد لمَح بينغلي إلى أنه لن يمر وقت طويل قبل أن يتوقع العودة إلى موسكو. لا يمكن أن يكون ذلك كافيًا بالنسبة إليها. لقد سئمت من خداع جايلز، الرجل الوحيد الذي أحبته على الإطلاق، وتعبت من السفر إلى كورنوال بحجة زيارة والدها. لم يكن بينغلي والدها وإنما زوج والدتها. لقد كرهته، ولم تكن تنوي استخدامه إلا لمساعدتها على الهروب

من نظامٍ احتقرته، حتى تستطيع أن تكون مع الرجل الذي وقعت بحبه. الرجل الذي أصبح حبيبها وزوجها وصديقها المقرب.

كرهت كارين عدم قدرتها على إخبار جايلز بالسبب الحقيقي لتناولها الشاي في منزل اللوردات مع البارونة بشكلٍ متكررٍ. الآن بعد أن ماتت سينثيا، لم يعد عليها أن تعيش كذبةً. لكن عندما يكتشف جايلز الحقيقة، هل سيصدق أنها هربت من استبداد برلين الشرقية فقط لأنها أرادت أن تكون معه؟ ألم تكذب في كثير من الأحيان؟ بينما كان القطار منطلقًا إلى ترورو، صلت أن تكون تلك هي المرة الأخيرة.

***

سألت إيما من مكتبها: "كم سنة عملت لهذه الشركة، فرانك؟".

"ما يقارب الأربعين عامًا يا سيدتي، فقد عملت لدى والدك، ولدى جدك من قبله".

"إذًا لا بد أنك سمعت بقصة ذا ميبل ليف؟".

"من قبل أن أعمل هنا يا سيدتي، ولكن الجميع في الساحة على معرفة بهذه القصة مع أن القليلين فقط يتكلمون عنها".

"لديَ خدمة لأطلبها منك يا فرانك. هل يمكنك أن تجمع لي عددا قليلًا من الرجال الموثوقين؟".

"إني أملك أخوين وابن عم لم يعملوا من قبل لأي أحد عدا بارينغتون".

"سيكون عليهم أن يأتوا يوم الأحد عندما تكون الساحة مغلقة، سأدفع لهم الضعف نقدًا، وسيكون هناك مكافأة بنفس القدر بعد سنة، ولكن فقط إن أبقوا على سرية العمل الذي سيقومون به في ذلك اليوم".

قال فرانك، ممسكًا بطرف قبعته: "هذا سخي جدا منك يا سيدتي".

"متى سيكون بإمكانهم البدء؟".

"صباح الأحد القادم، فستكون الساحة مغلقة حتى يوم الثلاثاء، باعتبار أن الاثنين عطلة رسمية".

"هل تدرك أنك لم تسألني عن طبيعة العمل؟".

"لا حاجة لذلك يا سيدتي. وإن وجدنا ما تبحثين عنه في الأسفل، ماذا يحدث حينها؟".

"لا أريد أكثر من أن تنال بقايا آرثر كليفتون دفنًا مسيحيًا".

"وماذا إن لم نجد شيئًا؟".

"عندها سيكون سرًا نأخذه خمستنا إلى القبر معنا".

فتح زوج والدة كارين الباب الأمامي للمنزل ورحّب بها بابتسامة دافئة على غير العادة. وقال عندما دخلت إلى المنزل: "لدي بعض الأخبار الجيدة لأشاركها معك، ولكن الأمر عليه أن ينتظر إلى وقت لاحق".

هل من الممكن أن يكون هذا الكابوس على وشك الانتهاء أخيرًا؟ هذا ما خطر على بال كارين. ثم رأت نسخة من صحيفة ذا تايمز على طاولة المطبخ، وقد فتحت على صفحة الوفيات، وحدقت إلى الصورة المألوفة للبارونة فوربس واتسون متسائلة إن كان الأمر محض صدفة، أو أنه قد تركها مفتوحة فقط لإغاظتها.

لم يتكلما أثناء شرب القهوة عن أي شيء مهم، ولكن كارين لم تستطع تجنب رؤية الحقائب الثلاث المتوضعة عند الباب، التي بدت كنذير وشيك على المغادرة. بكل الأحوال كان قلقها يزداد مع

كل لحظة تمر، في حين بدا بينغلي مرتاحًا وودودًا زيادة عن اللزوم. ما كان تعبير الجيش القديم ذاك؟ فرحة التسريح؟ قال واضعًا إصبعه على شفتيه: "حان الوقت لنتكلم عن أمور أكثر أهمية". خرج إلى الرواق مزيلًا معطفه السميك عن حمالة الملابس قرب الباب. فكرت كارين أن تهرب، ولكن إن فعلت ذلك، وكان كل ما يريد إخبارها به أنه سيعود إلى موسكو، فسينكشف تخفيها. ساعدها في ارتداء معطفها قبل أن يرافقها إلى الخارج.

تفاجأت كارين عندما أمسك ذراعها بقوة ودفعها باتجاه الشارع الخالي. كانت عادة تشبك ذراعها معه بحيث يظن أي مار أنهما مجرد أب مع ابنته في نزهة، ولكن ليس اليوم، فقررت أنها إن صادفت أي أحد، حتى لو كان الكولونيل العجوز، فإنها ستقف وتتكلم معه لأنها تعلم أن بينغلي لن يجرؤ على المخاطرة بفعل أي شيء إن كان هناك شاهد موجود، فكما كل الجواسيس، كان يتصرف على أساس أن الجميع جواسيس أيضًا.

تابع بينغلي مزاحه المرح، لقد كان ذلك خروجًا عن شخصيته لدرجة أنه جعل كارين أكثر قلقًا، ناقلة عينيها في كل الاتجاهات، ولكن لم يبد أن أحدًا كان يتنزه في ذلك اليوم الرمادي الكئيب.

نظر بينغلي خلفه حالما وصلا إلى طرف الغابة كما يفعل دائمًا ليرى إن كان أحد ما يتبعهما، وفي حال حدوث ذلك كانا يعودان أدراجهما إلى المنزل. ولكن لم يكن الأمر كذلك بعد ظهر هذا اليوم.

كان ضوء النهار قد بدأ بالتلاشي والظلام في ازدياد مع كل لحظة تمر، مع أن الساعة لم تتجاوز الرابعة بعد. أمسك بينغلي بمرفقها بقوة أكبر حين خرجا عن الطريق وإلى ممر يودي إلى الغابة. كان

قد تغير صوته ليلائم هواء المساء البارد فقال: "أعلم أنك ستسرين بسماع هذا يا كارين، بأنهم قد رقوني وسأعود إلى موسكو قريبًا". لم يسبق لها أن دعاها بكارين.

"تهاني أيها الرفيق، لقد استحققت ذلك".

لم يرخ قبضته عليها حين قال: "سيكون هذا لقاءنا الأخير ولكن مارشال كوشيفوي قد ائتمنني على مهمة أخيرة". لم يفصل بينغلي بكلامه، وكأنه كان يريدها أن تأخذ وقتها بالتفكير في الأمر. كان قد اشتد الظلام أثناء تعمقهما أكثر في الغابة، لدرجة أنه أصبح صعبًا عليهما أن يريا الساحة أمامهما، ولكن بينغلي بدا أنه يعرف تمامًا إلى أين كان ذاهبًا وكأنه تدرب على كل خطوة يخطوها.

قال بهدوء: "أخيرًا، اكتشف رئيس مكافحة الاختراق الخائن في صفوفنا، الشخص الذي كان يخون الوطن منذ سنوات، وقد اختاروني لتنفيذ العقوبة الملائمة".

أخيرًا، أرخى قبضته وتركها، وكانت غريزتها الأولى هي الهرب، لكنه اختار المنطقة جيدًا، فقد كانت مجموعة من الأشجار خلفها، وعلى يمينها منجم القصدير القديم، أما على يسارها طريق ضيق بالكاد تستطيع الخروج منه في هذا الظلام، مع بينغلي الذي لم يكن من الممكن أن يبدو أكثر هدوءًا أو تنبهًا فوقها.

أخرج بينغلي مسدسًا من جيب معطفه ببطء وحمله على جانبه بشكل مهدد، هل كان يأمل أنها ستهرب حتى يتمكن من إطلاق أكثر من رصاصة واحدة عليها؟ لكنها بقيت ثابتة في مكانها. قال لها: "أنت خائنة ألحقت ضررًا بقضيتنا أكثر من أي عميل، لذا عليك أن تموتي ميتة الخائن، سأكون في

موسكو قبل أن يكتشفوا جثتك بوقت طويل، هذا إن اكتشفوها أصلًا".

نظر إلى جهة المنجم ثم رفع المسدس ببطء حتى أصبح بمستوى عيني كارين.

كانت آخر أفكارها قبل أن يضغط الزناد هي جايلز، ثم تردد صدى صوت طلقة واحدة في أرجاء الغابة، وحلق سربٌ من طيور الزرزور بعيدًا في حين انهار جسدها على الأرض.

هاري وإيما كليفتون
1978 - 1979
1

ضغط رقم ستة على الزناد، وانطلقت الرصاصة من البندقية بسرعة 212 ميلًا في الساعة مصيبةً هدفها تحت عظم الترقوة الأيسر ببضع إنشات، ومؤدية إلى موته مباشرةً. أما الرصاصة الثانية فقد تمركزت في جذع شجرة على بعد عدة ياردات من المكان الذي وقعت فيه الجثتان.

وصل لاحقًا خمسة مظليين من القوات الجوية الخاصة مندفعين عبر الشجيرات ومتجاوزين منجم القصدير المهجور قبل أن يحيطوا بالجثتين، كان كل منهم ينجز مهامه بدون أي نقاش أو تساؤل تمامًا كالميكانيكيين في سباقات الفورميلا ون.

أمسك رقم واحد - الملازم المسؤول عن الوحدة - بمسدس بينغلي ووضعه في كيس بلاستيكي، بينما جثا رقم خمسة، الذي كان طبيبًا، بجانب المرأة متحسسًا نبضها، كان ضعيفًا ولكنها لا تزال حية، فلا بد من أنه قد أُغمي عليها نتيجة سماع دوي الطلقة الأولى، ولمثل هذا السبب كان يُربط المحكومون بالإعدام رميًا بالرصاص إلى عمود.

حمل رقم اثنين ورقم ثلاثة - كلاهما عريفان بالوحدة - المرأة المجهولة إلى الحمالة ونقلاها إلى مكان مفتوحٍ في الغابة على بعد مئة ياردة، حيث كانت مروحية قد بدأت شفراتها بالدوران بانتظارهم، وعندما وصلوا ثبتوا الحمالة في الداخل، وصعد رقم خمسة - الطبيب- ليرافق المرأة المصابة، وما كاد يضع حزام الأمان حتى انطلقت المروحية. تحقق من نبضها مجددًا، كان أكثر ثباتًا

هذه المرة.

أما على الأرض، فقد حمل رقم أربعة - الذي كان رقيبًا وبطل الكتيبة في الملاكمة للوزن الثقيل - جثة الرجل ووضعها فوق كتفه وكأنها كيس بطاطا، ومشى بهدوء في الاتجاه المعاكس لزملائه، ولكنه كان يعرف تمامًا إلى أين سيذهب.

وصلت بعد عدة دقائق مروحية أخرى وحامت ملقية ضوءًا قويًا عليهم امتد حتى شمل كل مساحة العملية. عاد رقم اثنان وثلاثة بسرعة من مهمتهما في نقل الحمالة، ثم انضما لرقم ستة - القناص- الذي نزل عن شجرة وقد ثبت بندقيته فوق كتفيه، قبل أن يشرعوا في البحث عن الرصاصتين.

كانت الرصاصة الأولى مغروسة في الأرض على بعد بضعة ياردات من المكان الذي مات فيه بينغلي، وقد عثر عليها رقم سته خلال لحظات بعد أن تتبع مسارها. ومع أن كل فردٍ من الوحدة كان خبيرًا في اكتشاف آثار الشظايا وبقايا البارود، لكن الآخرين كانا يحتاجان وقتًا أطول لاكتشافهما.

رفع أحد العريفين يده لحظة إيجاده الرصاصة الأخرى مع أن تلك كانت مهمته الثانية فقط، وأخرجها باستعمال سكين قبل أن يسلمها إلى رقم واحد الذي وضعها في كيس بلاستيكي آخر، كتذكار سيعلق في مقهى خاص بالجيش لا يزوره الكثيرون. أنجزت المهمة، وعاد الرجال الأربعة إلى الساحة الفارغة نفسها ووصلوا في اللحظة التي كانت المروحية تهم فيها بالمغادرة، فانتظر الملازم حتى صعد كل رجاله إليها قبل أن ينضم إلى الطيار في المقعد الأمامي ويضع حزام أمانه.

أوقف ساعة توقيته بعد أن انطلقت المروحية، ثم قال صارخًا فوق صوت هدير المحرك: "تسع

دقائق وثلاث وأربعون ثانية، هذا وقت مقبول". كان قد أكد لضابط القيادة أن العملية لن تكون ناجحةً وحسب، بل ستنجز في أقل من عشر دقائق. نقل نظره إلى الأرض من تحته، ولاحظ أنه لم يكن هناك أي دليلٍ على ما حدث، عدا بضعة آثار أقدامٍ سيمحوها المطر، وحتى إن رأى أي من سكان المنطقة المروحيتين وهما تأخذان اتجاهين مختلفين فمن الموكد أنهم لن يعيروا الأمر اهتمامًا، فبكل الأحوال كان مقر القوات الجوية على بعد عشرين ميلًا من هنا، وكانت مهماتهم اليومية جزءًا من حياة سكان المنطقة.

ولكن أحد السكان كان يعرف تمامًا ما يجري، فاتصل الكولونيل هيدسون إم سي المتقاعد بمقر القوات الجوية بعد لحظات من رؤيته لبينغلي خارجًا من منزله وقد شدد قبضته حول مرفق ابنته، فاتصل بالرقم الذي أخبروه باللجوء إليه في حال شعر بأنها في خطر، ومع أنه لم يكن يعرف من على الجهة الأخرى من الخط، لكنه نطق بجملته الوحيدة كومة قش قبل أن يُغلق الخط في وجهه، وبعد ثمانٍ وأربعين ثانية كانت مروحيتان تحلقان في السماء.

توجه ضابط القيادة إلى النافذة وشاهد مروحيتين من نوع بوما تحلقان فوق مكتبه وتتجهان جنوبًا، ثم بدأ يمشي حول الغرفة بوتيرة سريعة متفقدًا ساعته كل بضع ثوانٍ. لقد كان رجلًا فعلًا، ولم يولد حتى يكون متفرجًا وحسب، على الرغم من أنه قد تقبل مترددًا حقيقة أنه أصبح في التاسعة والثلاثين من العمر، وهو عمرٌ متقدم للقيام بالعمليات الميدانية، فكما يقولون لدى الشخص دومًا شيءٌ ليقدمه في هذا العالم.

عاد إلى النافذة مجددًا بعد مرور عشر دقائق،

لكن الأمر استغرق ثلاث دقائق أخرى قبل أن يلمح مروحية تعبر السحاب، انتظر بعدها للحظات قبل أن يشعر أنه من الممكن أن يتنفس الصعداء أخيرًا، فإن كانت المروحية الأخرى تلحق بها فهذا يعني أن المهمة قد فشلت. كانت تعليماته من لندن واضحة جدًا، ومفادها أنه إن كانت المرأة ميتة فعليهم أن يوصلوا جثتها إلى ترورو ويضعوها في جناح مستشفى خاص، حيث يوجد فريق ثالث على درايةٍ بواجبه. أما إن نجت فيجب عليهم نقلها إلى لندن حيث يتولى فريقٌ رابع بقية المهمة. لم يكن ضابط القيادة على علم بماهية تعليمات الفرق الأخرى، ولم يكن حتى يعرف هوية المرأة، فعلى ما يبدو كانت هذه المعلومات أكثر سرية مما تسمح له رتبته بمعرفته.

لم يتحرك قائد الضباط من مكانه حتى بعد أن حطت المروحية. فُتح بابٌ وقفز الملازم منه متدحرجًا مرتين بينما كانت شفرات المروحية لا تزال تدور، وركض عدة ياردات قبل أن يقف مستقيمًا مرة ثانية ويشير للكولونيل بأن كل شيء على ما يرام بعد أن رآه واقفًا على الشباك. تنفس قائد الضباط الصعداء، ثم عاد إلى مكتبه واتصل بالرقم الموجود على اللوحة أمامه. كانت تلك المرة الثانية والأخيرة التي يتكلم بها مع مدير مكتب مجلس الوزراء.

"كولونيل داوس، سيدي".

قال السير آلان: "مساء الخير أيها الكولونيل".

"تمت عملية *كومة القش*، وانتهت بنجاح يا سيدي. بوما 1 عادت إلى القاعدة. بوما 2 في طريقها إلى المنزل".

قال السير الان: "شكرًا لك". وأغلق السماعة. لم

يكن هناك وقت لتضييعه فموعده التالي سيكون في أية لحظة، وكما لو كان رسولًا، فتح الباب وأعلنت سكرتيرته: "اللورد بارينغتون".

قال السير آلان وهو ينهض من خلف مكتبه مصافحًا يد ضيفه: "جايلز، هل يمكنني أن أعرض عليك بعض الشاي أو القهوة؟".

قال جايلز: "لا، شكرًا لك". فقد كان مهتمًا بشيء واحد فقط، وهو السبب في رغبة مدير مكتب رئيس مجلس الوزراء برؤيته بتلك السرعة.

قال السير آلان: "عذرًا لاستعجالك، ولكنني أحتاج إلى مناقشة مسألة خاصة معك، بشروط المجلس السري".

لم يكن قد سمع جايلز هذه الكلمات منذ أن كان وزيرًا، لكنه لم يحتج للتذكير بأنه أيًا كان ما سيناقشه مع آلان لا يمكن أن يعاد تكراره أبدًا أمام أي شخص، إلا إن كان الشخص هذا عضوًا في المجلس السري أيضًا.

أومأ جايلز برأسه، وقال السير آلان: "دعني أبدأ بالقول إن زوجتك كارين ليست ابنة بينغلي".

لم يحتاجوا بعد كسرهم للنافذة سوى لحظة قبل أن يصبح الستة في الداخل. لم يعلموا بالضبط ما كانوا يبحثون عنه، ولكن عندما يجدونه سيعرفونه مباشرة. لم يكن الرائد المسؤول عن الوحدة الثانية - المعروفة بجامعي المخلفات- يحمل ساعة توقيت، لأنه لم يكن على عجلة من أمره. فرجاله مدربون على أن يأخذوا وقتهم ويتأكدوا ألا يفوتهم شيء، فلم يكونوا يُمنحون فرصة ثانية أبدًا.

وكانوا على خلاف زملائهم في الوحدة الأولى يرتدون بذلات تدريب ويحملون أكياسًا بلاستيكية كبيرة سوداء. وكان بينهم استثناء وحيد وهو رقم

أربعة، ولكنه لم يكن عضوًا دائمًا من وحدتهم في كل الأحوال. أسدلوا الستائر كلها قبل أن يضيئوا الأنوار ويبدأ البحث.

مشط الرجال كل غرفة بسرعة ومنهجية ودقة متناهية، من دون أن يتركوا أي شيء للصدفة، وبعد ساعتين كانوا قد ملأوا ثمانية أكياس، متجاهلين الجثة التي وضعها رقم أربعة على السجادة في الغرفة الأمامية، مع أن أحدهم فتش جيوبها.

كان آخر شيء فتشوا فيه هو الحقائب الثلاث التي كانت قد تُركت موضوعة قرب الباب في بهو المنزل، كانت كنزًا دفينًا حقيقيًا، فعلى الرغم من أن محتوياتها لم تملأ سوى كيس واحد، إلا أنه كان أكثر قيمةً من جميع الأكياس السبعة المتبقية، كانت تحتوي مذكرات، وأسماء، وأرقام هواتفِ وعناوين، إضافةً إلى ملفات سرية، لا شك بأن بينغلي كان ينوي أخذها معه إلى موسكو.

أمضت الوحدة بعدها ساعة إضافية هناك لتعيد التحقق من المنزل، لكنهم لم يعثروا على أي شيء إضافي ذي قيمة، ولم يكن ذلك مفاجئًا فقد كانوا محترفين ومدربين على إنجاز المهمة من المرة الأولى. وبعد أن تأكد قائد الوحدة بأنه لم يبقَ شيء لفعله، خرجوا من الباب الخلفي وسلكوا طرقًا متفرقة كانوا قد تدربوا عليها عائدين إلى المقر، من دون أن يتركوا وراءهم سوى رقم أربعة. ولكن رقم أربعة لم يكن جامعًا بكل الأحوال، بل مدمرًا.

أشعل العريف سيجارته بعد أن سمع الباب الخلفي يغلق وأخذ بضع سحبات، ثم رمى العقب المشتعل قرب الجثة على الأرض، قبل أن يرش الوقود من قداحته على الجمر الذي كان قد بدأ في الانطفاء، وبعد لحظات قليلة علا لهبٌ أزرق منه وأشعل النار

في السجادة. كان يعلم أن الحريق سينتشر بسرعة في المنزل الخشبي الصغير، ولكن كان عليه التأكد من ذلك، لذا لم يخرج منه حتى أصبح الدخان يسبب له السعال، عندها فقط سمح لنفسه بالخروج بسرعة من الغرفة متجهًا إلى الباب الخلفي. التف بعد أن أصبح أمام المنزل وهرول عائدًا إلى المقر راضيًا بخروج النار عن السيطرة، ولن يبلغ الإطفائية عنها بالتأكيد.

عاد كل الاثنا عشر رجلًا إلى المقر في أوقاتٍ مختلفة، ولم يجتمعوا معًا كوحدة مرة ثانية إلا حينما التقوا في حانتهم الخاصة للشرب في ذلك المساء، وقد انضم إليهم الكولونيل لاحقًا على العشاء.

وقف مدير مكتب مجلس الوزراء قرب نافذه مكتبه في الطابق الأول وانتظر حتى رأى جايلز بارينغتون يخرج وينطلق على طريق داونينغ باتجاه وايتهول، قبل أن يعود مجددًا ويجلس في مكتبه مفكرًا في مكالمته القادمة، وكمية المعلومات التي سيكشفها فيها.

كان هاري كليفتون في المطبخ حين رن الهاتف، وعندما أجاب عليه سمع الكلمات التالية "لديك اتصال من 10 داونينغ ستريت، هل من الممكن أن تنتظر على الخط من فضلك؟". رجح أنه سيكون غالبًا رئيس مجلس الوزراء يتصل من أجل إيما، لكنه لم يكن يتذكر إن كانت في المستشفى أو تترأس لقاءً في قصر بارينغتون. قال الرجل: "صباح الخير سيد كليفتون، أنا آلان ريدمين. هل اتصالي في وقتٍ جيد؟".

كاد هاري أن يضحك بصوتٍ عالٍ، فقد أغراه أن يجيب: لا يا سير آلان، ليس وقتًا جيدًا. فأنا في

المطبخ أعد لنفسي فنجان قهوة ولا أستطيع أخذ قرار إن كنت سأضع فيه مكعب سكر واحدًا أو اثنين، لذا ربما يمكنك الاتصال في وقتٍ لاحق؟ ولكن بدلًا عن ذلك أطفأ الغلاية وقال: "بالطبع يا سير آلان، كيف يمكنني مساعدتك؟".

"أردتك أن تكون أول من يعلم أن جون بينغلي لم يعد مشكلة بعد اليوم، ومع أنك قد أبقيت في الظلام حول هذا الموضوع ولكن عليك أن تعرف أن مخاوفك حول كارين براندت لم تكن مبررة حتى لو كان من الممكن تفهمها. لم يكن بينغلي والدها، وقد كانت من أكثر العملاء الذين نثق بهم. أما الآن وبعد أن أزحنا بينغلي عن طريقنا، فستترك العمل، ولن يكون لدينا أي خطط لعودتها".

رجح هاري أن جملة *لم يعد مشكلة* تعني أنهم قد تخلصوا من بينغلي. وعلى الرغم من أنه كان يمتلك عدة أسئلة يرغب بطرحها على مدير مكتب رئيس مجلس الوزراء، لكنه بقي صامتًا. فالرجل الذي يخفي أسرارًا عن رئيس الوزراء لم يكن من المرجح أنه سيجيب عن أسئلته. وقال بدلًا عن ذلك: "شكرًا لك يا سير آلان. هل هناك شيء آخر عليَ أن أعرف به؟".

"أجل. فإن زوج أختك قد اكتشف للتو الحقيقة حول زوجته، ولكن اللورد بارينغتون لا يعلم أنه أنت من دلنا إلى بينغلي في الأساس، وبصراحة أتمنى ألا يعلم أبدًا".

"ولكن ماذا أخبره إن أتى على ذكر الأمر؟".

"لا داعي لأن تقول أي شيء، فبكل الأحوال هو لا يملك أي سبب يدفعه للشك بأنك التقيت بأحد يحمل اسم بينغلي حين كنت في موسكو، وأنا بالتأكيد لم أخبره بأمر كهذا".

"شكرًا لك يا سير آلان. كان كرمًا منك أن تطلعني على ذلك".

"لا عليك. وقبل أن أنسى، مبارك لك".

"شكرًا لك".

بعد أن خرج جايلز من مقر رئيس الوزراء- الرقم عشرة-، عاد إلى منزله في سميث سكوير مسرعًا. كان مرتاحًا لأنه يوم عطلة ماركهام، وبعد أن فتح الباب صعد مباشرة إلى غرفة نومه. أشعل المصباح الموجود إلى جانب سريره وأغلق الستائر ثم رفع غطاء السرير. ومع أن الساعة لم تتجاوز السادسة مساءً بعد، لكن أنوار سميث سكوير كانت تضيء الشارع.

كان عند منتصف الدرج حين سمع جرس الباب، فهرع إليه وفتحه ليرى أمامه شابًا واقفًا على العتبة وخلفه سيارة سوداء لا تحمل لوحة عليها وقد فُتحت أبوابها الخلفية. مد الرجل يده قائلًا: "أنا الطبيب ويدين، أعتقد أنك كنت تتوقع وصولنا؟".

أجاب جايلز وقد رأى رجلين يخرجان من الشاحنة ومعهما حمالة: "أجل، هذا صحيح، اتبعوني". وقادهم إلى الطابق العلوي وإلى غرفة النوم.

حمل المسعفان المرأة الغائبة عن الوعي عن الحمالة ووضعاها على السرير، ثم وضع جايلز البطانية فوق زوجته في حين خرج المسعفان من دون أي كلمة.

تفقد الطبيب نبضها وقال: "لقد أعطيتها مهدئًا لذا ستبقى نائمة لعدة ساعات، وحين تستيقظ ستظن لأول وهلة أن الأمر برمته مجرد كابوس، ولكن بعد بعض الوقت وعندما تتعرف إلى محيطها ستتذكر كل شيء تمامًا، وستتساءل حتمًا عن الذي تعرفه حول الأمر لذا أنت لا تملك الكثير من الوقت للتفكير

في ذلك".

قال جايلز: "لقد فكرت بذلك مسبقًا". ثم رافق الطبيب ويدين إلى أسفل الدرج وفتح له الباب الأمامي، حيث تصافح الرجلان مرة ثانية قبل أن يعود الطبيب ويجلس في المقعد الأمامي للسيارة السوداء من دون أن يقول أي شيء إضافي. تحركت السيارة المجهولة، وسارت ببطء ملتفة حول سميث سكوير قبل أن تنعطف يمينًا وتنضم إلى حركة المرور المسائية الخانقة. أغلق جايلز الباب بعد أن اختفت الشاحنة عن نظره، وعاد إلى الطابق العلوي، ثم سحب كرسيًا وجلس إلى جانب زوجته النائمة.

لا بد أنه قد غط في النوم لأنه حين فتح عينيه رأى كارين جالسة على السرير وتحدق إليه، رمش بعينيه عدة مرات قبل أن يبتسم ويحضنها. ثم قال: "لقد انتهى كل شيء يا عزيزتي، أنت بأمان الآن".

أجابت كارين وهي تحضنه بقوة: "كنت أعتقد أنك لن تسامحني أبدًا إن اكتشفت الحقيقة".

"لا يوجد شيء لمسامحته. دعينا ننسَ الماضي ولنركز فقط على المستقبل".

قالت كارين: "ولكنني أريدك أن تعرف بشأن كل شيء. لا مزيد من الأسرار".

قال جايلز محاولًا طمأنتها: "لقد أطلعني آلان ريدمين على الأمر برمته بالفعل".

تركته كارين وقالت: "ليس برمته، فحتى هو لا يعرف كل شيء وأنا لا يمكنني الاستمرار بالعيش في كذبة". نظر إليها جايلز بقلق قبل أن تتابع: "الحقيقة هي أنني أعددت أن أخرج من ألمانيا. أجل، لقد كنت معجبة بك، ولكنني كنت عازمة على الهروب منك ومن بينغلي بعد أن أصبح امنة في بريطانيا، ثم أبدأ بعدها حياة جديدة. وقد كنت

سأفعل ذلك لو أني لم أقع في حبك. ولكن حتى أتمكن من الاحتفاظ بك كان عليَ أن أجعل بينغلي يصدق أني لا أزال أعمل لديه. سينثيا فوربس واتسون هي من أنقذتني".

قال جايلز: "وأنا أيضًا. ولكن في حالتي كنت قد وقعت في حبك بعد الليلة التي قضيناها معًا في برلين. لم يكن خطأي أنك استغرقت وقتًا أطول لتدركي كم أنك محظوظة".

انفجرت كارين بالضحك ولفت ذراعيها بقوة حوله، ثم قال جايلز بعد أن تركته: "سأذهب وأعد لك فنجانًا من الشاي". شاهدته كارين وهو يخرج معتقدة بأنه تصرف بريطاني بحت.

2

سألت إيما مبتسمة: "في أي وقت من المفترض أن نلتقي بجلالتها؟"، غير راغبة بالاعتراف بفخرها الشديد بزوجها، أو بمقدار تشوقها لتلك المناسبة على عكس اجتماع مجلس الإدارة الذي ستترأسه الأسبوع القادم، والذي كان نادرًا ما يغادر تفكيرها.

قال هاري، متحققًا من بطاقة دعوته: "سيكون في أي وقت بين العاشرة والحادية عشرة".

"هل تذكرت أن تستأجر السيارة؟".

قال: "أجل، بعد ظهر البارحة. ولقد تحققت من الأمر فور استيقاظي صباحًا".

رن جرس الباب الأمامي وقالت إيما: "لا بد أن هذا سيب". ثم نظرت إلى ساعتها.

"وهو على الوقت المحدد على غير العادة".

قالت كارين: "لا أعتقد أنه كان سيتأخر أبدًا عن هذه المناسبة".

نهض جايلز من مكانه على طاولة الفطور في حين فتح ماركهام الباب ووقف جانبًا ليسمح لجيسيكا وسيب وسامانثا الحامل بالانضمام إليهم.

سأل جايلز وهو يُقبل سامانثا على خدها: "هل تناولتم الفطور؟".

أجاب سيب: "أجل، شكرًا لك". بينما جلست جيسيكا إلى الطاولة ووضعت بعض الزبدة على قطعة خبر وأمسكت بمرطبان مربى البرتقال.

قال هاري مبتسمًا على تصرف حفيدته: "من الواضح أنكم لم تتناولوا الفطور كلكم".

سألت جيسيكا بين اللقمات: "كم من الوقت لديَ؟".

أجابتها إيما بصرامة عندما وضعت جيسيكا الزبدة

على قطعة خبز أخرى: "خمس دقائق على أكثر تقدير، فأنا لا أريد أن أصل إلى القصر متأخرة دقيقة واحدة عن العاشرة ونصف أيتها الشابة".

قالت إيما وهي تلتفت إلى أخيها: "جايلز، إنه من اللطف منك أن تفعل هذا من أجلنا وتختارنا للذهاب بدلًا منك في هذه الليلة، وأنا آسفة فقط لعدم قدرتك على الانضمام إلينا".

قال جايلز: "العائلة المقربة أولًا، تلك هي القاعدة. وإلا بصراحة كان سيحتاج الأمر إلى ملعب كرة لاستيعاب كل الذين يرغبون بالحضور".

كان هناك قرع خفيف على الباب الأمامي.

قالت إيما: "هذا بالتأكيد سائقنا". تحققت مجددًا من أن ربطة عنق هاري الحريرية مستقيمة وأزالت شعرة رمادية عن بذلته الصباحية قبل أن تقول: "اتبعوني".

همس جايلز بينما رافق زوج أخته إلى الباب الأمامي: "من كان يومًا رئيسًا فسيبقى رئيسًا دومًا". تبعهما سيب وسامانثا، ولحقت بهم جيسيكا، وهي تمضغ قطعة الخبز الثالثة لها.

خرجت إيما من المنزل إلى سميث سكوير لترى السائق يفتح الباب الخلفي لسيارة الليموزين السوداء، فأشارت للجميع بالركوب قبل أن تنضم إلى هاري وجيسيكا في المقعد الخلفي، في حين جلس سيب وسامانثا على المقعد المقابل لهما.

سألت جيسيكا بعد أن بدأت السيارة بالتحرك ودخلت في زحمة السير: "هل أنت متوتر يا جدي؟".

أجابها هاري: "لا، إلا إن كنت تخططين للإطاحة بالولاية".

قال سيباستيان: "لا تضع في رأسها أفكارًا كهذه".

تحركت السيارة قاطعة مبنى البرلمان ودخلت ساحته، وحتى جيسيكا صمتت حين عبروا الأميرالية البحرية ليظهر أمامهم قصر بكنغهام. أكمل السائق طريقه ببطء على طريق ذا مول، ملتفًا حول تمثال الملكة فيكتوريا، قبل أن يقف أخيرًا أمام بوابة القصر، ثم أنزل زجاج شباكه وقال لضابط الحرس الشاب: "السيد هاري كليفتون وعائلته".

ابتسم الحارس وأزال الاسم عن قائمته، ثم قال: "قُد السيارة عبر الممر إلى يسارك وهناك سيدلك أحد زملائي على المكان الذي ستركنها فيه".

اتبع السائق تعليماته ودخل إلى فناء ضخم، حيث كانت صفوفٌ وصفوفٌ من السيارات قد ركنت فيه. قال ضابط ثانٍ مشيرًا إلى الجهة الأخرى من الفناء: "من فضلك أركن السيارة على الطرف إلى جانب سيارة الفورد الزرقاء، ثم يستطيع مرافقوك التوجه إلى القصر".

نظرت إيما إلى هاري حين خرج من السيارة نظرة تحقق أخيرة ثم همست له: "أعلم أنك لن تصدق هذا، ولكن سحاب بنطالك مفتوح".

احمر هاري خجلًا وأغلق سحابه قبل أن يصعدوا الدرج ويدخلوا إلى القصر. كان هناك اثنان من الخدم يقفان متأهبين مرتديين زيهما الملكي الرسمي بلونيه الأحمر والذهبي، ليحددا بداية الدرج الواسع المغطى بسجادة حمراء. صعد هاري وإيما الدرجات ببطء محاولين استيعاب كل شيء، وعندما وصلوا إلى الأعلى رحب بهم رجلان آخران من ضباط البلاط، ولاحظ هاري أن رتبة الأشخاص كانت تعلو كلما توغلوا، ثم سبقهم بالقول: "هاري كليفتون".

قال الضابط الأعلى رتبة: "صباح الخير سيد كليفتون. هل بإمكانك أن تتفضل وترافقني؟ سيوصل زميلي عائلتك إلى غرفة العرش".

همست له إيما قبل أن يذهب: "حظًا جيدًا".

صعت بقية العائلة درجًا آخر أصغر حجمًا من سابقه أوصلهم إلى معرض لوحات كبير. توقفت إيما عندما دخلوا إلى غرفة ذات سقف عالٍ، ونظرت إلى صفوف من اللوحات لم ترها إلا في كتب الفن معلقة قرب بعضها البعض، ثم التفتت إلى سامانثا قائلة: "بما أنني أشك أنهم سيدعوننا إلى هنا مرة ثانية، اعتقد أن جيسيكا سترغب في معرفة المزيد حول المجموعة الملكية".

قال سيباستيان: "وأنا أيضًا".

استهلت سامانثا حديثها قائلة: العديد من ملوك وملكات إنكلترا متذوقو وجامعو تحفٍ وقطعٍ فنية، لذا هذه مجرد مجموعة صغيرة منتقاة من المجموعة الملكية، التي في الحقيقة ليست للملكة بل تعود للمملكة كلها. ستلاحظون أن التركيز في هذا المعرض على لوحات الفنانين البريطانيين في فترة بدايات القرن التاسع عشر، وقد عُلقت لوحة لمدينة البندقية تعود للفنان ترنر مقابلة للوحة بديعة لكاتدرائية لينكولن التي تعود لنده الفنان كونستابل. ولكن كما ترون، فقد طغت على المعرض بشكل عام لوحة كبيرة لتشارلز الثاني ممتطيًا صهوة جواده، وقد رسم هذه اللوحة الفنان فان ديك في الفترة التي عاش فيها هنا".

أصبحت جيسيكا مفتونة جدًا بالمكان لدرجة أنها كادت أن تنسى سبب وجودهم هنا. عندما وصلوا أخيرًا إلى غرفة العرش، ندمت إيما لعدم قدومهم في وقتٍ أبكر، فقد كان أول صفين من الكراسي

ممتلئين تمامًا، لذا مشت بسرعة عبر الممر في المنتصف وأخذت مكانًا على طرف أول صف متاح ثم انتظرت بقية عائلتها لينضموا إليها، وبعد أن جلس الجميع بدأت جيسيكا في تفحص المكان بانتباه. كان هناك أكثر من ثلاثمائة كرسي ذهبي مرتبة في ستة عشر صفًا، ويفصل بينهم ممر واسع، أما أمام الغرفة فقد كان هناك درجة تغطيها سجادة حمراء تؤدي إلى العرش الكبير الفارغ الذي كان بانتظار مالكه الشرعي.

هدأت أصوات المحادثات والدردشة عند الساعة الحادية عشرة إلا ست دقائق عندما دخل الغرفة رجلٌ طويل وأنيق في بذلة رسمية، ثم توقف أمام درجة العرش والتف ليواجه الحضور قائلًا: "صباح الخير سيداتي وسادتي، ومرحبًا بكم في قصر بكنغهام. سيبدأ حفل التنصيب خلال عدة دقائق. هل يمكنني تذكيركم بضرورة عدم التقاط أي صور، وأرجوكم لا تغادروا قبل انتهاء المراسم". ثم خرج بالرصانة نفسها التي دخل بها ومن دون أن ينطق بأي كلمة أخرى.

فتحت جيسيكا حقيبتها وأخرجت منها ورقة صغيرة وقلم رصاص هامسة لجدتها: "هو لم يقل أي شيء عن الرسم يا جدتي".

عندما دقت الساعة الحادية عشرة تمامًا، دخلت جلالة الملكة إليزابيث الثانية إلى غرفة العرش، فوقف كل المدعوين احترامًا لها، ثم أخذت مكانها فوق الدرجة أمام العرش لكنها لم تتكلم، بل أومأ المرشد المساعد برأسه دلالة ليدخل أول مستلم لمرتبة الشرف. وخلال الساعة القادمة استلم رجال ونساء من مختلف مناطق المملكة المتحدة مرتبة الشرف من ملكتهم، التي تحدثت بشكل موجز مع

كل واحد منهم قبل أن يومئ المرشد مجددًا ليأتي المستلم الآخر.

كان قلم جيسيكا مستعدًا وجاهزًا حين دخل جدها الغرفة. وبينما كان يمشي باتجاه الملكة وضع المرشد مقعدًا صغيرًا أمام جلالتها ثم سلمها السيف. لم يهدأ قلم جيسيكا للحظة واحدة خلال كل هذا، محاولةً احتواء المشهد في حين ركع هاري على ركبة واحدة حانيًا رأسه، ووضعت الملكة طرف السيف بلطفٍ على كتفه اليمنى، ثم رفعته ووضعته على كتفه اليسرى، قبل أن تقول: "انهض، سير هاري".

سألته ريبيكا بعد أن خرجوا من القصر متوجهين لأخذ هاري إلى مطعمه المفضل: "حسنًا ماذا حدث بعد أن أخذوك إلى برج ذا تاور؟".

"في البداية أخذونا جميعًا إلى غرفة انتظار حيث ساعدنا المرشد خلال المراسم، لقد كان مهذبًا جدًا واقترح علينا أن نحني رؤوسنا بدءًا من العنق عندما نقابل الملكة". ثم قلد هاري حركته حينها قبل أن يتابع كلامه: "وليس من الخصر كالخدم، وأخبرنا أنه لا يجب علينا أن نصافح الملكة، وأنه علينا أن ندعوها بصاحبة الجلالة، وأن ننتظرها لتبدأ هي الحديث، كما أنه من الممنوع تحت أي ظرف كان أن نسألها بشأن أي شيء".

قالت جيسيكا: "كم هذا ممل. فلديَ الكثير من الأمور التي أرغب بسؤالها عنها".

قال هاري متجاهلًا حفيدته: "نبهنا أيضًا بضرورة إضافة كلمة سيدتي عند الإجابة عن أي أسئلة قد تسألنا إياها، وأن علينا الانحناء مجددًا بعد انتهاء المراسم".

قالت جيسيكا: "من العنق".

"ثم نغادر الغرفة".

سألت جيسيكا: "ولكن ما الذي يمكن أن يحدث إن لم تغادر، وبدأت تطرح الأسئلة؟".

"طمأننا الرجل بلطف شديد أنه إن استغرقنا وقتًا أكثر من اللازم، فإنه يملك تعليمات تقتضي بقطع رؤوسنا".

ضحك الجميع على كلامه عدا جيسيكا التي قالت بإصرار: "كنت سأرفض أن أنحني لها أو أن أدعوها بصاحبة الجلالة".

قال سيباستيان محاولًا إعادة المحادثة إلى وضع آمن: "إن جلالتها لديها صبر كبير للمتمردين، وتتقبل أن الأميركيين خارجون عن السيطرة منذ 1776".

سألت إيما: "حسنًا ما الذي تحدثتما بشأنه؟".

"أخبرتني كم أنها استمتعت برواياتي، وسألتني إن سيكون هناك كتاب آخر لويليام وورويك في عيد الميلاد هذا. أجبتها، بالتأكيد يا سيدتي، ولكنني أخشى أنك لن تستمتعي بكتابي القادم، فأنا أفكر بقتل ويليام".

سأل سيباستيان: "وما كان رأيها بتلك الفكرة؟".

"أخبرتني بما قالته جدة جدة جدتها، الملكة فيكتوريا للويس كارول بعد أن قرأت كتابه أليس في بلاد العجائب. لكنني طمأنتها بأن كتابي القادم لن يكون نظرية رياضية كالعالم أوسليد".

سألت سامانثا: "وبماذا ردت؟".

"ابتسمت لي، لتفهمني أن المحادثة قد انتهت".

سأل سيباستيان حين توقفت السيارة أمام المطعم: "حسنًا، إن كنت ستقتل ويليام وورويك، ماذا سيكون موضوع كتابك القادم؟".

أجابه هاري وهو يخرج من السيارة: "لقد وعدت

جدتك مرة بأني سأحاول أن أكتب شيئًا جوهريًا ضخمًا سيتجاوز بحسب قولها أعلى المبيعات ويخلد في التاريخ. إنني أتقدم بالعمر، لذا بعد أن أنهي عقدي الحالي أعتزم محاولة اكتشاف إن كان بإمكاني الارتقاء إلى توقعاتها".

سأل سيب حين دخلوا إلى مطعم لو كابرايس: "هل لديك أي فكرة، أو موضوع أو حتى عنوان؟".

أجابه هاري: "أجل، أجل، وأجل، لكن هذا كل ما سأخبرك به الآن".

سألته جيسيكا وهي تريه لوحة بقلم الرصاص لهاري وهو منحنٍ أمام الملكة مع سيفٍ يلامس كتفه اليمنى: "ولكنك ستخبرني أنا، أليس كذلك يا جدي؟".

أطلق هاري شهقة متفاجئًا في حين ابتسمت بقية العائلة مصفقة، وكان على وشك الإجابة عن سؤالها حين أتى النادل لإنقاذه قائلًا: إن طاولتك جاهزة سير هاري".

3

قالت إيما: "أبدًا، أبدًا، أبدًا. هل عليَ تذكيرك أن السير جوشوا أسس شركة بارينغتون شيبينغ في 1839، وجنى أرباحًا في سنته الأولى تقدر بـ".

قاطعها سيباستيان: "ثلاثة وثلاثين جنيهًا وأربعة شيلنات وبنس، وقد أخبرتني بهذا عندما كنت في الخامسة من عمري. ولكن الحقيقة هي أنه، ومع أن شركة بارينغتون استطاعت أن تجني أرباحًا معقولة لمالكي الأسهم لديها في السنة الفائتة، إلا أن الأمر يصبح أصعب فأصعب علينا لتحدي الشركات الكبيرة مثل كونارد وبي وأو".

"أتساءل ما الذي كان سيظنه جدك حول الاستيلاء على شركة بارينغتون من قبل أحد أشرس منافسيه".

قال سيب وهو ينظر إلى لوحة تجسد السير والتر معلقة على الحائط خلف والدته: "بعد كل ما قرأته أو قيل لي عن الرجل العظيم، كان سيدرس خياراته ويفكر بما هو أفضل لمالكي الأسهم لديه وموظفيه قبل أن يتخذ قرارًا نهائيًا".

تدخل الأدميرال سامرز: "مع أني لا أرغب بمقاطعة هذا النقاش العائلي، ولكن لا شك أن ما علينا مناقشته هو إن كان عرض كونارد يستحق المخاطرة".

قال سيباستيان بصراحة: "إنه عرضٌ عادل. لكنني واثق أن بإمكاني دفعهم لرفع عرضهم بنسبة عشرة بالمئة على الأقل، وحتى لخمسة عشر بالمئة أيضًا، وهذا بصراحة أكثر ما يمكننا تمنيه. حسنًا، كل ما علينا تقريره حقًا هو إن كنا نرغب بأخذ عرضهم على محمل الجد، أو رفضه تمامًا".

عقبت إيما منقلة نظرها حول الطاولة: "في هذه الحالة، ربما حان الوقت لنستمع إلى آراء زملائنا المدراء".

قال فيليب ويبستر، أمين سر الشركة: "بالطبع، بإمكاننا جميعًا أن نعبّر عن رأينا أيتها الرئيسة في هذا الأمر الذي هو بلا شك أهم قرار في تاريخ هذه الشركة على الإطلاق، ولكن وبما أن عائلتك تمتلك غالبية الأسهم، فأنت وحدك من يمتلك القرار النهائي".

أوما المديرون الآخرون برؤوسهم موافقين كلامه، ولكن ذلك لم يمنعهم من الإدلاء برأيهم لأربعين دقيقة متواصلة اكتشفت إيما خلالها أنهم كانوا مقسومي الآراء بالتساوي. وقالت بعد أن بدأ واحدٌ أو اثنان من المديرين بتكرار كلامهم: "حسنًا. كلايف، أقترح أن تجهز بيانين صحفيين لنقدمهما إلى المجلس التنفيذي، باعتبارك رئيس قسم العلاقات العامة لدينا. اجعل أحدهما قصيرًا ومباشرًا، توضح فيه لشركة كونارد أنه، ومع أننا نشعر بالإطراء من عرضهم، إلا أن بارينغتون شيبينغ هي شركة عائلية وليست للبيع".

بدا الأدميرال سعيدًا بذلك، في حين بقي سيباستيان دون أي تعبير على وجهه. سأل كلايف بينغهام، بعد أن كتب كلمات الرئيسة: "وماذا عن التصريح الثاني؟".

"يرفض المجلس عرض كونارد، وبما يتعلق بنا الأمر محض عمل كالعادة".

قال سيب محذرًا: "هذا سيؤدي بهم للاعتقاد بأننا مهتمون بالأمر إن كان السعر مناسبًا".

سأل الأدميرال: "وماذا سيحدث عندها؟".

أجاب سيب: "سترفع الستائر، ومن ثم تبدأ

المسرحية، لأن رئيس كونارد سيكون على معرفة بأن السيدة التي في القيادة لا تفعل شيئًا سوى إيقاع منديلها على الأرض متوقعة أن العشيق سيلتقطه ويبدأ عملية التودد القديمة التي من الممكن أن تنتهي بمقترحٍ قد ترضى به".

سألت إيما: "كم نمتلك من الوقت؟".

"ستكون ذا سيتي على علمٍ بأننا نعقد اجتماعًا لمجلس الإدارة لمناقشة هذا العرض، وستتوقع جوابًا لكونارد في نهاية يوم العمل هذا. يستطيع سوق العمل تحمل أي شيء تقريبًا من فترات الجفاف والمجاعات إلى نتائج الانتخابات غير المتوقعة وحتى الانقلاب، ولكنه لا يستطيع تحمل التردد".

فتحت إيما حقيبتها وأخرجت منديلها، ثم رمته على الأرض.

سأل هاري: "ما كان رأيك حول تلك الموعظة؟".

قالت إيما وهم يخرجون من ساحة الكنيسة قبل أن يعودوا إلى مانور هاوس: "مثيرة للاهتمام، ولكن بكل الأحوال فإن الريفيريند دودزويل تلقي دائمًا مواعظ جيدة".

قال هاري: "كنت لأناقش آراءه حول توماس المرتاب، إن ظننت أنك ستستمعين لكلمة من الحديث".

اعترضت إيما على كلامه: "أنني أجد مقاربته مُبهرة".

"لا، أنت لا تفعلين. فهو لم يذكر قصة توماس المرتاب أصلًا، ولن أحرجك أكثر بسؤالك عن الموضوع الذي كان يعظ عنه. أنا امل فقط أن الرب سيتفهم انشغالك عنه بموضوع الاستيلاء المحتمل

على الشركة".

تابعا مسيرهما لعدة ياردات في صمت قبل أن تقول إيما: "ليس الاستيلاء على الشركة هو ما يقلقني". ثم أمسكت بيده.

سأل هاري متفاجئًا: "حسنًا، ما هو إذن؟ أهو بذلك السوء؟".

"لقد عادت ذا ميبل ليف إلى بريستول وهي الآن في ساحة التحطيم. ستبدأ أعمال التدمير يوم الثلاثاء".

أكملا مسيرهما لمسافة قصيرة قبل أن يسأل هاري: "ما الذي تريدين فعله حيال ذلك؟".

"لا أعتقد أننا نملك خيارًا، فإن لم نكن نرغب في قضاء بقية حياتنا نتساءل...".

"ومن الممكن أن يجيب ذلك أخيرًا عن السؤال الذي أعاقنا كل حياتنا. لذا لم لا تجربين وتكتشفين إن كان هناك أي شيء في أسفل السفينة من دون أن يعرف أحدٌ بذلك".

قالت إيما: "يمكن للعمل أن يبدأ على الفور، لكنني لم أرضَ بإعطاء الأمر بالمباشرة فيه قبل أن أحصل على مباركتك".

كان كلايف بينغهام مغتبطًا حين طلبت منه إيما الانضمام إلى مجلس شركة بارينغتون شيبينغ، ومع أنه لم يكن من السهل عليه أخذ مكان والده في الإدارة، إلا أنه شعر أن الشركة قد استفادت من خبراته ومهارته في مجال العلاقات العامة، رغم أنه لم يكن متمكنًا تمامًا منها عند استلامه للعمل. ولكن حتى مع مهاراته، لم يكن يعلم ماذا كان سيظنه السير والتر بارينغتون حول انضمام رجل علاقات عامة إلى المجلس، فالأمر تمامًا بمثابة دعوة تاجر

إلى العشاء.

كان كلايف يرأس شركته الخاصة للعلاقات العامة في ذا سيتي، التي تحوي أحد عشر عاملًا وقد تعرضت لعدة محاولات استيلاء في السابق. ولكنه قد اعترف لسيب أنه قلق هذه المرة.

سأل سيب: "لماذا؟ فليس هناك شيء غريب في الاستيلاء على الشركات العائلية، فالأمر يحدث كثيرًا مؤخرًا".

قال كلايف: "أوافقك الرأي، لكن الأمر شخصي هذه المرة، فقد امتلكت والدتك الثقة لتدعوني للانضمام إلى المجلس بعد أن استقال والدي، وبصراحة ليس الأمر وكأنني أوجز مقالات المجلات التجارية عن خبر طريق شحنٍ جديد

إلى الباهاماس، أو عن أجدد مكيدة ولاء، أو أي شيء مهم. لذا إن أفسدت هذا الأمر...".

قال سيب: "كانت بياناتك حتى الآن ممتازة، وآخر عرضٍ لكونارد على وشك الوصول. نحن نعلم ذلك، وهم يعلمون ذلك، لذا لم تكن تستطيع أن تؤدي عملك باحترافية أكثر".

"لطفٌ منك أن تقول هذا يا سيب، لكنني أشعر وكأنني أقترب من خط النهاية. فبإمكاني رؤية الشريط ولكن ما يزال أمامي عقبة واحدة".

"وستتجاوزها بأسلوب مميز".

تردد كلايف للحظة قبل أن يتكلم مجددًا: "لست مقتنعًا بأن والدتك ترغب حقًا بالمضي قدمًا في هذا".

قال سيب: "قد تكون محقًا، ولكن بكل الأحوال هناك تعويض لها ربما لم تفكر فيه".

"وما هو؟".

"هي تصبح منخرطة أكثر يومًا بعد يوم في عملها رئيسة للمستشفى، والذي يوظف أناسًا أكثر، وله ميزانية أكبر وأكثر أهمية من شركة بارينغتون شيبينغ، فلا أحد يمكنه الاستيلاء عليه".

"ولكن ما هو شعور جايلز وغريس؟ ففي النهاية هما يمتلكان معظم الأسهم".

"تركا القرار الأخير لها، وأعتقد أن هذا هو السبب وراء سؤالها لي عن رأيي في الأمر. وأنا لم أترك لها مجالًا للشك أبدًا في أنني رجل مصرفي بطبيعتي ولا علاقة لي بأمور الشحن، وأفضل أن أكون رئيسًا لفارثينغزز كوفمان من كوني رئيسًا لشركة بارينغتون. أنا متأكد أن الأمر لم يكن سهلًا بالنسبة إليها، ولكنها تقبلت أخيرًا حقيقة أنه لا يمكنني أن أفعل الشيئين معًا، فيا ليت كان لدي أخٌ أصغر".

قال كلايف: "أو أخت".

"هسسس... قد تبدأ جيسيكا بأخذ أفكار".

"لكنها في الثالثة عشرة فقط".

"لا أعتقد أن ذلك سيقلقها".

"هل تتكيف جيدًا في مدرستها الجديدة؟".

"اعترفت مدرّسة الفن خاصتها أنها تنشر خبر مجيء فنانة في سنتها الثالثة أفضل منها إلى المدرسة، قبل أن يصبح الأمر واضحًا".

عندما عادت إيما من ساحة التحطيم في وقتٍ متأخر من مساء الاثنين، كانت تعلم أن عليها إخبار هاري بالذي عثر عليه فرانك غيبسون وفريقه عندما فتشوا داخل ذا ميبل ليف.

قالت وهي تجلس مقابل هاري: "اتضح أنه كان ما نخشاه تمامًا، بل أسوأ".

كرر هاري: "أسوأ".

طأطأت رأسها قائلة: "حفر آرثر رسالة على أحد جدران الغرفة السفلية".

قال هاري ممسكًا بيدها: "ليس عليك إخباري".

"بلى عليَ ذلك، وإلا سنتابع العيش في كذبة لبقية حياتنا". ثم صمتت إيما قليلًا قبل أن تكمل كلامها باكية: "لقد كتب (كان ستان محقًا. كان السير هوغو يعلم أنني محتجز هنا).. حسنًا هذا يعني أن والدي قد قتل والدك".

لم يقل هاري شيئًا لبعض الوقت قبل أن يتكلم أخيرًا: "من غير الممكن أن نتأكد إن كان هذا الأمر صحيحًا، وربما يا عزيزتي، من الأفضل إن لم...".

"أنا لا أريد أن أعرف بعد الآن، ولكن الرجل المسكين يستحق على الأقل دفنًا مسيحيًا، لم تكن والدتك لترضى بأقل من ذلك".

"حسنًا سأتكلم مع الكاهن".

"من عليه أن يكون هناك أيضًا؟".

قال هاري من دون تردد: "فقط نحن الاثنان. لن نكسب شيئًا من وضع سيب وجيسيكا في ألمِ اضطررنا نحن للمعاناة منه لسنوات عديدة. فلندعْ أن تكون هذه هي نهاية الأمر".

نظرت إيما إلى زوجها: "يبدو أنك لم تسمع بالتأكيد عن علماء جامعة كامبريدج الذين يعملون على شيء يسمى الحمض النووي".

***

أوشكنا على الوصول

يقول المتحدث الرسمي لشركة بارينغتون.

قال كلايف عندما قرأ العنوان الرئيسي لصحيفة ذا فاينانشال تايمز: "اللعنة كيف كان كنت أحمق إلى

هذه الدرجة؟".

قال سيب: "توقف عن لوم نفسك. الحقيقة هي أننا أوشكنا على الوصول".

قال كلايف: "كلانا نعلم هذا، ولكن لم يكن هناك داع لتكتشف كونارد الأمر".

قال سيب: "كانوا يعلمون بالأمر بالفعل قبل أن يروا العنوان الرئيسي بفترة طويلة. بصراحة، سنكون محظوظين إن استطعنا الحصول منهم على أكثر من نقطة مئوية من هذه الصفقة. أعتقد أنهم وصلوا إلى حدودهم".

قال كلايف: "وعلى الرغم من ذلك، لن تكون أمك راضية تمامًا، ومن يمكنه لومها؟".

"ستفترض أن هذا كله جزء من المرحلة النهائية، ولن أكون أنا الشخص الذي ينبهها".

"شكرًا على المساعدة يا سيب، أنا أقدرها حقًا".

"هذا ليس أكثر مما قدمته لي عندما عيّن شاب من الطبقة الغنية نفسه رئيسًا لفارثينغزز، ثم طردني في اليوم التالي. هل نسيت أن كوفمان هو البنك الوحيد الذي قدّم لي عملًا؟ وعلى أي حال، ربما ستسعد أمي أصلًا بالعنوان الرئيسي".

"ماذا تقصد؟".

"ما زلت غير مقتنع أنها تريد لهذا الاستيلاء أن ينجح".

***

سألت إيما بعد أن قرأت المقال: "هل سيضر هذا بعملية الاستيلاء؟".

قال سيب: "من الممكن أن نضطر للتضحية بنقطة، وربما اثنتين".

"لكن لا تنس كلمات سيدريك هاردكاسل الحكيمة

عن موضوع عمليات الشراء. إذا خرجت بأفضل مما كنت تتوقعه، مع شعور الطرف الاخر بأنهم حصلوا على الأفضل في الصفقة، عندها يغادر الجميع الطاولة سعداء".

"كيف تظن أن ردَ فعل جايلز وغريس ستكون؟".

"يقضي جايلز معظم وقت فراغه يتجول في البلد ذهابًا وإيابًا، زائرًا المقاعد الهامشية ومتمسكًا بأمل إمكانية العمال بالفوز بالانتخابات القادمة. لأنه إذا أصبحت مارغريت تاتشر رئيسة وزرائنا، ربما لن يشغل المنصب مجددًا أبدًا".

"ماذا عن غريس؟".

"لا أظن أنها قرأت ذا فاينانشال تايمز في حياتها، وبالتأكيد لن تعلم ماذا ستفعل إن أعطيتها شيئًا بعشرين مليون جنيه، متذكرة أن راتبها الحالي هو عشرون ألفًا في السنة".

"سوف تحتاج مساعدتك ونصيحتك يا سيب".

"اطمئني يا أمي، سيستثمر فارثينغزز كوفمان رأسمال الدكتورة بارينغتون بشكل حكيم، وهم على علم بأنها ستتقاعد بعد عدة سنوات، متمنية دخلًا منتظمًا ومكانًا للعيش".

قالت إيما: "يمكنها أن تأتي للعيش معنا في سومريست، فسيلائمها قصر مايسي القديم بشكل ممتاز".

قال سيب: "لن يسمح لها كبرياؤها بذلك، وأنت تعلمين هذا يا أمي. في الواقع، أخبرتني بالفعل أنها تبحث عن مكان في كامبريدج لتكون قرب أصدقائها".

"ولكن حالما يتم الاستيلاء، سيكون لديها ما يكفي من المال لشراء قصر".

قال سيب: "برأيي، سينتهي بها الأمر في منزل صغير ذي شرفة ليس ببعيد عن جامعتها القديمة".

قالت إيما متسائلة إن كان عليها مشاركة مشكلتها الأخيرة مع ابنها: "أنت تقترب من كونك حكيمًا بشكل خطير".

4

قال هاري: "ستة أشهر. كان من المفترض أن يُشنق ذلك الرجل اللعين، ثم يُسحب إلى المقصلة".

سألت إيما بهدوء وهي تسكب لنفسها كوبًا ثانيًا من الشاي: "عمّ تتكلمون؟".

"عن المجرم الذي ضرب الممرضتينثم هاجم الطبيب، فقد حُكم عليه بستة أشهر فقط".

قالت إيما: "الطبيب هاندز. أوافقك الشعور، ولكن كان هناك ظروف مخففة".

قال هاري: "مثل ماذا؟".

"لم تكن الممرضتان المعنيتان بالأمر راغبتين بإعطاء أي دليل عن الحادثة عندما وصلت القضية إلى المحكمة".

سأل هاري واضعًا صحيفته جانبًا: "لماذا؟".

"العديد من أفضل ممرضاتي قادمات من خارج البلاد ولا يردن الظهور على منصة الشهود خوفًا من اكتشاف السلطات أن أوراق هجرتهن ليست مكتملة".

قال هاري: "لا يوجد سبب لإهمال شيء كهذا".

"لا نملك خيارًا إن كان مركز الرعاية الصحية سينهار".

تحقق هاري من المقال مجددًا قبل أن يقول: "هذا لا يغير حقيقة أن هذا المجرم ضرب ممرضة، في ليلة السبت عندما كان ثملًا".

قالت إيما: "يوم السبت هو الدليل على أن ويليام وورويك كان قد اكتشف الأمر حالما أجرى المقابلة مع رئيسة الممرضات في المستشفى، وعلم أن سبب تشغيلها للراديو كل سبت في الساعة الخامسة

مساءً هو سماع نتائج مباراة ذا بريستول سيتي أو بريستول روفيرس، حسب من كان يلعب في ذلك اليوم". رفع هاري حاجبه لكنه لم يقاطعها.

تابعت إيما كلامها: "إذا فازوا، فستكون ليلة هادئة لممرضتي الإسعاف، وإذا تعادلوا سيكون الأمر محمولًا، أما إن خسروا فسيكون الأمر مروعًا، لأننا ببساطة لا نملك ما يكفي من الموظفين للتعامل مع الأمر".

"فقط لأن الفريق المحلي خسر مباراة كرة قدم؟".

"أجل، لأنه يمكنك أن تكون متأكدًا من أن المشجعين المحليين سيثملون لينسوا أحزانهم، ثم سينتهي بهم الأمر في الدخول في شجارات. وكم ستكون من مفاجأة كبيرة حين يصل بعضهم إلى قسم الطوارئ، حيث سيتوجب عليهم الانتظار لساعات قبل أن يتمكن أحدٌ من مساعدتهم. والنتيجة؟ ستنشب شجارات جديدة في غرفة الانتظار، وسيحاول أحيانًا ممرضة أو طبيب التدخل".

"أليس لديكم رجال أمن للتعامل مع الأمر؟".

"العدد ليس كافيًا، للأسف. كما أن المستشفى لا يملك الموارد حيث أن سبعين بالمئة من تمويله السنوي يُصرف على الرواتب، وتصر الحكومة على التخفيض من مصاريف المستشفى، وليس زيادتها. لذا يمكنك أن تتأكد أننا سنواجه نفس المشكلة تمامًا ليلة السبت القادم إذا خسر روفيرس لصالح كارديف سيتي".

"هل وصلت السيدة تاتشر لأي فكرة لحل هذه المشكلة؟".

"أعتقد بأنها ستتفق معك يا عزيزي، فالشنق والسحب إلى المقصلة سيكونان عقوبتين

مناسبتين لهم، لكنني لا أعتقد أنك ستجد هذه السياسة بالتحديد ظاهرة في البيان القادم لحزب المحافظين".

***

استمع الطبيب رينشارد إلى دقات قلب المريض، كانت 72 دقة بالدقيقة، ثم وضع إشارة بجانب المربع على دفتره قبل أن يقول: "أنت في حالة جيدة سير هاري، بالنسبة إلى رجل يقترب من الستين وهو عمر يفكر الكثير منا فيه بالتقاعد".

قال هاري: "ليس أنا، فعلي أن أقدم كتاب ويليام وورويك آخر قبل أن أبدأ بالعمل على روايتي الجديدة التي قد تستغرق مني عدة سنوات لإنهائها، لذا عليَ أن أبقى على قيد الحياة حتى السبعين على الأقل. هل هذا مفهوم دكتور رينشارد".

تحقق الطبيب من ملفه قبل أن يقول: "سبعون سنة، لا أظن أن هذا سيشكل مشكلة طالما أنك لا تزال تمارس التمارين. عندما رأيتك لآخر مرة سير هاري كنت تركض ثلاثة أميال مرتين في الأسبوع وتمشي خمسة أميال ثلاث مرات في الأسبوع. هل ما زلت مستمرًا بذلك؟".

"أجل ولكن عليَ الاعتراف بأنني توقفت عن توقيت تماريني".

"هل ما زلت محافظًا على روتينك بين كل ساعتي كتابة؟".

"كل صباح، خمسة أيام في الأسبوع".

"ممتاز، في الواقع هذا أكثر مما يستطيع تحمله الكثير من مراجعي الشبان. أريد أن أطرح عليك بضعة أسئلة إضافية فقط. أتوقع أنك لا تزال متوقفًا عن التدخين؟".

"بتاتًا".

"وما الكمية التي تشربها من الكحول في يومٍ عادي؟".

"كأس نبيذ على العشاء، ولكن ليس على الغداء فسيودي بي إلى النوم بعد الظهر".

"حسنًا، بصراحة يجب أن يكون عمر السبعين أمرًا هينًا، إذا لم تدهسك حافلة".

"لا خوف من ذلك، بما أن حافلتنا المحلية تزور البلدة مرتين في اليوم فقط، على الرغم من كل رسائل الشكوى التي تبعثها إيما إلى المستشار".

ردَ الطبيب مبتسمًا: "كل ما أحتاجه الآن هو عينة دم للتحقق من نسبة الألكالين فوسفات، وإن تفضلت معي سأطلب من الممرضة إنجاز ذلك". أغلق الطبيب ريتشارد الملف وغادر كرسيه مرافقًا هاري خارج غرفة الفحص، وعندما وصلا إلى الرواق سأله: "كيف حال الليدي كليفتون؟".

كانت إيما تكره لقب "الليدي" لأنها تشعر أنها لم تستحقه، وكانت تصر على الجميع في المستشفى أن ينادوها بالسيدة كليفتون أو الرئيسة. قال هاري: "أنت أخبرني".

قال ريتشارد: "أنا لست طبيبها، ولكن يمكنني إخبارك بأنها أفضل رئيسة عملت لديها، وأنا لست متأكدًا من سيمتلك الشجاعة ليحل محلها بعد أن تتقاعد السنة القادمة".

ابتسم هاري، فدائمًا عندما يزور مركز بريستول الطبي يمكنه الإحساس بمدى المودة الاحترام الذي يكنه طاقم العمل لإيما.

أضاف ريتشارد: "إن فزنا بلقب أفضل مستشفى للمرة الثانية على التوالي سيكون بفضلها بالتأكيد".

أكملا سيرهما عبر الرواق متجاوزين ممرضتين تأخذان استراحة لشرب الشاي، لاحظ هاري أن إحداهما تمتلك عينًا غائرة وسوداء، إضافة إلى خد متورم لم ينجح تبرجها بإخفائه. قاد الطبيب هاري إلى غرفة صغيرة خالية من أي شيء سوى سرير وبضع كراسي.

"اخلع معطفك، وستأتي الممرضة في الحال".

قال هاري: "شكرًا لك، وأنا أتطلع لمقابلتك مجددًا السنة القادمة".

"سأوصل لك النتائج حالما نسترجع كل التحاليل من المخبر. لا أظن أنها ستكون مختلفة كثيرًا عن السنة الماضية".

خلع هاري معطفه وعلقه على ظهر الكرسي، ثم خلع حذاءه واستلقى على السرير مغمضًا عينيه، وبدأ يفكر في الفصل الجديد من ويليام وورويك وحيلة الثلاث بطاقات. كيف يمكن للمتهم أن يكون في مكانين في الوقت نفسه؟ إما أنه كان في السرير مع زوجته أو كان يقود في طريقه إلى مانشستر. أي خيارٍ هو الصحيح. كان قد ترك الطبيب الباب مفتوحًا، فقُطِعت سلسلة أفكار هاري حين سمع أحدًا يقول: "الطبيب هاندز". أين سمع هذا الصوت من قبل؟ قال الصوت مجددًا: "هل ستبلغين عنه لمارتون؟".

قال صوتٌ ثانٍ: "ليس إن أردت أن أحتفظ بوظيفتي".

"حسنًا سيفلت ذلك المتحرش العجوز بفعلته مجددًا".

"طالما أن الأمر هو مجرد كلمته ضد كلمتي، فليس لديه ما يخشاه".

"ما الذي فعله هذه المرة؟".

جلس هاري على السرير، وأخرج دفتر ملاحظات وقلم من جيب معطفه مستمعًا بانتباه للمحادثة التي تجري في الرواق.

"كنت في غرفة غسيل الملابس في الطابق الثالث أحضر بعض الملاءات النظيفة حين دخل أحدهم. وعلمت أنه يمكن أن يكون شخصًا واحدًا فقط حين سمعت الباب يغلق ثم يقفل، لذا تظاهرت أنني لم ألحظ شيئًا وأخذت الملاءات وتوجهت مباشرة إلى الباب. حاولت أن أفتحه، لكنه أمسكني وألصق نفسه بي. كان الأمر مقرفًا، وظننت أني سأتقيأ على الحائط، ثم أدارني وبدأ بتقبيلي".

"ماذا فعلت حينها؟".

"عضضت لسانه، فصرخ ودعاني بالوضيعة ثم صفعني على وجهي. لكن ذلك أعطاني وقتًا كافيًا لأفتح قفل الباب وأهرب".

"يجب أن تبلغي عنه، فقد آن الأوان لذلك السافل أن يُطرد من المستشفى".

"أشك بإمكانية حدوث ذلك، فعندما رأيته في جولتي الصباحية اليوم حذرني أنني سأضطر للبحث عن وظيفة جديدة إن فتحت فمي بأي كلمة، ثم أضاف أنه عندما تفتح المرأة فمها فذلك يكون مفيدًا لغرضٍ واحدٍ فقط".

"إنه إنسانٌ مريض، ولا يجب أن يُسمح له بالنجاة بفعلته".

"لا تنسي أن لديه نفوذًا كبيرًا، فقد طرد حبيب ماندي من عمله بعد أن رآه يتحرش بها، مع أنه كان هو من ضربها. لذا ما الفرصة التي أمتلكها لمجرد إمساكه لي في غرفة الغسيل؟ لا، أنا قررت...".

قالت الممرضة بعد دخولها إلى الغرفة وإغلاقها الباب خلفها: "صباح الخير، سير هاري. طلب مني الطبيب ريتشارد أن آخذ منك عينة دم لإرسالها إلى المختبر. إنه مجرد فحص روتيني، لذا من فضلك شمّر عن ساعديك".

***

قال جايلز وهو غير قادر على إخفاء ابتسامته: "أعتقد أن واحدًا منا فقط مؤهلٌ ليصبح رئيسًا".

أجابت إيما: "لا شيء يدعو للضحك في هذا الأمر. لقد وضعت برنامجًا بالفعل للتأكد من تغطية جميع المواضيع التي نحتاج لمناقشتها". سلمت نسخة لكل من جايلز وغريس، وأعطتهما بضع دقائق ليتفحصا البنود قبل أن تتكلم مجددًا: "ربما يجب أن أطلعكما على المستجدات قبل أن ننتقل إلى البند الأول، فقد وافق المجلس على عرض كونارد الأخير بثلاثة جنيهات وواحد وأربعين بنسًا للحصة، وتم الاستيلاء في منتصف النهار في السادس والعشرين من شهر شباط".

قال جايلز بتعاطف: "لا بد أن هذا كان محزنًا جدًا".

"عليَ أن أعترف أنه وبينما كنت أخلي مكتبي، كنت لاأزال أتساءل إذا كنت قد فعلت الشيء الصحيح. وكنت سعيدة أنه لم يكن هناك أحد آخر في الغرفة عندما أزلت لوحة جدي، حتى أنني لم أستطع أن أنظر إلى عينيه".

قال جايلز: "سأكون سعيدًا بالترحيب بعودة والتر إلى بارينغتون هول، يمكنه أن يقضي الوقت بجانب جدتي في المكتبة".

"في الواقع يا جايلز، سأل رئيس كونارد إن كان بإمكانه إبقاء اللوحة في غرفة المجلس مع كل الرؤساء السابقين الاخرين".

قال جايلز: "أنا منبهر، وأكثر اقتناعًا أنني اتخذت الخيار الصحيح حول كيف يجب أن أستثمر بعض أموالي".

قالت غريس وهي تلتفت إلى أختها: "لكن ماذا عنك إيما؟ ففي النهاية أنت أيضًا اكتسبت حقًا في أن تعلقي صورتك في غرفة المجلس".

قالت إيما: "لقد كُلف براين أورغان برسم لوحتي، وستعلق مقابل صورة جدي العزيز".

سأل جايلز: "ما كان رأي جيسيكا بالأمر؟".

"نصحت به. وسألت حتى إن كان يُسمح لها بحضور الجلسة".

قالت غريس: "إنها تكبر بسرعة شديدة".

عقبت إيما: "لقد أصبحت شابة الآن، وأنا أفكر بأخذ نصيحتها حول قضية أخرى. ستجرى مراسم تسليمٍ في المجلس التنفيذي بعد أن توقع المستندات النهائية، وسيستبدلون اسم بارينغتون شيبينغ الذي كان معلقًا بكل فخر فوق بوابة المدخل، باسم كونارد".

قال جايلز: "أعلم أنه لم يمضِ على الأمر سوى شهر، ولكن هل وفت شركة كونارد بالتزاماتها تجاه الموظفين؟ خاصة القدماء منهم؟".

قالت إيما: "نفذتها بحذافيرها، ولم يُطرد أحد، مع أن عددًا لا بأس به من الموظفين الكبار بالسن استفادوا من حزمة الاستغناء عن العمالة التي ناقشها سيب معهم، بالإضافة إلى رحلة مجانية على سفينة بكنغهام أو البالمورال، لذا لم تصلنا أية شكاوى منهم. ولكن مع ذلك، نحن نحتاج لمناقشة موقعنا وأين سنذهب من هنا، فكما تعلمون لقد غرض علينا تسوية مالية تقدر بأكثر من عشرين

مليون جنيه لكل منا، مع إمكانية استبدالها بأسهم في كونارد، وهو أمر له العديد من الفوائد".

سألت غريس: "ما عدد الأسهم التي يعرضونها؟".

"710,000 لكل منا، وقد أسفرت السنة الماضية عن أرباح تقدر بـ246,717 جنيهًا. إذًا هل قرر أي منكما ما الذي سيفعله بالمال؟".

قال جايلز: "أنا فعلت. فقد قررت بعد استشارة سيباستيان أن آخذ نصف المبلغ نقدًا وأعطيه لفارثينغزز كوفمان لتستثمره في المجلس بالنيابة عني، والنصف الآخر سيبقى في أسهم كونارد. لقد عانوا من انخفاضٍ في الأسهم مؤخرًا ولكن قال لي سيباستيان أنه ليس بشيء غريب بعد الاستيلاء على الشركة، وطمأنني أن كونارد شركة تتمتع بإدارة جيدة مع سجل يشهد لها بذلك، ويتوقع أن تستمر أسهمهم بالزيادة ثلاثة إلى أربعة بالمئة مع ارتفاع قيمتها سنة بعد سنة بنفس المقدار".

قالت إيما مغيظة أخاها: "في الواقع هذا يبدو متحفظًا جدًا".

ردَ جايلز بحدة: "أنا فقط تقليدي ليس أكثر، وقد وافقت أيضًا على تمويل مساعد بحثٍ للفابيان سوسايتي".

قالت غريس بسخرية: "يا لها من حركة جريئة".

سأل جايلز رادًا على سخريتها: "وأنت من فعلت أمرًا أكثر جراة؟".

"أرجو ذلك، إنه بالتأكيد مسلٍ أكثر".

نظر جايلز وإيما إلى أختهما مثل طالبين في المدرسة ينتظران جوابًا.

"لقد أودعت الشيك الخاص بي كاملًا في البنك بالفعل، وكان مدير البنك على وشك أن يغمى عليه

عندما قدمته له. في اليوم التالي أتى سيباستيان لزيارتي في كامبريدج وردًا على نصيحته وضعت خمسة ملايين جانبًا لتغطية أي التزامٍ ضريبي، وعشرة ملايين أخرى في حساب استثمار في فارثينغز كوفمان، حتى أوزع المال على نطاق واسع من الشركات القوية، تلك كانت كلماته. تركت أيضًا مليونًا كإيداعٍ مع ميلدلاند، وأعتقد أنه سيكون أكثر من كافٍ لي لشراء منزل صغير قرب كامبريدج، إضافة إلى دخل سنوي ثابت بنحو 30,000 جنيه، وهذا أكثر مما كسبته في كل سنوات عملي في الجامعة".

"وماذا عن الأربعة ملايين المتبقية؟".

"تبرعت بمليون لترميم وإصلاح جامعة نيونهام، ونصف مليون لفيتزويليام، ونصف مليون آخر موزعة على عدد من الجمعيات الخيرية التي أحسست بأنها مهمة على مدى السنوات، ولكنني لم أستطع أن أتبرع بأكثر من بضع مئات من الجنيهات في السابق".

قال جايلز: "أنت تجعلينني أشعر بالذنب".

"أرجو ذلك يا جايلز، ولكن بكل الأحوال فأنا انضممت لحزب العمال قبلك".

قالت إيما: "ولكن هذا سيترك مليونًا أخيرًا دون حساب".

"أعلم أنه ليس من طبعي ولكنني خرجت للتسوق مع جيسيكا".

سألت إيما: "يا إلهي، علام صرفته؟ على الألماس والحقائب؟".

قالت غريس: "بالطبع لا، لقد ابتعنا لوحة لمونييه، ولمانيت، ولوحتين لبيكاسو، ولوحة لبيسارو

وواحدة للوسيان فرود، إضافة إلى لوحة الفنان باكون (البابا الصارخ) الذي لا أرغب بسماع موعظته، ومجسم لهينري مور بعنوان (الملك والملكة) أعجبت به حقًا، ولوحة لباربرا هيبورث وواحدة لليوم أندرووود. لكنني رفضت أن أبتاع عملًا لإريك غيل بعد أن علمت أنه أقام علاقة مع بناته. مع أن الأمر لم يبد مقلقًا لجيسيكا، فقد ظلت تذكرني أنه ليس بالإمكان إنكار الموهبة الحقيقية، لكنني ظللت مصرة على قراري. كان آخر شيء اشتريته هو عملٌ فني لبيتر بليك لغلاف أحد ألبومات فرقة البيتلز، وقد أعطيته لجيسيكا كمكافأة على معرفتها وخبرتها. كانت تعلم بالتحديد أي المعارض التي علينا زيارتها، وساومت الباعة وكأنها بائع متجول من الشرق. لم أكن أعرف أن عليّ أن أكون فخورة بها أو محرجة منها. لكنني أعترف أنني لم أكن أعلم أن إنفاق المال يمكن أن يكون مرهقًا بهذا الشكل".

انفجر جايلز وإيما بالضحك قبل أن تقول إيما: "لقد أحرجتنا. لا يسعني الانتظار لأرى المجموعة، لكن أين ستعرضينها؟".

"أعتقد أنني وجدت المنزل المثالي في تروبينغتون، جدرانه ذات مساحات كبيرة لتعليق كل اللوحات، وحديقته واسعة أيضًا تكفي لعرض التماثيل بشكل مثالي. لذا سيكون دوري في المستقبل لدعوتكما للبقاء في عطلة الأسبوع. لم أنه صفقة الشراء بعد، ولكنني أطلقت سيباستيان على عميلة العقارات المسكينة وتركته ليفاوضها على السعر، مع أنني لست مقتنعة بأن أداءه سيكون أفضل من أداء جيسيكا، فهي مقتنعة أن مجموعتي الفنية ستكون استثمارًا مربحًا أكثر من الأسهم

والحصص التي ذكرت والدها بأنه ليس بإمكانه تعليقها على الحائط. كان قد حاول أن يشرح لها الفرق بين التقدير والاستحسان لكنه لم يصل إلى أي نتيجة".

قالت إيما: "برافو، أتمنى فقط أنه لا يزال هناك عمل مونيبيه باقٍ من أجلي، لأنني عازمة أيضًا على أخذ نصيحة جيسيكا، مع أني بصراحة لم أقرر بعد ما الذي سأفعله بربحي هذا. لقد أجريت ثلاثة اجتماعات مع حكيم بشارة وسيب، ولكنني لم أقترب حتى من حزم أمري، فبعد أن خسرت الرئاسة، كنت أضع تركيزي على حزمة الحكومة الجديدة لإصلاح الخدمات الصحية الوطنية وآثارها على المركز الطبي".

قال جايلز: "لن ترى تلك الوثيقة النور أبدًا إن فازت مارغريت تاتشر بالانتخابات".

قالت إيما: "أتفق معك، ولكن يبقى من مسؤوليتي تحضير زملائي من أعضاء المجلس للعواقب إن عاد العمال إلى السلطة، فأنا لا أريد ترك من يخلفني ليتعامل مع المشاكل ويلم الشتات سواء أكان هو أو هي. هل هناك مواضيع أخرى؟".

أخرج جايلز من تحت الطاولة مجسمين ضخمين لسفينة باكينغهام وبالمورت، إضافة إلى زجاجة من الشامبانيا، ثم قال: "إيما العزيزة، سنبقى أنا وغريس مدينين لك مدى الحياة، فبدون قيادتك وتفانيك والتزامك ما كنا لنحظى بامتياز ما نحن فيه. سنبقى ممتنين لك إلى الأبد".

ملأ جايلز ثلاث كؤوس بالشامبانيا، لكن إيما لم تزح عينيها عن مجسمي السفينتين، ثم قالت بعد أن رفعوا كؤوسهم: "شكرًا لك، لكن علي أن أعترف بأنني استمتعت بكل لحظة كنت فيها الرئيسة. ولدي

مفاجأة لك أيضًا، فقد طلب مني كونارد أن أنضم إلى المجلس، لذا أرغب أنا أيضًا في أن أقترح نخبًا". ثم نهضت من كرسيها ورفعت كأسها قائلة: "لجوشوا بارينغتون، الذي مول شركة بارينغتون شيبينغ في 1839، وحقق ربحًا قدره ثلاثة وثلاثون جنيهًا وأربع شيلنات وبنس واحد في سنته الأولى كرئيس، ولكنه وعد المستثمرين بالمزيد".

رفع جايلز وغريس كأسيهما.

"لجوشوا بارينغتون".

"ربما حان الوقت بالنسبة إلينا لنحتفل بولادة حفيد أختي الرائع، جيك. الذي يتمنى سيب بأنه سيكون الرئيس الجديد لبنك فارثينغزز".

سألت غريس: "هل سيكون من الكثير تمني أن يفكر جيك في فعل شيء ذي قيمة أكبر من أن يكون رجلًا مصرفيًا".

5

"ما مدى ثقة مصدرك؟".

"موثوق تمامًا. وكتب كل الذي تمكن من سماعه كلمة بكلمة".

اعترفت مارتون: "حسنًا، لا يمكنني التظاهر بأنني لم أسمع هذا النوع من الشائعات من قبل أيتها الرئيسة، ولكن لم نحصل على أي شيء يمكن إثباته. والممرضة التي قدمت الشكوى الرسمية استقالت بعد أسبوع".

سألت إيما: "ما الخيارات التي نملكها؟".

"هل تعرفين أي شيء عن الممرضة، عدا عن المحادثة التي شمعت؟".

"يمكنني إخبارك أن الاعتداء المُدعى حدث في الطابق الثالث في غرفة الغسيل".

"هذا من الممكن أن يقلل العدد إلى ست ممرضات".

"وكانت في الجولة الصباحية مع الطبيب هاندز في نفس اليوم".

"متى كان ذلك؟".

"البارحة".

"إذًا يمكن أن نقلل العدد إلى ممرضتين أو ثلاث على أكبر تقدير".

"وقد كانت من الهنود الغربيين".

قالت مارتون: "آه، كنت أتساءل لماذا كانت عين بيفيرلي محاطة بكدمة سوداء، والآن علمت السبب. لكن عليها أن تقدم شكوى رسمية حتى نتمكن من فتح تحقيق أخلاقيات".

"كم يمكن أن يستغرق ذلك؟".

"سنة إلى تسعة أشهر، وحتى عندها لن يكون لديها فرصة كبيرة بما أنه لم يكن هناك أي شهود".

"حسنًا، هكذا عدنا إلى مربع البداية وسيستمر الطبيب هاندز في أفعاله فيما نجلس مكتوفي الأيدي".

"أخشى ذلك سيدتي الرئيسة، إلا إذا...".

***

قالت مارغريت تاتشر حينما أجابت إيما على الهاتف: "مبارك لك تسليم الشركة، رغم أنني أتصور أنه لم يكن بالقرار السهل".

أقرت إيما: "كنت محتارةً جدًا في اختياري، لكن المجلس وعائلتي وكل مستشارينا الأخصائيين كانوا مجمعين في نصحي على الموافقة على عرض كونارد".

"حسنًا كيف تملئين وقتك الآن وأنت لم تعودي رئيسة شركة بارينغتون؟".

"لا يزال لديَ بضعة أشهر قبل أن أسلم رئاسة المركز الطبي، ولكن بعد تصويت أمس حول حجب الثقة عن الحكومة، يبدو أنني سأقضي معظم وقتي أجول حول الريف الغربي محاولة التأكد من أنك ستنتهين في 10 داونينغ ستريت".

"كنت أفضل لو أنك تجولين حول كل البلاد وأنت تفعلين ذلك".

"لست متأكدة من أنني أفهم مقصدك".

"إن شغلت تلفازك، ستجدين أن رئيس الوزراء قد توجه إلى قصر باكنغهام في موعد مع الملكة، فسيطلب السيد كالاغان إذنها لتأجيل حجب الثقة حتى يتمكن من طلب انتخابات عامة".

"هل حددوا موعدًا؟".

"يوم الثلاثاء، في الثالث من شهر أيار، وأريد منك أن تواجهي أخاك مباشرة".

"ما الذي تفكرين به؟".

"كما تعرفين، فهو مسؤول عن حملة العمال للمقاعد الهامشية، تلك الفئات المستهدفة الرئيسية الخمسين أو الستين ستحدد نتائج الانتخابات، وأظن أنك ستكونين الشخص المثالي لفعل الشيء نفسه لحزب المحافظين".

"لكن جايلز يمتلك خبرة كبيرة في الحملات الانتخابية، فهو سياسي من الطراز الأول ولا أحد يعرفه أكثر منك. لا شك أنه يوجد الكثير من الأشخاصِ المؤهلين أكثر مني لتسلم مسؤولية كهذه".

"أنت خياري الأول. ولدي شعور بأن أخاك لن يكون سعيدًا حين يعلم من الذي سيواجهه". ثم عم صمث طويل الأرجاء قبل أن تتابع السيدة تاتشر: "تعالي إلى لندن والتقي برئيس الحزب بيتر ثورنيكروفت. لقد حضر كل شيءٍ بالفعل، لذا كل ما أريده الآن هو منسقة ستملأ قلب رئيسنا المحلي بالخوف فيما يخص تلك المقاعد الهامشية".

لم تتردد إيما هذه المرة حين قالت: "متى يمكنني البدء؟".

أجابتها قائلة: "غدًا في العاشرة صباحًا، في المكتب المركزي".

***

"هل طلبت رؤيتي أيتها الرئيسة؟".

أجابت إيما حتى قبل أن يتسنى للطبيب هاندز الجلوس: "أجل، سأدخل في الموضوع مباشرة. لقد وصلتني العديد من الشكاوى من ممرضاتٍ بما

يخص سلوكياتك غير الأخلاقية".

قال هاندز، الذي جلس مرتاحًا في كرسيه: "العديد؟".

"خلال السنة الفائتة، كانت مارتون تجمع الأدلة، وقد طلبت مني تحضير تحقيق رسمي".

قال هاندز: "تفضلي بفعل ذلك، فلن تجدي أي شيء يمكن إثباته، وسأكون بريئًا تمامًا".

"لا شيء مثبت؟ هذا برأيي اختيار غير موفق للكلمات أيها الطبيب، إلا إن كان بالطبع...".

"قولي كلمة أخرى سيدة كليفتون، وسأطلب محامي بأن يتقدموا بدعوى بتهمة التشهير".

"أشك في ذلك. فأنا مثلك تأكدت من عدم وجود أي شهود، وفي حين أقبل أن تكون بريئًا من كل التهم، لكنني عازمة على أن أدمر سمعتك ولن تستطيع إيجاد عملٍ في هذا البلد مجددًا. لذا أنا أقترح...".

"هل تهددينني؟ إن كنت كذلك، فستكون سمعتك أنت هي التي ستتدمر حينما يثبت أن التحقيق لم يكن سوى تضييع للمال والوقت.. بعد أن وضع المركز الطبي على قائمة المرشحين لجائزة مستشفى السنة".

قال إيما: "أجل، لقد أخذت ذلك في الحسبان. كان مصدر قوتك في الماضي دائمًا هو أن الأمر عبارة عن كلمتك مقابل كلمة ممرضة شابة، ولكن في هذه المرة لن تتعامل مع شابة خائفة بل رئيسة المركز الطبي. وأجل، أنا على استعدادٍ للمخاطرة بسمعتي مقابل سمعتك".

قال هاندز: "أنت تكذبين، فأنت لا تملكين سوى سنة بعد ولا ترغبين حقًا في أن يكون هذا هو

الشيء الوحيد الذي تذكرين به".

"أنت مخطئ أيها الطبيب هاندز، فعندما أكشف حقيقتك، أظن أن زملائك والست عشرة ممرضة الذين وفروا إثباتاتهم المكتوبة سيكونون شاكرين لتدخلي، في حين ستجد صعوبة في إيجاد عمل حتى في دولة إفريقية صغيرة". ثم أشارت إلى الملف الكبير على المكتب أمامها الذي لم يكن سوى تقرير لمهندسي المساحة.

تردد هاندز هذه المرة قبل أن يتكلم: "سأجرب حظي، أنا واثق أنك لا تملكين دليلًا كافيًا لفتح تحقيق".

انحنت إيما إلى الأمام، ثم اتصلت برقمٍ ما ووضعته على المكبر، وسمعا بعد لحظات كلمة (المحرر).

"صباح الخير ريغ، هذه إيما كليفتون".

"أي من مراسليَ تريدين شنقه هذه المرة إيما؟".

"ليس أحد مراسليك هذه المرة، بل أحد أطبائي".

"أخبريني المزيد".

"أنا عازمة على فتح تحقيق حول سلوك أحد الأطباء في المركز الطبي، وكنت أفكر أنك سترغب في السماع عن الأمر قبل أن يصل الخبر إلى القنوات الوطنية".

"هذا جيد لك إيما، ولكن إن كانت القصة ستنتشر في العدد الجديد فعلي أن أبعث مراسلًا إلى المركز الطبي في الحال".

بدأ هاندز بالتلويح بيديه بقوة مؤشرًا لها.

قالت إيما ناظرة إلى مفكرتها: "لدي موعدٌ عند الساعة الحادية عشرة، لكنني سأعاود الاتصال بك بعد بضع دقائق إن استطعت إعادة جدولته".

لاحظت إيما هاندز وقد بدأ العرق يتشكل على جبهته، ثم قالت: "إن أردتني أن ألغي موعدي مع المراسل من صحيفة أخبار بريستول المسائية، فأنا أتوقع منك أن تكون خارج هذا المبنى بحلول الظهر. وما عدا ذلك، فأقترح عليك شراء العدد الجديد من الصحيفة اليوم، وستكتشف فيها تمامًا رأيي بأطباء مثلك. احرص على أن تبقى بجانب هاتفك، فلدي شعورٌ بأنهم سيرغبون في سماع جانبك من القصة".

وقف هاندز من دون توازن وغادر الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة، وبعد أن أغلق الباب خلفه رفعت إيما السماعة واتصلت بالرقم الذي وعدت بإعادة الاتصال به، ثم قالت حين رد الجانب الآخر: "شكرًا لك".

قال هاري: "هذا من دواعي سروري. متى ستعودين إلى المنزل لنتناول العشاء؟".

***

قال هاري بعد أن سمع خبر إيما: "أين تنوين الإقامة إن كنت تخططين لقضاء الشهر القادم في لندن؟".

"سأبقى عند جايلز. بهذه الطريقة سأتمكن من مراقبة كل تحركاته".

"وهو سيراقب تحركاتك، لكنني لا أتخيل أنه سيوافق على هكذا اتفاق مريح".

قالت إيما: "لن يكون لديه خيار. ولا بد أنك نسيت أنني أمتلك ملكية مطلقة على سميث سكوير، لذا إن كان أحدٌ ما سيبحث عن سكنٍ مؤقت فسيكون جايلز وليس أنا".

جايلز بارينغتون

1979-1981

6

سأل جايلز حين دخل إلى مكتب جريف هاسكينز ورمى بنفسه على الكرسي المقابل للرجل الذي كان يشعل سيجارته الرابعة لذلك الصباح: "هل تود سماع الأخبار السيئة؟".

"هل غثر على توني بين ثملًا في بيت دعارة ما؟".

"بل أسوأ. ستترأس أختي حملة المحافظين للمقاعد الهامشية".

انهار ممثل حزب العمال المحنك في مقعده وبقي صامتًا لبعض الوقت قبل أن يتمكن من الكلام أخيرًا: "خصمٌ مرعب. وباعتبار أنني علمتها كل ما تعرفه ومن ضمنه كيفية القتال لربح مقعد هامشي".

"الأمر يزداد سوءًا، فستبقى معي في منزلي في سميث سكوير طوال وقت الحملة".

قال جريف بجدية: "إذًا ارم بها في الشارع".

"لا أستطيع، فهي تملك المنزل فعليًا، لقد كنت دومًا مستأجرًا لديها".

أسكت كلامه جريف بعض الوقت لكنه استعاد تفكيره بسرعة وقال: "إذًا علينا الاستفادة من الوضع. إن كانت كارين تستطيع معرفة ما تنوي فعله في يومها سنسبقها بخطوة دومًا".

قال جايلز: "فكرة جيدة، باستثناء أنني غير متأكدٍ مع أي فريق تقف زوجتي".

"إذًا ارم بها في الشارع".

"لا أعتقد أن ذلك سيجعلنا نحصد أصوات النساء".

"حسنًا علينا أن نعتمد على ماركهام، اجعله يتنصت على مكالماتها أو حتى يفتش في رسائلها إن اضطر الأمر".

"ماركهام يصوت لحزب المحافظين".

"ألا يوجد أي أحدٍ في منزلك يدعم حزب العمال؟".

"يوجد مدبرة منزلي سيلفينا، لكنها لا تتكلم الإنكليزية بشكل جيد ولست متأكدًا إن كان يُسمح لها بالتصويت أصلًا".

"حسنًا، لا بد أن تبقي عينيك وأذنيك مفتوحتين، لأنني أريد أن أعلم ما تخطط له أختك في كل دقيقة من كل يوم. ما الفئات التي تستهدفها، أي قائدٍ من حزب المحافظين سيزور تلك الفئات، وأي شيء آخر يمكنك اكتشافه".

قال جايلز: "سيكون لديها الرغبة نفسها لاكتشاف ما أخطط له أنا أيضًا".

"هذا يعني أن علينا أن نقدم لها معلومات خاطئة".

"ستكشفنا في اليوم الثاني".

"ربما، ولكن لا تنسَ أنك تمتلك خبرة أكثر منها في ما يتعلق بخوض الانتخابات، فستكون في موقف صعب وغير معتادة عليه وستعتمد كثيرًا على نظيري".

"هل كنت تعرفه؟".

قال جريف مشعلًا سيجارته: "جون لاسي، أعرفه أكثر مما أعرف أخي نفسه فلقد كنا قابيل وهابيل بالنسبة إلى بعضنا منذ ثلاثين سنة. التقيت به للمرة الأولى في 1945 في مواجهة أتلي ضد تشرشل، وهو ما يزال محرجًا من خسارته ويواسي نفسه منذ حينها".

"حسنًا لنتخذ من كليم أتلي قدوة لنا ونفعل بهم

نفس ما فعله بتشرشل".

قال جريف وكأنه يحدث نفسه: "هذه غالبًا انتخاباته الأخيرة".

قال جايلز: "ونحن أيضًا، إن خسرنا".

***

قال لاسي: "إن كنت ستبقين في المنزل نفسه مع أخيك فعلينا أن نستفيد من ذلك".

نظرت إيما من مكتبها إلى مسؤول الحزب، وشعرت أنها قد بدأت تفهم طريقة تفكيره. كان لاسي بطول خمس أقدام وسبعة إنشات تقريبًا، ومع أنه لم يشارك يومًا بأي نشاطٍ سوى التلاعب بحزب العمال، إلا أنه لم يكن يمتلك أي وقت فراغ. فهو رجلٌ يعتقد أن النوم رفاهية لا يمكنه تحملها. لا يعترف باستراحات الغداء، ولم يدخن أو يشرب الكحول في حياته، والوقت الوحيد الذي يترك فيه الحزب هو صباح أيام الأحد، حتى يعبد الوحيد الذي يعتبره أعلى من قائده. جعلته خصل شعره الرمادية يبدو أكبر من عمره الحقيقي، وكانت عيناه الزرقاوان الثاقبتان لا تحيدان عنك أبدًا.

سألت إيما: "ما الذي تفكر به؟".

"في اللحظة التي يغادر فيها أخوك المنزل صباحًا أريد أن أعرف أي فئاتٍ يخطط لزيارتها وأي سياسيين من حزب العمال سيرافقونه، حتى يكون موظفونا بانتظارهم عند ترجلهم من القطار".

"هذا مخادعٌ نوعًا ما، أليس كذلك؟".

"كوني مطمئنة ليدي كليفتون...".

"إيما".

"إيما. نحن لا نحاول الفوز بمسابقة للمخبوزات في مهرجان قريتك المحلي، بل نعمل على انتخابات

عامة. قد بلغت المخاطر أعلى ما يمكن، وعليك أن تبحثي عن أي اشتراكيين كما يفعل الخصم لأن هذا كله عبارة عن حربنا. وتقتضي مهمتنا التأكد أنه بعد أربعة أسابيع لن يبقى أحدٌ منهم على قدميه ولا حتى أخوك".

"سيستغرقني هذا الأمر بعض الوقت للاعتياد عليه".

"لديك أربع وعشرون ساعة لتجهيز نفسك. ولا تنسي أبدًا أن أخاك هو الأفضل، وجريف هاسكينز هو الأسوأ، وهذا ما يجعلهما مزيجًا جبارًا".

"حسنًا من أين أبدأ؟".

نهض لاسي من خلف مكتبه وقطع الغرفة نحو مخطط كبير معلق على الحائط، ثم قال قبل أن تنضم إيما إليه: "هناك اثنان وستون مقعدًا هامشيًا علينا الفوز بها إن كنا نرغب بتشكيل الحكومة القادمة. كل واحد منها يحتاج لتحول يقدر بأربعة بالمئة فقط أو أقل ليغير انتماءه. إذا انتهى الأمر لكلا الطرفين بالفوز بواحد وثلاثين مقعدًا سيُعلق البرلمان. بينما إن تمكن أحدنا من الفوز بعشرة مقاعد إضافية فسيكون له الأكثرية بعشرين مقعدًا في البرلمان. هذا هو مدى أهمية عملنا".

"ماذا عن بقية الستمئة مقعد الأخرى؟".

"تحدد معظمهم قبل فترة طويلة من فتح صندوق الاقتراع. نحن مهتمون فقط بالمقاعد حيث يعدون الأصوات ولا يهتمون بثقلهم. لا شك من أننا سنتعرض لمفاجأة أو اثنتين، فدائمًا ما يكون الحال كذلك، ولكننا لا نمتلك الوقت لاكتشاف ماهيتهم. عملنا يقتضي التركيز على تلك المقاعد الاثنين والستين ومحاولة التأكد من أن كل واحدٍ منها سيصبح عضوًا محافظًا في البرلمان".

نظرت إيما بانتباه إلى لائحة المقاعد الطويلة، بدءًا من أكثرهم هامشية - باسيلدون- المنزاح لحزب العمال بـ 22، ويحتاج إلى 0.1 في المئة لتحويله.

قال لاسي: "إن لم نكن قادرين على الفوز بهذه الانتخابات فسنضطر للمعاناة لمدة خمس سنوات أخرى من حكم حزب العمال". نقل إصبعه إلى أسفل القائمة قبل أن يتابع: "غرافيسيند، الذي يحتاج 4.1 بالمئة لتحويله. إن اتضح أنه الفاصل في البلاد، فهذا سيضمن للمحافظين أكثرية بثلاثين مقعدًا".

"ما تلك المربعات السبعة الصغيرة إلى جانب كل جهة مستهدفة؟".

"نحن نحتاج لوضع إشارة على كل منها قبل يوم الانتخابات".

قرأت إيما العناوين فوقها: المرشح، القدر المطلوب للتحويل، الممثل، الرئيس، الدوافع، الجهة المتبناة، (أ.م.أ). ثم قالت محدقة إلى اللائحة بدهشة: "لا يزال هناك ثلاثة مقاعد لا تمتلك حتى مرشحًا".

"سيكون لديها عند نهاية الأسبوع، وإلا سيفوز أحد أعضاء حزب العمال بالتزكية، ونحن لن نسمح لذلك بالحدوث".

"ولكن ماذا إن لم نستطع إيجاد مرشح مناسب في هذا الوقت القصير؟".

قال لاسي: "سنجد أحدهم، حتى إن كان مغفل القرية، وهناك بالفعل واحد أو اثنان من هؤلاء في صفنا من البرلمان وبعضهم ذو مقاعد مضمونة".

ضحكت إيما عندما ثبت نظرها على (الجهة المتبناة) وشرح لها لاسي: "سيتبنى مقعدٌ مضمون فئة هامشية مجاورة عارضًا عليها مساعدة وكيلٍ خبير، ومروجين وحتى المال إن تطلب الأمر. فنحن

نملك تمويلًا احتياطيًا مع ما يكفي من المال لتزويد أي مقعد هامشي بعشرات الآلاف من الجنيهات مباشرة".

قات إيما: "أجل، لقد أصبحت مدركة لذلك خلال الانتخابات الأخيرة عندما كنت أعمل غرب البلاد، ولكنني وجدت بعض الفئات متعاونة أكثر من غيرها".

"وستجدين أن ذلك متشابه على امتداد كل الدولة. الرؤساء المحليون الذين يظنون أنهم يعرفون كيفية إدارة حملة انتخابية بشكلٍ أفضل منا، وخازنو الأموال الذين يفضلون خسارة الانتخابات على أن يخسروا بنسًا واحدًا من حساباتهم المصرفية، وأعضاء في البرلمان يزعمون أنه من الممكن أن يفقدوا مقاعدهم حتى عندما يمتلكون أغلبية بعشرين ألفًا. وحين نواجه هذه الأنواع من المشاكل، ستكونين أنت من عليه الاتصال برئيس الفئة المستهدفة وتسوية الأوضاع. وليس من هو أقل منك لأنهم لن يعيروا أي اهتمام لممثلٍ ما، بل يريدون من هو أعلى شأنًا، وخاصة عندما يعرف الجميع أن لديك أذن الأم".

"الأم؟".

قال لاسي: "عذرًا، إنه اختصار للقائد".

ابتسمت إيما، ثم سألت مشيرة بإصبعها إلى السطر الأخير: "وماذا يعني (أ.م.أ)؟".

قال لاسي: "لا نقصد به المتقاعدين الكبار في السن، على الرغم من أنهم قد يقررون من سيفوز بالانتخابات لأنهم - وبفرض أنهم يستطيعون الحضور- الأكثر احتمالية لأن يصوتوا. وحتى إن لم يكن بإمكانهم المشي، سنؤمن لهم سيارة وسائقًا لأخذهم إلى أقرب مركز اقتراع. كنت قد ساعدت

شخصًا في إحدى المرات ليصل إلى صندوق الاقتراع وهو على النقالة عندما كنت شابًا وعندما أعدته إلى منزله أخبرني أنه صوت لحزب العمال".

حاولت إيما أن تخفي ضحكتها وتحافظ على وجه جاد.

قال لاسي: "لا، إنها (أ.م.أ) وهي تمثل (أي مشكلة أخرى)، والتي سيكون هناك الكثير منها كل يوم. ولكن سأحاول أن أحرص على أن تتعاملوا فقط مع المشاكل الصعبة بالفعل، لأنكم ستكونون معظم الوقت في الخارج، بينما سأبقى أنا هنا في المقر".

سألت إيما بينما تابعت دراستها للمخطط: "هل هناك أية أخبار جيدة؟".

التفت لاسي إلى رئيسته: "أجل، يمكنك التأكد أن خصومنا يواجهون ذات المشكلات التي نتعرض إليها تمامًا، وكوني شاكرة فقط أن ليس لدينا مربع كُتب عليه (الاتحادات). قيل لي أنك على معرفة جيدة بأسلوب جريف هاسكينز الذي هو الآن اليد اليمنى لأخيك، إنني أعرفه منذ أعوام ولكني لا أعرف عنه شيئًا، لذا كيف يكون العمل معه؟".

"عديم الرحمة تمامًا. لا يؤمن بإعطاء أي أحد ميزة الشك، ويعمل لساعات لا تُحصى، كما أنه يعتبر كل المحافظين ولدوا من الشيطان".

"ولكن كلانا نعلم أن لديه نقطة ضعف عظيمة".

قالت إيما: "صحيح، ولكنه لا يشرب أبدًا خلال الحملة. في الواقع، لن يلمس قطرة كحولٍ حتى يجمع آخر صوت في آخر فئة، وعندها سيثمل سواء فاز أو خسر".

***

قالت كارين رافعة نظرها عن الصحيفة: "أرى أن

اخر استفتاء يمنح حزب العمال تقدمًا بمقدار اثنين بالمئة".

أجاب جايلز: "لا سياسة على طاولة الفطور من فضلك، وبالطبع ليس وإيما معنا في الغرفة نفسها".

ابتسمت كارين لشقيقة زوجها عبر الطاولة.

سألت إيما: "هل لاحظت أن طليقتك عادت لتصدر العناوين؟".

"على ماذا تنوي هذه المرة؟".

"يبدو أن الليدي فيرجينيا ستخرج المبجل فريدي من مدرسته الإعدادية الراقية. ويلمح ويليام هيكيز إلى أن سبب ذلك أنها تمر بضائقة مالية مرة أخرى".

قال جايلز: "لم أظن يومًا أنك قارئة لصحيفة الإكسبريس".

قالت إيما: "يدعم ثلاثة وسبعون بالمئة من قرائها مارغريت تاتشر، ولهذا لا أتكبد عناء قراءة صحيفة الميرور".

ترك جايلز الطاولة حالًا عندما رن الهاتف وانسحب إلى الرواق متجاهلًا الهاتف الذي على طاولة المطبخ ومغلقًا الباب خلفه بإحكام.

همست إيما: "إلى أين سيذهب اليوم؟".

قالت كارين: "أفضل التزام الصمت، على الرغم من أنني على استعداد لأخبرك بأن سائقه سيأخذه إلى بادينغتون".

قالت إيما: "ريدينغ 3,7 بالمئة، باث 2,9 بالمئة، بريستول دوكلاندز 1,6 بالمئة، إكسيتير 2,7 بالمئة وترورو...".

قاطعتها كارين: "من المستحيل أن تكون ترورو، فلديه اجتماع في ترانسبورت هاوس في الساعة الثامنة من هذا المساء، لذا لن يستطيع أن يكون

هناك في الموعد". ثم توقفت عن الكلام عندما دخل ماركهام الغرفة ومعه قهوة طازجة.

سألت إيما بشكل اعتيادي: "مع من كان يتكلم أخي على الهاتف؟".

"مع السيد دينيس هيلي".

"آه أجل، وهما ذاهبان إلى...؟".

أجاب ماركهام وهو يسكب لإيما كوبًا من القهوة: "إلى ريدينغ يا سيدتي".

قالت إيما: "لو عملت في الجاسوسية لكنت جاسوسًا جيدًا".

قال ماركهام قبل أن يضع الأطباق جانبًا ويغادر الغرفة: "شكرًا لك يا سيدتي".

همست كارين: "كيف تعرفين أنه ليس واحدًا بالفعل؟".

7

إن سأل أحد إيما عما حدث في الأيام الثمانية والعشرين التالية، كانت ستصفها بالوقت الضبابي الطويل. فالأيام التي بدأت بقفزها إلى سيارة في الساعة السادسة كل صباح، تتابعت باستمرار إلى أن أصبحت تغط في النوم عادة في مقصورة قطار فارغة أو مؤخرة طائرة حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

حافظ جايلز على الروتين نفسه، وطرق المواصلات نفسها، والساعات نفسها، ولكن مع فئات مختلفة. كانا بعيدين كل البعد عن قدرتهما على التجسس باستمرار على بعضهما، فلم تكن تتقاطع طرقهما إلا نادرًا.

أظهرت الاستفتاءات دائمًا تقدمًا بعدة نقاط لصالح حزب العمال، وحذر جون لاسي إيما أنه في خلال الأسبوع الأخير من أي حملة يميل الناخبون للتوجه نحو الحكومة الحالية، ولكن إيما لم تشعر بهذا عندما كانت في الخارج تلتمس الوضع في الشوارع العامة، مع أنها تساءلت بالفعل إن كان الناخبون يتصرفون بأدب فقط عندما لمحوا وردتها الزرقاء وسألتهم إن كانوا سيصوتون لحزب المحافظين. متى ما كانت السيدة تاتشر تُسأل عن الاقتراع أثناء سفرها في البلاد، فإنها تجاوب دائمًا: "الاستفتاءات السيئة للناس السيئين، والناس الحقيقيون فقط سيصوتون في الثالث من أيار".

وعلى الرغم من أن إيما أجرت محادثة واحدة مع السيدة تاتشر خلال الحملة التي مدتها ثمانية وعشرين يومًا، إلا أنها استنتجت أن قائدة حزبها إما ممثلة ناجحة، أو أنها تؤمن حقًا أن حزبها سيفوز. وقد أخبرت إيما عندها: "هناك عاملان لن

يتمكن الاستفتاء من أخذهما بالحسبان، الأول هو عدد الناس المستعدين للاعتراف بأنهم سيصوتون لرئيسة وزراء أنثى، أما الثاني فهو عدد الزوجات اللواتي لن يخبرن أزواجهن أنهن سيصوتن للمحافظين للمرة الأولى".

***

كان كل من جايلز وإيما في بريستول دوكلاندز في اليوم الأخير من الحملة، وعندما دقت الساعة العاشرة مساءً وجُمع آخر صوت، لم يكن أي منهما يشعر بالثقة الكافية للتنبؤ بالنتيجة النهائية.

أسرع كلاهما بالعودة إلى لندن بالقطار، ولكنهما لم يتشاركا المقصورة نفسها.

كان جون لاسي قد أخبر إيما أن هرمية كلا الحزبين ستنخفض في مقريهما- المكتب المركزي لحزب المحافظين والترانسبورت هاوس لحزب العمال-. كان ساسة الحزبين منتشرين في زوايا مختلفة من سميث سكوير حيث ينتظرون النتائج.

لخص لها لاسي الوضع: "بحلول الساعة الثانية بعد منتصف الليل، سيتحدد مجرى الأمور، وسنعرف على الأرجح من سيشكل الحكومة القادمة. وبحلول الساعة الرابعة، ستلمع الأضواء في أحد المباني وستستمر الاحتفالات حتى الفجر".

قالت إيما: "وفي المبنى الآخر؟".

"ستبدأ الأنوار بالانطفاء قرابة الساعة الثالثة، عندما يعود المهزومون أدراجهم إلى منازلهم، ويقررون على من سيلقون اللوم وهم يستعدون للمعارضة".

كانت إيما قد سألت مسؤول الحزب في ليلة الاستفتاء: "ماذا تظن أن النتيجة ستكون؟".

ردّ لاسي: "التنبؤ للمراهنين والمقامرين، ولكن مهما كانت النتيجة، كان من الشرف لي أن أعمل مع رئيسة المركز الطبي الملكي".

ترجلت إيما بسرعة من القطار عندما توقف في بادينغتون، واستقلت أول سيارة أجرة متاحة. وارتاحت حين وصلت إلى سميث سكوير لمعرفة أن جايلز لم يظهر بعد، ولكن هاري كان بانتظارها. فاستحمت بسرعة وغيرت ملابسها قبل أن يتوجها معًا إلى الجانب الآخر من الساحة.

تفاجأت بعدد الناس الذين تعرفوا إليها، حتى أن بعضهم صفق لها بينما كانت تمر بجانبهم، بينما حدق آخرون إليها بصمت غاضب. ثم ارتفع صوت تشجيع، والتفتت إيما لترى أخاها يترجل من سيارة ما ويلوح لداعمي حزبه قبل أن يختفي في ترانسبورت هاوس.

عادت إيما إلى المبنى الذي كان قد أصبح مألوفًا لها كثيرًا خلال الشهر الماضي، واستقبلها عدد من مسؤولي حزب المحافظين الذين قابلتهم عندما كانت في خضم الحملة الانتخابية. أحاط الناس بأجهزة التلفاز في كل غرفة، من داعمين، وعاملين في الحزب إلى موظفي المكتب المركزي، منتظرين إعلان أولى النتائج. لم يكن هناك سياسي واحدٌ على مد النظر، فقد عادوا كلهم إلى فئاتهم، منتظرين ليعرفوا إن كانوا لا يزالون أعضاء في البرلمان.

أعلنت كرويدون المركزية في الساعة الواحدة وثلاث وعشرين دقيقة صباحًا بتحول قدره 1,8 بالمئة لصالح المحافظين. لم تطلق أي صيحات تشجيع لأن الجميع كان يعرف أن هذا يشير إلى برلمان معلق، مع عودة جيم كالاغان إلى القصر ليسأل إن كان بإمكانه تشكيل حكومة.

علت الهتافات في الساعة الواحدة وثلاث وأربعين دقيقة صباحًا عندما استحوذ المحافظون على باسيلدون، وهذا الأمر اقترح في مخطط إيما أغلبية للحزب المحافظ بثلاثين، بعد ذلك بدأت النتائج بالصدور بسرعة متضمنة إعادة عد أصوات في بريستول دوكلاندز.

كانت الأضواء بدأت بالإنطفاء في ترانسبورت هاوس حين خرجت السيدة تاتشر من دائرة فينشلي الانتخابية بعد الساعة الثالثة، وتفاجأت بعد دخولها إلى المقر الرئيسي بأن الأشخاص الذين كان مترددين في التصويت قد تحولوا إلى مؤيدين، والأشخاص الذين كانوا في الأصل مؤيدين أصبحوا يتطلعون للانضمام إلى حكومتها الأولى.

وقفت قائدة الحزب المعارض على منتصف الدرج وألقت خطاب شكرٍ قصير، وقد تأثرت إيما حين سمعتها تذكر اسمها في الخطاب. ثم خرجت السيدة تاتشر من المبنى بعد مصافحة عدد من الأيادي الممدودة، مفسرة أن لديها يومًا مشغولًا في الغد، لكن إيما تساءلت إن كانت ستنام أصلًا اليوم.

دخلت إيما إلى مكتب جون لاسي عند الرابعة بعد منتصف الليل لتجده واقفًا قرب المخطط يملؤه بآخر النتائج، فسألته محدقة إلى بحر المربعات الزرقاء: "ما هو توقعك؟".

أجاب لاسي: "يبدو الأمر كأغلبية بأربعة وأربعين، وهذا أكثر من كافٍ للحكم لخمس سنوات قادمة".

سألت إيما: "وماذا عن مقاعدنا الاثنين والستين الهامشية؟".

"لقد ربحناها كلها عدا ثلاثة، ولكنهم يعيدون عد الأصوات للمرة الثالثة في بريستول دوكلاندز لذا من الممكن أن يتقلص العدد مقعدين فقط".

همست إيما: "أعتقد أننا يمكن أن نسمح لجايلز بربحهما".

قال لاسي: "كنت أعلم دائمًا أنك هكذا".

فكرت إيما بأخيها وكيف سيكون شعوره الآن، ثم قالت: "تصبح على خير جون، وشكرًا على كل شيء. أراك بعد خمس سنوات". ثم خرجت من المبنى وعادت إلى منزلها على الطرف الآخر من الساحة حيث كانت تخطط للعودة إلى العالم الحقيقي.

***

استيقظت إيما بعد عدة ساعات لتجد هاري جالسًا على طرف سريرها وهو يحمل كوبًا من الشاي، ثم قال: "هل ستنضمين إلينا على الفطور يا عزيزتي، الآن وبعد أن انتهيت من عملك؟".

تثاءبت إيما ومددت ذراعيها قبل أن تقول: "ليست فكرة سيئة يا هاري كليفتون، لأن الوقت قد حان لأعود إلى العمل".

"حسنًا ما الخطة اليوم؟".

"عليّ أن أعود إلى بريستول، فلدي موعدٌ مع الرئيس الجديد للمركز الطبي عند الساعة الثالثة لمناقشة أولويات السنة القادمة".

"وأنت سعيدة بخلفك؟".

"لا يمكنني أن أكون أكثر سعادة، فسايمون داوكينز مديرٌ من الدرجة الأولى وقد كان مساعدًا مخلصًا، لذا أتوقع أن التسليم سيكون سلسًا".

قال هاري وهو يعطيها كوب الشاي: "حسنًا سأتركك لترتدي ملابسك". ثم خرج ونزل الدرج لينضم إلى جايلز على الفطور.

كان جايلز يجلس عند نهاية الطاولة محاطًا بالصحف الصباحية التي لم تكن جيدة لقراءتها، ثم

ابتسم لأول مرة ذلك النهار عند رؤيته لزوج شقيقته يدخل الغرفة. سأله هاري واضعًا يده على كتف أقدم أصدقائه: "كيف تشعر؟".

اعترف جايلز مبعدًا الصحف جانبًا: "مررت بصباحات أفضل، لكنني لست في موقع يسمح لي بالشكوى، فقد خدمت وزيرًا لتسعٍ من السنوات الأربع عشرة الماضية، ولا بد أنه لا يزال لدي فرصة لرئاسة المجلس بعد خمس سنواتٍ".

ثم وقف الرجلان عندما دخلت إيما. قال جايلز: "تهاني يا أختي. لقد كنت خصمًا نبيلًا واستحققت الفوز".

حضنت إيما أخاها، لم تكن قد فعلت ذلك منذ ثمانية وعشرين عامًا ثم جلست على الكرسي إلى جانبه وقالت: "شكرًا لك جايلز، ما هي مخططاتك اليوم؟".

قال مشيرًا إلى الصورة على الصفحة الأولى من صحيفة ديلي أكسبريس: "عليَ أن أسلم أختامي في وقتٍ ما من هذا الصباح حتى تتمكن تلك المرأة من تشكيل حكومتها الأولى والأخيرة كما آمل. عليها أن تتواجد في القصر حيث ستقبل الأيادي قبل أن تُؤخذ إلى 10 داونينغ ستريت منتصرة. ستتمكنين من مشاهدة ذلك على التلفاز ولكن أتمنى أن تعذريني إن لم أستطع الانضمام إليك".

***

وضع هاري الحقائب قرب الباب الأمامي بعد أن انتهت إيما من توضيبها ثم انضم إليها في غرفة الجلوس، ولم يكن متفاجئًا ليجدها متسمرة أمام التلفاز، حتى أنها لم ترفع نظرها عنه عند دخوله الغرفة.

كانت ثلاث سيارات جاغوار تخرج من قصر

باكنغهام، والحشود واقفة على الرصيف خارج بوابات القصر، كانوا يصفقون ويلوحون حين مر الموكب في طريق ذا مول إلى وايتهال. وكان المراسل روبن داي يجري بثًا مباشرًا ويقول: "رئيسة الوزراء الجديدة ستقضي فترة الصباح بتعيين مجلس وزرائها الأول. يتوقع أن يكون لورد كارينغتون هو وزير الخارجية الجديد، وأن يشغل جوفري هوي منصب وزير العدل، وليون بريتان وزيرًا للداخلية. أما عن بقية المناصب فعلينا الانتظار لنرى من سيشغلها. لا أعتقد أنه سيكون هناك الكثير من المفاجآت، مع أنه يمكنكم أن تكونوا واثقين من وجود عدة سياسيين متوترين جالسين الآن قرب هواتفهم ويتأملون اتصالًا من مقر الحكومة الذي يعرف أيضًا بالرقم عشرة".

دخلت السيارات الثلاث إلى داونينغ ستريت ثم علت الهتافات مرة أخرى عندما خرجت رئيسة الوزراء من السيارة. ألقت خطابًا قصيرًا مقتبسة من القديس فرانسيس الأسيزي قبل أن تختفي داخل المقر.

قال هاري: "من الأفضل أن نتحرك، أو سيفوتنا القطار".

***

قضت إيما فترة بعد الظهر مع خلفها في رئاسة المركز الطبي الملكي سايمون داوكينز قبل أن تخلي مكتبها الثاني ذلك اليوم. ثم ملأت المقعد الخلفي إضافة إلى الصندوق الخلفي من سيارتها بكل حاجياتها التي كانت هناك خلال العقد الماضي، ولم تنظر إلى الخلف عندما قادت سيارتها مبتعدة عن المركز الطبي. كانت تتطلع إلى عشاء هادئ مع هاري في مانور هاوس، ثم أن تضع رأسها على وسادة

قبل منتصف الليل للمرة الأولى منذ أسابيع آملة بالحصول على أكثر من أربع ساعات من النوم.

***

كانت إيما ترتدي رداء نومها وتستمتع بفطور متأخر حين رن الهاتف. أجاب هاري واستمع لدقيقة قبل أن يضع يده على السماعة ويهمس: "اتصال من 10 داونينغ ستريت".

أسرعت إيما وأخذت الهاتف معتقدة أن السيدة تاتشر هي من ستكون على الجانب الآخر من الخط.

قال صوت رسمي: "هنا 10 داونينغ ستريت، تتساءل رئيسة الوزراء إن كان بإمكانك لقاؤها الساعة الثانية عشرة والنصف بعد ظهر هذا اليوم".

أجابت إيما دون تفكير: "أجل، بالطبع". ثم أغلقت السماعة.

سألها هاري: "متى؟".

"في الثانية عشرة والنصف في رقم عشرة".

"إذًا لا بد أن ترتدي ملابسك في الحال، وسأحضر السيارة. علينا أن نسرع إن أردنا أن نلحق بقطار العاشرة والعشر دقائق".

هرعت إيما إلى الطابق لعلوي، وأخذت وقتًا أكثر مما ينبغي لتقرر ما الذي سترتديه، واستقرت في النهاية على قميص أبيض حريري مع بذلة زرقاء بسيطة. قال هاري وهو يقود خارج ممر السيارات من البوابة الأمامي: "تبدين رائعة". كان سعيدًا لأنه استطاع تفادي الازدحام المروري الصباحي، وركن السيارة خارج تيمبل ميدز عند الساعة العاشرة تمامًا.

صرخ محدثًا زوجته التي ترجلت من السيارة: "اتصلي بي عند رؤيتك لها". لكنه لم يكن متأكدًا من

أنها سمعته.

لم تستطع إيما أن توقف تفكيرها في القطار بأنه إن كانت مارغريت ترغب بشكرها لكانت فعلت ذلك على الهاتف. تفحصت صحيفة الصباح، التي كانت مملوءة بصور لرئيسة الوزراء الجديدة مع تفاصيل عن المسؤولين الذين عينتهم، فقد كان من المقرر أن تجتمع الحكومة الجديدة للمرة الأولى عند الساعة العاشرة من ذلك الصباح، ونظرت إلى ساعتها لتجدها العاشرة والربع.

كانت إيما من أول الخارجين من القطار حين توقف وركضت كل المسافة حتى موقف سيارات الأجرة، وعندما وصلت إلى أول الصف قالت للموظفة: "10 داونينغ ستريت. وعلي أن أكون هناك عند الثانية عشرة والنصف". نظرت إليها الموظفة وكأنها تقول: لا بد من أنك تمزحين. وعندما وصلت سيارة الأجرة إلى وايتهول توقفت قليلًا في بداية داونينغ ستريت، نظر ضابط شرطة هناك إليها وابتسم ثم حياها. وأكملت السيارة طريقها ببطء حتى وصلت إلى باب الرقم عشرة وأخرجت إيما حقيبتها لتدفع للسائق لكنه أوقفها قائلًا: "لا حاجة لذلك يا سيدتي. لقد صوتت لصالح المحافظين لذا هذه التوصيلة على حسابي. وبالمناسبة، حظًا سعيدًا".

فُتح باب الرقم عشرة قبل أن تتمكن إيما حتى من الطرق عليه، وبعد أن دخلت وجدت امرأة شابة بانتظارها.

"صباح الخير سيدة كليفتون. اسمي أليسون، وأنا إحدى السكرتيرات الشخصية لرئيسة الوزراء. أعلم أنها تتطلع لرؤيتك".

تبعت إيما السكرتيرة بصمت، صاعدة الدرج إلى

الطابق الأول حيث توقفا أمام باب ما، قرعته السكرتيرة ثم فتحته ووقفت جانبًا، لتدخل إيما وتجد السيدة تاتشر تتكلم على الهاتف.

قالت رئيسة الوزراء قبل أن تغلق الهاتف: "سنتكلم مجددًا في وقت لاحق يا ويلي، وسأعلمك حينها بقراري". ثم نهضت من خلف مكتبها موجهة حديثها إلى إيما: "إيما، من اللطف منك أن تعودي إلى لندن خلال فترة قصيرة كهذه، فقد افترضت أنك ما زلت في المدينة".

"لا مشكلة يا رئيسة الوزراء".

"أولًا، تهاني على الفوز بتسعة وخمسين من الاثنين وستين مقعدًا هامشيًا المستهدفة. يا له من انتصار! على الرغم من أنني أتوقع أن يغيظك أخوك قليلًا بسبب عدم تمكنك من كسب بريستول دوكلاندز".

"في المرة القادمة يا رئيسة الوزراء".

"ولكن قد يكون هذا بعد خمسة أعوام ولدينا الكثير لنقوم به قبل ذلك الوقت، لهذا أردت رؤيتك. أنت تعلمين على الأرجح أنني عرضت على باتريك جينكين أن يصبح وزير الصحة، وبالطبع سيكون بحاجة إلى وكيل وزارة في البرلمان ليقود مشرع قانون للصحة الوطنية ليوافق عليه مجلس الشيوخ ويضمن وجوده في الدستور، ولا يمكنني التفكير بأحد مؤهل بشكل أفضل منك ليقوم بهذه المهمة. فلديك خبرة واسعة في مؤسسة الصحة العامة، وسنواتك كمديرة لشركة عامة تجعلك المرشحة المثالية للمنصب. لذا أتمنى أن تشعري بأنك قادرة على الانضمام إلى الحكومة كأحد النبلاء".

كانت إيما عاجزة عن الكلام.

"أحد الأشياء الرائعة حقًا فيك يا إيما، أنه لم

يخطر ببالك حتى أن هذا هو السبب الذي أردت رؤيتك لأجله، فنصف وزرائي افترضوا أنهم لم يأخذوا أكثر مما يستحقون، بينما النصف الآخر لم يستطع إخفاء خيبته. أظن أنك الوحيدة التي تفاجأت حقًا".

وجدت إيما نفسها تومئ برأسها.

"لذا دعيني أخبرك ما الذي سيحدث الآن. عندما تغادرين من هنا، سيكون هناك سيارة في الخارج لأخذك إلى ألكسندر فليمينغ هاوس، حيث ينتظرك وزير العلاقات العامة، وسيطلعك على مسؤولياتك بشكل مفصل. وبالتحديد، سيريد أن يتكلم معك عن مشروع القانون للصحة الوطنية الجديد، الذي أتمنى أن يتم الموافقة عليه من قبل كلا الطرفين بأسرع ما يمكن، ويفضل أن يحدث ذلك خلال سنة. استمعي إلى باتريك جينكين، فهو سياسي ذكي، وهو الأمين الدائم للوزارة، وأنصحك بطلب مشورة أخيك أيضًا. فلم يكن وزيرًا قديرًا فحسب، بل هو أفضل من يعرف كيف يعمل البرلمان".

"ولكنه مع الطرف الآخر".

"ليست هذه طريقة سير الأمور في البرلمان، وهذا ما ستكتشفينه سريعًا. فهم متحضرون أكثر هناك في الطرف الآخر، وليسوا مهتمين بالفوز بنقاط سياسية فقط. أما نصيحتي الأخيرة لك فهي أن تحرصي على الاستمتاع بالأمر".

"أشعر بالإطراء لتفكيرك بي يا رئيسة الوزراء، وعليّ أن أعترف، أنني أشعر بالخوف من هذا التحدي قليلًا".

قالت السيدة تاتشر: "لا داعي لذلك، فقد كنت خياري الأول للعمل. شيء أخير يا إيما، أنت من ضمن قلة من الأصدقاء الذين أتمنى أن يظلوا

ينادونني بمارغريت، فأنا لن أبقى في هذا المنصب إلى الأبد".

"شكرًا لك يا رئيسة الوزراء"، ثم نهضت إيما من مكانها وصافحت مديرتها الجديدة، وعندما غادرت الغرفة، وجدت أليسون واقفة في الرواق.

"تهاني أيتها الوزيرة. هناك سيارة تنتظر لتأخذك إلى قسمك".

حاولت إيما أثناء نزولهما الدرج، ومرورهما بجانب صور رؤساء الوزراء السابقين، استيعاب ما حدث خلال الدقائق القليلة الماضية، وعندما وصلت إلى البهو، فُتح الباب الأمامي ودخل رجل شاب، ليقاد صعودًا عبر السلالم من قبل سكرتيرة أخرى، وتساءلت ما المنصب الذي سيُعرض على نورمان.

قالت أليسون فاتحة بابًا جانبيًا: "اتبعيني لو سمحت، اعتقدت رئيسة الوزراء أنك ربما سترغبين بالاتصال بزوجك قبل أن تبدئي عملك الجديد".

كان الباب يقود إلى غرفة صغيرة فيها مكتب وهاتف، ثم أغلقته إيما بعد أن دخلا.

8

أمضى جايلز فترة الصباح ينقل أوراقه وملفاته وممتلكاته الخاصة من أول الرواق إلى آخره، تاركًا وراءه مكتبه الفسيح والمرتب المطل على ساحة البرلمان، وأيضًا مجموعة من الموظفين الذين كان هدفهم الوحيد هو تلبية طلباته.

وفي المقابل، انتقل إلى جناحٍ ضيق مأهول فقط من قبل سكرتيرة واحدة، حيث كان من المفترض أن ينجز نفس وظيفته ولكن هذه المرة للطرف الآخر. كان انحداره مؤلمًا وسريعًا، فلم يعد يستطيع الاعتماد على كادر من الموظفين لنصحه، أو ترتيب مفكرته وصياغة خطاباته، فقد أصبح هؤلاء الموظفون الآن يخدمون رئيسًا جديدًا يمثل حزبًا آخر لتستمر أعمال الحكومة بشكل سلس. يا لها من ديمقراطية!

رن الهاتف وأجاب جايلز عليه ليجد قائد حزب العمال على الطرف الآخر.

"سأترأس اجتماعًا لحكومة الظل عند الساعة العاشرة من صباح يوم الاثنين في مكتبي الجديد في البرلمان. آمل أنك ستتمكن من الحضور يا جايلز".

كان جيم كالاغان يجري اتصالاته الهاتفية بنفسه للمرة الأولى منذ أعوام بعد أن لم يعد بإمكانه الاتصال بسكرتيرته الخاصة لتستدعي أعضاء الحكومة إلى الرقم عشرة.

***

كان من الاستخفاف القول إن زملاء جايلز كانوا مصدومين وهم يجلسون حول الطاولة يوم الاثنين، فقد كانوا جميعًا قد أخذوا بالحسبان احتمال

الخسارة لصالح تلك السيدة، ولكن ما لم يتوقعوه هو أن تفوز بتلك الغالبية الكبيرة.

ترأس جيم كالاغان الاجتماع، كان قد كتب جدول أعماله بشكلٍ سريع على ظهر مغلف ما وأعطاه للسكرتيرة التي طبعته ووزعته على بقية زملائه الذين نجوا من الانتخابات. كان الموضوع الوحيد الذي شغل تفكير الأشخاص الجالسين حول الطاولة هو متى سيستقيل جيم من منصبه قائدًا لحزب العمال، فقد كان ذلك الموضوع الأول على جدول الأعمال. وقد أخبر زملاءه بأنه ينوي إفساح المجال لقائد جديد عندما يعثرون على شخص مناسب، شخص سيستطيع أن يفعل شيئًا على مدى السنوات القليلة القادمة أكثر من التسكع في ردهة الرقم عشرة ليصوت ضد الحكومة، فقط لينتهي الأمر به بالخسارة.

وبعد أن وصل الاجتماع إلى نهايته فعل جايلز شيئًا لم يكن قد فعله منذ سنوات، لقد عاد إلى المنزل سيرًا على قدميه من دون سيارة وزارية. كان قد افتقد بيل فكتب له رسالة يتشكره بها قبل أن ينضم إلى كارين على الغداء.

سألته عندما دخل المطبخ: "هل كان الأمر شنيعًا؟".

"أشبه بحضور جنازة، لأننا نعلم جميعًا بأننا لن نتمكن من فعل شيء حيال الأمر لأربع سنوات على الأقل. وعندها سأكون قد بلغت الثالثة والستين عامًا، ولا شك أن قائد الحزب الجديد -كائنًا من كان- سيمتلك مرشحه الخاص ليستبدلني به".

قالت كارين: "إلا إن وجهت دعمك إلى الرجل الذي سيصبح القائد الجديد، وفي هذه الحالة سيكون لك مكان عند رأس الطاولة".

"إن دينيس هيلي هو المرشح الوحيد الموثوق

لهذا المنصب برأيي، وأنا واثق تمامًا بأن الحزب سيقف خلفه".

سألت كارين وهي تسكب له كأسًا من النبيذ: "ومن ترجح أن ينافسه؟".

"ستدعم الاتحادات مايكل فوت، ولكن سيدرك معظم الأعضاء أنه ومع شهاداته اليسارية لن يكون للحزب فرصة كبيرة للفوز بالانتخابات القادمة. على كل حال لن يكون علينا القلق بشأن هذا الاحتمال لبعض الوقت، لذا لنتحدث عن شيء أكثر استساغة، مثلًا أين ترغبين في قضاء عطلتك الصيفية؟".

قالت كارين وهي تهرس بعض البطاطا: "هناك شيء آخر علينا مناقشته قبل أن ننتقل إلى هذا الموضوع. قد يكون الناخبون قد رفضوك، لكنني أعرف أحدًا لا يزال بحاجة مساعدتك".

"ما الذي تتحدثين عنه؟".

"اتصلت بي إيما هذا الصباح، وهي تأمل بأن تتمكن من تقديم النصح لها في منصبها الجديد".

"منصبها الجديد؟".

"ألم يخبرك أحد؟ لقد عُينت وكيلة وزارة الصحة، وستنضم إلى البرلمان".

انتظرت كارين لترى رد فعله، وكانت أولى كلماته هي: "كم كانت أمنا فخورة لو أنها على قيد الحياة. إذًا على الأقل قد نتج شيء جيد واحد عن هذه الانتخابات. سأتمكن حتمًا من أن أريها أي الحفر عليها أن تتفاداها، وأي الأعضاء الذين يجب أن تنصت لهم، وأولئك الذين عليها أن تتجاهلهم، وكيف يمكنها كسب ثقة البرلمان. فذلك ليس بالأمر السهل في أفضل الأحوال. سأتصل بها بعد الغداء مباشرة وأعرض عليها جولة حول قصر وستمنستر خلال

العطلة".

"وإن كنا سنقضي عطلتنا في إسكتلندا هذه السنة يمكننا دعوة هاري وإيما لمرافقتنا. فستكون المرة الأولى منذ سنوات التي لن يزعجك فيها موظفوك باستمرار بادعائهم بأن هناك مشكلة، أو الصحفيون الذين يقولون نأسف لإزعاجك في عطلتك سيدي الوزير ولكن...".

"هذه فكرة جيدة. وسيعتقد زملاؤها الجدد بأنها قد قضت عقدًا في البرلمان عندما يُعرف بها هناك في شهر تشرين الأول".

قالت كارين وهي تضع طبقًا من اليخنة على الطاولة أمامه: "وهناك أمر آخر علينا مناقشته الآن وقد أصبحت تمتلك الكثير من الوقت بين يديك".

قال جايلز وهو يمسك بشوكته وسكينه: "أنت على حق يا عزيزتي. ولكن دعينا لا نتحدث عنه فقط هذه المرة، بل فلنفعل شيئًا".

نهض اللورد غودمان من وراء مكتبه حين دخلت سكرتيرته وهي عميلةً محتملةً. قال المحامي المشهور حين صافحا بعضهما: "لي الشرف أن أقابلك أخيرًا يا سيدة غرانت. أرجوك تفضلي بالجلوس". وأشار إلى الكرسي المريح خلفها.

سألت إيلي ماي بعد أن جلست على الكرسي: "هل من الصحيح أنك كنت محامي رئيس الوزراء؟".

أجاب غودمان: "هذا صحيح، وأنا الآن أخدم فقط السيد ويلسون في وظيفة خاصة".

سألت إيلي ماي وهي تعلم جيدًا أنها ستدفع ثمن الدردشات الصغيرة كما لو أنها استشارة قانونية: "وهل وجدت الوقت لقراءة الرسالة والمرفقات التي بعثتها إليك؟".

أجاب غودمان وهو يربت على الملف الموجود أمامه: "كل كلمة منه. كنت آمل فقط لو أن زوجك عمل بنصيحتي في وقت هذه الحادثة التعيسة. فلو استشارني لكنت نصحته بأن يفضح خداع الليدي".

"ولكن إن كنا جميعًا مباركون بهبة الإدراك المتأخر، فعندها لن يكون هناك حاجة لعدد كبير من المحامين يا سيد غودمان. ولكن مع ذلك، برأيك هل لدى الليدي فيرجينيا قضية لتحلها؟".

"بكل تأكيد يا سيدتي. هذا باعتبار أن السيدة مورتون ستوافق على توقيع شهادة تقر بأن المبجل فريدي فينويك هو ابنها، وأن الليدي فيرجينيا كانت على علمٍ بذلك في وقت ولادته".

"فقط قدّم لهم المستندات الضرورية سيد غودمان، وهم سيوقعون. هل سيتمكن سايروس من استرداد المبلغ الكامل الذي دفعه لتلك المحتالة في كل تلك السنوات عند انتهاء الأمر؟".

"كل بنسٍ منه، إضافةً إلى أي مبالغ أو فوائد أخرى تقرها المحكمة، إلى جانب أتعابي بالطبع".

سألت إيلي ماي: "حسنًا، نصيحتك تقتضي بمقاضاة تلك السافلة؟".

قال غودمان رافعًا حاجبه: "بشرطٍ واحد".

"إن المحامين دائمًا ما يأتون بشروط فقط في حال خسروا القضية، فلنسمع ما لديك".

فتح غودمان أحد الملفات أمامه قائلًا: "لن يكون هناك مغزى كبير من مقاضاة الليدي فيرجينيا بهذا المبلغ الكبير إن لم تكن تمتلك أية أصولٍ ذات قيمة فعلية، خصوصًا وأن إحدى الصحف تزعم أنها ستسحب فريدي من مدرسته لأنها لم تعد تستطيع تحمل التكاليف".

"لكنها تمتلك منزلًا في ساحة أونسلو، ومصادري تخبرني بأنها تملك مجموعة من الموظفين للاهتمام به".

قال غودمان: "امتلكت. فقد باعت الليدي فيرجينيا المنزل منذ عدة أشهر وطردت كل الموظفين". ثم فتح ملفًا آخر وتحقق من بعض المقالات الصحفية قبل أن يمررها إلى موكلته. وسألت إيلي ماي بعد أن أنهت قراءتها: "هل هذا يغير رأيك؟".

"لا، ولكن في البداية أقترح أن نرسل إلى الليدي فيرجينيا رسالة خارج إطار القضية والمحكمة نطلب فيها أن تعيد المبلغ كاملًا، ونمهلها ثلاثين يومًا للرد. أجد صعوبة في تصديق أنها لن ترغب بالوصول لنوع من التسوية بدلًا من أن تعلن إفلاسها أو حتى أن تواجه احتمال اعتقالها بتهمة الاحتيال".

قالت إيلي ماي: "وإن لم تقبل... لأن لدي شعورًا بذلك".

"سيكون عليك أن تقرري إن كنت ترغبين بتوجيه اتهام رسمي أو لا، مع الأخذ بعين الاعتبار احتمال كبير أنك لن تستردي بنسًا واحدًا، وفي تلك الحالة سيكون عليك أن تدفعي بنفسك المبالغ القانونية المترتبة على ذلك وهي لن تكون قليلة. بشكل عام، أنا أنصحك بتوخي الحذر، وبالطبع القرار النهائي يعود لك. ولكن كما أشرت سابقًا يا سيدة غرانت، فإن ذلك يمكن أن يكلفك قدرًا كبيرًا من المال من دون أية ضمانة بإمكانية استرداده".

"إن كان سينتهي الأمر بتلك السافلة مفلسة ومهانة ومضطرة لقضاء عقوبة السجن، فسيستحق ذلك كل بنس".

***

انضم هاري وإيما إلى جايلز وكارين لقضاء

أسبوعين في قلعة موليغلري، التي كانت منزل عائلة والدتهما في إسكتلندا، ومتى رن الهاتف -الذي كانت في معظم الأوقات لإيما- أو وصلت علب هدايا، كان على جايلز أن يعود نفسه على عدم فتحها.

وقد استطاع أخوها أن ينصح الوزيرة الجديدة حول طريقة التعامل مع الموظفين الذين بدوا وكأنهم نسوا بأنها في عطلة، والصحفيين الذين كانوا مستميتين للحصول على قصة لشهر آب بما أن البرلمان لم ينعقد بعد. وكان جايلز يجيب عن كل أسئلتها عندما يتنزهان معًا، مشاركًا معها خلاصة سنوات خبرته العديدة وزيرًا في البرلمان لدرجة أن إيما لم تشعر أنها قضت فترة عطلة حقيقية عندما عادوا إلى لندن بقدر ما شعرت أنها حضرت عدة مؤتمرات متقدمة عن الحكومة.

بقي جايلز وكارين هناك لبضع أسابيع بعد أن عاد هاري وإيما، وكان لدى جايلز شيء آخر لفعله قبل حضور مراسم الحفلة في برينغتون.

***

"شكرًا لموافقتك على رؤيتي يا آرتشي".

قال الإيرل العاشر لفينويك: "هذا من دواعي سروري. فأنا لن أنسى أبدًا لطفك حين استلمت كرسي والدي في البرلمان وأدليت خطابي الأول".

قال جايلز: "كان جيدًا جدًا، مع أنك هاجمت الحكومة".

"وأنا أنوي أن أكون ناقدًا بنفس الدرجة للمحافظين إن كانت سياستهم عتيقة مثل سياستك، ولكن أخبرني يا جايلز إلى من أدين بهذا الشرف، لأنني لا أظنك رجلًا يملك وقتًا ليضيعه".

قال جايلز بعد أن أعطاه ارتشي كأس الويسكي:

"أنا أعترف أنني أبحث عن معلومات تخص قضية عائلية".

"هل يعقل أن يكون الأمر يخص فيرجينيا بأي شكل؟".

"تقريبًا، فقد كنت أتمنى بأن تطلعني على آخر ما كانت تفعله أختك في الفترة الماضية، وسأشرح لك السبب لاحقًا".

قال آرتشي: "أتمنى لو كنت قادرًا على فعل ذلك، ولكنني لا أستطيع الادعاء بأننا قريبان من بعضنا، فالشيء الوحيد الذي أعرفه بالتأكيد عن فيرجينيا هو أنها مفلسة مرة أخرى، مع أنني كنت قد ورثت المقدار نفسه من وصية والدنا وبقيت أزودها بمصروف شهري، ولكن ذلك لن يكون كافيًا أبدًا للتعامل مع مشكلاتها الحالية".

ارتشف جايلز من كأس الويسكي ثم قال: "هل من الممكن أن تكون إحدى هذه المشاكل هي المبجل فريدي فينويك؟".

لم يجب آرتشي مباشرة، ثم قال في النهاية: "هناك شيء وحيد نحن متأكدون منه، وهو أن فريدي ليس ابن فيرجينيا، ومن المثير للاهتمام أن والدي كان يعلم بذلك من دون شك قبل أن يترك لها إرثًا واحدًا فقط في وصيته".

قال جايلز: "زجاجة شراب ميكرز مارك".

اعترف آرتشي: "أجل، لقد حيرني ذلك لبعض الوقت حتى زارتني امرأة تدعى السيدة إيلي ماي غرانت من باتون روج في لويزيانا، وشرحت لي أن تلك هي ماركة زوجها سايروس المفضلة من الويسكي. ثم أخبرتني بالتفصيل ما حدث في زيارة زوجها إلى لندن حين شاء سوء القدر أن يلتقي بفيرجينيا. لكنني ما زلت لا أعلم تمامًا كيف

استطاعت التهرب من ذلك لتلك الفترة الطويلة".

"حسنًا، دعني أضف إلى معلوماتك ما أعرفه من هايدن رانكين، حاكم لويزيانا، وصديق قديم لسايروس تي غرانت الثالث، فيبدو أنه وخلال رحلة سايروس الأولى والأخيرة إلى لندن، حضرت فيرجينيا خطة احتيال دقيقة لتقنعه بأنه قد تقدم لطلب يدها، بالرغم من حقيقة أنه كان لديه بالفعل خطط للزواج من شخص آخر التي هي إيلي ماي. ثم خدعت الرجل المسكين ليصدق أنها حامل وأنه الوالد. هذا كل ما أعرفه عن الأمر".

قال آرتشي: "يمكنني إضافة القليل بعد. فقد أطلعتني السيدة غرانت أنها قد وظَفت مؤخرًا خادم فيرجينيا السابق وزوجته، السيد والسيدة مورتون اللذين وقعا شهادة تقتضي بأن فريدي هو ابنهما، وذلك هو السبب بأن المبالغ الشهرية من سايروس توقفت لديها فجأة".

"لا عجب بأنها مفلسة. هل يعرف فريدي أن السيد والسيدة مورتون هما والداه؟".

"لا، هو لم يسأل من قبل وأنا لم أخبره، فهو يشعر حتمًا بأن والديه قد هجراه، والأمر يزداد سوءًا. فالسيدة غرانت وظفت مؤخرًا اللورد غودمان ليمثلها في محاولةٍ لاسترجاع كل الأموال التي أعطاها سايروس لفيرجينيا. وبعد أن حظيت بشرف لقاء العظيمة إيلي ماي غرانت، دعني أخبرك أن أختي قد التقت أخيرًا بنظيرتها".

"ولكن كيف أمكن لفيرجينيا...". صمت جايلز عندما فُتح الباب فجأة ودخل منه شاب صغير.

"ما الذي قلته لك يا فريدي عن قرع الباب، خاصة إن كان لدي ضيفٌ معي".

قال فريدي: "أعتذر يا سيدي". والتف مسرعًا

ليخرج.

"ولكن قبل أن تغادر أريد أن أعرفك على سياسي عظيم، هذا هو اللورد بارينغتون".

أدار فريدي ظهره وقال مادًا يده للمصافحة: "كيف أحوالك يا سيدي؟".

حدق فريدي إلى جايلز لبعض الوقت قبل أن يسأل في النهاية: "ألست أنت الرجل الذي كان متزوجًا من والدتي؟".

أجاب جايلز: "أجل، هذا صحيح. وأنا مسرور بلقائك أخيرًا".

سأله فريدي بعد صمتٍ قصير الأمد: "لكنك لست والدي، أليس كذلك؟".

"لا، لست والدك".

بدا فريدي محبطًا: "يقول خالي إنك سياسي رائع، ولكن أليس من الصحيح أيضًا أنت كنت لاعب كريكت رائعًا من قبل؟".

أجاب جايلز محاولًا تلطيف الأجواء: "لم أكن رائعًا أبدًا، وهذا كان منذ زمن بعيد".

"ولكنك حققت مئة نقطة في ملعب اللوردز".

"ما زال البعض يعتبر هذا أعظم إنجازاتي".

قال فريدي: "في أحد الأيام، سأحقق مئة نقطة في اللوردز أيضًا".

"أتمنى أن أكون موجودًا لأرى ذلك".

"يمكنك أن تأتي لمشاهدتي يوم الأحد القادم، فلدينا مباراة محلية لفريق كاسل ضد فريق ذا فيلاج، وأنا سأحقق هدف الفوز".

"فريدي، أنا لا أعتقد...".

قال جايلز: "مع الأسف، عليّ أن أكون في برينغتون

لحضور مراسم حفلة حزب العمال، ولكن عليّ الاعتراف أنني أفضل مشاهدتك تلعب الكريكت أكثر بكثير من رغبتي في سماع عدد لا ينتهي من الخطابات لمجموعة من قادة الاتحادات، الذين سيقولون نفس الكلام الذي قالوه السنة الفائتة تمامًا".

بدا فريدي حزينًا لذلك، لكنه سأل: "هل ما زلت تلعب الكريكت يا سيدي؟".

"فقط عندما يلعب بعض أعضاء مجلس البرلمان ضد أعضاء من مجلس الشيوخ، ولا يمكن لأحد ملاحظة لياقتي المتدهورة".

"قال لي مدرب الكريكت أن اللياقة مؤقتة، أما المهارة فهي دائمة".

قال جايلز: "قد يكون ذلك صحيحًا، ولكنني قاربت على إتمام عامي الستين وهذا عمري وليس معدل قدرتي على التسديد".

"لعب دبليو. جي. غرايس لصالح إنكلترا عندما كان عمره فوق الخمسين يا سيدي، لذا ربما يمكنك التفكير بالعودة واللعب مع فريقنا في وقت ما مستقبلًا".

"فريدي، لا تنس أن اللورد بارينغتون رجلٌ مشغولٌ جدًا".

"ولكنني لست مشغولًا لتلبية عرضٍ مغرٍ كهذا".

قال فريدي: "شكرًا لك يا سيدي، وسأرسل لك قائمة اللاعبين. عليّ الذهاب الآن لأتدرب على الضربات مع السيد لاوري، إنه خادمنا ولكنه أيضًا قائد فريق الكاسل". ثم خرج فريدي مسرعًا قبل أن يتسنى لجايلز الوقت ليطرح عليه سؤاله التالي.

قال آرتشي بعد أن أغلق الباب: "أعتذر عن ذلك،

ولكن فريدي فقط لا يدرك أنه يمكن للآخرين أن يكون لهم حياتهم الخاصة".

سأل جايلز: "هل يعيش هنا معك؟".

"فقط في أيام العطل، ولكنني أخشى أن الأمر ليس مناسبًا فالآن وبعد أن كبرت فتياتي وتركن المنزل، أصبح يشعر بالوحدة، وأقرب منزل حولنا على بعد عدة أميال وأصحابه لا ليس لديهم أطفال. ولكن الولد ليس عبئًا ماديًا عليَ بالرغم من تخلي فيرجينيا عنه، فقد ترك والدي لفريدي معمل شراب غلين فينويك، الذي يدر سنويًا ما يقارب مئة ألف جنيه، وسيرثه في عيد ميلاده الخامس والعشرين. في الواقع هذا ما تشربه أنت الآن. ولكن حذرني محامون مؤخرًا بأن فيرجينيا مهتمة بالحصول على المصنع، وأنها تبحث في إمكانية خرق وصية والدي".

قال جايلز: "لن تكون تلك المرة الأولى التي تحاول فيها ذلك".

9

"هل أنت متوترة؟".

اعترفت إيما وهي تعدل رداءها الأحمر الطويل: "بالطبع أنا كذلك، يذكرني هذا بيومي الأول في المدرسة".

قال جايلز: "لا يوجد شيء يستدعي التوتر. فقط فكري بنفسك على أنك كريستيان وعلى وشك دخول المدرج الروماني في عصر الإمبراطور ديوكليتيان، وبانتظارك عدة مئات من الأسود الجائعة لتأكل وجبتها الأولى منذ أسابيع".

قالت إيما: "كلامك هذا لا يمدني بأي ثقة بالنفس". ثم فتح موظفان بلباس المحكمة الرسمي الأبواب الغربية ليسمحا للزملاء الثلاثة بدخول القاعة.

دخلت البارونة كليفتون من تشيو ماغنا في مقاطعة سوميرست إلى القاعة لأول مرة، وعلى يمينها كان اللورد بيلستيد - رئيس البرلمان- الذي كان أيضًا في رداء أحمر طويل ويحمل قبعة مثلثية الشكل، أما على يسارها فكان اللورد بارينغتون من بريستول دوكلاندز، الرئيس السابق للبرلمان.

كانت تلك المرة الأولى في تاريخ البرلمان التي يحصل فيها عضو جديد على الدعم من قبل الحزبين السياسيين الأساسيين.

حدقت آلاف الأعين إلى إيما من كلتا جهتي الغرفة وهي تمشي على أرضية البرلمان. رفع الثلاثة قبعاتهم وانحنوا لزملائهم، ثم أكملوا طريقهم قاطعين جهة الحزب المستقل الذي لا يحمل ولاء لأي من الحزبين الاخرين، ويشار إلى أعضائه غالبًا بالمحترم والجيد، فيمكنهم أن يكونوا العامل الحاسم في أي قضية مثيرة للجدل حالما يقررون

لأي جهة سيصوتون. كان قد أخبر جايلز إيما بذلك.

تابعوا سيرهم أمام مقاعد الحكومة الأمامية حتى حمل اللورد بيلستيد صندوق الخطابات الخشبي، وابتسم الكاتب على الطاولة للزميلة الجديدة قبل أن يمرر لها بطاقة كُتب عليها قسم الولاء للتاج.

حدقت إيما في الكلمات التي كانت قد تدربت عليها صباحًا وهي تأخذ حمامها، وخلال الفطور، وفي السيارة في الطريق إلى قصر وستمنستر، وأخيرًا حين كانت تتجهز في غرفة الملابس، ولكن فجأة لم يعد الأمر مجرد تدريب.

"أنا، إيما إليزابيث كليفتون، أقسم بالرب العظيم، أنني سأكون مخلصة ووفية لجلالتها الملكة، وإلى ورثتها وخلفائها بحسب القانون، وليكن الرب في عوني على ذلك".

قلب الكاتب الصفحة على مخطوطة كبيرة حتى تتمكن العضوة الجديدة من إضافة توقيعها إلى قائمة الأسماء الموجودة، وعرض عليها قلمًا ولكنها رفضته بأدب حتى تستعمل قلمًا كان قد أعطاه لها جدها اللورد هارفي في يوم تعميدها منذ قرابة الستين عامًا.

رفعت إيما نظرها بعد أن وقعت على القسم من البرلمان المخصص لعامة الشعب، لترى كلًا من هاري، وكارين، وسيباستيان، وسامانثا، وغريس، وجيسيكا يبتسمون لها بنظرات ملؤها الفخر، فابتسمت لهم، ثم أخفضت نظرها ورأت سيدة من مجلس الشيوخ واقفة على طرف قسمهم.

أومأت لها رئيس الوزراء برأسها وأعادت لها إيما المجاملة، ثم تبعت البارونة كليفتون أخاها أمام المقاعد الأمامية، متجاوزة الوولساك حيث جلس لوردات القانون، حتى وصلت إلى كرسي

المتحدثين، وتقدم كاتب البرلمان ليعرف بالزميلة الجديدة قائلًا وهو يصافحها: "مرحبًا بك في البرلمان، ليدي كليفتون". كان هذا متبوعًا بهتافات تشجيع من جميع الاتجاهات في القاعة أثناء ترحيب زملائها بالعضوة الجديدة.

ثم قاد جايلز أخته متجاوزًا العرش حيث ابتسم لها عدة أعضاء جالسين حوله، بينما تابعت مشيها خارجة من الباب الشرقي وإلى حجرة الأمير، وتنفست إيما الصعداء ثم أزالت قبعتها حالما أصبحا خارج الحجرة.

قال جايلز منحنيًا ليقبل خدَي أخته: "بدا الأمر كأن الأسود قد أعجبوا بمظهرك، على الرغم من أنني لاحظت زميلًا أو اثنين لي تواقين لانتقادك في ظهورك الأول في حدث منصة الخطابات".

قال بيلستيد: "لا تنخدعي بأخيك، فسيكون أحد الناقدين عندما يحين الوقت لتواجهي الحزب المعارض".

"ولكن ليس قبل أن تلقي خطابك الأول يا أختي، عندها علي الاعتراف بأنك ستصبحين جاهزة لتقبل النقد".

سألت إيما: "حسنًا ما التالي؟".

ذكّرها جايلز: "شرب الشاي مع العائلة على الشرفة".

قال بيلستيد: "وعندما تصبحين متفرغة، هل لي أن أقترح بأن تعودي إلى القاعة وتأخذي مكانك في نهاية الصف الأمامي. وأنصحك أن تراقبي طريقة عمل البرلمان، وأن تعودي نفسك على طرقنا الغريبة وعاداتنا في الأيام القليلة المقبلة قبل أن تفكري في إلقاء خطبتك الأولى".

"الخطاب الوحيد الذي ستلقينه سيكون حين لا يتجرّا أحد على مقاطعتك خلاله، وسيمدح أي كان من يتكلم بعدك مساهمتك وكأنك سيسرو".

"ثم ماذا؟".

قال بيلستيد: "عليك التحضير للأسئلة التي ستطرح عليك كوكيلة لوزارة الصحة، وليبق في ذهنك أنه سيكون هناك عدة أعضاء موجودين من الوسط الطبي".

قال جايلز: "عندما يبدأ الجد لا تتوقعي أي حب أخوي، ولا حتى من أصدقائك الأعزاء، فستختفي الابتسامات اللطيفة ولن تسمعي الهتافات إلا من طرفك من البرلمان".

قال بيلستيد بابتسامة خبيثة: "ولن تكوني حتى قادرة على الاعتماد عليهم دائمًا".

"بكل الأحوال يا أختي، أهلًا بك في البرلمان، أعترف بأنني أشعر بالفخر في كل مرة يقول أحد زملائي: هل كنت تعلم بأن تلك هي أخت اللورد بارينغتون؟".

قالت إيما: "شكرًا يا جايلز، وأتطلع إلى اليوم الذي سيقول فيه أحد زملائي أنا: هل تعلم ذلك هو أخ الليدي كليفتون؟".

***

طق، طق، طق. كانت كارين أول من استفاق، لكنها التفت في الغطاء معتقدة أنها تحلم فقط.

طق، طق، طق كان الصوت أعلى بقليل هذه المرة.

استيقظت عندها إيما تمامًا، ثم تركت السرير وتسللت على رؤوس أصابعها إلى النافذة، غير راغبة بإزعاج جايلز. ثم سمعت نفس الضجة بشكل أعلى.

سألها صوت نعس: "هل هذا ما أعتقد أنه هو؟".

قالت كارين وقد فتحت الستائر ونظرت إلى الرصيف: "أنا على وشك اكتشاف ذلك. يا إلهي"، ثم اختفت خارج غرفة النوم قبل أن يتمكن جايلز من سؤالها عما يجري.

ركضت كارين على الدرجات وفتحت الباب الأمامي بسرعة، لتجد طفلًا واقفًا أمام العتبة مرتجفًا، فقالت له إيما: "ادخل". ولكنه بدا مترددا بأن يتحرك، لذا وضعت كارين يدها على كتفه وقالت: "لا أعلم بشأنك يا فريدي، لكنني أرغب حقًا بكوب من الشوكولا الساخنة. ما رأيك أن تدخل إلى المنزل لنرى ما لدينا هناك؟".

أمسك فريدي بيدها بينما دخلا من الردهة إلى المطبخ، في حين ظهر جايلز أمام الدرج، ثم انضم إليهما

قالت كارين بنبرة اعتيادية، وهي تسكب بعض الحليب في الوعاء: "اجلس يا فريدي. كيف وصلت إلى هنا؟".

"لقد أخذت القطار من إدنبرة، ولكنني لم ألحظ كم أصبح الوقت متأخرًا عندما وصلت إلى لندن. كنت جالسًا على العتبة لأكثر من ساعة، فلم أكن أرغب بإيقاظكما ولكن الجو بدأ يصبح باردًا".

سأل جايلز بينما فتحت كارين علبة بسكويت: "هل أخبرت ناظرك أو اللورد فينويك أنك قادم لرؤيتنا؟".

اعترف: "لا. فقد تسللت خارج الكنيسة أثناء الصلوات".

وضعت كارين كوبًا من الشوكولا الساخنة وصحنًا من البسكويت أمام ضيفهم غير المتوقع، ثم قالت: "هل أخبرت أحدًا، حتى لو صديقًا لك، أنك خططت لزيارتنا؟".

اعترف فريدي راشفًا الشوكولا: "ليس لديَ الكثير من الأصدقاء". ثم نظر إلى جايلز وأخبره: "أرجوك، لا تقل لي: يجب أن تعودي".

لم يتمكن جايلز من التفكير بإجابة مناسبة، لذا قالت كارين بدلًا عنه: "لنقلق بشأن هذا في الصباح. اشرب الشوكولا ثم سآخذك إلى غرفة نوم الضيوف حتى تتمكن من النوم قليلًا".

قال فريدي: "شكرًا لك يا ليدي بارينغتون. وأنا آسف فلم يكن قصدي أن أسبب لكما أي متاعب".

قالت كارين: "لم تفعل، ولنذهب الآن إلى السرير". ثم أخذت يده وقادته إلى غرفة النوم.

قال فريدي بصوت أشد حماسًا: "ليلة سعيدة، لورد بارينغتون".

أشعل جايلز الغلاية وأخرج إبريق الشاي من الرف الذي فوقه، ثم أمسك الهاتف وهو ينتظر الإبريق ليغلي واتصل بدليل الهاتف ليطلب منهم رقم مدرسة فريدي في إسكتلندا، وبعد أن كتب الرقم، تحقق أن لديه رقم منزل آرتشي فيونيك في دفتر الهاتف. قرر أن الساعة السابعة ستكون وقتًا مناسبًا للاتصال بكليهما. وعادت كارين إلى الغرفة مجددًا حين بدأ الإبريق بالصفير.

"غرق في النوم فور وضع رأسه على الوسادة، الصبي المسكين".

قال جايلز وهو يسكب كوبًا من الشاي: "كنت هادئة جدًا ومطمئنة، أما أنا فلم أعرف بصراحة ما الذي عليَ قوله أو فعله".

سألت كارين: "وكيف لك أن تعرف؟ فأنت لم تتعرض يومًا إلى شخصٍ يطرق بابك في منتصف الليل".

***

عم الصمت أرجاء القاعة المزدحمة عندما وقفت البارونة كليفتون من تشيو ماغنا لتلقي خطابها الأول، ثم نظرت إلى القسم من القاعة حيث جلس هاري وسيباستيان وسامانثا وغريس وهم يبتسمون لها، ولكن لم تكن جيسيكا معهم. تساءلت إيما أين يمكن أن تكون، لكنها ركزت انتباهها إلى الحزب المعارض في الصف الأمامي، حيث جلس قائد حكومة الظل للبرلمان مكتفًا ذراعيه، ثم غمز لها.

بدأت إيما بالكلام بصوت مرتجف: "لورداتي، لا بد أنكم متفاجئون لرؤية هذه الوزيرة الجديدة تقف هنا وتكلمكم، ولكن يمكنني أن أؤكد لكم بأنني متفاجئة أكثر منكم".

عم الضحك أرجاء القاعة من طرفي البرلمان، الأمر الذي أراح إيما وجعلها تسترخي قليلًا.

"لقد جلس اللورد هارفي من غلوسيستير على هذه المقاعد منذ خمسين سنة، ويجلس اللورد بارينغتون من بريستول دوكلاندز على الطرف الآخر من البرلمان كقائد الحزب المعارض. وأنتم الآن ترون أمامكم الحفيدة والأخت لهما. فقد سمحت لي رئيسة الوزراء بهذه الفرصة لاستكمال عملي في خدمات الصحة، ولكن هذه المرة ليس بصفتي أحد أعضاء مركز طبي رائع، أو نائبة رئيسه أو حتى رئيسته، بل كأحد وكلاء الحكومة في الدولة. وأريد من أعضاء هذا البرلمان أن يكونوا متأكدين بأنني أنوي أن أنجز مهامي بصفتي وزيرة بنفس الدقة والصرامة التي حاولت تحقيقها في كل منصب شغلته، سواء في حياتي المهنية أو الشخصية.

إن دائرة الصحة الوطنية هي مفترق طرق يا لورداتي، على الرغم من أنني أعرف تمامًا على

أي طريق أريد توجيهها. وستجدون في الجراحة والطبيبة، الممرضة - والاهم من كل ذلك - المريضة. وكما أنقل نظري الآن في هذه القاعة، يمكنني رؤية أن واحدًا أو اثنين منكم سيكونون في حاجة لدائرة الصحة الوطنية في المستقبل القريب".

كانت إيما تعتقد أن هذا السطر الذي أضافه شقيقها خطير بعض الشيء، لكن جايلز طمأنها بأن اللوردات سيكونون مستمتعين، على عكس الملكة فيكتوريا. واتضح أنه على حق، فقد علت الضحكات بعد أن ابتسمت من مكانها إلى قائد المعارضة.

"وفي النهاية يا لورداتي، سأتابع القتال ضد البيروقراطية، والخوف من التجديد والابتكار، والمستشارين المبالغ في تقديرهم ذوي الدخل الزائد الذين لم يمسكوا مشرطًا يومًا بيدهم".

ارتفعت أصوات التأكيد والموافقة في البرلمان، وأكملت إيما: "ولكن وبالأهمية نفسها، فأنا لن أنسى أبدًا كلمات جدي اللورد هارفي الحكيمة حين تجرأت وسألته عندما كنت طفلة صغيرة: ما هدف البرلمان؟ وأجابني: "أن يخدم، وأن يبقي أولئك الأشرار تحت السيطرة". ولَد ذلك التصريح هتافات من كلا الجانبين. ثم أنهت إيما كلامها قائلة: "لذا دعوني أطمئنكم أيها اللوردات بأن ذلك سيكون دومًا شعاري متى ما اتخذت قرارًا بالنيابة عن الحكومة. وأخيرًا، أرغب بشكر البرلمان للطفه ولتقبله امرأة تدرك كل الإدراك بأنها ليست مؤهلة لتقف في المكان نفسه الذي وقف فيه جدها أو شقيقها".

ثم جلست إيما لتسمع بعدها أصوات التشجيع والهتافات، وكل أولئك الأعضاء الذين تساءلوا عن سبب اختيار هذه المرأة من العدم، لم يعد لديهم

أي شك بأن مارغريت تاتشر قد اتخذت الخيار الصحيح.

وقف اللورد بارينغتون من مكانه في مقعد الحزب المعارض بعد أن هدأ البرلمان مجددًا، ونظر نحو أخته قبل أن يبدأ خطابه المرتجل. تساءلت إيما إن كانت ستتمكن يومًا من فعل ذلك في حياتها.

"يا لورداتي، أتمنى أن يكون البرلمان متفهمًا لموقفي إن أبديت فخرًا أخويًا اليوم. اعتدت دائمًا أن أربح عندما كنا نتشاجر أنا والوزيرة في طفولتنا، ولكن كان ذلك فقط لأنني كنت أكبر حجمًا وأقوى، وقد كانت أمي هي من أشارت إلى أنه عندما نكبر كلانا سأكتشف أنني كنت قد ربحت المعركة عندها وليس الحرب".

ضحك الحزب المعارض، بينما هتف الجالسون على مقاعد الحكومة بالتشجيعات. قبل أن يكمل كلامه بجدية: "ولكن اسمحوا لي بأن أحذر شقيقتي بأن لحظة انتصارها قد تكون قصيرة الأمد، لأنه عندما يحين الوقت لتقدم الحكومة وثيقة الصحة الجديدة، لن يكون عليها توقع الاستمتاع بنفس رحابة الصدر من هذا الطرف من البرلمان. فسندقق تلك الوثيقة كلمة بكلمة، وبندًا ببند، وليس عليَّ تذكير البارونة النبيلة بأن حزب العمال هو من أوجد دائرة الصحة الوطنية، وليس أولئك المجموعة من المتكبرين المحافظين، الذين يجلسون مؤقتًا على مقاعد الحكومة".

هلل الحزب المعارض لقائده.

"لذا أنا سعيد لتهنئة شقيقتي على خطابها الأول المثير للإعجاب، ولكنني في الوقت نفسه أنصحها بأن تتذكر هذه اللحظة، لأن هذا القسم من البرلمان سيكون بانتظارها عندما تقف هنا المرة القادمة،

ودعوني أؤكد للبارونة النبيلة أنها لن تتمكن بعد اليوم من الاعتماد على أي مساعدة أخوية. ففي هذه الحال ستكون بحاجة للفوز بالمعركة والحرب معًا".

كان الحزب المعارض يبدو وكأنه لا يستطيع الانتظار حتى يوم المواجهة. ابتسمت إيما متسائلة كم شخصًا في هذه القاعة سيصدق أن قسمًا كبيرًا من خطابها عمل عليه نفس اللورد النبيل الذي كان الآن يجابهها بكلامه. وقد سمعها حتى وهي تلقيه في المطبخ في سميث سكوير الليلة الفائتة، كانت فقط تتمنى لو كانت والدتها تجلس هنا لتشاهدهما يتشاجران مجددًا.

***

كان السيد سوتكلايف - ناظر مدرسة غرانغماوث- شاكرًا لليدي بارينغتون على مرافقتها فريدي إلى أسكتلندا، وبعد أن تأكدا أن الطفل قد عاد إلى منزله سألها إن كان بإمكانه محادثتها على انفراد. وافقت كارين مباشرة، فقد كانت قد وعدت جايلز بأنها ستحاول معرفة السبب وراء هرب فريدي.

دخل الناظر في الموضوع مباشرة بعد أن جلسا في مكتبه، فقال: "أنا مسرور نوعًا ما بأن زوجك ليس معك يا ليدي بارينغتون، لأن ذلك سيتيح لي بأن أكون صريحًا أكثر حول فريدي. أنا أخشى أن الطفل لم يشعر بالاستقرار أبدًا منذ اليوم الذي وصل فيه إلى هنا، وأعتقد بأن والدته هي الملامة على هذا".

قالت كارين: "إن كنت تقصد بكلامك الليدي فيرجينيا، فأنا أؤكد لك بأنها ليست والدته".

قال الناظر: "كنت أتوقع هذا، وذلك سيفسر عدم زيارتها فريدي ولا حتى لمرة واحدة عندما كانت

هنا".

"ولن تفعل أبدًا، لأن ذلك لا يخدم مصلحتها".

تابع سوتكلايف: "وبالرغم من أن اللورد فينويك يبذل كل جهده للمساعدة، إلا أنه ليس والد الطفل، وأخشى أن الوضع أصبح أسوأ بعد أن قابل فريدي زوجك في المرة الأولى".

"لكنني اعتقدت أن الأمر سار بشكلٍ جيد".

"كذلك اعتقد فريدي. فلم يتكلم عن أي شيء آخر لعدة أيام. في الحقيقة، لقد أصبح طفلًا مختلفًا تمامًا بعد عودته في أول الفصل، فلم يعد متأزمًا من إغاظة الأطفال الآخرين المستمرة له عن والدته، لأنه استلهم من الرجل الذي كان يتمنى أن يكون والده، ومنذ ذلك اليوم وهو يبحث في كل الأوراق عن أي ذكر للورد بارينغتون. لذا لم أكن متفاجئًا عندما اتصل زوجك ليخبرني أن فريدي كان عنده في لندن".

"ولكن هل أنت على علم أن جايلز قد كتب رسالة إلى فريدي يتمنى له فيها حظًا جيدًا في مباراة الكاسل ضد ذا فيلاج، وطلب منه أن يطلعه على النتيجة عندما تنتهي، ولكنه لم يرد عليه".

"إنه يحمل تلك الرسالة معه في كل الأوقات، ولكن مع الأسف فهو لم يسجل أية نقطة في المباراة وقد أصيب خلال اللعب، وهذا هو السبب غالبًا في أنه لم يرد".

قالت كارين: "كم هذا مؤسف. ولكنني أؤكد لك أن جايلز قد سجل أصفارًا أكثر بكثير منه سواء داخل أو خارج الملعب".

"لكن الطفل لم يكن يعلم ذلك، وكانت محاولته الوحيدة الأخرى في التواصل هي مع الليدي

فيرجينيا، وانظري إلى أين أودى به ذلك".

"هل هناك أي شيء يمكنني فعله للمساعدة؟ لأنني سأكون سعيدة بذلك".

"أجل يا ليدي بارينغتون. أعلم أنك تأتين إلى إسكتلندا من وقتٍ إلى آخر، وكنت أتساءل إن كان بإمكانك اصطحاب فريدي خارجًا في بعض نهايات الأسبوع؟".

"لم فقط في نهايات الأسبوع؟ إن كان آرتشي موافقًا، فيمكنه أيضًا أن يأتي معنا إلى المولغيلري خلال العطل الصيفية".

"عليَ الاعتراف بأن هذه هي فكرة اللورد فينويك، فهو من أخبرني بإمكانية الالتقاء بك وبزوجك".

"أتساءل إن كان الأمر صدفة؟".

لم يعلق الناظر على ذلك، بل أضاف: "كيف سيكون ردَ فعل اللورد بارينغتون على طلبي هذا برأيك؟".

قالت كارين: "دعني أطلعك على سر. لقد اختار فعلًا الاثنتين والعشرين ياردةً التي سيضع فيها ملعب الكريكيت".

"إذًا يمكنك إخبار زوجك أن فريدي قد يصبح أصغر صبي على الإطلاق يلعب مع الأحد عشر لاعبًا في فريق المدرسة".

"سيكون جايلز مسرورًا جدًا، ولكن هل يمكنني أن أطلب منك طلبًا صغيرًا يا حضرة الناظر؟".

"بالتأكيد يا ليدي بارينغتون".

"هل يمكن أن يُسمح لي بإخبار فريدي عن قرارنا هذا قبل أن أعود إلى لندن؟".

10

كان جايلز متأكدًا أن مسيرته السياسية ستنتهي إن اختار دعم المرشح الخاطئ، وذلك بعد أن ألقى جيمس كالاغان خطابه الأخير قائدًا لحزب العمال في المؤتمر السنوي في بلاكبول.

لم يشك جايلز أبدًا أنَّ هناك مرشحين حقيقيين فقط عندما ترشح أربعة وزراء حكومة سابقين من مجلس الشيوخ، وقف دينيس هايلي في الزاوية اليمنى، كان مستشارًا للخزينة العامة لدى كالاغان وهارولد ويلسون، ومثل جايلز، كان قد قُلد وسامًا في الحرب العالمية الثانية. ووقف مايكل فوت في الزاوية اليسرى، ويمكن القول عنه بأنه أفضل متحدث في مجلس الشيوخ منذ وفاة وينستون تشرشل. وعلى الرغم من أن مسيرته الوزارية لا يمكن مقارنتها بمسيرة هايلي، إلا أنه كان يمتلك الدعم من أقوى اتحادات التجارة، التي كان لديها واحد وتسعون عضوًا ممولون ليمثلوهم في المجلس.

حاول جايلز طرد فكرة أنه لو اختار دعم بريستول دوكلاندز في الانتخابات الفرعية منذ عشر سنوات، بدلًا من أن يقبل عرض هارولد ويلسون بمقعد في البرلمان، كان من الممكن أن يكون منافسًا جديًا أيضًا لقيادة الحزب. ولكنه على أية حال، كان متقبلًا لفكرة أن التوقيت هو كل شيء في السياسة، وأن هناك الكثير من أقرانه يستطيعون أيضًا التفكير بسيناريوهات معقولة حيث يصبحون فيها قادة للحزب، ويجدون أنفسهم بعدها بوقت قصير يسكنون في الرقم عشرة.

اعتقد جايلز أن هناك مرشحًا واحدًا فقط من الممكن أن يستطيع التغلب على السيدة تاتشر

في الانتخابات العامة القادمة، وكان يأمل فقط أن غالبية زملائه في مجلس الشيوخ قد اكتشفوا ذلك أيضًا. فكان يعرف من خدمته في الحكومة والمعارضة لأكثر من ثلاثين سنة، أنه بإمكانك أن تصنع فرقًا في السياسة فقط إن كنت جالسًا على مقاعد الحكومة، وليس بإمضاء سنوات غير مثمرة في المعارضة تفوز بإنجازات غير معروفة من حين إلى آخر.

سيتخذ القرار القاضي بتحديد من سيقود الحزب من قبل أعضاء حزب العمال البالغ عددهم 269، والذين يشغلون مناصب في مجلس الشيوخ.

لن يُسمح لأحد آخر بالتصويت. لذا حالما أعلن كالاغان عن تنحيه، أصبح جايلز يبقى في مراكز السلطة حتى تنطفئ الأضواء كل ليلة في كل الأقسام. كان يقضي ساعات لا تحصى يتجول في تلك الأروقة خلال النهار، مادحًا مزايا مرشحه، أما لياليه فقد كان يقضيها في حانة آني يبتاع المشروبات محاولًا إقناع أي زميل متردد له في مجلس الشيوخ بأن المحافظين يصلون أنهم سينتخبون مايكل فوت وليس دينيس هايلي.

استُجيب لصلوات حزب العمال عندما فاز فوت على هايلي في التصويت الثاني بمئة وتسعة وثلاثين صوتًا إلى مئة وتسعة وعشرين صوتًا. وقد اعترف بعضٌ من زملاء جايلز في المجلس بسعادتهم في الاستقرار في الحزب المعارض لفترة من الوقت طالما يشاركهم القائد الجديد أيديولوجيتهم اليسارية.

***

في اليوم التالي، أخبرت إيما جايلز على الفطور أن مارغريت تاتشر قد سمعت بالأخبار، وأنها فتحت

زجاجة من الشامبانيا ورفعت نخبًا لأعضاء حزب العمال المئة والتسعة وثلاثين الذين سيضمنون بقاءها في الرقم عشرة حتى المستقبل القريب.

كان التقليد المتبع منذ زمن لدى كلا الحزبين عندما يُختار قائد جديد، هو أنه على كل عضوٍ من المقعد الأمامي أن يقدم استقالته على الفور ثم ينضم مباشرة إلى الفريق الجديد. ولم يضع جايلز أي وقت بعد أن كتب رسالة استقالته في الانتظار ليعرف أي مجلس دولة سيطلب منه أن ينضم لفريق ظله. فقد كان يعرف أن الهاتف لن يرن أبدًا. وفي يوم الاثنين التالي، تلقى رسالة قصيرة مكتوبة بخط اليد من القائد الجديد، يشكره فيها على خدمته الطويلة للحزب.

انتقل جايلز في اليوم التالي من مكتب قائد الحزب المعارض في البرلمان في الطابق الأول ليفسح المكان لخلفه المكلف الجديد. وحاول أثناء جلوسه وحيدًا في غرفة صغيرة في مكان ما في القبو، أن يتقبل فكرة أن أيامه في المقاعد الأمامية قد انتهت. وكل ما أمكنه التطلع إليه هو سنوات مقفرة في المقاعد الخلفية. وذكر كارين على العشاء تلك الليلة أن عشرة أصوات فقط هي التي حسمت مصيره.

أجابته قائلة: "خمسة، إن فكرت بالأمر".

سيباستيان كليفتون
1981
11

"أنا أعتذر".

قالت جيسيكا محدقة إليه: "هل هذا كل ما لديك لتقوله؟".

وضع سيباستيان ذراعه فوق كتف ابنته وقال: "أعدك أنني سأعود في الوقت المناسب لآخذك مع والدتك لتناول عشاء احتفالي".

"أتذكر آخر مرة وعدت بذلك، ثم سافرت إلى دولة أخرى. على الأقل وقتها تغيبت لتساعد رجلًا بريئًا، وليس محتالًا".

"يسمح بزيارة ديزموند ميلور فقط بعد ظهر أيام السبت بين الساعة الثانية والثالثة، لذا لم يترك لي خيارًا آخر".

"كان بإمكانك أن تطلب منه أن يغرب عن وجهك".

"أعدك أنني سأكون قد عدت بحلول الساعة الخامسة، أو السادسة على أكثر تقدير. وبما أنها ذكرى مولدك، فيمكنك اختيار المطعم".

"وفي الوقت الحالي يُتوقع مني أن أجالس جيك، وأن أشرح لوالدتي عند عودتها عن سبب غيابك. يمكنني التفكير بطرق أفضل لقضاء يوم ذكرى مولدي".

قال سيب: "سأعوضك، أنا أعدك".

"فقط لا تنس، بوبس، إنه محتال".

***

لم يستطع سيباستيان سوى بالتفكير أن ابنته

على حق وهو يتجه خارج لندن في زحمة الصباح المتأخر. فليس من المحتمل أن تكون رحلة مهدورة وحسب، بل على الأرجح أنه من الأفضل أن لا يكون له أية علاقة بالرجل من الأساس.

كان عليه الآن أن يصطحب جيسيكا للغداء في مطعم بونت فيشيوتو ويحتفل بذكرى مولدها السادسة عشرة، بدلًا من التوجه لسجن في كينت من أجل زيارة رجل يحتقره. ولكنه كان يعلم أنه إن لم يكتشف سبب رغبة ديزموند ميلور برؤيته بهذه السرعة، فسيظل الأمر يقض مضجعه إلى الأبد. وشيء واحد كان أكيدًا فقط، وهو أن جيسيكا ستطلب تقريرًا مفصلًا عن سبب رغبة هذا الرجل الملعون برؤيته.

كان قد بقي عشرة أميال حتى يصل حين لمح سيب أول لافتة لفورد أوبن، بدون ذكرٍ لكلمة (سجن)، التي كانت ستهين السكان المحليين. خرج شرطي عند وصوله إلى الحاجز من محرس صغير وسأله عن اسمه. ثم زفع الحاجز بعد أن شطب الشرطي اسم كليفتون عن دفتره ووجهه إلى ساحة فارغة يتم استخدامها في أيام السبت لركن للسيارات.

شق سيب طريقه إلى قسم الاستقبال بعد أن ركن سيارته، حيث سأله شرطي آخر عن اسمه، ولكن هذه المرة طلب منه هويته أيضًا. فأخرج رخصة قيادته بدلًا عنها، ووضعت إشارة أخرى على دفتر آخر، ثم أمر بوضع كل ممتلكاته القيمة بما فيها محفظته وساعته وخاتم زواجه بالإضافة لبعض الفكة في خزانة. وأخبره الضابط المناوب بحزم أنه من الممنوع أن يصطحب أي مال إلى منطقة الاجتماع تحت أي ظرف كان، ثم أشار إلى تحذير

معلق على الحائط يفيد بأنه إن غثر على مال بحوزة أي من الزوار داخل السجن فيمكن أن ينتهي به الأمر بعقوبة السجن لمدة ستة أشهر.

قال الشرطي: "اعذرني على سؤالي يا سيدي، لكن هل هذه المرة الأولى التي تزور فيها سجنًا؟".

قال سيب: "لا، ليست كذلك".

"حسنًا، أنت تعرف عن نظام الإيصالات، في حال أراد صديقك كوبًا من الشاي أو شطيرة ما". أراد سيب أن يخبره بأنه ليس صديقه، ولكنه التزم الصمت وأعطاه جنيهًا مقابل عشر إيصالات صرف.

"سنعيد لك الفرق عندما تعود".

شكره سيب، ثم أغلق باب الخزانة ووضع المفتاح والإيصالات في جيبه، وعندما وصل إلى صالة الاستقبال أعطاه شرطي آخر قرصًا صغيرًا محفورًا عليه الرقم 18، ثم قال: "انتظر حتى يُستدعى رقمك".

جلس سيب على مقعد بلاستيكي في قاعة مليئة بأناس بدا عليهم أن هذا جزء من روتين حياتهم اليومية، ونظر حوله ليرى زوجات وحبيبات وآباء وحتى أطفالًا صغار في منطقة لعبٍ خاصة بهم. وهناك شيء يجمع بينهم، وهو رغبتهم في رؤية شخص عزيز عليهم في السجن سواء أكان نسيبًا أو حبيبًا أو صديقًا. وظن أنه الشخص الوحيد الذي يزور أحدًا لا يحبه أصلًا.

قال صوت صادر عن المكبر: "الأرقام من واحد إلى خمسة". فقفز عدة أشخاص من أماكنهم وهرعوا خارج الغرفة، غير راغبين بتضييع دقيقة واحدة من ساعتهم المخصصة. كان قد ترك أحدهم خلفه نسخة من صحيفة ذا ديلي ميل، فقلَب سيب صفحاتها لتمضية الوقت، ووجد صورًا لا تحصى

للأمير تشارلز والليدي ديانا وهما يتكلمان في حفلة في الهواء الطلق في نورفولك، كانت ديانا تبدو سعيدة جدًا، بينما بدا الأمير وكأنه يفتتح محطة كهرباء.

علا صوت المكبر: "الأرقام من ستة إلى عشرة"، وشقت مجموعة أخرى طريقها بسرعة خارج غرفة الانتظار.

أكمل سيب تقليب الصفحات وتوقف عند الصفحة التي تضمنت وعد مارغريت تاتشر بوضع تشريعات للتعامل مع هجوم القطط البرية في حين وصف مايكل فوت الإجراءات بالوحشية، ووصف سياستها بعمل الفتيان، وليس الشباب.

"الأرقام من أحد عشر إلى خمسة عشر".

نظر سيب إلى الساعة المعلقة على الجدار، كانت تشير إلى 12: 12 ظهرًا، وإن استمر الأمر على هذا المنوال سيكون محظوظًا إن حصل على أكثر من أربعين دقيقة مع ميلور، مع أنه كان يعتقد أن هذا الرجل سيكون مجهزًا كلامه مسبقًا ولن يضيع أي وقت. أعاد سيب نظره إلى الصفحة من صحيفة ذا ميل ليرى صورة لمحمد علي وهو يشير بأصبعه إلى الصحفيين وقد علاها: لا يمكن ليديه ضرب ما لا يمكنه رؤيته. تساءل سيب من الذي ابتدع هكذا جملٍ رائعة، أم كان البطل السابق هو المبدع؟ علا الصوت مجددًا: "الأرقام من ستة عشر إلى عشرين".

نهض سيب وانضم إلى مجموعة من الزائرين الذين كانوا بالفعل يلحقون شرطيًا متوجهًا إلى داخل السجن، وقد توقفوا وفُتشوا قبل أن يُسمح لهم الدخول إلى قسم الزوار.

وجد سيباستيان نفسه في غرفة مربعة كبيرة مملوءة بالكثير من الطاولات الصغيرة، وقد أحيط

بكل منها أربع كراسٍ لونت إحداها بالأحمر أما البقية فباللون الأزرق. نقل نظره في الغرفة لكنه لم يلمح ميلور حتى رفع له يده، كان قد اكتسب الكثير من الوزن لدرجة أن سيب كاد ألا يميزه، وأشار ميلور قبل أن يجلسا إلى قسم المقصف على الجهة الأخرى من الغرفة قائلًا: "هل يمكنك أن تحضر لي كوبًا من الشاي ولوح كيت كات؟".

وقف سيب في الطابور القصير أمام المقصف، حيث سلم معظم إيصالاته في مقابل الحصول على كوبين من الشاي ولوحي كيت كات، وعندما عاد إلى الطاولة وضعها أمام خصمه القديم، ثم سأل من دون أي مقدمات: "حسنًا، لماذا تريد مقابلتي؟".

ارتشف ميلور رشفة من الشاي وأزال غلاف لوح الكيت كات ثم قال: "إنها قصة طويلة، لكنني لا أتوقع أن شيئًا منها سيفاجئك. فبعد أن عثرت الشرطة على سلوان، وكنت أنا المسؤول عن اعتقال صديقك حكيم بشارة، وشى بي سلوان مقابل تخفيض عقوبته. فحكم عليّ بالسجن لسنتين بتهمة إعاقة العدالة، في حين أفلت هو من العقوبة تمامًا، وإن لم يكن هذا كافيًا فقد تمكن من التحكم بشركة ميلور ترافل بعد أن سجنت، مدعيًا أنه الوحيد الذي بإمكانه إنقاذ الشركة بعد أن أصبح رئيسها في السجن، وقد انطلى ذلك على حملة الأسهم".

"ولكن لا بد أن لديك القدرة على التحكم باعتبارك مالك أكبر نسبة من الأسهم، أليس كذلك؟".

"ليس بشركة عامة، كما اكتشفت عندما قبضوا على بشارة. فهم لا يرسلون لي حتى محتوى الاجتماعات، ولكن سلوان لا يدرك أن لدي شخصًا من الداخل يبقيني على اطلاع دائم".

"أتعني جيم نولز؟".

"لا، فذلك الوغد تخلى عني لحظة اعتقالي، حتى أنه اقترح سلوان لمنصب رئاسة الشركة. وفي المقابل، أصبح نولز مساعده ذا الراتب الهائل".

قال سيب: "يا له من اتفاق حميم، ولكن لا شك أنك قد أخذت نصيحة قانونية".

"أفضلها. ولكنهم كانوا حذرين لئلا يخرقوا القانون، لذا لم يكن هناك الكثير مما يمكنني فعله".

أزال ميلور الغلاف عن لوح الكيت كات الثاني في حين رشف سيب الشاي ثم سأله: "ما الذي تخطط لفعله؟".

"كما أشرت يا سيد كليفتون، ما أزال أمتلك معظم الأسهم في شركة ميلور ترافل، لكنني أعتقد بأن تلك الأسهم لن تبقى تساوي الورق الذي كتبت عليه حين يحين وقت خروجي، ولكن إن بعتها لك مثلًا مقابل جنيه واحد".

"ما الخدعة؟".

"لا يوجد خدعة، فعلى الرغم من خلافاتنا الماضية، إلا أن هدفي الوحيد الآن هو الانتقام، فأنا أريد إزاحة أدريان سلوان وجيم نولز من المجلس وأن تعود الشركة للعمل كما يجب، ولا يمكنني التفكير بأحدٍ أفضل منك لهكذا مهمة".

قال سيب محدقًا إليه: "وما الذي تتوقع الحصول عليه في المقابل؟ عندما تخرج من السجن".

علا صوت رنين معلنًا أنه لم يبق من وقت الزيارة سوى عشر دقائق.

قال ميلور: "لن يكون هذا في وقتٍ قريب، فأنا أواجه تهمة جديدة لا تعرف عنها".

لم يضغط سيب عليه ليعرف، فقد كان الوقت يمضي وما زال لديه عدة أسئلة تحتاج إلى إجابة

قبل أن يسمح لنفسه بالتفكير في عرض ميلور، فقال: "لكنك ستخرج في النهاية".

"وعندما يحدث ذلك، أتوقع أن ترجع لي أسهمي التي تبلغ نسبتها الواحد والخمسين في شركة ميلور ترافل بالكامل، مقابل جنيه واحد أيضًا".

"حسنًا، ماذا سيكسب فارثينغزز في المقابل؟".

"يمكنك هذه المرة أن تعين الرئيس والمجلس، وتسيير الشركة، ويمكن لشركة فارثينغزز أيضًا أن تكسب أتعابًا محترمة مقابل خدماتها عندما تحصل على عشرين في المئة من أرباح ميلور ترافل السنوية، التي أعتقد بأنك ستوافقني بأنها أكثر من جيدة. وأضف إلى ذلك متعة إزالة أدريان سلوان عن الكرسي للمرة الثانية. وكل ما سأطلبه في المقابل هو أن أحصل على نسخة عن محتوى كل اجتماع، ومقابلة معك وجهًا لوجه أربع مرات في السنة".

علا صوت الرنين مجددًا ليشير إلى بقاء خمس دقائق.

"سأفكر بالموضوع قليلًا وعندما أحسم قراري سأتصل بك".

"لا يمكنك الاتصال بي يا سيد كليفتون، فلا يسمح للسجناء باستقبال أي مكالمات. سأتصل بك إلى البنك صباح الجمعة القادم عند الساعة العاشرة، وهذا سيمنحك وقتًا أكثر من كافٍ لتقرر".

ارتفع صوت الرنين للمرة الثالثة.

***

نظرت جيسيكا إلى الساعة عندما دخل والدها الرواق وعلّق معطفه، ثم قالت وهي تعطيه قبلة مترددة على خده: "لقد وصلت على الموعد تمامًا".

ابتسم سيباستيان قائلًا: "حسنًا، أين تريدين تناول

العشاء أيتها السيدة الصغيرة؟".

"حانة باري".

سأل وهما يتجهان إلى غرفة الجلوس: "في لندن أو فينيسيا؟".

"لندن هذه المرة".

"لا أظن أنني سأتمكن من الحصول على طاولة هناك في غضون هذا الوقت القصير".

"لقد حجزت بالفعل".

قال ساكبًا لنفسه كأسًا من الشراب: "بالطبع فعلت. هل هناك شيء آخر عليّ معرفته؟".

وبخته جيسيكا قائلة: "إنه ليس ما عليك معرفته، بل ما نسيته".

"لا، لم أفعل"، ثم أخرج هدية من جيب داخلي كالساحر.

سألت جيسيكا مبتسمة للمرة الأولى: "هل هذا ما أظن أنه هو؟".

"حسنًا، إنه بالتأكيد ما كنت تلمحين إليه في الأسابيع الأخيرة".

احتضنت جيسيكا والدها، ثم قالت وهي تنزع ورق التغليف وتفتح صندوقًا صغيرًا: "شكرًا يا والدي".

سأل سيب بينما وضعت جيسيكا ساعة ذا وارهول سواتش على معصمها: "هل نلت رضاك؟".

"فقط إذا تذكرت هدية أمي".

قال سيب: "ولكنها ليست ذكرى مولدها".

"أعلم هذا يا والدي، ولكن غدًا ذكرى زواجكما، إلا إن كنت قد نسيت".

"النجدة! أجل، لقد نسيت".

قالت جيسيكا وهي تشير إلى علبة ملفوفة بشكل جميل على الطاولة مع بطاقة ملصقة عليها: "ولكن لحسن الحظ، أنا لم أنس".

"ماذا بداخلها؟".

"زوج من أحذية رايني لمحته أمي في شارع ذا كينغز الأسبوع الماضي، ولكنها ظنت أنه غال بعض الشيء. كل ما تبقى عليك فعله هو توقيع البطاقة".

سمعا صوت الباب الأمامي يُفتح، فكتب سيب بسرعة (سنة لا تُنسى. مع حبي سيب) على البطاقة، ثم قال هامسًا بينما أعاد القلم إلى جيبه: "كيف تمكنت من دفع ثمنه؟".

"ببطاقة ائتمانك بالطبع".

قال سيب أثناء انضمام سامانثا لهما: "فليكن الرب بعون زوجك".

قالت جيسيكا لوالدتها رافعة ذراعها: "انظري إلى ما أهداني أبي بمناسبة ذكرى مولدي!".

قالت سامانثا متأملة الساعة بإعجاب: "يا لها من هدية جميلة".

قال سيب وقد حمل العلبة عن الطاولة، آملًا فقط أن الحبر قد جف: "ولدي شيء لك أيضًا يا عزيزتي"، ثم أضاف قبل أن يحتضنها: "ذكرى زواج سعيدة".

نظرت سامانثا من فوق كتف زوجها وغمزت لابنتها.

***

انضم أرنولد هاردكاسل إلى حكيم وسيباستيان في مكتب المدير للمرة الثالثة ذلك الأسبوع.

سأل حكيم حين جلس مستشار البنك القانوني مقابلهم: "هل كان لديك الوقت الكافي لدراسة مقترح ميلور؟".

قال أرنولد: "بالتأكيد كان لديّ ولا يوجد شك بأنه عرض منصف، ولكن عليّ أن أسأل، لم اختارك ميلور من بين كل الناس ليسلمك الشركة؟".

اقترح سيب: "ربما لأنه يكره أدريان سلوان حتى أكثر مما نكرهه نحن؟ فلا تنس أن سلوان كان مسؤولًا عن فشله في الحصول على البنك".

قال أرنولد: "هناك بنوك أخرى في المدينة".

أجاب حكيم: "ولكن لا يعلم أي منها طريقة تفكيره أفضل منا. هل تواصلت مع محاميي ميلور لتعرف إن كانوا يعتقدون أن الصفقة حقيقية؟".

قال أرنولد: "إنها حقيقية بما فيه الكفاية، على الرغم من أن شريكهم الأقدم اعترف أنه كان مستغربًا من الأمر مثلنا، وأعتقد أنه لخص الأمر بأفضل شكل حين اعتبر أن الشيطان الذي تعرفه أفضل من الذي لا تعرفه".

سأل سيب: "متى يُحتمل إطلاق سراح ميلور؟".

قال أرنولد: "قد يستغرق ذلك بعض الوقت، فهو يواجه تهمًا أخرى".

سأل حكيم: "تهمًا أخرى؟".

"التعامل بالنقود المزورة، وهناك تهمة أخرى بالاحتيال".

"لا أستطيع التصديق أن ميلور يمكن أن يفعل شيئًا بهذا الغباء، وخاصة أنه كان مسجونًا بالفعل".

قال أرنولد: "أعتقد أنه يمكن لحكمك أن يصبح مشوشًا إن كنت محبوسًا في زنزانة سجن طوال اليوم، وخاصة إن كانت الفكرة الوحيدة في رأسك هي كيف بإمكانك أن تنتقم من الرجل المسؤول عن كونك هناك".

قال حكيم: "عليّ أن أعترف، إن لم ترعياني عندما

كنت في السجن، فمن يعلم ما كنت سأتورط به".

قال سيب: "ما زلت غير مقتنع. إن الأمر كله أسهل مما يجب، فلا تنس أن ميلور إن وقع، يعود أقوى مما كان عليه".

قال أرنولد: "حسنًا ربما علينا أن ننسحب من القضية".

ذكّرهم سيب: "ونسمح لسوان بالاستمرار باستغلال منصبه، بينما يزداد غنىً كل دقيقة؟".

قال حكيم: "كلامك صحيح، وعلى الرغم من أنني لم أعتبر نفسي يومًا رجلًا حاقدًا، إلا أنني لن أكون آسفًا لرؤية سلوان مدمرًا أخيرًا، ولكن ربما نأخذ أنا وسيب الأمر على محمل شخصي أكثر من اللازم ويجب علينا أن ننظر إلى القضية ببساطة وفق أسس موضوعية. ما رأيك يا أرنولد؟".

"لا شك أنها ستكون صفقة قيمة للبنك في الظروف الاعتيادية، ولكن بعد تجاربكما السابقة مع ميلور، ربما سيكون من الحكمة أن تعلم لجنة أخلاقيات بنك إنكلترا أننا نفكر بالدخول في صفقة عمل مع شخص في السجن، وإن لم يكن لديهم أي اعتراض فمن نحن لنخالفهم بالرأي؟".

قال حكيم: "هذا هو الحل الأكثر أمانًا. لم لا تفعل ذلك يا أرنولد، وتخبرني حالما تكون قد عرفت آراءهم؟".

قال سيب: "وليس عليَ أن أذكرك أن ميلور سيتصل بي عند الساعة العاشرة صباح يوم الجمعة".

قال حكيم: "تأكد فقط أن يدفع ثمن المكالمة".

***

جلسا في زاوية الحانة ليتأكدا أنه لا يمكن لأحد

سماعهما، ثم قال كنوليس: "إن فكرت بالأمر، فإنه من المفاجئ أنه قد انتهى بك الحال رئيسًا لشركة سفر. ففي النهاية، لم أظن أنك من النوع الذي يأخذ أي عطلة".

قال سلوان في حين ملأ الساقي كأسه بالجين: "لا أهتم بالأجنبيين، فلا يمكنك الوثوق بهم. وعلى أية حال، أنا لا أستطيع السباحة، والاستلقاء على الشاطئ حتى أحترق، ليست فكرتي عن المرح. أفضل أن أبقى في إنكلترا وأستمتع لبضعة أيام بالرماية أو السير عبر التلال. لعلمك، لا أظن أنني سأبقى في مجال السفر لفترة أطول بعد".

"هل هناك شيء ينبغي عليّ معرفته؟".

"غرض عليّ صفقة أو اثنتان من شركة ميلور ترافل ستمكن كلانا من التقاعد".

"لكن ميلور يملك واحدًا وخمسين بالمئة من الشركة، لذا سيكون هو المستفيد الأكبر".

قال سلوان: "لم أكن أقصد بيع الشركة، فقط أصولها، فانتزاع الأصول هي اللعبة الجديدة في ذا سيتي، ولن يكون قد بقي لميلور شركة ليرأسها عندما يكتشف خططنا، بل فقط قشرتها الخارجية".

"ولكن بعد أن يخرج من السجن...".

"سأكون قد أصبحت بعيدًا، وأعيش في مكان لا يمتلك معاهدة تسليم مجرمين مع بريطانيا".

"وماذا عني؟ سأبقى لأتحمل كل المسؤولية".

"لا، لا... في وقتها، ستكون قد تقاعدت من مجلس المعارضة. ولكن ليس قبل أن يودع باسمك مبلغ كبير في حسابك المصرفي السويسري".

"كم ستحتاج من الوقت لتغلق الصفقة؟".

"لست في عجلة من أمري. فرئيس شركتنا الغائب

لن يتحرك من مكانه قريبًا، وعندها ستكون خطة معاشنا التقاعدي جاهزة".

"هناك شائعة بأن توماس كوك وشركاه مهتمان بالاستيلاء على الشركة".

"لن يحدث هذا وأنا الرئيس".

***

قالت ريتشل، وهي قلقة من مقاطعة اجتماع سيباستيان الصباحي مع مدير تبادل العملات في البنك: "هناك أحد باسم السيد ميلور ينتظرك على الخط رقم واحد".

نظر سيب إلى ساعته، كانت تشير إلى العاشرة صباحًا، ثم قال واضعًا يده على السماعة: "أتمانع إن أجبت على هذا الاتصال؟".

قال فيكتور كوفمان، مدركًا من كان على الخط: "تفضل".

"صليه بي يا ريتشل. صباح الخير يا سيد ميلور، معك سيباستيان كليفتون".

"هل توصلت لقرار يا سيد كليفتون؟".

"أجل، لقد فعلت. وأؤكد لك بأن شركة فارثينغزز تعاملت مع عرضك بكل جدية. ولكن مع ذلك - وبعد الكثير من المشاورات - توصل المجلس إلى أن هذا ليس نوع الأعمال التي يتمنى البنك أن ينخرط بها، ولهذا السبب...". أغلق الخط فجأة في وجهه.

12

استلقى ديزموند ميلور على الفراش المصنوع من شعر الخيل مسندًا رأسه إلى وسادة صلبة، وهو ينظر إلى السقف محاولًا التفكير بما عليه فعله الآن بعد أن رفض كليفتون عرضه. كانت فكرة سرقة سلوان له بالإضافة إلى استيلائه على الشركة تجعله أكثر ذعرًا.

فتح باب الزنزانة وصرخ شرطي: "إلى الساحة!". كان قد حان الوقت الذي يُسمح فيه للسجناء بالخروج من زنزاناتهم كل يوم بعد الظهر لمدة ساعة واحدة، حيث يمكن أن يتمشوا في الساحة، وأن يمارسوا بعض الرياضة، وأن يلتقوا مع بقية رفاقهم ليتمكنوا من التخطيط لجريمتهم التالية قبل أن يُطلق سراحهم.

كان ميلور يسعى عادة ليصاحب سجناء ذوي جنح بسيطة من الذين لا يخططون للعودة إلى حياة الجريمة. وقد تعجب من أنه قد قابل أول معارفه من جامعة إيتونيان الذي كان موقوفًا بتهمة حيازة الماريجوانا، وأول معارفه من جامعة كامبريدج، الذي كان موقوفًا بتهمة الاحتيال، بينما كان يتجول حول الساحة. ولكن لم يرد محادثتهما اليوم، فكان قد قرر مسبقًا من هو الشخص الذي سيتكلم إليه.

كان ميلور قد أكمل دورتين حول الساحة قبل أن يلمح ناش يمشي وحيدًا أمامه ببضع خطوات. ولكن من ناحية أخرى، لم يكن الكثير من السجناء يرغبون في قضاء ساعة استراحتهم مع قاتل مأجور يبدو وكأنه سيقضي بقية حياته في السجن، ولم يكن حتى مهتمًا كثيرًا إن قضى بضعة أيام في الحبس الانفرادي لمهاجمته أحدًا يزعجه. كان آخر تعيس حظ هو مقدم طعام لم يعط ناش ما يكفي من

البطاطا المحمرة وانتهى به الأمر بيد محروقة.

قضى ميلور دورة أخرى وهو يتدرب على حواره الذي جهزه مسبقًا قبل أن يلحق بناش أخيرًا، ورغم تحيته القصيرة إلا أن كلمة: "اغرب عن وجهي". كادت أن تجعله يعيد تفكيره من جديد. وكان ميلور ليتابع طريقه بسرعة لو لم يكن يائسًا، فقال: "أريد منك نصيحة".

"إذًا أحضر لنفسك محاميًا".

"سيكون المحامي عديم الفائدة في الأمر الذي أفكر فيه".

نظر ناش إليه عن كثب ثم قال: "لا بد للأمر أن يكون جيدًا، لأنك إن كنت أحد المخبرين، فستقضي بقية محكوميتك في مستشفى السجن. هل هذا واضح؟".

كان ميلور قد بدأ يفهم مصطلح (الرجل القاسي)، لكن وقت التراجع قد فات، فرد: "كل الوضوح. لنقل بشكل فرضي...".

"ماذا بحق الجحيم؟".

"كم يُدفع للقاتل المأجور؟".

قال ناش: "إن كنت أحد مخبري الشرطة، فسأقتلك بنفسي مجانًا".

قال ميلور: "أنا رجل أعمال، وأحتاج لخدمات شخص محترف". فعلى الرغم من أن قلبه كان يدق بسرعة شديدة، إلا أنه لم يعد يشعر بالخوف.

التف ناش ليواجهه ثم قال وقد ابتسم مظهرًا أسنانه الثلاث: "هذا يتوقف على طبيعة الخدمة التي تبحث عنها. فأسعارنا تتنوع كأي عمل آخر. إن كنت تريد فقط تخويف شخصٍ ما، ككسر ذراع أو قدم مثلًا، فسيكلفك ذلك ألفًا. إن كان الشخص

معروفًا جيدًا فعدة آلاف، وسيكلفك ذلك أكثر بكثير إن كان يمتلك حماية".

"ليس لديه أي معارف ذوي أهمية أو حماية".

"هذا يجعل الأمر أسهل. حسنًا ما الذي تبحث عنه؟".

قال ميلور بصوت خافت: أريدك أن تكسر رقبة أحدهم. ولكن لا يمكن أن يُعرف أن لي علاقة بالأمر".

بدا ناش مهتمًا للمرة الأولى، وقال: "أتحسبني هاويًا أحمق؟".

أجاب ميلور ممسكًا قلبه بيديه: "إن كنت بتلك البراعة فكيف انتهى بك الأمر هنا؟". كان قد علمه والده أن يتنمر دائمًا على المتنمر، واتضح أنها كانت نصيحة جيدة.

قال ناش: "حسنًا، حسنًا. ولكن لن يكون ذلك بثمن زهيد. فأولئك الأوغاد لا يزيحون أعينهم عني، ويقرأون كل رسائلي قبل أن يعطوني إياها ويستمعون إلى مكالماتي، على الرغم من أنني قد وجدت طريقة لمراوغتهم. لذا فرصتي الوحيدة ستكون أن أفعل شيئًا خلال وقت الزيارات. فكاميرات المراقبة موجهة علي طوال الوقت، وحتى أنهم وظفوا خبيرًا بقراءة الشفاه ليتابع كل كلامي".

"هل تقول إن الأمر مستحيل؟".

"لا. بل مكلف. ولن ينجز غدًا صباحًا".

"والسعر؟".

"عشرة آلاف مقدمًا، وعشرة أخرى يوم الجنازة".

كان ميلور متفاجئًا بأن حياة الإنسان لا تساوي شيئًا عند هذا الرجل، ولكنه تجاهل التفكير

بالعواقب إن فشل في تسديد القسم الثاني من المبلغ.

قال ناش بحزم: "تحرك من هنا، وإلا سيعتري الشك أولئك الأوغاد".

أسرع ميلور خطاه وانضم إلى نشال يمكنه أخذ ساعتك من معصمك من دون علمك، كانت تلك مهنته، إلا أنه كان يمارسها كنوع من التسلية داخل السجن. فكان جوني السريع يستطيع أن يكسب مائة ألف في السنة دون ضرائب، ودون أن يحكم عليه بأكثر من ستة أشهر.

علا صوت الصافرة فعرف السجناء بأن الوقت قد حان للعودة إلى زنزاناتهم. جثا ميلور على ركبته وأعاد ربط شريط حذائه.

***

لم تكن الليدي فيرجينيا تستمتع بزيارة سجن بيلمارش الشديد الحراسة، فقد كان مختلفًا كثيرًا عن الجو الهادئ لفورد أوبن، حيث كانوا يحتسون الشاي ويتناولون البسكويت بعد ظهر أيام الأحد.

ولكن ميلور قد أعيد نقله من حديقة إنكلترا إلى هيلمارش - كما يسميها المجرمون- بعد أن اتهم بجريمة أخرى أكثر خطورة.

كانت تكره بشكل خاص تفتيشها بحثًا عن المخدرات من قبل شرطية في أماكن لم تكن لتخطر على بالها أبدًا، والانتظار لحين تقفل وتفتح البوابات قبل أن يسمح لها بالتحرك لعدة ياردات. وكانت الضجة لا تحتمل، وكأنك وضعت مجموعة من فرق الروك معًا. نظرت بعد أن وصلت أخيرًا إلى القاعة الواسعة البيضاء، لترى عددًا من الشرطيين يراقبون مجموعة من الزوار من شرفة دائرية فوقهم، في حين لم تتوقف كاميرات المراقبة عن الحركة.

ولكن كان أسوأ ما في الأمر أن عليها أن تتعامل ليس مع الطبقة العاملة فحسب، بل أيضًا مع مجتمع المجرمين.

ولكن أيًا يكن الأمر، الفرصة بالحصول على بعض المال ساعدت بالتأكيد في تخفيف حدة الإهانة، مع أنه حتى هو لن يتمكن من مساعدتها في مشكلتها الراهنة.

تلقت فيرجينيا رسالة مكتوبة بعناية شديدة ذلك الصباح من شريك قديم لغودمان ديريك. كان يطلب فيها بلهجة مهذبة لكنها لا تخلو من الحزم، إعادة مليوني جنيه أخذت بالاحتيال خلال مدة ثلاثة أيام، وإلا فلن يكون لديه خيار سوى رفع دعوى قضائية بالنيابة عن موكله.

لكن فيرجينيا لم تكن تمتلك حتى ألفي جنيه، فما بالك بمليونين. لذا اتصلت مباشرة بمحاميها وطلبت منه حجز موعد لتقابل المحامي والرتبة العالية السير إدوارد ميكبيس، آملةً أن يتمكن من التوصل إلى حل ما، لكنها لم تكن متفائلة. ربما حان الوقت أخيرًا لتقبل دعوة قريبها البعيد لزيارة مزرعته في الأرجنتين، فقد كان يذكرها دائمًا بعرضه خلال زيارته السنوية إلى كاودراي بارك، وبرفقته صف من أحصنة لعب البولو، ومجموعة من الشبان الوسيمين، الذين كانوا يتبدلون دومًا في كل زيارة. كان يمكنها التفكير بشيء واحد أسوأ من الاضطرار لقضاء بضع سنوات في مزرعة في الأرجنتين، ألا وهو الاضطرار لقضاء بضع سنوات في مكان كهذا.

ركنت فيرجينيا سيارتها بين سيارة من نوع رولز رويساند وأخرى من نوع أوستين فور، قبل أن تتوجه إلى غرفة الاستقبال.

***

جلس ميلور وحيدًا في غرفة الزوار، كان يخسر الدقائق الثمينة بانتظار ظهور فيرجينيا، فهي لم تكن تحضر أبدًا على الموعد، لكن وضعه لم يكن يسمح له بالتذمر بما أنه لم يحظ بأي زوار آخرين.

نقّل نظره حول الغرفة ليستقر في النهاية على ناش الذي كان يجلس مقابلًا لفتاة شقراء تضع أحمر شفاه ذا لونٍ فاقع، وترتدي قميصًا أبيض بدون حمالة صدر إضافة إلى تنورة جلد سوداء قصيرة. لم تكن تدل رغبته بها سوى على درجة يأسه الكبيرة. شاهدهما بحذر كما كان يفعل عدة شرطيين في الشرفة العلوية، ولكن لم يبد عليهما أنهما يتحدثان ثم أدرك أنه حتى لو لم تكن شفاههما تتحرك فذلك لا يعني بأنهما لا يخوضان حوارًا. ربما اعتقد معظم الناس بأنهما مجرد رجلٍ وزوجته، ولكن بما أن ناش شاذ، إذًا لا بد أنهما يتناقشان حول عمل ما، وكان ميلور يعرف تمامًا أي نوع من الأعمال.

رفع نظره عن الطاولة ليرى فيرجينيا وقد ظهرت أمامه حاملة كوبًا من الشاي ولوح شوكولا. كان يتذكر أن كليفتون قد ابتاع له لوحين.

سألت فيرجينيا بعد أن جلست: "هل هناك أي أخبار جديدة عن موعد المحاكمة؟".

قال ميلور: "لقد عقدت صفقة. وافقت على الاعتراف بأنني مذنب في قضية أقل أهمية مقابل الحصول على فترة حكم أقصر، تقريبًا أربع سنوات، فتكون المدة ست سنوات في المجمل. ومع حسن السلوك سأتمكن من الخروج من هنا في غضون ثلاث سنوات".

قالت فيرجينيا محاولة أن تبدو متفائلة: "هذا ليس ببعيد جدًا".

"لكنه بعيد بما يكفي ليستنزف سلوان شركتي

حتى آخر بنس. ففي الوقت الذي أخرج فيه، لن يكون قد بقي منها شيء سوى اللافتة فوق الباب الأمامي".

"هل هناك أي شيء يمكنني فعله للمساعدة؟".

"أجل، هناك. وهذا هو سبب رغبتي في مقابلتك. لديَ تقريبًا عشرة آلاف جنيه الآن في متناول يدي، فقد تقسمت أخيرًا وصية والدتي. وعلى الرغم من أنها تركت لي كل شيء، إلا أنها كانت تمتلك شيئًا واحدًا ذا قيمة، وهو منزلها في سالفورد. تمكن سمسار العقارات هناك من بيعه مقابل مبلغ اثني عشر ألف جنيه، وأمرت بتحويلها على شكل شيك إليك. لكنني أريدك أن تأخذيها في أقرب وقت".

قالت فيرجينيا متذكرة أن لديها اجتماعًا مهمًا يوم الاثنين: "سأذهب إلى سالفورد يوم الثلاثاء. لكن ما الذي تريد مني فعله بهذا المال؟".

انتظر ميلور حتى تجاوزته الكاميرات قبل أن يقول: "أريدك أن تسلمي عشرة آلاف جنيه منهم نقدًا إلى أحد من شركاء أعمالي".

"كيف سأتمكن من تمييزه؟".

قال ميلور: "عن طريقها. انظري إلى يساري وسترين شقراء تتكلم مع رجل يبدو وكأنه ملاكم من الوزن الثقيل. هل ترينها؟".

نظرت فيرجينيا إلى الاتجاه الذي أشار إليه، ورأت الشخصين اللذين يبدوان وكأنهما قادمان من فيلم ذا سويني، ثم أومأت برأسها.

أكمل ميلور كلامه: "ستقابلينها في متحف العلوم، فستكون بانتظارك في الطابق الأرضي قرب صاروخ ستيفينسون. سأتصل بك، وأعلمك بتفاصيل اللقاء حين أعرفها".

ستكون تلك الزيارة هي الأولى لفيرجينيا إلى متحف العلوم.

13

قال السير إدوارد ميكبيس: "اسمحي لي بأن أبدأ يا ليدي ڤيرجينيا، بتذكيرك أن العلاقة بين المحامي وموكله سرية، وأي شيء تخبرينني به بخصوص هذه القضية من المستحيل أن يخرج من هذه الغرفة أبدًا، ولكن مع ذلك فمن المهم أيضًا أن أنبهك بأنني لن أتمكن من نصحك بكل قدرتي إن لم تكوني صادقة تمامًا معي".

كان الحديث مرتبًا بشكل جيد، ولكن ڤيرجينيا جلست مسندة ظهرها إلى الكرسي ومحضرة نفسها لسلسلة من الأسئلة التي لن ترغب بالإجابة عنها.

"سؤالي الأول بسيط جدًا. هل أنت والدة فريدريك ڤينويك؟".

"لا، لست كذلك".

"هل والدا الطفل هما السيد والسيدة مورتون اللذان هما خادمك السابق وزوجته كما كتب في رسالة غودمان ديريك؟".

"أجل".

"وهذا يعني أن الأموال والمصاريف التي تلقيتها من السيد سايروس تي غرانت الثالث لم تكن من حقك؟".

"أجل، هذا صحيح".

"حسنًا، سيكون أيضًا من الصحيح التفكير بأن طلب السيد غرانت بمليوني جنيه منطقي وعادل".

"أخشى ذلك".

"عليَ أن أسألك يا ليدي ڤيرجينيا بعد معرفة هذا، هل تمتلكين مليوني جنيه لتدفعيها للسيد غرانت حتى تتفادي رفع أي دعوة عليك وأي صحافة سيجذبها هذا دون شك؟".

"لا ليس لديَ يا سيد إدوارد، ولهذا السبب بالتحديد أطلب نصيحتك. فقد أردت أن أعرف إن كان قد بقي هناك أي خيار آخر لديَ".

"هل أنت قادرة أن تدفعي لي مبلغًا كافيًا حتى أحاول التوصل إلى تسوية؟".

"لا بكل تأكيد يا سير إدوارد، فأنا لا أملك ألفي جنيه، فما بالك بمليونين".

"أنا ممتن لإجاباتك الصريحة على كل أسئلتي يا ليدي فيرجينيا، ولكن ونظرًا للظروف فستكون محاولتي للحصول على الوقت وتأجيل الإجراءات عديمة الجدوى، فاللورد غودمان عجوز مراوغ، وسيدرك تمامًا ما أنوي فعله. بكل الأحوال، سيكون لديك عندها مصيبة النفقات الزائدة للتكلفة القانونية لكلا الطرفين لتضيفيها فوق بقية مصائبك، وسيصدر القاضي أمرًا بدفع جميع النفقات القانونية مقدمًا".

"إذًا ما نصيحتك؟".

"للأسف يا سيدتي، بقي لدينا خياران فقط. يمكنني أن أرمي نفسي تحت رحمتهم، وهو أمر لا أتوقع أن يُقابل بأي تعاطف".

"والخيار الثاني؟".

"يمكنك أن تعلني إفلاسك، فهذا سيجعل الطرف الثاني يدرك أن رفع دعوى لأجل مليوني جنيه سيكون مضيعة تامة للوقت والمال، إلا إن كان هدف السيد غرانت الوحيد هو أن يهينك على الملأ". ثم صمت المحامي منتظرًا رد موكلته.

قالت فيرجينيا أخيرًا: "شكرًا على نصيحتك يا سيد إدوارد، وأنا واثقة أنك ستقدر أنني سأحتاج بعض الوقت لأدرس خياراتي".

"بالطبع يا سيدتي. على أية حال، سيكون إهمالًا مني إن لم أذكرك بأن الموعد المكتوب على رسالة غودمان ديريك هو في الثالث عشر من شهر آذار، وإن لم نرد قبل الثالث عشر من شهر نيسان، فيمكنك أن تكوني متأكدة من أن الطرف الآخر لن يتردد بتنفيذ تهديده".

"هل يمكنني أن أسألك سؤالًا واحدًا بعد يا سيد إدوارد؟".

"أجل، بالطبع".

"هل أنا محقة بالتفكير أن الدعوى يجب أن تُرفع على الشخص المذكور في الحدث؟".

"هذا صحيح يا ليدي فيرجينيا، إلا إن أمرتني بتلقيها بدلًا عنك".

***

أمعنت فيرجينيا التفكير بنصيحة مستشارها القانوني أثناء رحلتها إلى الشمال في الصباح التالي، وكانت قد قررت بحلول وقت توقف القطار في محطة سالفورد استثمار مبلغ صغير من الاثني عشر ألف جنيه التي كانت توشك أن تدفعها مقابل تذكرة ذهاب إلى بيونيس أيرس.

بعد أن وصلت إلى أمام مكتب وكيل العقارات، ركَزت انتباهها على مهمتها الحالية وعلى كم من المال الإضافي سيمكنها أن تجمع قبل مغادرتها إلى الأرجنتين.

لم تتفاجأ فيرجينيا بعد إخبار موظف الاستقبال باسمها بإرشاده لها إلى مكتب الشريك الرئيسي، وهناك نهض رجل من خلف مكتبه وعرف بنفسه على أنه رون ويلكس. كان من الواضح أنه قد ارتدى أفضل بذلة يوم أحد لديه لهذه المناسبة، ثم انتظرها

لتجلس قبل أن يعود إلى مقعده، ومن دون أية كلمة أخرى فتح ملفًا أمامه وأخرج شيكًا بأحد عشر ألفًا وأربعمائة جنيه وسلمه لها.

طوته فيرجينيا ووضعته في حقيبتها وكانت على وشك المغادرة ولكن بدا أنه كان لدى السيد ويلكس شيء آخر ليقوله، فقال محاولًا ألا يبدو محرجًا: "خلال المحادثة القصيرة التي استطعت إجراءها مع السيد ميلور على الهاتف، لم يعلمني بما عليَ فعله بشأن ممتلكات والدته وأثاثها الذي أخرجناه من المنزل ووضعناه في المخزن".

"هل لها أي قيمة؟".

"عرض تاجر خردة محلي أربعمائة جنيه مقابلها".

"سأقبل به".

فتح وكيل العقارات دفتر شيكاته وسأل: "هل أوجه هذا الشيك إلى الليدي فيرجينيا فينويك أيضًا؟".

"أجل".

قال ويلكس مسلمًا الشيك لها: "بالطبع هذا لا يشمل الصور".

"الصور؟".

"يبدو أن والدة السيد ميلور كانت تجمع أعمال الفنانين المحليين لعدة سنوات، وقد تواصل معي تاجر من لندن ليخبرني أنه مهتم بشرائها. إن اسمه هو السيد كالمان من معرض ذا كرين كالمان".

قالت فيرجينيا وهي تكتب اسمه على ورقة صغيرة متسائلة إن كانت لا تزال تملك ما يكفي من الوقت للتواصل معه: "كم هذا مثير للاهتمام".

راجعت فيرجينيا خططها للأيام القليلة المقبلة أثناء رحلة عودتها إلى كينغس كروس، فكان عليها

أولًا أن تتخلص من أي ممتلكات قيمة أخرى كانت لا تزال تملكها وتذهب إلى هيثرو قبل أن يدرك أي من دائنيها ما فعلته، وكما يقول صديقها بوفي بريدجواتر، عليها أن تهرب بسرعة. أما بالنسبة إلى ديزموند ميلور، فعندما يحين وقت خروجه من السجن، ستكون هي آخر مشاكله، وكانت فيرجينيا واثقة أنه لن يفكر بملاحقتها إلى النصف الآخر من العالم من أجل عدة آلاف من الجنيهات.

كانت فيرجينيا ممتنة لنصيحة السير إدوارد. فبالنهاية، سيكون من الصعب لأي أحد أن يرفع عليها دعوى إن لم يكن يعلم أين هي. كانت قد أخبرت بوفي بالفعل أنها ستقضي بضعة أسابيع في جنوب فرنسا لتصعب على أي أحد اقتفاء أثرها. ولم تفكر أبدًا بما قد يحدث لفريدي، فبالنهاية لم يكن ابنها من الأصل.

سُرت فيرجينيا بعد عودتها إلى شقتها بوقت قصير لتلقيها اتصالًا من قريبها البعيد، مؤكدًا أن سائقًا سيلتقي بها في المطار وسيوصلها إلى منزله في الريف. وكانت قد أعجبتها كلمتا سائق ومنزل.

***

بدأت فيرجينيا بالعملية الطويلة في حزم أمتعتها، بعد أن صرفت شيكات ميلور، وأفرغت حسابها البنكي واشترت تذكرة ذهاب إلى بيونس أيرس. اكتشفت حينها كم من ممتلكاتها وحتى أحذيتها لم تكن تستطيع العيش من دونها، وتقبلت مكرهة أنها ستضطر لشراء حقيبة كبيرة أخرى. في العادة، كانت تحل نزهة قصيرة إلى هارودز معظم مشاكلها، ولم يكن اليوم أي استثناء. حيث تمكنت من العثور على حقيبة كبيرة مع انبعاج على جانبها، ووافقت أن تأخذها بنصف السعر، لأن البائع الشاب قد لاحظ

الانبعاج من قبل.

أمرت المساعد البائس: "تأكد من إيصالها إلى منزلي في تشيلسي لاحقًا هذا الصباح".

فتح لها بواب بمعطف أخضر الباب وحياها عندما خرجت إلى شارع برومبتون.

"هل أوقف لك سيارة أجرة يا سيدتي؟".

كانت على وشك الموافقة حين وقع نظرها على معرض فني على الجهة الأخرى من الشارع، كان باسم كرين كالمان. بدا لها أنها تعرف هذا الاسم، ثم تذكرت، وقالت للبواب: "لا، شكرًا لك". ثم أشارت بيدها على الطريق لتوقف السيارات وهي تعبر شارع برومبتون إلى الجهة الأخرى، متسائلة إن كان بإمكانها الحصول على مئتي أو ثلاث مئة جنيه إضافي لقاء لوحات السيدة ميلور القديمة. أعلن صوت جرس الباب دخولها وظهر أمامها رجل قصير ذو شعر أبيض كثيف، وسألها غير قادر على إخفاء لكنته الأوروبية: "هل يمكنني مساعدتك يا سيدتي؟".

"كنت مؤخرًا في سالفورد، و..".

"آه، أجل. لا بد من أنك الليدي فيرجينيا فينويك. اتصل السيد ويلكس وقال لي إنك قد تأتين إلى هنا إن كنت مهتمة ببيع مجموعة السيدة ميلور الفنية".

سألت فيرجينيا التي لم تكن تمتلك أي دقيقة لتضيعها: "ما المبلغ الذي تعرضه؟".

قال السيد كالمان، الذي لم يبد أنه على عجلة من أمره: "حصلت السيدة ميلور على مر السنوات على إحدى عشرة لوحة زيتية وثلاث وعشرين رسمة. هل كنت تعلمين أنها كانت صديقة مقربة من الفنان؟ ولدي أسباب تجعلني أعتقد...".

كررت فيرجينيا مدركة الوقت القليل المتبقي لديها قبل أن تضطر للذهاب إلى هيثرو: "ما المبلغ؟".

"أعتقد أن مئة وثمانين سيكون سعرًا عادلًا".

"مئتان، وستحصل لنفسك على صفقة".

تردد كالمان للحظة قبل أن يقول: "سأوافق على هذا يا سيدتي، وحتى أنني سأزيد المبلغ إلى مئتين وثلاثين، إن كنت تستطيعين إخباري عن مكان اللوحة المفقودة".

"اللوحة المفقودة؟".

"أنا أملك قائمة جرد لكل الأعمال التي أعطاها أو باعها الفنانون للسيدة ميلور، لكنني لم أتمكن من تحديد مكان لوحة (ذا ميل لان إنداستريال إستيت) التي أعطتها لابنها، وكنت أتساءل إن كان لديك أي فكرة عن مكانها".

كانت فيرجينيا تعرف تمامًا أين هي، لكنها لم تكن تمتلك الوقت للعودة إلى بريستول وإحضارها من مكتب ميلور، ولكن مع ذلك فاتصال وحيد بسكرتيرته وستكون اللوحة هنا فورًا.

"أوافق على عرض المئتين والثلاثين جنيهًا، وسأحرص على أن تصلك اللوحة خلال الأيام القليلة المقبلة".

قال كالمان: "شكرًا لك يا سيدتي". ثم عاد إلى مكتبه وكتب لها شيكًا قبل أن يسلمها إياه.

طوت فيرجينيا الشيك ووضعته في حقيبة يدها، ثم ابتسمت لصاحب المعرض قبل أن تدير ظهرها وتخرج من المكان إلى شارع برومبتون وتستقل سيارة أجرة.

أعلمت السائق: "كوتس في ستراند". وعندما توقفت السيارة أمام البنك، كانت تفكر كيف

ستقضي يومها الأخير في لندن فقد نصحها بوفي بالذهاب إلى ملهى أنابيل.

قالت للسائق: "انتظر هنا، لن يأخذ هذا وقتًا طويلًا". ثم دخلت إلى بهو البنك مسرعة الخُطا حتى وصلت إلى أحد الموظفين، ثم أخرجت الشيك ومررته فوق المنضدة قائلة: "أرغب بصرف هذا الشيك".

قال الموظف: "بالطبع يا سيدتي". ثم نظر إلى الشيك وشهق متفاجئًا ثم قال: "أعتقد أنك تقصدين بأنك ترغبين بإيداع المبلغ كاملًا في حسابك، أليس كذلك؟".

"لا، سآخذه كاملًا نقدًا، وأفضل أن يكون من فئة الخمسات".

قال الموظف: "لا أعتقد أن هذا سيكون ممكنًا".

"ولم لا؟".

"لأنني لا أمتلك 230000 جنيه نقدًا يا سيدتي".

***

قالت إيلي ماي: "هي مستعدة لتقدم عرضًا؟ لكنني ظننتها مفلسة".

اعترف اللورد غودمان: "وأنا أيضًا. وأنا متأكد من أنها أُقصيت من وصية والدها، ومصدر دخلها الوحيد هو مبلغ متواضع من المال من أخيها".

"وكم تعرض؟".

"مليون جنيه، يدفع على عشر دفعات بقيمة مئة ألف جنيه كل سنة لمدة عشر سنوات".

قالت إيلي ماي: "لكنها سرقت مليوني جنيه من زوجي! يمكنها أن تذهب إلى الجحيم".

"إنني متعاطف حقًا مع مشاعرك يا سيدة غرانت، ولكنني قررت عندما تلقيت الرسالة أن أتحدث مع

المحامي السير إدوارد ميكبيس خارج إطار القضية، فهو قد مثل عائلة فينويك لسنوات عديدة، وقد أوضح لي أن عرضه يعبر عن تسوية كاملة ونهائية، وليس هناك أي مجال للتراجع فيها على حد قوله، ثم أضاف أنك إن قررت أن ترفضيها، فإن لديه توجيهات تقتضي باستلامه الدعوى باسم الليدي فيرجينيا".

"إنه يخادعك".

"يمكنني أن أؤكد لك يا سيدة غرانت أن السير إدوارد ليس بمخادع".

"حسنا ما الذي تعتقد أن عليَ فعله؟".

"أتفهم رغبتك باستعادة المبلغ كاملًا، لكن إن كنا سنأخذ هذا الطريق فالأمر سيستغرق عدة سنوات حتى نصل لنهاية هذه التسوية، وكما أصبحنا نعلم الآن فمن الواضح أن الليدي فيرجينيا تمتلك ما يكفي من المال لتغطية النفقات القانونية، لذا من الممكن أن ينتهي بك الأمر بدون الحصول على أي شيء بالإضافة إلى فاتورة نفقات قانونية كبيرة لن يدفعها أحد سواك. أنا لست مقتنعًا بأنها تدفع من مالها الخاص، بل أظن بأن شقيقها الإيرل العاشر هو من يدفع لها. ولكن حتى عندها فللورد فينويك حدود وبعدها سيكون علينا أن نفكر بجميع الجوانب الأخرى لهذه القضية".

سألت إيلي ماي: "مثل ماذا؟".

"إن وصل الأمر إلى المحكمة فسيقضى على الليدي فيرجينيا ماليًا وقد ينتهي بها الأمر حتى بدخول السجن".

"لن يسعدني شيء أكثر من حدوث هذا".

"ولكن في نفس الوقت ستتأثر سمعة زوجك".

"كيف يعقل ذلك وهو الطرف البريء؟".

"من الواضح يا سيدة غرانت أنك لم تجربي من قبل هيجان الصحافة البريطانية".

"لا أملك أدنى فكرة عما تتكلم".

"حسنًا، دعيني أؤكد لك أن هذه القصة ستتكرر مرة تلو الأخرى في الصحف الصفراء، وأخشى أن زوجك لن يخرج منها بدون أن تتلطخ صورته. فستصوره تلك الصحف على أنه أحمق ساذج".

قالت إيلي ماي موافقة كلامه: "وهذه هي الحقيقة".

"ربما يا سيدة غرانت، ولكن هل هذا شيء ترغبين بأن يعرفه العالم بأكمله؟".

"ما هي خياراتنا البديلة؟".

"أرى أن توافقي على التسوية، مهما بدا ذلك غير مستساغ. أقترح أن توافقي على عرض المليون جنيه ثم تعودي إلى أميركا وتضعي كل هذه التجربة المزعجة خلف ظهرك. ولكنني مع ذلك أقترح شرطًا واحدًا، وهو إن فشلت الليدي فيرجينيا بدفع أي من هذه الدفعات العشر، سيكون عليها أن توفي المبلغ كاملًا". انتظر لورد غودمان ليعرف رد إيلي ماي لكنها بقيت صامتة، فأكمل حديثه: "ولكن في النهاية أنت هي موكلتي، وعليَّ أن أعمل بتوجيهاتك أيًا ما كانت".

"اعتاد جدي الاسكتلندي دانكن كامبيل أن يقول (دولار في البنك أفضل من وعدٍ بمهر)".

سألها غودمان: "هل كان محاميًا؟".

***

قال نولز: "إنه لعرض جيد جدًا".

فأضاف سلوان: "ربما كان جيدًا أكثر مما ينبغي".

"ما الذي تعنيه؟".

"كما تعلم يا جيم، أنا شخص شكاك بطبيعتي. وعلى الرغم من أن ميلور محبوس في السجن، إلا أن هذا لا يعني أنه مستلق على سريره هناك طوال اليوم ويشعر بالأسف تجاه نفسه. لا تنس أن لديه هناك في سجن بيلمارش بعضًا من أخطر المجرمين في البلاد، وسيكونون سعداء بتقديم النصح لشخص يعتقدون أنه يملك المال".

"ولكنهم محبوسون مثله جميعًا".

"هذا صحيح، ولكن لا تنسَ أن ميلور حاول أن يخدعني من قبل، وكاد أن ينجح بذلك".

"ولكن ذلك الرجل سوركين سيرسل طائرته الخاصة لتأخذنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع على يخته في كاب فيرات، ما الذي يمكن أن تطلبه أكثر من هذا؟".

"أكره الطائرات، ولا أثق بالأشخاص الذين يمتلكون يخوتًا. وغير ذلك، فلم يلتقِ أحد من ذا سيتي من قبل بكونارد سوركين".

"يمكنني دائمًا أن أذهب وحدي".

قال سلوان: "بالتأكيد لا، سنذهب معًا، ولكن إن شعرت لثانية واحدة أن سوركين ليس الشخص الذي يزعم أن يكون، فسنعود على متن أول طائرة، وليس بطائرته الخاصة".

***

لم تكن الليدي فيرجينيا متأكدة من رد فعلها عندما تلقت رسالة من محاميها يقول فيها إن السيدة إيلي ماي غرانت قد وافقت على العرض. ففي النهاية سيمكنها أن تعيش بشكل مرتاح مع 230000 جنيه في حسابها تتجول في أوروبا وتبيت عند

أصدقائها. لكنها اعترفت لبوفي بأنها ستفتقد لندن وأسكوت وويمبلدون وغليديبورن وحتى الحفلات الملكية وحفلات التخرج وملهى أنابيل وحانة هاري، وخاصة أن أصدقاءها قد يهاجرون ويعودون إلى لندن هذا الموسم.

تقبَلت فيرجينيا أنها إن أكملت في تلك الاتفاقية فسينفد المال في النهاية بعد عدة سنوات حتى ولو كان مبلغا كبيرًا كهذا، وتساءلت إن كانت تؤجل فقط رحلتها المؤكدة إلى الأرجنتين. ولكن من ناحية أخرى ربما سيحدث شيء ما حتى الثالث عشر من نيسان قبل أن تتخذ قرارها النهائي.

سلمت فيرجينيا مترددة بعد أن غيرت رأيها عدة مرات شيكًا لمحاميها بقيمة مئة ألف جنيه يوم الثالث عشر من نيسان، وفي نفس الوقت أزالت كل ديونها الصغيرة وقروضها ومصاريفها القانونية حتى بقي معها 114,000 جنيه في حسابها المصرفي. واستمر شقيقها بتزويدها بألفي جنيه كمصروف شهري، الذي نقص عن الأربعة آلاف التي كانت تأخذها بعد أن هجرت فريدي، فيبدو أن فيرجينيا لم تقرأ السطور المكتوبة بخط صغير في وصية والدها. وإن علم آرتشي يومًا بربحها المفاجئ هذا فسيتركها دون بنس واحد بالتأكيد.

في الصباح التالي عادت إلى كوتس، وصرفت شيكًا بقيمة عشرة آلاف جنيه، ثم وضعت المال في حقيبة من ماركة سوان أند إدغار، ثم رجعت كما قال لها ميلور إلى شارع ستراند لتأخذ سيارة أجرة. لم يكن لديها أدنى فكرة عن مكان متحف العلوم، ولكن كانت متأكدة بأن السائق يعرفه، وبعد عشرين دقيقة كانت تقف أمام البناء الفكتوري المذهل الواقع في شارع إكزيبيشن. فدخلت إلى المتحف وتوجهت إلى

طاولة الاستعلامات، حيث أشارت امرأة شابة لها هناك إلى جهة صاروخ ستيفينسون. مشت فيرجينيا متجاوزة صالة الطاقة، وصالة الفضاء، وصالة القوة دون أن تلتفت لتنظر إلى أي من الأعمال المميزة حولها.

لمحت الفتاة الشقراء هناك واقفة قرب محرك بخاري قديم، كانت محاطة بالأطفال. ولم تتكبد المرأتان عناء التعريف بنفسيهما، فقط وضعت فيرجينيا الحقيبة على الأرض إلى جانبها، والتفت ثم خرجت من المتحف بالسرعة نفسها التي دخلت بها. بعد عشرين دقيقة أخرى كانت تجلس في حانة هاري مستمتعة بكأس من المارتيني حيث ابتسم لها شاب وسيم يجلس هناك وحده، فردت له الابتسامة.

تنفست فيرجينيا الصعداء عند زيارتها لبيلمارش في اليوم التالي لاكتشافها أن ديزموند ميلور لم يكن يعرف أصلًا أن لوالدته مجموعة فنية، ومن الواضح أنه لم يسمع من قبل بإل. أس. لوري. فقد قال إنه كان يزود المرأة العجوز بمصروف شهري ضئيل، لكنه لم يزر سالفورد منذ عدة سنوات.

أخبرته فيرجينيا: "بعت بعض أغراضها مقابل أربعمائة جنيه. ما الذي تريدني أن أفعله بالمال؟".

"اعتبريه جائزة لك، فقد سمعت اليوم أن عملية التسليم جرت بسلاسة وأنا ممتن لهذا". ثم نظر إلى ناش في الجهة المقابلة من الغرفة، حيث كان يجري لقاءه الشهري مع تلك المرأة الشقراء، ولم ينظرا باتجاهه أبدًا.

14

اعترف أدريان سلوان بتردد أن الطيران إلى جنوب فرنسا في طائرة من نوع لير كان شيئًا يمكنه الاعتياد عليه، ووافقه جيم نولز، في حين ملأت مضيفة طيران لم يكن يبدو عليها أنها ملمة بقوانين السلامة بشكل جيد كأسيهما بالمزيد من الشامبانيا.

قال سلوان رافضًا الشراب: "لا تفقد حذرك ولا للحظة، فما زلنا لا نعلم ما الذي يتوقعه سوركين مقابل ماله".

قال نولز: "ولمَ نهتم ما دام السعر مناسبًا؟".

نظر سلوان من نافذته حين حطت الطائرة في مطار نيس كوت دازور، ليرى سيارة من نوع بينتلي كونتيننتال بانتظارهما، فصعدا إلى المقعد الخلفي بدون أن يتحقق أحد من جواز سفرهما ومن دون الاضطرار للوقوف في الطابور أو أي شكليات أخرى. كان من الواضح أن كونارد سوركين يعرف الشخص الذي يُدفع له.

كان المرفأ مكتظًا تمامًا باليخوت اللامعة، ولكن واحدًا منها فقط كان يمتلك ممره الخاص حيث توقفت سيارة البينتلي. وفتح الباب لهما رجل في بذلة رسمية في حين أخرج رجلان آخران حقائبهما من الصندوق الخلفي.

لاحظ سلوان علم دولة باناما يرفرف فوق اليخت قبل صعوده، وعندها حياهما شخص يرتدي بذلة بيضاء وعرف عن نفسه على أنه مضيف اليخت، ثم قال بلكنة إنكليزية قوية: "مرحبا بكما على متن السفينة، سأوصلكما إلى قمرتيكما، سيقدم العشاء عند الساعة الثامنة على السطح العلوي. لكن لا تترددا بمناداتي إن كنتما بحاجة إلى أي شيء قبل

ذلك".

كان أول ما لاحظه سلوان عندما دخل إلى غرفته هو حقيبة صغيرة موضوعة على منتصف السرير الكبير. ففتحها بتردد ليرى داخلها عدة صفوف من النقود من فئة الخمسين جنيهًا. جلس يعدها ببطء حتى وصل إلى عشرين ألف جنيه وكان ذلك واحدًا بالمئة من السعر المعروض مقدمًا؟ وعندما انتهى أغلق الحقيبة ووضعها أسفل السرير قبل أن يخرج من غرفته ويدخل إلى الغرفة المجاورة من دون أن يكلف نفسه عناء قرع الباب، ووجد هناك نولز وهو يعد أمواله، فسأله: "كم المبلغ؟".

"عشرة آلاف".

كان ذلك يبلغ نصفًا بالمئة، ابتسم سلوان، فمن الواضح أن سوركين قد أجرى أبحاثه وعرف من منهما هو الذي سيغلق الصفقة.

عاد سلوان إلى حجرته وأخذ حمامًا، ثم استلقى على السرير مغمضًا عينيه ومتجاهلًا زجاجة الشامبانيا الموضوعة بجانبه في دلو من الثلج. كان يحتاج إلى التركيز، ففي النهاية من الممكن أن تكون هذه هي الصفقة التي لن تحدد موعد تقاعده فحسب، بل أيضًا كم سيبلغ معاشه التقاعدي.

***

قُرع الباب في الساعة الثامنة إلا خمس دقائق، فنظر سلوان إلى نفسه بالمرآة وعدَل ربطة عنقه قبل أن يفتح الباب ليجد مضيفًا آخر بانتظاره، قال له: "يأمل السيد سوركين أن تنضم أنت والسيد نولز إليه لكأس من الشراب". ثم قادهما صعودًا عبر سلم ذي درجات عريضة. كان السيد سوركين يقف على السطح العلوي منتظرًا ليرحب بضيفيه، فعرف بنفسه وعرض عليهما كأسًا من الشامبانيا.

لم يكن كونارد سوركين كما توقعه سلوان أبدًا، فقد كان طويلًا وراقيًا وواثقًا من نفسه، تلك الثقة التي لم تكن تنبع سوى من نجاح أو من انتماء لسلالة عائلات نبيلة. تكلم بقليل من اللكنة الجنوب إفريقية، وأراح ضيفيه في التعامل معه فورًا. كان من الصعب تقدير عمره، لكنه بدا بين الخمسين والخمسة والخمسين. واكتشف سلوان بعد بضع أسئلة محددة بأنه قد ولد في كيب تاون، وأكمل تعليمه في جامعة ستانفورد، ولكن مع هذا فقد كشف تمثال صغير برونزي لنابليون موضوع على المنضدة خلفه نقطة ضعفٍ محتملة.

سأل سلوان وهو ممسك بكأس الشامبانيا: "أين تعيش الآن؟".

"هذه السفينة هي منزلي، ففيها كل ما أحتاجه بالإضافة إلى ميزة أنني لست مضطرًا لدفع أي ضرائب".

سأل نولز: "أليس هذا مقيدًا لك بعض الشيء؟".

"لا، على العكس تمامًا، فأنا أستمتع حقًا بالجانب الأفضل من كل العالم. أستطيع زيارة أي بلدٍ أختاره، وطالما أنني لا أبقى هناك لأكثر من ثلاثين يومًا، فلا أتلقى أي اهتمام من السلطات، وأعتقد أنه من المنصف القول أن هذه السفينة تحوي كل ما تقدمه المدن الكبرى، وهذا يشمل شيفًا سرقته من مطعم سافوي. حسنًا أيها السيدان هل نبدأ بالعشاء؟".

جلس سلوان إلى يمين مضيفهما، ثم سمع المحرك وقد بدأ يعمل.

قال سوركين: "لقد طلبت من القبطان أن يبحر ببطء حول الخليج، وأعتقد أنكما ستتمكنان من رؤية أضواء مرفأ نيس وهي تتلألأ بشكل مذهل".

ثم ملأ النادل كؤوسهم بالنبيذ الأبيض، في حين

وضع أمامهم نادل آخر طبقًا من سمك السالمون المملح.

تفاخر سوركين أن سمك موسى وشريحة لحم الأنغس قد أحضرت من غريمسبي وأبيردين قبل ساعات فقط من صعودهما الطائرة بعد ظهر ذلك اليوم، وكان على سلوان الاعتراف أنه كان يتناول عشاءه في أرقى مطاعم لندن، ونوعية النبيذ الممتازة جعلته يرغب بأن يعاد ملء كأسه على الدوام، ولكن مع ذلك، فقد منع نفسه عن شرب بضع كؤوس أخرى، منتظرًا أن يبدأ سوركين بالتكلم عن السبب الذي كانا موجودين هنا من أجله في الأساس.

انسحب كل الموظفين بعد أن انتهت الوجبة الأخيرة وقدموا لهم السيجار وكؤوس البراندي والنبيذ الأبيض. سأل سوركين بعد أن أشعل سيجاره وأخذ بضعة سحبات: "هل علينا أن نبدأ بالتكلم عن العمل؟".

ملأ نولز لنفسه كأسًا من البراندي، وأخذ سلوان عدة رشفات من نبيذه.

قال سوركين: "أعتقد أن ذلك سيكون مناسبًا، أنت تتحكم في الوقت الحالي بشركة تملك بعض الأصول الثمينة، وبالرغم من أن السيد ميلور لا يزال يملك واحدًا وخمسين في المئة من الأسهم، إلا أنه من غير الممكن أن يتدخل في قرارات المجلس طالما أنه في السجن".

قال سلوان بعد أن أخذ سحبةً من سيجاره: "أرى أنك أجريت أبحاثك، ولكن أي أصول بالتحديد هي التي تنال اهتمامك يا سيد سوركين؟".

"نادني كونارد أرجوك. دعني أوضح لك أنني لا امتلك أية نية في الحصول على شركة ميلور ترافل،

ولكن مع ذلك إن تملك الشركة اثنتين وأربعين وكالة سفر منتشرة بعناية في جميع شوارع إنكلترا الرئيسية. وتقدر قيمة هذه الأملاك بأقل من مليوني جنيه، ولكن إن عرضناها مثلًا في السوق بشكل فردي، فأنا أقدر أن ثمنها الحقيقي سيقارب الستة، أو حتى السبعة ملايين".

قاطعه سلوان قائلًا: "ولكن إن كنا سنتخلص من أهم أصولنا، فستتحول ميلور ترافل إلى مجرد قشرة خارجية فارغة، لا تستطيع حتى أن تحمل عبء عملها الأساسي، وأنا متأكد أنك على علم بأن توماس كوك قدم لنا عرضًا بالفعل بقيمة مليونين ثمنًا للشركة، وأوضحت شركته أنها لن تطرد أي موظفين أو تتخلص من أي من الأملاك".

"وسيدفع المليونان لشركة مُدارةٍ من قبل كوك حتى يخرج ديزموند ميلور من السجن، لذا أفضل ما يمكن لأي منكما تمنيه هو مبلغ محترم بعد أن تتركا الشركة".

بدأ سلوان: "ولكن بنك إنكلترا...".

"أدريان، إن بنك إنكلترا هو بالفعل بنك قوي، لكن يمكنني أن أذكر لك ثلاثة وعشرين بلدًا لا تحوي أي سلطة قضائية أو حتى اتفاقيات ثنائية، وكل ما سيكون عليك فعله هو أن تقنع مجلسك بقبول عرضي أنا عوضًا عن عرض كوك. ولا أظن أن تحقيق هذا سيكون بتلك الصعوبة قبل أن يخرج السيد ميلور من السجن، الأمر الذي أظن أنه بعيد الأمد، باعتبار أن الشركة تملك خمسة مدراء فقط، وأحدهم لا يستطيع حضور اجتماعات المجلس".

قال سلوان: "أنت ملم بالأمر بشكلٍ جيد".

"لنقل فقط أن لدينا علاقات مع جميع الأماكن الصحيحة، ومعلومات خاصة تبقيني دومًا متقدمًا

على نظرائي بخطوة".

قال سلوان: "إن كنت سأوافق على هذا العرض، فهل سيكون المال الذي في حجرتي هو دفعة واحد بالمئة من مبلغ المليونين الذي تعرضه؟".

قطب نولز حاجبيه باستغراب.

أجاب سوركين: "بالطبع لا، اعتبر ذلك مجرد إثبات على حسن نيتي".

أنهى سلوان كأس شرابه وانتظر لثملأ من جديد قبل أن يقول: "لدينا اجتماع مجلس بعد بضعة أسابيع يا كونارد، وأؤكد لك أنني وزملائي المديرين سنفكر بعرضك بجدية تامة".

أسند رئيس ميلور ترافل ظهره، واسترخى للمرة الأولى، سامحًا لنفسه بالاستمتاع بالمرفأ، وهو واثق بأنه قد أصاب في تقديره لسوركين، وأن مبلغ المليونين يمكن أن يتعامل معه كعرض افتتاحي. فقد قرر بالفعل الرقم الذي يريده، ولكنه سينتظر حتى وقت الفطور قبل أن يقوم بحركته التالية.

بدا نولز محبطًا بعد أن أدرك أن سلوان يهدف إلى مبلغ أكبر. كان قد وقع في الخطأ نفسه حين قدم حكيم بشارة عرضًا لشركة فارثينغزز، وانتهى بهم الأمر بخسارة الصفقة. لم يكن نولز سيسمح له بفعل الخطأ نفسه للمرة الثانية، ففي النهاية كان يعتبر عرض سوركين أكثر من كافٍ، وليس هناك حاجة للجشع، لكن تلك كانت أكبر نقاط ضعف سلوان.

قال سلوان وهو ينهض ببطء من مكانه: "أعتقد أنني سأخلد إلى النوم. تصبح على خير يا كونارد. سأنام وأنا أفكر بعرضك، وربما يمكننا أن نتكلم عنه مجددًا في الصباح". فلم يكن يشعر أنه سينجز أي شيء آخر تلك الليلة.

قال سوركين: "سأتطلع إلى ذلك". ثم شق سلوان طريقه بخطوات غير ثابتة نحو الباب. لم يبد نولز أي رغبة في مرافقته، وأزعج ذلك سلوان، لكنه لم يعلق على الأمر.

كان على سلوان أي يتمسك بالسياج عند نزوله الدرجات، وكان سعيدًا برؤية المضيف بانتظاره في الأسفل لأنه لم يكن واثقًا من قدرته على إيجاد طريق عودته إلى الغرفة، ربما لم يكن عليه أن يشرب كل ذلك النبيذ، ولكن متى ستكون المرة الثانية التي يُعرض عليه فيها كأس ثالثة -أو ربما كانت رابعة- من نبيذ تايلور24؟

كاد أن يتعثر عندما وطأت قدمه الدرجة الأخيرة، ولكن المضيف كان موجودًا لإنقاذه واضعًا ذراعه بلطف فوق كتفه، ترنح سلوان، وأمسك بسور السفينة منحنيًا عليه وتمنى فقط ألا يتقيأ، فكان يعلم أنهم سيخبرون سوركين بذلك. شعر ببعض التحسن بعد أن تنفس هواء البحر المنعش، وكان يفكر كم يرغب فقط بأن يعود لحجرته ويستلقي في حين أمسك رجلان قويان به، ووجد نفسه محمولًا بحركة واحدة بسيطة، فالتف محاولًا الاحتجاج ليرى المضيف يبتسم في وجهه قبل أن يُلقى به من السفينة.

ظهر سوركين بعد برهة إلى جانب المضيف، ولم يقل أحدهما شيئًا في حين اختفى رئيس ميلور ترافل في الماء بعد الموجة الثالثة.

"كيف علمت أنه لا يستطيع السباحة؟".

"إنها معلومة داخلية من الشخص الذي كان يمتلك وظيفتك. ستجد العشرين ألفًا الخاصة بك في حجرة سلوان أسفل السرير". ثم أدار ظهره وذهب.

***

انحنى ناش وربط شريط حذائه، كانت تلك الإشارة لينضم إليه ميلور، أنجز ميلور دورتين أخريين حول الساحة قبل أن يأتي إلى جانبه، فلم يكن يريد أن يشك أحد بشيء.

"أنجزت المهمة، ولن تكون بحاجة إلى إرسال أي أزهار إلى جنازته".

"ولم لا؟".

مشيا لبضع ياردات ثم قال: "لقد دفن في البحر".

قال ميلور آملًا أن ناش لم يلحظ رهبته: "لن تكون تلك مشكلة". كان قد اتصل بسمسار عقاراته في بريستول منذ عدة أسابيع، واكتشف أن شقته القديمة في شارع برود لم تُبع حتى الآن، فلم تكن تلك أسواقًا سهلة كما فسر له السيد كارتر، ولكنه متأكد أنه إن خفض السعر فمن الممكن أن يصل إلى صفقة ما. فخفض ميلور السعر، ووصله عرض لكن المشتري لم يكن مستعدًا للدفع حتى يرى تقرير موظف المسح الذي لن يصدر قبل أسبوعين.

على الأقل خُلت مشكلة سلوان، وسيكتب رسالة إلى نولز ويطلب فيها منه أن يزوره في السجن بأسرع ما يمكن، وبالتأكيد سيأخذ صفه الآن سيما وأن سلوان لم يعد موجودًا لاتخاذ القرارات.

قطع مع ناش بضعة ياردات أخرى قبل أن يسأل: "متى وأين؟". كان يتمنى أن صوته يبدو واثقًا.

"يوم الخميس القادم، وسأعلمك ببقية التفاصيل بعد زيارة ترايسي يوم الأحد، فقط تأكد من أن ليدي فيرجينيا اللطيفة لن تنسى إحضار حقيبتها من ماركة سوان أند إدغار معها".

تركه ميلور بعدها لينضم إلى جوني الذي كان يبدو مبتهجًا، فلم يكن قد بقي سوى تسعة عشر يومًا على

إطلاق سراحه.

15

سأل ميلور: "لا أعتقد أن لديك عشرة آلاف جنيه يمكنك التخلي عنها، أليس كذلك؟".

تساءلت فيرجينيا إن كان يمزح معها قبل أن ترى نظرة اليأس في عينيه، فقال مفسرًا: "لدي مشكلة مال مؤقتة، ويمكن حلها إن مُنحت بعض الوقت الإضافي فقط، ولكنني بحاجة إلى عشرة آلاف بسرعة". ثم نظر إلى الغرفة المزدحمة قبل أن تستقر عيناه على الطاولة حيث كان ناش يخوض حديثًا مع ضيفته الوحيدة ثم أضاف: "بسرعة شديدة".

فكرت فيرجينيا بمبلغ 111 ألف جنيه المتبقي لديها في حسابها البنكي وابتسمت بلطف قائلة: "ولكن لا أحد يعرف أكثر منك يا ديزموند بأنني فقيرة مثل فأر كنيسة، وأن شقيقي يمدني بألفي جنيه مصروفًا شهريًا يكفيني بالكاد لأعيش، وآخر مبلغ حصلت عليه كان بعد بيع منزل والدتك. أعتقد أنه بإمكاني إعطاؤك ألفًا وربما ألفًا أخرى في ظرف شهر".

"هذا جيد يا فيرجينيا، ولكن عندها سيكون الوقت قد تأخر كثيرًا".

سألت فيرجينيا: "هل لديك أي أصول يمكنك أن تضعها كتأمين؟". كانت تلك كلمات مألوفة اعتاد مدير البنك استخدامها متى ما كانت مفلسة.

"حصلت زوجتي السابقة على منزلنا في الريف كجزء من تسوية الطلاق، وعرضت شقتي في بريستول للبيع، هي تساوي قرابة العشرين ألفًا، ولكن لم يتم البيع على الرغم من أن الشاري موجود".

"ماذا عن سلوان، ففي النهاية لن يكون ذلك مبلغًا كبيرًا بالنسبة إليه".

قال ميلور دون توسع: "لم يعد هذا ممكنًا".

"ماذا عن جيم نولز؟".

فكر ميلور للحظة قبل أن يقول: "أعتقد أن جيم سيكون مستعدًا لتقديم المساعدة إن رهنت شقتي وكان هناك شيء ليستفيد منه في المقابل".

"مثل ماذا؟".

"مثل رئاسة الشركة، أو المال، أو أي شيء يريد".

"سأتواصل معه حين أصل إلى المنزل، وأكتشف إذا كان مستعدًا للمساعدة".

"شكرًا لك يا فيرجينيا، وبالطبع سيكون هناك شيء لك أنت أيضًا".

نظر ميلور مرة أخرى إلى ناش، فقد كان يعرف أنه يتلقى التعليمات حول المكان الذي يجب أن تُسلم فيه الدفعة الثانية، وكان قد شرح له مسبقًا أنه لا يجب تكرار المكان نفسه أو الشخص نفسه أبدًا.

قال ميلور وهو يلتفت إلى فيرجينيا: "ولكنني ما زلت سأحتاج العشرة آلاف قبل الخميس، ولا يمكنني أن أشرح لك مدى سوء العواقب إن فشلت".

"كم مرة تستطيع إجراء مكالمة هاتفية؟".

"مرة في الأسبوع، ولكن لدي ثلاث دقائق فقط، ولا تنسي أنهم يستمعون إلى كل كلمة".

"اتصل بي بعد ظهر يوم الخميس قرابة الساعة الخامسة، عليّ أن أكون قد قابلت نولز بحلول هذا الوقت، وسأفعل كل ما بوسعي لإقناعه".

***

قال ناش بعد أن انضم إليه ميلور في الساحة: "كل شيء جاهز ليوم الخميس".

سأل ميلور وهو غير راغب بالاعتراف أنه لم يكن يملك المال: "أين ومتى؟".

"ساحة ترافالغار بين النوافير عند الساعة الثانية عشرة".

"مفهوم".

"هل ستكون امرأة الحقيبة نفسها؟".

قال ميلور متمنيًا أن فيرجينيا لم تحصل على المال فحسب، بل مستعدة أيضًا للعب دور الوسيط مرة أخرى: "أجل".

نظر إليه ناش عن قرب وقال: "أتمنى أنك فكرت جيدًا بعواقب عدم تسليم النصف الثاني من دفعة المال".

قال ميلور الذي لم يكن قد فكّر بأي شيء آخر خلال الأسبوع الماضي: "لا مشكلة". ثم تراجع ومشى وحيدًا متسائلًا ومصليًا ومتأملًا أن تتمكن فيرجينيا من اقناع نولز بأن يقرضه العشرة آلاف. تحقق من ساعته، ليجد أنه قد بقي خمس ساعات ليصله الخبر.

***

قال صوت على الطرف الثاني للخط: "جيم نولز".

"جيم، أنا فيرجينيا فينويك".

"فيرجينيا، كيف حالك؟ لقد مر وقت طويل".

"طويل جدًا. ولكنني على وشك أن أعوضه".

"بماذا تفكرين؟".

"لدي اقتراح صغير ربما ستجده مثيرًا للاهتمام. لا أعتقد أنك متفرغ للغداء؟".

***

كانت فيرجينيا تجلس بجانب الهاتف عند الساعة

الخامسة مساء يوم الثلاثاء مدركةً تمامًا أنها تملك ثلاث دقائق فقط لتقول فيها نصها المحضر بعناية. كانت قد كتبت عدة نقاط أساسية حرصًا منها على ألا تنسى أي شيء مهم. وعندما رن الهاتف رفعت السماعة مباشرة.

"تشيلسي 7784".

"مرحبًا يا عزيزتي، أنا بريسيلا. أردت أن أتصل بك لأرى إن كنت متفرغة لتناول الغداء يوم الخميس؟".

قالت فيرجينيا مغلقة السماعة بقوة: "ليس الآن". رن الهاتف مجددًا بعد عدة ثوان.

كررت: "تشيلسي 7784".

"أنا ديزموند، هل تمكنت من...". كان من الواضح أنه لم يرد أن يضيع أية ثانية.

تحققت من النقطة الأساسية الأولى وقالت: "أجل. وافق نولز على إقراضك عشرة آلاف مقابل الشقة في بريستول".

قال ميلور متنفسًا الصعداء: "الحمدلله".

"ولكن إن فشلت في إعادة المبلغ كاملًا له خلال ثلاثين يومًا، فسيطالب بضمانات إضافية".

"مثل ماذا؟".

"كأسهمك في ميلور ترافل".

"ولكنها تساوي قرابة المليون والنصف".

"كانت كلماته (اقبله أو ارفضه) إن كنت أتذكر بوضوح".

صمت ميلور للحظات مدركًا أن دقائقه الثلاثة على وشك الانتهاء، ثم قال: "ليس لدي خيار آخر. أخبري ذلك النذل أنني أقبل شروطه، وسأرد له المبلغ حالما تباع الشقة".

"سأمرر الرسالة حالًا، ولكنه لن يمنحك المال

حتى يرى توقيعك على الوثيقة التي ستنقل ملكية الأسهم إليه إن فشلت في رد المبلغ خلال ثلاثين يومًا".

قال ميلور بصوت يائس مجددًا: "ولكن كيف لي أن أوقعها في الوقت المحدد؟".

"لا تقلق، فقد أنجز محاموه كل الأعمال الورقية، وسُيسلم إلى السجن لاحقًا هذا المساء. تأكد فقط أن يكون لديك شخص لاستلامها".

"عنوني الظرف إلى السيد جريفز، إنه المسؤول في طابقي، وقد قدم لي بعض الخدمات من قبل لذا يمكنك الوثوق به. طالما أنه مناوب الليلة، فسأتمكن من الانتهاء منها فورًا".

كتبت فيرجينيا اسمه قبل أن تتحقق من لائحتها مجددًا: "أين ومتى عليّ أن أسلم المال؟".

"يوم الخميس الساعة الثانية عشرة في ساحة ترافالغار. سيكون الوسيط واقفًا بين النوافير. تأكدي فقط ألا تتأخري".

"هل ستكون المرأة نفسها؟".

"لا، ابحثي عن رجل أصلع في منتصف العمر يرتدي سترة البحرية وبنطال جينز. أنت رائعة حقًا، وأنا أدين لك".

كتبت فيرجينيا ما وصفه ميلور ثم سألت: "هل هناك شيء آخر أستطيع فعله؟".

"لا، ولكن سأرسل لك رسالة أحتاج منك أن..." ثم انقطع الخط.

***

أغلق السيد جريفز السماعة في مكتبه وانتظر تعليماته.

"سيكون عليك أن تتأكد أنك مناوب عندما تصل

الوثيقة إلى بوابة السجن لاحقًا هذا المساء".

"لا مشكلة. فلا يتطوع في الأصل الكثير من الرجال لتغطية المناوبة الليلية".

"وتأكد أن يوقع ميلور الاتفاقية، وأن تشهد توقيعه".

"ماذا أفعل بعدها؟".

"أخرجها معك عندما تنهي المناوبة وأوصلها إلى العنوان الذي يكتبه ميلور على الظرف. ولا تنس، سيكون لديك مهمة أخرى بعد لتقوم بها قبل أن تتمكن من تلقي أجرك".

عبس جريفز، ثم قال محاولًا إعادة فرض سلطته: "من الأفضل لك أن تعود إلى زنزانتك قبل أن يلاحظ أحد غيابك".

قال ناش قبل أن يخرج من المكتب ويشق طريقه عائدًا إلى زنزانته: "أيًا كان ما تريد يا رجل".

***

وجدت فيرجينيا عندما استيقظت في اليوم التالي مغلفًا كبيرًا موضوعًا على عتبة بابها. لم تكن تريد أن تعرف من أوصله أو متى. تحققت من ساعتها لتجد أنها أصبحت التاسعة والربع، ولا يفترض بنولز أن يأخذه قبل الساعة العاشرة، مما أعطاها وقتًا أكثر من كافٍ.

فتحت المغلف وأخرجت الوثيقة ثم قلبت على الصفحة الأخيرة بسرعة لتتحقق إن كان ميلور قد وقعها. وابتسمت عندما رأت صديقها السيد جريفز قد شهد التوقيع. أرجعت فيرجينيا الاتفاقية إلى المغلف، ثم غادرت شقتها الصغيرة في تشيلسي واتجهت إلى متجر في بيمليكو كانت قد تفقدته في اليوم السابق. سحب الشاب الذي كان هناك لها

نسختين للوثيقة، وكلفها ذلك جنيهان بالإضافة إلى عشرين جنيهًا آخر مقابل مغلف بني كبير.

كانت في شقتها بعد عشرين دقيقة تقرأ صحيفة الصباح عندما سمعت قرعًا على الباب. قبل نولز خديها كما لو أنهما صديقان قديمان، ولكن حالما بادل المغلف البني بآخر غادر مباشرة، ثم عادت فيرجينيا إلى غرفة الجلوس، وفتحت المغلف الجديد وعدت المال.

كان المبلغ الموجود هو خمسة عشر ألفًا، تمامًا كما اتفقا، لم يكن ذلك صباحًا سيئًا. أما الآن فكل ما كان عليها فعله هو أن تقرر ما إذا كانت ستسلم العشرة آلاف إلى الرجل الأصلع ذي السترة البحرية وبنطال الجينز الذي سيكون بانتظارها في ساحة ترافالغار أم لا.

***

توجهت فيرجينيا بعد وصولها إلى البنك إلى مكتب المدير لاي مباشرة، الذي وقف حال دخولها الغرفة، ومن دون أية كلمة أخرجت خمس رزم إضافة إلى نسخة من الوثيقة ذات الثلاث صفحات من حقيبة سوان أند إدغار ووضعتها على مكتبه.

"أودع الخمسة آلاف جنيه في حسابي من فضلك، وضع هذه الوثيقة بين أوراقي الشخصية".

كان السيد لاي على وشك أن يسأل... ولكنها كانت قد غادرت الغرفة بالفعل.

خرجت فيرجينيا من البنك وإلى شارع ستراند الرئيسي قبل أن تتحرك ببطء باتجاه ساحة ترافالغار، فكانت قد قررت أن تنفذ تعليمات ميلور، بعد أن تذكرت قوله عن كم ستكون العواقب وخيمة إن فشل في إعادة المبلغ، بالإضافة إلى أنها لم ترد أن يلحق أي أذى بمصدر دخلها الوحيد الاخر.

وقفت مقابل كنيسة سانت مارتين إن ذا فيلدز وانتظرت لتغير إشارة المرور لونها إلى الأحمر ممسكة بإحكام بحقيبة سوان أند إدغار قبل أن تعبر الطريق، وحال وصولها إلى الساحة طار سرب من الحمام بعد أن مرت قربه متوجهة إلى النوافير.

كان هناك طفل يقفز في الماء وكانت والدته ترجوه أن يخرج. وخلفهما تمامًا كان هناك رجل أصلع يرتدي قميصًا ذا ياقة مفتوحة مع سترة زرقاء داكنة وبنطال جينز، وكانت عيناه مثبتتين عليها، فمشت باتجاهه، وسلمت حقيبة المشتريات. لم ينظر بداخلها، بل أدار ظهره واختفى بين حشد من السياح.

تنفست فيرجينيا الصعداء، فقد جرت العملية بسلاسة، وكانت تتطلع الآن لتناول الغداء مع بريسيلا. فمشت باتجاه المتحف الوطني، وأوقفت سيارة أجرة، بينما تابع الرجل الأصلع المشي في الاتجاه المعاكس فلم يكن يستطيع تفويت سيارة البينتلي الفضية التي كانت مركونة أمام سفارة جنوب إفريقيا، وعندما اقترب من السيارة أُنزل زجاج النافذة المعتم ومُدت يد منها، مرر لها حقيبة السوان أند إدغار وانتظر.

تحقق كونراد سوركين من الحزم العشر قبل أن يعيد واحدة منها إلى الوسيط.

"شكرًا لك يا سيد جريفز. من فضلك أعلم السيد ناش أن الليدي فيرجينيا لم تظهر".

16

جلس ستة رجال مقابل بعضهم يتحضرون للمعركة القادمة، وعلى الرغم من أنهم في الواقع كانوا جميعًا في نفس الصف، إلا أن ثلاثة منهم كانوا يمثلون فارثينغز كوفمان، بينما مثل الثلاثة الآخرون شركة توماس كوك، الذي كان أحد أقدم عملاء البنك.

جلس رئيس فارثينغزز كوفمان -حكيم بشارة- عند رأس الطاولة، وجلس مديره التنفيذي سيباستيان كليفتون إلى يمينه، والمحامي الخاص بالبنك أرنولد هاردكاسل إلى يساره.

ومقابل حكيم جلس رئيس كوك -راي بروك-، وإلى يمينه المدير العام للشركة براين دوسون، وإلى يساره المستشار القانوني ناينيش ديساي.

قال حكيم: "اسمحوا لي أن أفتتح هذا الاجتماع بالترحيب بكم جميعًا، كما أرغب بالقول كم نحن مسرورون بتمثيل شركة كوك في محاولتها الاستيلاء على ميلور ترافل. ولكن للأسف، هذا لن يكون استيلاء موافقًا عليه بالإجماع. في الحقيقة، إنه أقرب ليكون حربًا شرسة، بل ودامية أيضًا. ولكن دعوني أؤكد لكم أيها السادة، أننا سننجح. سأطلب الآن من سيباستيان كليفتون، الذي كان يعمل على المشروع منذ عدة أسابيع، أن يحيطنا علمًا بالوضع".

قال سيب فاتحًا ملفًا أمامه: "شكرًا لك أيها الرئيس. اسمحوا لي أن أبدأ بتلخيص عرضنا الحالي. عبّرت شركة كوك منذ مدة عن رغبتها بالاستيلاء على ميلور ترافل التي تملك أصولًا يمكنها أن تجلب قيمة مضافة لأعمالهم، وأقصد بالتحديد متاجرهم الاثنين والأربعين المتوضعة في الشوارع الراقية، كما يوجد بعض منها في المدن

حيث لا تملك شركة كوك أي نفوذ، أو ليست في موضع جيد كنظيرها. كما تملك ميلور أيضًا طاقم عمل من الصف الأول، مدربًا بشكل جيد. على الرغم أن بعضهم قد شعر بالحاجة لترك الشركة خلال السنة الماضية".

قاطع بروك: "فعل واحد أو اثنان منهم ذلك للانضمام إلينا".

تابع سيب: "ربما الآن هو الوقت المناسب للتحدث في الأمر الذي نفكر كلنا فيه. إن المدعو السيد ديزموند ميلور، وعلى الرغم أنه لم يعد رئيس الشركة، إلا أن هذا لا يعني أنه لا يمتلك واحدًا وخمسين بالمئة من أسهمها. وبالتالي من المستحيل أن نقترب حتى من الاستيلاء من دون موافقته".

قال دوسون مزيلًا نظارته: "لقد علمت أنه كان لديك صفقات مع السيد ميلور في الماضي. كيف هي علاقتكما الحالية؟".

اعترف سيب: "لا أعتقد أنها يمكن أن تكون أسوأ. فقد كان كلانا في مجلس بارينغتون شيبينغ في وقت كانت والدتي هي الرئيسة. ولم يحاول ميلور إزالتها من المجلس فحسب، بل حاول بعد فشله، الاستيلاء على الشركة مستخدمًا وسائل وجدت لجنة الاستيلاء أنها غير مقبولة. ولكن بكل الأحوال فازت والدتي، واستمرت في إدارة شركة بارينغتون لعدة سنوات بعدها إلى أن بيعت الشركة من قبل شركة كونارد".

قال بروك: "لقد دعوت والدتك لتنضم إلى مجلسنا، ولكن لسوء الحظ سبقتنا مارغريت تاتشر إليها".

قال سيب: "لم أكن أعلم ذلك".

"ولكنك ستتذكر أن بارينغتون أطلقت باكنغهام، ولاحقًا بالموزال، وعينت السيدة كليفتون كوك

بمثابة وكيل حجز مفضل. لم نحصل أبدًا على شريك أفضل منها، حتى لو كان عليَ أن أعتاد على اتصالها الساعة السادسة صباحًا أو العاشرة ليلًا".

قال سيب مبتسمًا: "أنت أيضًا؟ بكل الأحوال لديَ اعتراف لأدلي به. لقد زرت ديزموند ميلور في السجن بطلبٍ منه قبل أن تفتح معنا موضوع الاستيلاء".

كانت جيسيكا ستستمتع حقًا بالنظر إلى تغير تعابير وجوه الرجال الثلاثة الجالسين في مواجهة والدها. أكمل كلامه: "والأسوأ من ذلك، أن ميلور عرض عليَ حينها شراء أسهمه التي تبلغ نسبتها واحد وخمسين بالمئة كلها في الشركة مقابل جنيه واحد".

سأل بروك: "ما الذي كان يريده مقابل ذلك؟".

"طلب أن أعيد الأسهم جميعها إليه حال خروجه من السجن لقاء جنيه واحد أيضًا".

قال دوسون: "هذا ليس بعرض مثير للاهتمام كثيرًا، ولكن لا بد أنه بدا مغريًا وقتها".

قال حكيم: "ولكن ليس مغريًا بما فيه الكفاية، إن كان عليك التعامل مع أشخاصٍ حثالة من أمثال سلوان ونولز، اللذين -إن طلبت رأيي- عليهما أن يكونا محبوسين في نفس سجن ميلور".

قاطعه أرنولد بحزم: "كلامه هذا خارج إطار المناقشة، ولا يمثل موقف البنك".

قال بروك: "أوافقك الرأي يا حكيم، فقد قابلت سلوان مرة وكانت كافية بالنسبة إليَ. ولكن بكل الأحوال، دعني أسألك يا سيد كليفتون، هل تعتقد أن هناك أي فرصة بأن ميلور قد يفكر بإعادة تقديم عرضه مجددًا؟".

"لا أظن ذلك، ولكني مستعد لأحاول مرة أخرى إن وافق على مقابلتي".

قال دوسون: "حسنًا، لنكتشف ذلك بأسرع ما يمكن".

قال أرنولد: "ولكن عليّ تحذيرك أنه وحتى إن وافق ميلور على مقابلتك، فإن عجلة السلطة تدور ببطء أكثر في السجن منها في وايتهول".

قال حكيم: "ولكنني أذكر زيارتك أنت وسيب لي في بيلمارش بسهولة".

قال أرنولد: "تلك كانت زيارات قانونية، ولا تعترض قيود السجن الاعتيادية، فلا تنس أنني كنت أمثلك".

قال حكيم: "حسنًا إن وافق ميلور على أن تمثله، فسنتمكن من التخلص من العقبات مباشرة".

سأل دوسون: "ولكن لم سنفكر حتى بفعل ذلك؟".

قال سيباستيان: "لأن باري هاموند هو محقق خاص وظفته شركة فارثينغزز، اكتشف أن سلوان هو من ألصق التهمة بميلور، وهذا السبب وراء دخول ميلور السجن، وبعد أن أزاله من طريقه بمساعدة صديقة نولز، عيّن نفسه رئيسًا لشركة ميلور ترافل التي لم تعلن عن أي ربح أو فوائد منذ حينها. لذا من الممكن أن يكون ميلور يائسًا بما يكفي ليعتبرنا أهون الشرين".

سأل بروك: "إن كنا نحن كذلك، ما الذي اكتشفته عن منافسينا؟".

قال سيب: "إنهم أسوأ. فشركة سوركين إنترناشيونال ليست بشركة سهلة لمنافستها. فمكتبها الرئيسي في باناما، ومع أن لديها رقم هاتف له إلا أن لا أحد يجيب عليه".

سأل دوسون: "هل كونارد سوركين موجود بنفسه في باناما؟".

"لا، هو يقضي معظم وقته على يخته، مبحرًا باستمرار. في الواقع، هناك سبعة بلاد سلبته الحصانة القانونية ولكن مع الأسف إن المملكة المتحدة ليست إحداها. في كل الأحوال يبدو أن لديه إمكانية الوصول إلى محامين ملتوين وشركات متوقفة وحتى حلفاء ليتأكد أنه دائمًا يسبق القانون بخطوة".

قال بروك: "شريك مثالي لسلوان ونولز".

قال سيب: "أتفق معك. وكما تعلم، سوركين قدّم عرضًا يساوي عرضنا بمليوني جنيه مقابل ميلور ترافل. لكن بكل الأحوال أعتقد أن من المستبعد أن يتعامل معنا كند".

قال محامي كوك: "ولكن بالتأكيد لا يستطيع سوركين تحريض استيلاء تام من دون دعم ميلور".

قال حكيم: "لا يحتاج إلى ذلك، لأننا لسنا مقتنعين بأن ذلك هو هدفه كما شرح سيب".

قال سيب: "أنا واثق أن سوركين ليس مهتمًا بالشركة، بل هو مهتم فقط بالمتاجر الاثنين والأربعين والمكاتب، التي سجل لها قيمة تساوي أقل من مليوني جنيه، في حين قدرها محلل الأصول لديَ بأكثر من خمسة ملايين".

قال دوسون: "حسنًا، تلك هي لعبته".

قال أرنولد: "أعتقد أنه سيكون سعيدًا لبيع أصوله من دون الرجوع إلى ميلور، أو حتى دون القلق من أن يخرق القانون لأنني أتوقع أن السيد سوركين سيكون قد اختفى قبل أن تصل إليه الشرطة بوقت طويل".

سأل بروك: "هل نستطيع فعل أي شيء لإيقافه؟".

أجابه سيب: "أجل، أن نحصل على نسبة واحد وخمسين بالمئة من الأسهم ونطرد سلوان".

***

ميّزت فيرجينيا خط يد الرسالة التي وجدتها عند عتبة بابها في الصباح التالي مباشرة، وفتحتها لتجد مغلفًا آخر معنونًا للآنسة كيلي ميلور، ولكنه لا يحمل أي عنوان، ومكتوبًا عليه بخط اليد: أرجو الحرص على تسليمه إلى كيلي، لأنه مهم جدًا.

إنه ديزموند. مزقت فيرجينيا المغلف بسرعة، وبدأت بقراءة الرسالة التي كتبها ديزموند إلى ابنته والتي استهلها:

بعزيزتي كيلي...

***

كان سيباستيان على وشك ركوب المصعد عندما أتى أرنولد هاردكاسل راكضًا نحوه. فسأله: "أليس لديك زوجة وأولاد لتعود نزل إليهم؟".

قال أرنولد متجاهلًا تعليقه: "لدي أخبار جيدة. وافق ميلور على مقابلتنا، وليس هذا فقط، بل يريد تدبير اللقاء بأسرع ما يمكن".

"هذا ممتاز، سيكون حكيم في منتهى السعادة".

"لقد تكلمت بالفعل مع رئيس السجن، وقد وافق على إجراء اجتماع قانوني في السجن غدًا في الساعة الثانية عشرة".

"سيرغب حكيم بأن يكون موجودًا".

"معاذ الله، سينتهي به الأمر غالبًا بخنق الرجل، ومن يمكنه لومه؟ لا، عليك أنت أن تمثل فارثينغز. ففي النهاية، هو طلب رؤيتك أنت عندما توصل إلى عرضه الأولي. وأقترح أن يكون راي بوك متواجدًا

أيضًا حتى يدرك ميلور بأن الأمر جدي. سيكون مبهورًا إن كان الكلام من رئيس شركة إلى آخر".

وافقه سيب: "هذا منطقي".

"هل لديك أي موعد لصباح الغد؟".

قال سيب فاتحًا دفتر مواعيده: "إن كان لديَ، فهو على وشك أن يُلغى".

كانت فيرجينيا على تواصل مع والدة كيلي ميلور، لكنها لم تكن متعاونة كثيرًا. لا بد أنها ظنت أن فيرجينيا هي عشيقة ميلور الحالية. بكل الأحوال لقد أخبرتها أن آخر مرة تكلمت فيها مع ابنتها كانت متواجدة في مكان ما في شيكاغو، لكنها اعترفت بأنها فقدت التواصل معها.

***

صعد سيباستيان وأرنولد وبروك إلى سيارة أجرة عند الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، وطلب سيب من السائق أن يوصلهم إلى سجن بيلمارش. ولم يبدُ على السائق أنه مسرور بذلك.

شرح أرنولد: "لا أعتقد أن لدينا فرصة بالعودة معه مرة أخرى".

سأل بروك: "لم تقول ذلك في هذا الوقت المبكر؟".

"ستكتشف السبب عندما نصل إلى هناك".

ناقش ثلاثتهم تكتيكاتهم في طريقهم إلى السجن، واتفقوا أن تكون أولويتهم هي جعل ميلور يعتقد أنهم في صفه.

قال سيب: "استمر في ذكر سلوان ونولز، لأنني واثق أنه سيفضل التعامل معنا أكثر منهما".

قال بروك في حين غادرت سيارة الأجرة المدينة متجهة شرقًا: "لا أتوقع أنه سيوافق على مقابلتنا إن لم نكن نمتلك فرصة".

كان كل منهم يعرف دوره عندما توقفت السيارة أمام أبواب سجن بيلمارش الخضراء المحرمة. كان أرنولد سيفتتح المناقشة ويحاول دفع ميلور للاعتقاد أنهم الأشخاص الجيدون، وعندما يشعر سيب بأن الوقت مناسب سيقدم له عرضًا بمليون ونصف مليون جنيه مقابل أسهمه، وسيؤكد بروك أن المال سيودع في حسابه البنكي في اللحظة التي يوقع فيها على نقل الأسهم، وكجائزة إضافية سيطرد سلوان ونولز قبل انتهاء يوم العمل ذلك. كان سيب يرجو أن يشعر بثقة أكبر.

فتشهم الشرطي بعناية بعد دخولهم إلى السجن، وحجز سكين جيب بروك مباشرة. قد يكون رئيس شركة كوك قد زار جميع دول العالم تقريبًا، لكنه كان من الواضح أنه لم يزر سجنًا من قبل. تركوا كل ما يحملونه، حتى أحزمتهم عند الموظف المكتبي وشقوا طريقهم بمرافقة شرطيين إلى القسم ألف.

عبروا عددًا من الأبواب ذات القضبان التي كانت تفتح وتقفل خلفهم، حتى وصلوا إلى غرفة لقاءات في الطابق الأول. كانت الساعة على الحائط تشير إلى الثانية عشرة إلا خمس دقائق، فلم يكن على بروك أن يسأل مجددًا لم انطلقوا باكرًا.

فتح أحد الشرطيين المناوبين الباب لهم، وسمح للرجال الثلاثة بالدخول إلى غرفة ذات جدران زجاجية. ومع أنهم تُركوا لوحدهم إلا أنه بقي شرطيان متمركزان خارج الغرفة مباشرة لمراقبتهم، كانا موجودين للحرص على ألا يمرر أي أحد مخدرات أو أسلحة أو أموالًا للمساجين، فلم يكن شيء يسعد هذان الشرطيان أكثر من القبض على محامٍ ما.

جلس الزوار الثلاثة حول طاولة مربعة صغيرة في

منتصف الغرفة تاركين مقعدًا شاغرًا لميلور.

فتح أرنولد حقيبته، وأخرج منها ملفًا يحوي على وثيقة نقل أسهم، إضافة إلى نص اتفاقية من ثلاث صفحات تحقق منها مجددًا للمرة الأخيرة قبل أن يضعها على الطاولة. إن سار كل شيء وفق الخطة، فسيكون هناك توقيعان في نهاية تلك الصفحات في الوقت الذي سيغادرون فيه السجن بعد ساعة من الآن.

لم يستطع سيب التوقف عن التحديق إلى الساعة على الجدار، مدركًا أنهم لن يحصلوا سوى على ساعة واحدة لإتمام الصفقة وتوقيع كل المستندات القانونية الضرورية. عندما دقت الساعة الثانية عشرة تمامًا، دخل رجل إلى الغرفة مرتديًا ربطة عنق وقميصًا مقلمًا مع سترة سميكة. فوقف أرنولد مباشرة وقال: "صباح الخير أيها الرئيس".

"صباح الخير يا سيد هاردكاسل. أعتذر لإطلاعكم أن لقاء اليوم من غير الممكن أن يتم بعد الآن".

سأل سيب واقفًا على قدميه: "لماذا؟".

"عندما فتح الشرطي قفل باب زنزانة ميلور في الساعة السادسة صباح اليوم، اكتشف أنه قد شنق نفسه مستعملًا غطاء السرير بمثابة حبل".

جلس سيب مصدومًا. وصمت الرئيس قليلًا ليعطيهم فرصة لاستيعاب الأمر، قبل أن يضيف بنبرة واقعية: "مع الأسف، فإن الانتحار شائع جدًا في بيلمارش".

لم يخطر على بال فيرجينيا حين قرأت خبر انتحار ميلور في الصفحة 11 من صحيفة ذا إيفنينغ ستاندارد، سوى أن مصدرًا آخر للمال كان قد نضب. لكن واتتها فكرة أخرى عندها.

17

قالت إيما حين دخلوا إلى غرفة الجلوس بعد العشاء: "من النادر أن تجتمع العائلة كلها في عطلة نهاية الأسبوع".

علَق سيباستيان: "وكلنا نعلم من علينا لومه لذلك. أتمنى فقط أنك ما زلت تستمتعين بهذا العمل".

"لا أعتقد أن كلمة استمتاع هي الكلمة المناسبة، ولكن لا يمر يوم دون أن أفكر كم أنا محظوظة، وكيف أن لقاء واحدًا بالصدفة مع مارغريت تاتشر غيّر حياتي".

سألت سامانثا وهي تسكب لنفسها بعض القهوة: "كيف هو العمل لصالح رئيسة الوزراء؟".

"في الحقيقة، لا يتسنى لي أن أراها كثيرًا، ولكن عندما أفعل تبدو وكأنها تعرف تمامًا ما الذي كنت أفعله".

سأل سيب بعد أن انضم إلى زوجته على الأريكة: "وما الذي كنت تفعلينه؟".

"إن مشروع قانون الصحة الوطنية على وشك أن يغادر مجلس الشيوخ ليصل إلى البرلمان، وستكون وظيفتي أن أعرضه على البرلمان بندًا ببند، قبل أن أعيده إلى مجلس الشيوخ، مع عدد من الاعتراضات والمطالب التي آمل ألا تكون كثيرة".

"لن يكون ذلك سهلًا بوجود جايلز الذي يحاول عرقلتك كلما سنحت له الفرصة، رغم أنني أظن أنك ستكشفين بعض أخطائه".

"ربما، لكنه لا يزال أحد أفضل المناظرين في البرلمان، حتى ولو كان قد أرجع إلى المقاعد الخلفية".

سألت سامانثا: "هل تخلى عن أي أمل بالانضمام

إلى حكومة الظل؟".

"أعتقد أن الجواب على هذا السؤال هو أجل، لأنه من المؤكد أن مايكل فوت لم يكن مسرورًا بملاحظاته المبطنة حول حادثة سترة الحمار".

قال سيب: "إن الظهور في سينوتاف في يوم أحد الذكرى مرتديًا سترة حمار يكشف ضعفًا مؤكدًا في المعرفة السياسية".

قالت غريس: "من المؤسف فقط أن جايلز لم يستطع منع نفسه من التحدث عن هذا الموضوع".

قال سيب: "خسارة المقاعد الأمامية هي مكسب لنا، فمنذ أن انضم جايلز إلى مجلس شركة فارثينغز، فتح لنا أبوابًا لم نكن حتى نملك مفاتيحها".

قالت إيما: "إن الانضمام إلى مجلس بنك سيتي هو شيء آخر لن يقربه من مايكل فوت، لذا لا أظن أننا سنراه في المقاعد الأمامية مجددًا حتى ينتخب حزب العمال قائدًا جديدًا".

قال سيب: "وربما ليس حينها حتى. أخشى أن الجيل الجديد قد يعتبر جايلز قديمًا مثل ديناصور من نوع ما، وسأقتبس من تروتسكي القول إنهم سيحنطونه في مزبلة التاريخ".

قال هاري من كرسيه الذي لا يحلم أحد بالجلوس عليه: "لا يمكنك وضع ديناصور في المزبلة". وانفجر الجميع ضاحكين.

قالت إيما وهي تلتفت إلى سامانثا: "كفى حديثًا بالسياسة. أريد أن أعرف ما الذي تفعله جيسيكا في هذه الأيام، ولم لم تنضم إلينا في نهاية الأسبوع؟".

قال سيب: "أعتقد أن لديها حبيبًا".

سأل هاري: "أليست يافعة بعض الشيء؟".

ذكر سيب والده: "إنها في السادسة عشرة".

سألت إيما: "هل قابلته؟".

قالت سامانثا: "لا. في الواقع، لا يفترض بنا حتى أن نكون على معرفة به، ولكن عندما كنت أرتب غرفتها منذ عدة أيام عثرت على لوحة لشاب وسيم بجانب سريرها حيث اعتاد أن يكون ملصق لدوران دوران".

قال هاري بحزن: "ما زلت أشتاق لابنتي".

قال سيب: "هناك أوقات أكون فيها سعيدًا لإعطائك ابنتي. فقد أمسكت بها الأسبوع الفائت وهي تحاول التسلل من المنزل مرتدية تنورة قصيرة، وتضع أحمر شفاه فاقع وتنتعل حذاء عالي الكعب. أرسلتها عائدة إلى غرفتها لتزيل أحمر الشفاه وتبدل ملابسها، فأغلقت الباب على نفسها في غرفتها ولم تتحدث إليّ منذ ذلك الحين".

سأل هاري: "ما الذي تعرفانه عن الشاب؟".

قالت سامانثا: "نعتقد أن اسمه ستيف، وأنه قائد فريق الكرة في المدرسة. لذا أظن أن لدى جيسيكا طابورًا طويلًا لتنتظر فيه".

قالت غريس: "لا أعتقد أن جيسيكا من النوع الذي ينتظر في الطوابير".

سألت إيما: "وماذا عن حفيدي الآخر؟".

قالت سامانثا: "أصبح جيك يمشي الآن من دون أن يقع، ويقضي معظم وقته بالتوجه نحو الباب الخارجي، لذا بصراحة إنه مرهق بعض الشيء. لقد أوقفت مؤقتًا أي فكرة حول العودة للعمل في الوقت الحالي، فأنا لا أتحمل حتى فكرة تسليم ذلك الصغير إلى جليسة أطفال".

قالت إيما: "أنا أحترمك لهذا. فأنا أتساءل أحيانًا إن كان عليَ أخذ القرار نفسه".

قال سيب مستندًا إلى المدفأة: "أوافقك الرأي. فأنا مثال كلاسيكي لشخص ذي طفولة محرومة، وانتهى به الأمر فاسدًا".

قال هاري: "يا للهول أيها الضابط كروبك".

قال سيب: "لم أكن أعلم أنك تحبه إلى هذه الدرجة يا أبي".

"لقد أخذت والدتك لمشاهدة ويست سايد ستوري في مسرح أولد فيك في بريستول في ذكرى زواجنا. وإن لم تكن قد شاهدته فعليك بذلك".

أجاب سيب: "لقد شاهدته. فشركة فارثينغز كوفمان هي من أكبر داعمي هذا العرض".

قال هاري: "لم أفكر بك أبدًا على أنك ملاك، وأنا بالتأكيد لم أرَ أي ذكر للعرض في تقريرك المالي الأخير".

"وضعت نصف مليون من أموال موكلينا في هذا العرض، ولكنني اعتبرتها مخاطرة كبيرة للعائلة مع أني استثمرت به بنفسي".

قالت غريس: "حسنًا لقد فوتنا الأمر".

اعترف سيب: "هذا خطأي. لقد انتهى بك الأمر بعائد سنوي يقدر بـ7.9 بالمئة في رصيدك، في حين وصل عملائي الآخرون إلى 8.4 بالمئة. فقد اتضح وأنا أقتبس من المنتج الأميركي الذي يستمر ببعث الشيكات لي كل ثلاثة أشهر أن ويست سايد ستوري قد حقق نجاحًا باهرًا".

قالت إيما: "ربما يمكنك أن تشركنا في عرضك القادم".

"لن يكون هناك عرض قادم يا أمي، فلم يلزمني الكثير من الوقت لأعرف أن اكتشافي هذا لم يكن سوى حظ المبتدئين. سبعة عروض لويست إند من

أصل عشرة خسرت كل بنس لمستثمريها، في حين بالكاد حقق واحد منها فقط ما أستثمر فيه، وواحد عاد بأرباح، بينما تمكن واحد فقط من مئة منها أن يضاعف أمواله، وأقصد بذلك العروض التي لا يمكنك عادة الدخول إليها. لذا قررت أن أترك مجال الاستعراض بينما أنا في القمة".

قال هاري: "يقول لي آرون غوينزبرغ إن النجاح التالي سيكون لعرض يدعى ليتل شوب أوف هورور".

قال سيب: "لن تستثمر فارثينغز في أي عروض رعب".

سألت إيما: "ولم لا؟ ففي النهاية، لقد حاولت أن تستثمر في شركة ميلور ترافل".

اعترف سيباستيان: "ولا أزال أفعل".

سألت إيما: "حسنًا ما الذي استثمرت فيه؟".

"شركة أي سي أي الكيميائية، وشركة نفط رويال داتش شيل إضافة إلى شركة الطيران البريطانية وكونارد. المخاطرة الوحيدة التي قمت بها باسمكم هي شراء بضعة أسهم في شركة تصنيع حافلات جديدة تدعى ستيجكوتش، وستسرون لمعرفة أن أحد منشئيها امرأة".

قال هاري: "وقد أظهروا بالفعل ربحًا جيدًا".

"اقترح أيضًا الحصول على حصة جيدة من شركة توماس كوك، لكن فقط إن نجحنا في الاستيلاء على ميلور ترافل".

اعترفت إيما: "لم أهتم قط بديزموند ميلور، لكنني شعرت بالأسف عندما سمعت بأنه انتحر".

"باري هاموند غير مقتنع بأن الأمر انتحار".

قال هاري: "ولا أنا، لو كان ويليام ووروِيك هو

من يحقق في القضية لأشار بأن هناك الكثير من المصادفات".

سأل سيب مذهولًا كالعادة بالطريقة التي يعمل بها عقل والده: "مثل ماذا؟".

"في البداية، غثر على ميلور في زنزانته خلال معركة استيلاء على شركته، وفي الفترة نفسها اختفى أدريان سلوان الذي هو رئيس الشركة من دون أثر".

قالت إيما: "لم أكن أعلم هذا".

قال هاري: "كان لديك أمور أهم تشغل تفكيرك أكثر من قراءة صحيفة ذا بريستول إيفنينغ بوست، وبصراحة لم أكن لأعرف أيضًا بقصة ميلور إن لم تكن الصحف المحلية مهووسة بها، فقد كان (رجل أعمال بريستول يقدم على الانتحار في سجن عالي الحماية) عنوانًا نموذجيًا. ولا نحصل من رئيس ميلور ترافل سوى على جملة (غير متاح) كلما طلب منه الإدلاء بتصريح باسم الشركة. وليزداد الأمر غرابة، فإن جيم نولز -الذي عرف عنه بأنه الرئيس المؤقت- يستمر بالتأكيد لأي مستثمرين قلقين بأن الموضوع متعلق بالأعمال كالعادة، وأنه سيصرح ببعض الأخبار المشوقة في القريب العاجل. فهذه ثلاث مصادفات غريبة، ومن المؤكد أن ويليام وورويك سيرغب بالتقصي عن أدريان سلوان في حال كان بإمكانه توضيح أي شيء بخصوص لغز موت ميلور".

قال سيب: "ولكن رئيس سجن بيلمارش كان مقتنعًا بأنه انتحار".

قال هاري: "إن رؤساء السجون يقولون هذا دومًا عندما يموت سجين لديهم، فذلك مناسب أكثر بكثير من أن يقولوا إن في الأمر جريمة قتل، لأن

هذا سيعني فتح تحقيق سيستغرق الحصول على نتائجه قرابة العام. لا، هناك شيء مفقود في تلك القضية رغم أنني لم أدرك بعد ما هو".

قال سيب: "ليس شيئًا، بل شخصًا. اسمه السيد كونارد سوركين".

سألت غريس: "من هو؟".

"رجل أعمال عالمي مشبوه، كنت أعتقد حتى فترة قريبة أنه يعمل مع سلوان".

سألت إيما: "هل يدير سوركين شركة سفريات؟ إن كان كذلك، فأنا لم أصادفه من قبل".

"لا، سوركين ليس مهتمًا بميلور ترافل. هو فقط يريد الحصول على المتاجر والمكاتب التي تملكها الشركة حتى يتمكن من كسب أرباح سريعة".

قال هاري: "هذه قطعة لم أكن أعلم بها من الأحجية".

"ولكن ربما تفسر مصادفة أخرى كانت تؤرقني، يؤدي شخص يدعى السيد آلان كارتر دورًا فيها".

حدّق جميع من في الغرفة إلى هاري بصمت تام، غير راغبين بمقاطعته. وتابع كلامه: "إن آلان كارتر هو سمسار عقارات محلي، لم يؤدِ حتى الآن سوى دور صغير في كل هذه الملحمة. ولكن من وجهة نظري إن دليله قد يثبت أنه ضروري".

سكب هاري لنفسه كوبًا آخر من القهوة وارتشف منه قبل أن يكمل: "حتى الآن، لم يظهر كارتر سوى في بعض المقالات لصحيفة بريستول إيفنينغ نيوز، عندما أخبر الصحيفة أن شقة ميلور في بريستول كانت معروضة للبيع مثلًا. اعتقدت أنه قد فعل ذلك ببساطة حتى يحصل على بعض الترويج المجاني لشركته إضافة إلى سعر أفضل لشقة عميله. فلا

شيء خاطئ في ذلك، ولكن كان تصريحه الثاني الذي أدلى به بعد موت ميلور ببضعة أيام هو ما وجدته مثيرًا للاهتمام".

طالب سيب: "اقلب الصفحة. اقلب الصفحة".

"لقد أعلم كارتر الصحافة دون أي تفسير أن شقة ميلور قد بيعت، ولكن لديه تعليمات من عميله بأن يبقي معه مبلغًا من عملية البيع. ما أرغب بمعرفته هو مقدار المبلغ الذي طلب منه أخذه، ولماذا لم يرسل المبلغ كاملًا إلى ورثة ميلور ويتركهم ليقرروا من أحق به".

سأل سيب: "هل تظن أن كارتر سيكون في العمل صباح الأحد؟".

قال هاري: "إن صباح الأحد هو دائمًا الأكثر انشغالًا من أيام الأسبوع بالنسبة إلى سمسار العقارات، ولكن ليس هذا هو السؤال الذي كان عليك طرحه عليَ".

قالت إيما: "إنك تقودنا للجنون في بعض الأحيان".

قال سيب: "هذا صحيح".

سألت غريس: "حسنًا ما السؤال الذي كان على سيب طرحه؟".

"من أقرب ذوي ديزموند ميلور".

***

كان سيباستيان يقف خارج شركة هادسون أند جونز في شارع كوميرشال الساعة التاسعة إلا خمس دقائق في اليوم التالي. وكان ثلاثة وكلاء جالسين بالفعل في كراسيهم منتظرين زبونهم الأول.

بعد أن فتحت الأبواب، عرفت لافتة مطبوعة بعناية أية منهم كان السيد آلان كارتر. جلس سيب

مقابل شاب يافع يرتدي بذلة مخططة، وقميصًا أبيض إضافة إلى ربطة عنق حريرية خضراء. أعطى لسيب ابتسامة مرحبة ثم قال له: "هل أنت البائع أم المشتري أم كلاهما يا سيد...".

"كليفتون".

"أنت لست بالمصادفة أحد أقارب الليدي كليفتون، أليس كذلك؟".

"إنها والدتي".

"حسنًا أتمنى أن تنقل لها أحر تحياتي".

"هل تعرفها؟".

"فقط بصفتها رئيسة المركز الطبي الملكي. فقد كانت زوجتي تعاني من سرطان الثدي، والتقيتها عندما كانت في إحدى جولاتها الأسبوعية".

قال سيب: "صباح كل أربعاء، من الساعة العاشرة حتى الثانية عشرة. فهي تقول إن ذلك يمنحها فرصة لمعرفة ما يفكر به المرضى والموظفون حقًا".

قال كارتر: "ويمكنني إخبارك بشيء آخر، كانت هناك أيضًا ولكن في قسم الإسعاف تراقب كل ما يجري، عندما سقط ابني عن دراجته ولوى كاحله".

"لا بد أن يكون ذلك بعد ظهر يوم الجمعة، بين الساعة الرابعة والسادسة".

"لم أستغرب ذلك، بل ما فاجأني أنها ذهبت إلى زوجتي وتكلمت معها، وحتى أنها تذكرت اسمها. لذا أخبرني فقط ما الذي تريده يا سيد كليفتون، فأنا في خدمتك".

"أخشى أنني لست لا بائعًا ولا شاريًا يا سيد كارتر، بل باحث عن معلومات".

"إن كنت أستطيع المساعدة، فسأفعل حتمًا".

"إن البنك الذي أمثله منخرط حاليًا في صفقة

استيلاء على شركة ميلور ترافل، وقد أثار اهتمامي تصريح كنت قد أدليت به للصحافة المحلية بخصوص بيع شقة السيد ديزموند ميلور في شارع برود".

سأل كارتر، وهو يبدو مستمتعًا بهذا الاهتمام به: "أي من التصريحات الكثيرة التي أدليت؟".

"لقد أخبرت مراسلين من صحيفة ذا إيفنينغ نيوز أنك أبقيت مبلغًا من مال مبيع الشقة بدل أن توصله بالكامل إلى ورثة السيد ميلور الموجودين في وصيته، وهذا حيّر والدي".

"إن والدك رجل ذكي، وهذا أكثر مما يمكنني قوله عن أولئك المراسلين الذين فشلوا في فهم كلامي".

"حسنًا أنا أرغب في فهمه".

"وإذا ساعدتك يا سيد كليفتون، فهل سيعود هذا بأي فائدة على والدتك؟".

"أجل، بشكل غير مباشر. فإن نجح بنكي في الاستيلاء على ميلور ترافل، سيستفيد والداي من ذلك لأنني مسؤول عن أسهمهما أيضًا".

"لكي يتمكن أحدهما من التفرغ للكتابة، في حين يدير الآخر دائرة الصحة الوطنية؟".

"شيء من هذا القبيل".

همس كارتر مستندًا إلى المكتب: "بيني وبينك، اعتقدت أن الأمر كان عملًا غريبًا منذ البداية، فقد كان التحدث إلى عميل على الهاتف مرة في الأسبوع ولمدة ثلاث دقائق، فقط لأنه يتصل من السجن، تحديًا بحد ذاته".

"أجل، يمكنني تصديق ذلك".

"لعلمك، كانت تعليماته الأولى واضحة بما يكفي، فقد أراد عرض شقته للبيع شريطة ألا تتجاوز مدة

عملية البيع ثلاثين يومًا".

أخرج سيب دفتر شيكاته من جيبه، وكتب على الوجه الخلفي (ثلاثين يومًا)، مبقيًا القلم في يده، قبل أن يكمل كارتر: "اتصل بعدها بأسبوع وطلب أمرًا آخر حيرني، لأنني كنت أعتقد أنه رجل ثري. سأل إن كان بإمكاني أن أحصل له مقدمًا على عشرة آلاف جنيه قبل بيع الملكية، فقد كان بحاجة إلى المال بشكل مستعجل، لذا بدأت أشرح له أن ذلك ضد سياسة الشركة، لكنه أغلق الخط في وجهي".

كتب سيب (عشرة آلاف جنيه) ووضع خطًا تحتها.

"بعد ذلك بأسبوعين، تمكنت من إخباره بأنني عثرت على شارٍ للشقة موافق على إعطائه عشرة آلاف جنيه من المبلغ المطلوب، لكنه لن يتم الصفقة حتى يرى تقرير موظف المسح. فطلب عندها السيد ميلور أمرًا أغرب. فبعد أن تم المبيع، كان عليَ أن أسلم أول عشرة آلاف لأحد أصدقائه من لندن، ولكن ليس قبل أن يصدروا وثيقة قانونية موقعة منه بشهادة السيد جريفز في الثاني عشر من شهر أيار سنة 1981".

كتب سيب (صديق، عشرة آلاف جنيه، وثيقة قانونية موقعة من ميلور وجريفز) والعنوان.

تابع كارتر: "وكان يجب عليَ إيداع كل المبلغ المتبقي بعد اقتطاع أتعابنا في حسابه البنكي في بارسليز في شارع كوين".

أضاف سيب اسم شارع كوين إلى قائمته.

"استطعت أخيرًا التخلص من تلك الشقة، ولكن ليس قبل تخفيضي للسعر كثيرًا. تابعت بعدها توجيهات السيد ميلور بدقة".

سأل سيب وقد بدأت ضربات قلبه بالتسارع: "وهل

ما زالت الوثائق بحوزتك؟".

"لا، ولكن اتصلت سيدة بهذا المكتب، وبدت مهتمة حالما أخبرتها بأنني أبقي على عشرة آلاف بطلب منه، ولكنها سرعان ما فقدت اهتمامها بعد أن أضفت أن ليس بمقدوري تسليمها المال حتى تريني الوثيقة الموقعة من السيد ميلور. فسألتني إن كانت ستفي نسخة عن الوثيقة بالغرض، ولكنني أخبرتها أني سأحتاج لرؤية الوثيقة الأساسية قبل أن يكون بمقدوري تسليم العشرة آلاف".

"ما كان ردها؟".

"بصراحة، فقدت أعصابها وبدأت تهددني. قالت إنني سأسمع من محاميها إن لم أحول لها المال ولكنني لم أتراجع عن كلامي يا سيد كليفتون ولم أسمع منها شيئًا بعد ذلك".

"تصرف صحيح".

"أنا سعيد أنك توافقني الرأي يا سيد كليفتون، لأن بعد هذه الحادثة بعدة أيام حصل أمر غريب. فقد أتى إلينا رجل أعمال محلي في وقت الإغلاق وأظهر لنا الوثيقة الأصلية، لذا لم يكن لديّ خيار سوى تسليم المال له".

كتب سيب ذلك، وكان عليه الآن أن يوافق والده على أن كارتر يمتلك عدة قطع من الأحجية، ولكن مع ذلك كان يحتاج أجوبة عن مزيد من الأسئلة".

"وما كان اسم المرأة؟

قال كارتر بعد بعض التردد: "لا، يا سيد كليفتون. أعتقد أنني تكلمت بما فيه الكفاية. لكن بإمكاني إخبارك بأنها ليدي مثل والدتك مع أنها لا تشبهها كثيرًا، فأنا أشك بأنها تتذكر اسمي".

كتب سيب كلمة (ليدي) قبل أن ينهض من مقعده

ويقول: "شكرًا لك، لقد كنت عونًا كبيرًا وسأوصل كلامك الجميل لوالدتي".

"هذا من دواعي سروري، وأنا أعتذر لأنني لا أستطيع اطلاعك على اسم الليدي".

قال سيب: "لا تقلق، ولكن إن كلمتك الليدي فيرجينيا مجددًا انقل لها تحياتي".

18

وضع سيباستيان دفتر الشيكات على الطاولة أمامه. كان من الواضح أن حكيم بشارة، وأرنولد هاردكاسل وجايلز بارينغتون مرتابون، لكنهم لم يقولوا شيئًا.

قال سيب: "لقد أمضيت عطلة الأسبوع في سوميريست برفقة والدي، واكتشفت أن والدي قد اتخذ اهتمامًا كبيرًا في قضية موت ديزموند ميلور. فهو مثل باري هاموند غير مقتنع أن الأمر كان انتحارًا، وعندما تتقبل هذا الأمر كاحتمال ستظهر لديك عدة خيارات".

كان الرجال الثلاثة حول الطاولة يستمعون له باهتمام بالغ.

"نصحني والدي بزيارة سمسار العقارات المحلي صباح يوم الأحد وإجراء محادثة مع الرجل الذي كان مسؤولًا عن بيع شقة ميلور في بريستول". ثم حدق سيب إلى اللائحة التي كتبها على دفتر شيكاته خلال لقائه مع كارتر، وبعد عشرين دقيقة، كان قد شرح لجمهوره لماذا يظن أن الليدي فيرجينيا فينويك هي الليدي المقصودة، وأن رجل الأعمال المحلي هو جيم نولز.

قال جايلز: "ولكن كيف التقى هذان الاثنان؟ فهما ليسا في دوائر العلاقات ذاتها".

اقترح أرنولد: "لا بد أن يكون ميلور هو العامل المشترك بينهما".

أضاف حكيم: "والمال أيضًا، فتلك المرأة لن تضيع وقتها على أي منهما إن لم تكن ترى مكسبًا لها في الأمر".

قال جايلز: "لكن هذا لا يزال لا يفسر لم كان ميلور

بحاجة إلى عشرة الاف جنيه بسرعة. ففي النهاية، كان رجلًا غنيًا جدًا".

قال حكيم: "كان لديه أملاك، وليس بالضرورة سيولة".

قال سيب: "لقد أمضيت الأيام الأخيرة محاولًا فهم هذا الأمر، ولكن بالطبع كان والدي هو من توصل إلى أكثر سيناريو محتمل. فقد قال إن كان ميلور بحاجة إلى المال بهذه السرعة، فليس علينا أن نبحث عن الجواب بعيدًا عن السجن، وتساءل أيضًا إن كان الاختفاء الغامض لأدريان سلوان له علاقة بالموضوع".

قال أرنولد: "ربما كان ميلور يتعرض للتهديد، فهذا ليس غريبًا إن كان معروفًا أن السجين يمتلك المال".

قال حكيم: "هذا محتمل، ولكن إن كان يحتاج بشكل مستعجل لعشرة آلاف جنيه مقدمًا، فإنه سيحتاج شيئًا ليرهنه".

اقترح أرنولد: "مثل شقته في بريستول".

"ولكنها لم تبع في الوقت المناسب لحل مشكلة سيولة المال لديه، لذا لا بد أنه قد وجد شيئًا آخر".

سأل جايلز: "ربما أسهمه في ميلور ترافل؟".

أجاب حكيم: "هذا غير محتمل، فهي تساوي مليونًا ونصف المليونن على أقل تقدير وهو لم يكن يحتاج سوى عشرة آلاف".

قال جايلز: "هذا يعتمد على درجة اليأس التي كان فيها".

قال أرنولد: "ولهذا أنا مقتنع أنه كان يُهدد من قبل سجين آخر".

سأل جايلز: "ولكن لم سيلجأ إلى فيرجينيا

لتساعده؟ في حين كانت هي من تعتمد عليه في دخلها وليس العكس؟".

قال سيب: "لا بد أنها كانت الوسيط، وقد اقترح والدي بأن تلك كانت الطريقة التي انخرط فيها نولز".

"وحالما أدرك أنه يمكن أن يحصل على واحد وخمسين في المئة من شركة ميلور ترافل إن لم يكن ميلور موجودًا دفع العشرة آلاف جنيه في مهلة الثلاثين يومًا...".

قال سيب: "وهذا هو سبب اعتقاد والدي أن القضية هي جريمة قتل وليست انتحارًا".

قال أرنولد: "قد يكون جيم نولز شخصًا قذرًا، ولكن لا يمكنني تصديق أنه قد يقحم نفسه في جريمة قتل".

قال سيب: "أعتقد أن دور سوركين يبدأ هنا".

قال أرنولد: "وهناك أمر آخر يمكنني إخبارك به من خبرتي. إن القاتلين المأجورين يطالبون بالعادة بحوالى العشرة آلاف، ولا بد أن هناك واحدًا أو اثنين منهم في بيلمارش".

تبع ذلك صمت طويل حتى تكلم حكيم: "حسنًا، بعد أن يضع سوركين يديه على الأسهم، وإن كان ميلور غير موجود بعد الآن فسيحصل على الشركة بسهولة شديدة. وليس لدينا بالتأكيد أية فرصة في الحصول على أي شيء من نولز أو سلوان".

قال سيب: "هناك لغز آخر. فلم يكن هناك أي أثر لسلوان منذ أكثر من شهر، ولا يمكنني تصديق أنه فر هاربًا قبل أيام فقط من امتلاكه الفرصة للربح".

قال حكيم: "أنا أوافقك، ولكن مع ذلك أظن أن هناك شخصًا واحدًا آخر يمكنه غالبًا الإجابة على كل

أسئلتنا".

قال سيباستيان: "الليدي فيرجينيا فينويك. كل ما علينا تحديده هو من سيكلمها".

"يمكننا دائمًا إجراء قرعة لنرى من عليه أخذ هذه المخاطرة".

قال حكيم: "لا حاجة إلى هذا، فهناك شخص واحد فقط يمكنه فعل ذلك". ثم التفت وابتسم بوجه جايلز.

اعترض جايلز: "لكنني لم أتحدث مع فيرجينيا منذ ثلاثين عامًا تقريبًا، ولا يوجد سبب أصلًا للاعتقاد بأنها سترغب في رؤيتي".

قال سيب: "إلا إن استطعت أن تقدم لها عرضًا لا يمكنها رفضه. ففي النهاية، جميعنا نعلم أن ميلور كان مستعدًا لدفع عشرة آلاف جنيه لاسترجاع الوثيقة، لذا كل ما عليك فعله هو معرفة المبلغ الذي تريده فيرجينيا لتزودك بنسخة عنها".

سأل أرنولد: "كيف نعلم أصلًا أن بحوزتها نسخة".

أجاب سيب: "هذه معلومة أخرى قدمها لي بلطف السيد كارتر".

قال حكيم: "وهذا ما يطرح السؤال، من لديه الوثيقة الأصلية".

قال سيب دون تردد: "نولز. فلا تنس أنه كان هو من استلم العشرة آلاف من كارتر".

سأل أرنولد: "ولكن من طرف من؟".

قال حكيم: "نحن ندور في دوائر، وأعتقد أن الليدي فيرجينيا كانت لتوافقني الرأي"، ثم نظر مرة أخرى إلى جايلز مبتسمًا.

***

أمضى جايلز وقتًا لا بأس به وهو يفكر بطريقة

للتكلم مع فيرجينيا. ستكون كتابة رسالة يطلب فيها أن يلتقيا مضيعة للوقت، فقد كان يعلم أنه من الممكن أن تمضي أيامًا قبل أن تفتح بريدها، وحتى بعد أن تفتحه فمن غير المرجح أنها ستتعب نفسها بالرد على أي رسالة منه. لأنها أغلقت الهاتف في وجهه آخر مرة اتصل فيها بها قبل أن يتسنى له إتمام جملته الثانية. وإن ظهر على عتبة بابها من دون إنذار فسينتهي به الأمر بصفعة على الوجه أو بإغلاق الباب في وجهه، أو بكليهما غالبًا. في النهاية كانت كارين هي من توصلت للحل: "تلك المرأة مهتمة بشيء واحد فقط. لذا سيكون عليك رشوتها".

***

أوصل ساعي بريد من شركة دي. اتش. إل مغلفًا معنونًا (مستعجل وشخصي) إلى منزل فيرجينيا في تشيلسي في الصباح التالي، ولم يرحل حتى وقعت على استلامه. بعد ذلك بساعة اتصلت بجايلز: "هل هذه مزحة من نوع ما؟".

"لا أبدًا. كنت أريد فقط التأكد من الحصول على انتباهك".

"حسنًا لقد نجحت في ذلك. حسنًا، ما الذي سيكون عليّ فعله لأدفعك للتوقيع على الشيك؟".

"زوديني بنسخة عن الوثيقة التي أراد السيد كارتر رؤيتها قبل أن يوافق على تسليم العشرة آلاف جنيه".

كان هناك صمت لبعض الوقت على الخط قبل أن تتكلم فيرجينيا مجددًا: "لن تكون عشرة آلاف كافية لذلك، لأنني أعرف لم أنت مهتم للحصول عليها".

"كم تريدين؟".

"عشرين ألف".

قال جايلز وهو يأمل بأنه يبدو مقنعًا: "لديَ توجيهات بأن أصل إلى خمسة عشر ألفًا فقط".

تبع ذلك صمت آخر قبل أن تقول فيرجينيا: "سأرسل لك نسخة عن الوثيقة عندما أمتلك شيكًا بخمسة عشر ألف جنيه".

"لا أعتقد ذلك يا فيرجينيا. سأسلمك الشيك عندما تعطينني النسخة".

سألت بعد بعض التفكير: "متى وأين؟".

***

دفع جايلز الباب الدوار ودخل إلى فندق ريتز عند الساعة الثالثة إلا ربع من اليوم التالي. وتوجه مباشرة إلى البالم كورت حيث انتقى طاولة في جهة سيمكنه فيها رؤية فيرجينيا حين تظهر.

قلَب في صفحات صحيفة ذا إيفنينغ ستاندارد ليمضي الوقت، ولكنه وجد نفسه ينظر إلى ساعته باستمرار. كان يعلم أن فيرجينيا لن تصل على الموعد بالأخص بعد أن استفزها بتلك الطريقة، ولكنه كان يعرف في الوقت نفسه أنها لن تتأخر كثيرًا، فبنك كوتس يغلق أبوابه عند الساعة الخامسة، وهي سترغب بالتأكيد في إيداع الشيك هناك قبل أن تعود إلى المنزل.

تفاجأ جايلز بعد أن دخلت فيرجينيا القاعة في الساعة الثالثة وأحد عشر دقيقة، فلم يكن أحد ليظن أن هذه المرأة قد قطعت سن الستين، حتى أن عدة رجال التفتوا للنظر إلى أجمل امرأة موجودة - ليقتبس من بوغارت - وهي تمشي باتجاه طليقها.

نهض جايلز ليحييها، وأعادت له رائحة عطرها

الكثير من الذكريات حين انحنى ليقبل خديها.

قالت فيرجينيا بعد أن جلست مقابله: "لقد مر وقت طويل يا عزيزي. وقد اكتسبت كثيرًا من الوزن".

انكسرت التعويذة بعد كلامها هذا، وأصبح جايلز يتذكر مجددًا لماذا لم يفتقدها.

تابعت فيرجينيا كلامها بعد أن فتحت حقيبتها وأخرجت منها المغلف: "هل نزيح الأعمال من طريقنا أولًا؟ سأعطيك ما جئت من أجله ولكن ليس قبل أن تسلمني الشيك".

"أريد رؤية الوثيقة قبل أن أسلم أي مال".

"سيكون عليك أن تثق بي فقط يا عزيزي، لأنني إن سمحت لك بقراءتها فربما ستشعر أنك لست بحاجة لأن تدفع لي".

لم يفهم جايلز مقصدها، فقال: "ربما يمكننا التوصل إلى تسوية، أريني آخر صفحة من الوثيقة حيث توقيع ميلور والتاريخ، وأنا سأريك الشيك".

فكرت فيرجينيا للحظة ثم قالت: "أريد أولًا رؤية المال".

أخرج جايلز شيكًا بقيمة خمسة عشر ألف جنيه من جيبه وأراها إياه.

"لكنك لم توقعه".

"سأوقعه حالما أرى توقيع ميلور".

فتحت فيرجينيا المغلف ببطء، وأخرجت منه وثيقة قانونية وقلبت على الصفحة الثالثة. اقترب جايلز وحدق إلى توقيع ميلور الذي كان مشهودًا من قبل السيد كولين جريفز -ضابط شرطة مسؤول في السجن- ومؤرخًا يوم الثاني عشر من شهر أيار عام 1981. فوضع الشيك على الطاولة ووقعه،

ثم مرره إلى فيرجينيا، التي ترددت للحظة قبل أن تبتسم ابتسامة خبيثة وتعيد الوثيقة إلى المغلف ثم تعطيه لجايلز الذي وضعه في حقيبته، ثم قال بنبرة اعتيادية: "إن كنت تمتلكين النسخة فقط، من لديه الوثيقة الأصلية؟".

"هذا سيكلفك خمسة آلاف أخرى".

كتب جايلز شيكًا آخر وأعطاه لها.

اعترضت فيرجينيا: "لكن مكتوب هنا أنه ألف جنيه فقط".

"هذا لأنني أعتقد أني أعرف بالفعل من هو. اللغز الوحيد هو كيف وصل إلى الوثيقة".

"قل لي الاسم، وإن كنت مخطئًا سأمزق هذا الشيك ويمكنك أن تكتب لي واحدًا آخر بقيمة خمسة آلاف".

"جيم نولز أحضرها من كارتر بالنيابة عن كونارد سوركين".

انضم الشيك الثاني إلى الأول في حقيبة فيرجينيا، وبدا واضحًا أنها لن تخبره كيف حصل سوركين على الوثيقة الأصلية مهما ضغط عليها، فلا بد أنها تظن مثله أن ميلور لم يقدم على الانتحار ولا تريد الانخراط بالموضوع.

اقترح جايلز: "شاي؟". كان يتمنى أن ترفض حتى يستطيع العودة إلى البنك حيث كان الجميع بانتظاره.

قالت فيرجينيا: "يا لها من فكرة جيدة، مثل الأيام الخوالي".

أشار جايلز إلى النادل وطلب فنجانين من الشاي ولكن من دون أي كعك. كان يتساءل عما من الممكن أن يتحدثا عنه حتى حلت فيرجينيا المشكلة وقالت

بالابتسامة الخبيثة نفسها: "أعتقد أن لديَ شيئًا أخر قد ترغب فيه".

ولكن جايلز لم يكن مستعدًا لهذا، فحاول أن يبدو مسترخيًا وهو ينتظر ليكتشف ما إن كانت فيرجينيا تلهو معه أم أن لديها حقًا شيئًا لتعرضه عليه. ظهر النادل في ذلك الوقت ووضع أمامهما إبريق الشاي وتشكيلة من الشطائر، فحملت فيرجينيا الإبريق وقالت: "هل أملأ فنجانك؟ مع الحليب وبدون سكر إن كنت أتذكر بشكل صحيح".

قال جايلز: "شكرًا لك".

سكبت فيرجينيا الشاي لهما، وانتظر جايلز بصبر نافد في حين أضافت الحليب ومكعبي سكر قبل أن تتكلم مجددًا: "يا لها من خسارة أن محقق الوفيات كشف أن ميلور المسكين توفي من دون ترك وصية، بالمناسبة إن اسمه إيرل غراي. سيكون من الصعب أن يثبت أي شخص عكس ذلك حتى الثاني عشر من حزيران، عندما ستقع الشركة بكل سهولة بين يدي ذلك السيد اللطيف سوركين، وسيحصل على واحد وخمسين بالمئة من ميلور ترافل لقاء عشرة آلاف جنيه فقط. أتوقع أن الأسهم تساوي على الأقل مليونًا ونصف المليون، إن لم يكن أكثر".

قال جايلز: "إن مجلس فارثينغز نظر بالفعل في هذه المشكلة، وفي سؤال من ستقرر المحكمة بأن يكون وريث ميلور. فقد استنتج أرنولد هاردكاسل أن بوجود زوجتيه السابقتين، وابنته الوحيدة التي فقد الاتصال معها وولدي زوجته، فقد تستمر المعركة القضائية وحدها سنوات حتى تُحل".

قالت فيرجينيا بعد أن أخذت رشفة من الشاي: "أوافقك الرأي، إلا مثلًا إن وصل أحدهم لوصية بالصدفة".

حدق جايلز إليها بتفاجؤ وهي تخرج مغلفًا صغيرًا، ثم قربته من جايلز ليتمكن من رؤيته. دقق جايلز بخط اليد الأنيق الذي كتب (الوصية والعهد الأخير لديزموند ميلور بتاريخ الثاني عشر من أيار 1981).

سأل جايلز: "كم تريدين؟".

19

خرج سيباستيان من الطائرة وانضم إلى بقية المسافرين في أكثر مطار مزدحم في العالم، ثم توجه مباشرة إلى الجمارك لأنه لم يكن يحمل سوى حقيبة واحدة.

ختم أحد الضباط جواز سفره وابتسم له ثم قال: "مرحبًا بك في أميركا يا سيد كليفتون". وخرج بعدها من المطار ليصل إلى صف انتظار سيارات الأجرة. كان قد قرر بالفعل التوجه مباشرة إلى آخر عنوان معروف لكيلي ميلور في القسم الجنوبي لشيكاغو الذي زودته به فيرجينيا، ولكن ليس قبل أن تأخذ خمسة آلاف أخرى من جايلز. إن كانت كيلي موجودة هناك، فسيستحق ذلك كل بنس دفعه لأن الرئيس يريد أن يعيد وريث ديزموند ميلور إلى إنكلترا بأسرع ما يمكن. فهم كانوا يحتاجون لتجهيز كل شيء قبل اجتماع المجلس الضروري بعد عشرة أيام، حيث سيقرر إن كانت شركة توماس كوك أم سوركين إنترناشيونال هي من ستستولي على ميلور ترافل، وقد تكون كيلي ميلور هي العامل المحدد لذلك.

صعد سيب إلى سيارة أجرة وأعطى العنوان إلى السائق الذي نظر إليه مجددًا، فقد اتضح أنه كان يزور تلك المنطقة مرة في الشهر على أكثر تقدير، وحتى تلك المرة كانت أكثر مما يجب.

فكر سيب بما حدث خلال الأربع وعشرين ساعة الأخيرة، فقد وصل جايلز إلى البنك بعد الساعة الخامسة ليس بحوزته فقط النسخة عن الوثيقة التي تظهر أن ميلور قد خاطر بخسارة واحد وخمسين في المئة من شركته لصالح سوركين مقابل عشرة آلاف جنيه، بل أيضًا جائزة إضافية ألا

وهي الرسالة الوحيدة التي قد كتبها لابنته، التي سلمتها له فيرجينيا، لكن بالطبع بعد أن هددت جايلز أنها ستحرق الرسالة أمامه إن لم يدفع لها. وقد دل التوقيع السريع في أسفل الورقة أن جايلز لم يستسلم في مساومته حتى وصل إلى طريق مسدود.

قال حكيم عندها: "سيكون علينا التحرك بسرعة. فنحن لا نملك سوى تسعة أيام قبل اجتماع ميلور ترافل القادم حيث سيقرر من الذي سيستولي على الشركة".

اختار الرئيس سيباستيان هذه المرة لمهمة الطيران إلى شيكاغو وإعادة الشخص الوحيد الذي بإمكانه إيقاف سوركين من أخذ ميلور ترافل إلى لندن، بالرغم من امتلاكهم لخطة بديلة.

كان سيب قد حجز أول طائرة متوفرة من هيثرو إلى شيكاغو، وخطط لكل سيناريو محتمل عدا واحدًا حين هبطوا في المطار. لكن لم يكن باستطاعته أن يكون متأكدًا من أن ابنة ميلور تعيش في شارع ترافت 1532، لأنه لم يملك أي طريقة لإبلاغها بقدومه، مع أنه كان واثقًا من أنها ستشعر كرابحة لليانصيب إن كانت موجودة هناك وسمعت عرضه.

نظر من نافذة السيارة في الطريق إلى ترافت، وأدرك مباشرة لماذا لم تكن هذه المنطقة مفضلة عند سائقي الأجرة للبحث عن الزبائن. فقد كان هناك صفوف من المنازل الخشبية المتصدعة التي لم يبد أنها ظليت منذ سنوات كثيرة، ولم يكن لأي منها قفل للباب فمن الواضح أنها لا تحتوي أي شيء يستأهل السرقة.

زادت ثقة سيب بنفسه عندما أوصلته سيارة

الأجرة إلى أمام المنزل 1532. فمن المؤكد أن مليونًا ونصف مليون جنيه سيكون أكثر من كافيًا لتغيير حياة كيلي ميلور إلى الأبد. تحقق من ساعته ليجد أن الوقت قد تجاوز السادسة مساء، وليس بإمكانه الآن سوى التأمل بأن تكون كيلي موجودة في المنزل، وبعد أن وصل إلى هناك غادرت السيارة مسرعة قبل أن يتسنى له عرض إكرامية على السائق.

مشى سيب على الممر القصير الفاصل بين رقعتين من العشب لن يتمكن حتى أكثر سماسرة العقارات إبداعًا من وصفها بالحديقة. قرع على الباب ثم تراجع خطوة وانتظر، وبعد لحظات فتحت الباب فتاة لم تكن بالتأكيد كيلي ميلور، فقد كانت تبدو في الخامسة أو السادسة من العمر.

"مرحبًا، أنا سيباستيان. من أنت؟".

قال صوت ثخين خشن: "من يريد أن يعرف؟".

التفت سيب ليرى رجلًا ضخمًا ذا عضلات يخرج من الظلام. كان يرتدي قميصًا قذرًا كتب عليه (ماركيانوز)، وبنطال جينز يبدو أنه لم يخلعه منذ أكثر من شهر. وكان يمتد على ذراعه المصقولة وشم أفعى.

"اسمي سيباستيان كليفتون. كنت أتساءل إن كانت كيلي ميلور تعيش هنا".

"هل أنت من مصلحة الضرائب؟".

أجاب سيب محاولًا كبح رغبته في الضحك: "لا".

"ماذا عن دائرة رعاية الأطفال؟".

قال سيب وقد اختفت رغبته في الضحك بعد أن لاحظ كدمة قديمة على ذراع الطفلة: "لا. لقد أتيت من إنكلترا لأبلغ كيلي أن والدها قد توفي وترك لها

بعض المال في وصيته".

"ما المبلغ؟".

"أنا مخول لمناقشة التفاصيل مع وريثة السيد ميلور فقط".

قال الرجل مطبقًا قبضته: "إن كانت هذه حيلة من نوع ما، فستنتهي قبضتي في منتصف وجهك الجميل". لم يغير سيب تعابير وجهه، ومن دون كلمة أخرى التف الرجل وقال: "اتبعني".

كان أول ما لاحظه سيب في المنزل هو الرائحة، فقد كانت الغرفة الصغيرة مليئة بأغلفة الطعام السريع، وأعقاب السجائر وزجاجات الجعة، ولم تكن تحوي سوى كرسيين وأريكة ومشغل فيديوهات من أحدث إصدار. لم يجلس، وابتسم للطفلة الصغيرة التي كانت تقف الآن في زاوية الغرفة محدقة إليه.

صرخ الرجل بأقوى صوته ودون أن يزيح عينيه عن سيب: "كيلي!".

وظهرت بعد عدة لحظات امرأة مرتدية رداء نوم كتب عليه (الفندق الملكي). كانت تبدو منهكة مع أن سيب يعلم أنها في أوائل العشرينات من العمر، لكنها كانت بدون شك والدة الطفلة الصغيرة وامتلكت شيئًا آخر مشتركًا مع الطفلة، وهو عدة كدمات إحداها على عينها، وقد فشلت محاولتها لتغطيتها بالمكياج.

"يقول هذا الرجل أن والدك توفي وترك لك بعض المال، لكنه لم يرض بأن يخبرني كم".

لاحظ سيب أن قبضة الرجل لا تزال مغلقة بإحكام، وكان بإمكانه رؤية أن كيلي كانت مرتعبة منه ولا يمكنها التكلم. فقد ظلت تنظر إلى الباب وكأنها تحاول أن تخبره بأن عليه المغادرة بأسرع ما يمكنه.

كرر الرجل سؤاله: "ما المبلغ؟".

قال سيب: "خمسون ألف دولار". فقد قرر أن إخباره بالمبلغ الحقيقي سيقابل بالتشكيك فقط ولن يتمكن حينها من التخلص من الرجل.

"خمسون ألفًا؟ سلمني إياها".

"الأمر ليس بهذه البساطة".

قال الرجل: "إن كانت هذه خدعة، فستتمنى أنك لم تخرج في الأصل من تلك الطائرة".

كان سيب متفاجئًا بأنه لا يشعر بأي خوف. فطالما يظن هذا البلطجي أن لديه فرصة في الحصول على بعض المال السهل، كان سيب متأكدًا من أن لديه اليد العليا. فقال بهدوء: "إنها ليست خدعة. ولكن -وبما أنه مبلغ كبير- فسيكون على كيلي مرافقتي إلى إنكلترا للتوقيع على بعض المستندات القانونية قبل أن نتمكن من تسليمها ميراثها".

في الواقع، كان لدى سيب في حقيبته كل الأوراق الضرورية في حال لم توافق كيلي على العودة إلى إنكلترا، فقد كانت تلك الخطة "بي" لديه. كان يحتاج فقط لتوقيع وشاهد، ثم سيمكنه تسليم شيك البنك بالمبلغ الكامل لها مقابل واحد وخمسين في المئة من ميلور ترافل. ولكنه أدرك أن هذا لن ينجح الآن وبعد أن التقى بشريكها. فقد تجاوز عقله الخطة "أي" و"بي" و"سي" وبدأ بالارتجال.

قال الرجل: "لن تذهب لأي مكان من دوني".

قال سيب: "لا مشكلة لديّ. لكن سيكون عليك دفع ثمن مقعدك في الطائرة".

قال الرجل بعد أن حمل سكينًا واقترب من سيب: "أنا لا أصدق كلمة واحدة مما تقوله". وشعر سيب للمرة الأولى بالخوف، ولكنه ثبت في مكانه وقرر

قبول المخاطر. فقال وهو ينظر مباشرة إلى كيلي: "لا فرق بالنسبة إليَ. إن لم تكن تريد المال فسيذهب تلقائيًا إلى أختها الصغرى ماورين".

قال الرجل ملتفتًا إلى كيلي: "لم أكن أعلم أن لديك أختًا".

أومأ سيب لها قليلًا برأسه، ثم قالت: "أنا، أنا لم أرها منذ سنوات يا ريتشي. لم أكن حتى أعلم أنها لا تزال على قيد الحياة".

قال سيب: "إن ماورين على قيد الحياة، وتأمل بالتأكيد ألا توافق كيلي على العودة إلى إنكلترا".

قال ريتشي: "حسنًا يمكنها التفكير مجددًا. تأكد من أن تعود تلك الوضيعة مع أموالي وإلا فلن ترى سيدني مرة أخرى". ثم عصر ذراع الفتاة الصغيرة حتى بدأت بالبكاء قبل أن يسأل: "حسنًا، ما الذي سيحدث الآن؟".

"ستقلع طائرتي إلى لندن في الساعة العاشرة من صباح الغد، لذا يمكنني أن أقل كيلي من هنا قرابة الساعة الثامنة".

قال ريتشي ملوحًا بالسكين: "ستكون خمسمئة دولار كافية لإقناعي بأنك ستعود إلى هنا".

قال سيب مخرجًا محفظته: "لا أمتلك هذا المبلغ معي حاليًا، ولكن بإمكاني أن أعطيك كل ما لديَ". وأعطاه 345 دولارًا اختفت مباشرة في جيب بنطال ريتشي.

قال سيب: "سآتي لآخذك في الساعة الثامنة صباحًا". أومأت كيلي برأسها لكنها لم تتكلم. ثم ابتسم للطفلة وخرج دون أن يقول أي شيء آخر.

بدأ بمسيره الطويل إلى الفندق الواقع في منتصف البلدة مدركًا أنه سيمر بعض الوقت حتى يتمكن من

العثور على سيارة أجرة. ثم شتم بينه وبين نفسه، لو كان يعلم فقط أن لدى كيلي ابنة.

***

استيقظ سيباستيان قرابة الساعة الثانية بعد منتصف الليل أي الثامنة صباحًا بتوقيت لندن، وأغمض عينيه مجددًا لكنه كان يعلم أنه لن يتمكن من العودة إلى النوم، فساعته البيولوجية تشير إلى أن عليه أن يكون مستيقظًا في قارة أخرى. وفي كل الأحوال، كان ذهنه مشغولًا بأفكار حول كيلي ميلور، وكيف انتهى بها الحال في العيش بتلك الظروف مع رجل كهذا.

لا بد أن الطفلة هي السبب.

اتصل سيب بحكيم على البنك عندما دقت الساعة الثالثة في برج أحد الكنائس القريبة، وأخبره بالتفصيل عن لقائه مع ريتشي وكيلي وسيدني.

كانت أولى كلمات حكيم: "يا له من أمر حزين انه سيتوجب عليها العودة إلى شيكاغو إن كانت ترغب بالبقاء مع ابنتها".

قال سيب: "لن ترضى أي أم بترك طفلتها هكذا. في الواقع، لست حتى متأكدًا من أنها لن تكون قد غيرت رأيها حين أعود إلى هناك".

"أتساءل إن كان سيوافق على أن تأخذ الطفلة أيضًا إن أعطيته ألف دولار أخرى".

"لا أعتقد ذلك. ولكن ربما سيوافق إن أعطيته خمسة وعشرين ألفًا".

قال حكيم: "سأتركك لتقرر ما ستكون الخطة "سي"، ولكن تأكد من أن يكون بحوزتك ألف دولار. تحسبًا فقط". ثم أنهى المكالمة.

أخذ سيب حمامًا ساخنًا طويلًا، وارتدى ملابسه

ثم نزل الدرج ليتناول الفطور. وأدرك وهو ينظر إلى القائمة أنه نسي كم من الممكن أن يأكل الأميركي على الفطور. فرفض بأدب عرض وجبة الوافل مع شراب القيقب والبيض المقلي واللحم المقدد، وطلب عوضًا عنها طبقًا من حبوب الموسلي وبيضة مسلوقة.

سجل خروجه من الفندق في السابعة والنصف، وأوقف له حارس الباب سيارة أجرة. ومرة أخرى نظر السائق إليه بشك عندما أعطاه العنوان، فشرح له: "أريد أن أقل أحدًا من هناك، ثم علينا التوجه لمطار أوهار".

توقفت السيارة أمام المنزل رقم 1532 بعد عدة دقائق، وأبقى السائق المحرك شغالًا. قرر سيب الانتظار حتى الثامنة تمامًا، فلم يكن يرغب في التعامل مع رينتشي أكثر من اللازم. لكنه لم يلحظ العينين اللتين تراقبانه بتمعن من النافذة، وبعد لحظات فُتح الباب الأمامي وخرجت منه فتاة صغيرة تركض باتجاهه، وأغلقت والدتها الباب خلفها بهدوء ثم بدأت بالركض.

فتح سيب الباب الخلفي بسرعة ليسمح لهما بالركوب بجانبه. ثم أغلقته كيلي وصرخت دون أن تزيح عينيها عن الباب الأمامي: "أذهب، أذهب بحق الله". أطاع السائق طلبها مباشرة.

انتظرت كيلي حتى التفت السيارة حول المنعطف وباتجاه المطار ثم تنفست الصعداء، ولكن يدها لم تفارق ابنتها. وقد استغرقت بعض الوقت حتى هدأت قليلًا ثم قالت: "لم يعد رينتشي حتى الثانية فجرًا، وكان ثملًا جدًا ففقد وعيه على السرير وغط في النوم مباشرة. لن يستيقظ غالبًا حتى الظهر".

"عندها ستكونين وسيدني تحلقان أعلى المحيط

الأطلسي".

قالت وهي لا تزال ممسكة بابنتها: "وشيء واحد مؤكد يا سيد كليفتون، هو أننا لن نعود أبدًا. لا يسعني الانتظار لأرى بريستول مجددًا. وستكون خمسون ألف دولار أكثر من كافية لأشتري منزلًا صغيرًا وأعثر على عمل، وأدخل سيدني إلى مدرسة جيدة".

قال سيب بهدوء: "إنها ليست خمسين ألفًا".

بدت كيلي قلقة، وتغيرت تعابير وجهها إلى الخوف من أنها قد تضطر إلى العودة إلى ذلك المنزل خالية الوفاض.

أخرج سيب مغلفًا من حقيبته معنونًا للآنسة كيلي ميلور وسلمها إياه. ففتحته وأخرجت الرسالة منه، ثم اتسعت عيناها من الصدمة بعد أن بدأت بالقراءة.

سجن بيلمارش،

لندن.

الثاني عشر من أيار 1981.

عزيزتي كيلي، هذه أول رسالة أكتبها إليك وأخشى أن تكون الأخيرة. إن فكرة الموت جعلتني أعود إلى رشدي أخيرًا. إن الوقت قد تأخر بالنسبة إليَ للتعويض عن كوني والدًا فاشلًا، ولكن على الأقل اسمحي لي بفرصة لأجعل من الممكن لك التمتع بحياة أفضل من التي عشتها.

قررت بعد التفكير بذلك أن أترك لك كل أملاكي، على أمل أنك ستشعرين في وقت ما بأنك تستطيعين مسامحتي. سأكون أول من يعترف بأنني لم أعش حياة بريئة على العكس، لكن على الأقل سيسمح لي هذا الفعل الصغير بأن أترك هذا العالم، وأنا أشعر بأنني قد فعلت شيئًا ذا أهمية على

سبيل التغيير. إن كنت تملكين أي أطفال يا كيلي، فاحرصي على أن توفري لهم الفرص التي فشلت في توفيرها لك.

المخلص لك ديزموند ميلور (آي زيد 2178)

شهد عليه كولين جريفز، (إس بي أو بي إس).

قد تجدين أنه من الغريب أنني أوقع رسالة لابنتي باسمي الكامل وشهد عليها ضابط السجن، هذا لأظهر أن هذه الرسالة هي وصيتي الأخيرة.

أغمي على كيلي وسقطت الرسالة على أرضية السيارة.

20

قال الرئيس: "سيقرر المجلس اليوم من سيقود ميلور ترافل إلى القرن الحادي والعشرين. لدينا شركتان محترمتان، شركة سوركين إنترناشيونال وشركة توماس كوك. وكل منهما قدمت عرضًا بمليوني جنيه مقابل الشركة، ولكن نحن من علينا أن نقرر أيهما ستكون الأنسب لاحتياجاتنا الحالية". أكمل نولز: "عليَ أن أشير في هذه النقطة أنني كتبت رسالة للسيد سوركين والسيد بروك أدعوهما فيها للتواصل مع المجلس حتى نتمكن من تقييم مزايا عرضيهما، ولكن لم يجب السيد بروك على دعوتي، فافهموا ذلك كما شئتم". ولم يذكر نولز أنه وبالرغم من توقيعه للرسالة التي أرسلها إلى بروك الأسبوع الفائت، إلا أنه لم يرسلها حتى البارحة. "في حين لم يجب السيد سوركين على رسالتي وحسب، بل قاطع جدول أعماله المزدحم لينضم إلينا اليوم، وأودع مليوني جنيه في بنكنا هذا الصباح كتأكيد على حسن نيته".

ابتسم نولز، فقد كان قد وُعِد بمليون أخرى ستودع في حسابه في بنك بيتر أند ساي في جينيف، وأنه سيترك العمل لحظة استلام كونارد سوركين للشركة. ولكن ما لم يعرفه نولز أن سوركين لم يكن لديه أية نية أصلًا في دفع مليونين مقابل الشركة. وبعد بضع ساعات، سيمتلك واحدًا وخمسين في المئة من ميلور ترافل، وسيصبح كل من يجلس على تلك الطاولة عاطلًا عن العمل ومن ضمنهم نولز، الذي لن يحصل على مليونه ولن يبقى رئيسًا.

تابع نولز كلامه: "وبهذا، أرغب الان بدعوة السيد سوركين لمخاطبة المجلس حتى يخبركم عن رؤيته

لمستقبل شركة ميلور ترافل إن وافقنا على عرضه".

كان سوركين يرتدي بذلة رمادية غامقة مخيطة بعناية، مع قميص أبيض وربطة عنق مقلمة بالأصفر والبني، ونهض من مكانه على النهاية الأخرى من الطاولة وبدأ كلامه: "سيدي الرئيس، هل يمكنني بدء كلامي بإخبارك القليل عن فلسفة شركتي؟ أولًا، إن شركة سوركين إنترناشيونال تؤمن بالناس، ولهذا فإن أهم أولوياتها هم الموظفون، من السيدة المسؤولة عن الشاي حتى المدير التنفيذي. أنا أؤمن بالولاء والتواصل قبل كل شيء، ويمكنني التأكيد للمجلس أنه ليس على أي موظف في ميلور ترافل أن يخشى تسريحه من العمل، فأنا أعتبر نفسي حارسًا للشركة سيعمل من دون كلل باسم أصحاب الأسهم، لذا دعوني أؤكد لكم بدايةً أنه إن حصلت سوركين إنترناشيونال على شرف ضم ميلور ترافل إليها، فيمكنكم التطلع لتوسع سريع في العاملين، لأنني أنوي أن أوظّف المزيد من العاملين، وبعد وقت قصير آمل أن تكون ميلور ترافل هي من تقدم عرضًا للاستيلاء على توماس كوك وليس بالعكس.

هذا بالطبع سيتطلب استثمارًا كبيرًا وأعد المجلس بأنني سأكون سعيدًا للالتزام به، ولكن ستحتاج شركتي أيضًا إلى من يتولى زمام أمورها بعد الأوضاع السيئة التي حصلت في الأشهر الماضية. ولأقتبس من أوسكار ويلد (إن خسارة رئيس هو أمر سيئ، ولكن خسارة رئيسين...)".

كان نولز مسرورًا لرؤيته عضوين من المجلس يبتسمان.

أكمل سوركين كلامه: "بعد التفكير بذلك، أعتقد أنه من المهم أن أبدي ثقتي ليس برئيسكم فحسب، بل بالمجلس بأكمله. لذا دعوني أقول بشكل صريح

أنه إن اختيرت شركتي اليوم للاستيلاء على ميلور ترافل، فسأدعو جيم نولز للبقاء في منصبه رئيسًا، وسأطلب منكم جميعًا البقاء في المجلس".

هذه المرة مدير واحد فقط من بينهم لم يكن يبتسم.

"لنعمل معًا، ولنعد بناء هذه الشركة بسرعة إلى ما كانت عليه، ثم فلنتطلع إلى التوسع حتى تصبح ميلور إنترناشيونال محط الأنظار والغيرة في سوق عمل السفريات حول العالم. ودعوني أنهي كلامي بالقول إنني أتمنى بأنكم ستفكرون بي كالشخص المناسب لأخذ هذه الشركة إلى القرن الجديد". ثم جلس سوركين وسط صخب من الهتافات حتى أن أحد المدراء ربت على ظهره.

قال نولز: "أيها السادة، بما أن رئيس شركة توماس كوك لم يأتِ اليوم، ربما علينا المتابعة وتقرير الشركة التي ستضم ميلور ترافل إليها. هل ستكون سوركين إنترناشيونال أم توماس كوك؟ وسأطلب الآن من أمين سر الشركة تنظيم التصويت".

نهض السيد أركرايت من مكانه ببطء وقال: "ليرفع كل المؤيدين لسوركين إنترناشيونال أيديهم...". فُتح الباب في تلك اللحظة ودخل منه ثلاثة رجال وامرأة.

سأل نولز وقد وقف بسرعة: "ما معنى هذا الاقتحام؟ هذا اجتماع مجلس خاص، وليس لديكم أي حق بأن تكونوا هنا".

قال أرنولد هاردكاسل: "أظن أنك ستكتشف بأن لدينا الحق بذلك. فكما تعلم يا سيد نولز، أنا الممثل القانوني لفارثينغز كوفمان وبرفقتي اليوم السيد سيباستيان كليفتون الذي هو المدير التنفيذي، والسيد توماس بروك رئيس توماس كوك الذي تلقى

دعوة لحضور هذا الاجتماع في صباح اليوم".

سأل نولز من دون أن يحاول إخفاء سخريته: "وماذا عن الانسة؟ من دعاها؟".

قال هاردكاسل: "لم تتلق دعوة، ولكنني سأترك الأمر للآنسة ميلور لتشرح للمجلس سبب وجودها هنا".

جلس نولز على كرسيه وكأنه ثبت من قبل مصارع من الوزن الثقيل.

ابتسم سيباستيان لكيلي بثقة. فقد كان يعلمها ويحضرها لهذه اللحظة على مدى ساعات كثيرة من الأسبوع الفائت، واكتشف أنها سريعة البديهة. فالمرأة التي تقف أمامهم الآن كانت تظهر ثقة كبيرة بالنفس بعد أن تخلصت من ملابسها الرثة واختفت الكدمة عن عينها، وأصبحت على معرفة بالقوة التي تمتلكها كصاحبة أكبر نسبة من الأسهم في شركة ميلور. لم يكن الكثير ليتعرف إليها على أنها المرأة نفسها التي كانت عندما التقى سيباستيان بها لأول مرة منذ عدة أيام.

أدرك سيب بسرعة مدى نباهة وذكاء كيلي، فقد استوعبت بعد خروجها من أغلال المنزل 1532 في شارع ترافت مباشرة أهمية امتلاكها لواحد وخمسين بالمئة من شركة والدها. وكانت مستعدة لتأدية دورها في الحصول على حقها الشرعي حين حل يوم اجتماع المجلس.

نهض كونارد سوركين ببطء من مقعده، ولم يظهر عليه أي شعور بالتهديد. كان سيب يظن أن سوركين قد وضع في مواقف أصعب من هذه في السابق، فقد كان يحدق مباشرة إلى كيلي وكأنه يتحداها بأن تفتح فمها. لكنها قالت بابتسامة دافئة: "سيد سوركين. أدعى كيلي ميلور وأنا ابنة الراحل

ديزموند كيفن ميلور، الذي ترك لي في وصيته الأخيرة كل أملاكه الموجودة".

قال سوركين: "آنسة ميلور. عليَ أن أشير بأنني ما زلت أمتلك واحدًا وخمسين بالمئة من أسهم الشركة، وقد اشتريتها بشكل قانوني من والدك".

قالت كيلي من دون الحاجة للرجوع إلى سيب: "حتى إن كان ذلك صحيحًا يا سيد سوركين، لكن إن أرجعت إليك العشرة آلاف جنيه قبل نهاية اليوم فستعود تلك الأسهم بشكل تلقائي إليَ".

تقدم هاردكاسل، وفتح حقيبته ليخرج منها جواز سفر موكلته إضافة إلى وصية ميلور وطلبٍ من البنك بقيمة عشرة آلاف جنيه، ثم وضعها على الطاولة أمام سوركين الذي تجاهلها وقال: "إن كان بإمكاني تكرير كلامك يا آنسة ميلور، فقد قلت قبل انتهاء اليوم، وأظن أنك ستجدين أنه من غير الممكن صرف الشيك حتى صباح الاثنين، بما أن البنك يغلق بعد اثنتي عشرة دقيقة، وأنه سيكون أنا هو من يمتلك ميلور ترافل وليس أنت".

قال أرنولد: "إن تكبدت عناء النظر عن قرب أكثر، فسترى أننا لا نقدم لك شيكًا يا سيد سوركين، بل طلبًا من البنك، أي عملة قانونية، وهذا سيسمح للآنسة ميلور بأن تستعيد ميراثها الشرعي بمثابة وريثة لوالدها".

بدا على واحد أو اثنين من المدراء الارتباك. فردَ سوركين مباشرة: "من الواضح يا سيد هاردكاسل أنك غير مدرك بأنني قد حصلت على موافقة المجلس للاستيلاء على الشركة، كما سيؤكد السيد نولز".

سأل سيب وهو ينظر إلى الرئيس: "هل هذا صحيح؟".

نظر نولز بتوتر إلى سوركين قبل أن يجيب: "أجل، لقد أخذت الأصوات بالفعل وتتحكم سوركين أنترناشيونال الآن بميلور ترافل".

قال سوركين: "ربما حان الوقت إذًا لتغادر يا سيد كليفتون قبل أن تجعل من نفسك أضحوكة أكثر من ذلك".

كان سيب على وشك الاعتراض، ولكنه كان يعرف أنه إن كان المجلس قد صوت لصالح سوركين إنترناشيونال فسيكون عليه قبول قرارهم. فعلى الرغم من امتلاك كيلي لواحد وخمسين بالمئة من الأسهم إلا أنها لن تساوي شيئًا حين يبيع سوركين أملاك الشركة.

كان أرنولد يعيد أوراقه إلى حقيبته، حين علا صوت وحيد: "لم يؤخذ أي صوت".

نظر الجميع إلى أحد المدراء الذي لم يكن قد تكلم حتى الآن، وتذكر سيباستيان أن ميلور قد أخبره بأنه لا يزال يملك صديقًا واحدًا من الداخل حين زاره في السجن آخر مرة. قال آندي دوبز: "لقد كنا على وشك التصويت حين دخلتم. وأؤكد لك يا سيد كليفتون أنني ربما كنت الوحيد الذي يصوت لصالح توماس كوك".

قال مدير آخر: "وأنا كذلك".

نظر نولز حول الغرفة بيأس، ولكن كان يبدو أن الجميع بدأ بالتخلي عنه حتى المدراء الذين انتقاهم بعناية.

قال سيباستيان: "شكرًا لكم أيها السادة. ربما حان وقت مغادرتك يا سيد سوركين، أم تريد أن نصوت لذلك؟".

قال سوركين: "اغرب عن وجهي أيها الخسيس

المتعالي، فأنا لا أهدد بهذه السهولة".

قال سيب: "لم أكن أهدد أحدًا. على العكس، كنت أحاول أن أساعدك. فكما ترى اليوم هو الثاني عشر من شهر حزيران، وهذا يعني أنك قد بقيت في هذا البلد تسعة وعشرين يومًا. لذا إن لم تغادر في منتصف الليلة فستكون معرضًا للتعامل مع مصلحة الضرائب البريطانية، وأنا متأكد من أن هذا شيء تريد تفاديه".

"أنت لا تخيفني يا كليفتون. سيكون محامي أكثر من مسرورين بالتعامل مع تافه مثلك".

"ربما، ولكن قد يكون من الحكمة أن تحذرهم أنني رأيت أنه من واجبي إبلاغ سلطات الضرائب عن وجودك في بريستول، لذا لا تتفاجأ إن حاصرت الشرطة يختك بعد منتصف الليل بدقيقة وصادرته".

"لن يجرؤوا على ذلك".

"لا أظن أن هذه مخاطرة ستكون مستعدًا لخوضها، فقد فهمت أيضًا أن سكوتلانديارد قد فتحت تحقيقًا حول الوفاة المشبوهة لديزموند ميلور، في حين اكتشفت السلطات الفرنسية جثة أوصلتها الأمواج إلى نيس ولديهم عدة أسباب للاعتقاد بأنها تعود لأدريان سلوان، لذا فقد أصدروا مذكرة باعتقالك".

"لن يتمكنوا من إثبات أي شيء ضدي".

"غالبًا لا، ولكن لديَ إحساس بأن السيد نولز سيرغب في مساعدة الإنتربول في تحقيقاتهم. هذا إن لم يكن يرغب طبعًا في قضاء بقية حياته في زنزانة مثلك".

انهار نولز على كرسيه بعد أن شحب وجهه.

قال سوركين: "لو كنت مكانك يا كليفتون كنت سأخشى على حياتي".

قال سيب: "إن هذا تهديد مغفل منك لتقوله أمام كل هؤلاء الشهود. وخاصة أن أحدهم محامٍ عالي الرتبة وهو يسجل كما ترى كل كلمة تقولها".

نظر سوركين إلى أرنولد هاردكاسل وصمت تمامًا.

"بصراحة، أعتقد أن الوقت حان بالنسبة إليك لتنسحب سريعًا كبطلك نابليون".

استمر الرجلان بالتحديق إلى بعضهما، حتى رمى سوركين العقد على الطاولة، وأمسك بطلب البنك وكان على وشك مغادرة الغرفة قبل أن تستوقفه كيلي مجددًا وتقول: "قبل أن تغادر يا سيد سوركين، هل لي أن أعرف كم ستكون مستعدًا لأن تدفع مقابل أسهمي الواحد والخمسين في ميلور ترافل؟".

نظر الجميع إلى رئيسة الشركة الجديدة، ولم يتمكن سيباستيان من إخفاء دهشته، فذلك لم يكن جزءًا من الخطة. وكانت كيلي تنظر مباشرة إلى سوركين منتظرةً رده.

قال سوركين بهدوء، مدركًا أنه ما يزال بإمكانه كسب بعض المربح بما أنه لن يعطي نولز المليون: "أنا مستعد لدفع ثلاثة ملايين جنيه مقابل أسهمك".

بدت كيلي تفكر بعرضه قبل أن تقول أخيرًا: "أنا ممتنة لعرضك يا سيد سوركين، ولكن من جهة أخرى فأنا أفضل التعامل مع فارثينغز كوفمان. ولن أعطلك أكثر من ذلك يا سيد سوركين بما أنه سيكون عليك أن تكون خارج مياهنا الإقليمية قبل منتصف الليل".

ابتسم سيباستيان لكيلي وتنفس الصعداء.

قال سوركين وهو يتجاوزها ويخرج من الباب:

"وضيعة".

ابتسمت كيلي وكأنها سعيدة بتلك الإهانة.

انتظر نولز حتى أغلق سوركين الباب خلفه قبل أن يقول: "كنا على وشك التصويت يا آنسة ميلور. لذا هل يمكنني أن أطلب من أمين السر أن..".

قالت كيلي وهي تمسك بالعقد الذي تركه سوركين على الطاولة: "لن يكون ذلك ضروريًا. فبما أنني من يمتلك أكبر نسبة من الأسهم فسأكون أنا من يقرر مستقبل الشركة".

فكر سيباستيان أنه لم يكن ليتمكن من صياغة كلام أفضل من الذي قالته. ثم أكملت: "إن قراري الأول بصفتي المالكة الجديدة هو طردك يا سيد نولز، إضافة لبقية أعضاء هذا المجلس. أقترح أن تغادروا جميعًا في الحال".

لم يتمكن سيب من إخفاء ابتسامته حين جمع كل من نولز وبقية أعضاء المجلس أوراقهم بصمت وخرجوا من الغرفة، ثم قال: "أحسنت صنعًا".

قالت كيلي: "شكرًا لك يا سيد كليفتون. والآن اسمح لي بأن أخبرك كم أقدر كل ما فعلته مع فريقك في شركة فارثينغز لجعل هذا ممكنًا".

"هذا من دواعي سروري".

ثم أكملت: "عليَ أن أسأل. بما أن السيد سوركين كان مستعدًا لدفع ثلاثة ملايين مقابل أسهمي، هل يمكنني توقع السعر نفسه من توماس كوك؟". ثم قلبت على صفحة أخرى من العقد لم يكن سيب قد قرأها، وقبل أن يتمكن من الإجابة ضحك راي بروك وقال: "لقد حصلت لنفسك على صفقة أيتها الشابة".

قالت كيلي: "شكرًا لك". ثم التفتت إلى محامي البنك وأضافت: "سأترك الأمر لك يا سيد هاردكاسل

لإتمام الأعمال الورقية، وأعلمني حالما تستلم الثلاثة ملايين".

قال رئيس شركة كوك من دون أن يتمكن من إخفاء ابتسامته: "أعتقد أن هذه إشارتنا لنرحل". ثم خرج الرجال الثلاثة من غرفة الاجتماعات مغلقين الباب خلفهم.

جلست كيلي عند رأس الطاولة لدقائق قبل أن ترفع سماعة الهاتف وتتصل بالرقم الذي كانت تهاتفه كل يوم على مدى الأسبوعين الماضيين، وقالت حالما سمعت الصوت المألوف على نهاية الخط: "سار كل شيء وفقًا للخطة يا فيرجينيا".

الليدي فيرجينيا فينويك

1981-1982

21

قالت كيلي: "لا أعرف كيف سأشكرك، لو لم تكتبي لي وتحذريني من أن السيد كليفتون كان في طريقه، لم أكن لأعلم أنه ليس صديق والدي".

قالت فيرجينيا: "كان هذا أقل ما يمكنني فعله".

"تلك المكالمات التي لا تنتهي، لا بد أنها كلفتك ثروة...".

"شعرتُ أنه من المهم أن تعلمي الحقيقة حول فارثينغز، وبالتحديد كيف عامل سيباستيان كليفتون والدك في الحقيقة."

"لكنه دائمًا ما بدا لطيفًا".

"هل تفاجأت عندما شارك كل تلك الملايين؟ دائما عليك تذكر أن اهتمامه الأول هو توماس كوك وليس أنتِ".

"يا لها من فكرة رائعة معرفة كم سيدفع السيد سوركين مقابل أسهمي، وثم أن نجعل توماس يطابقها".

"والدك لم يكن صديقًا مقربًا فقط، لكنه علمني الكثير عن الأعمال على مر السنوات".

ولكن لم يكن عليك إقراضي عشرون ألف جنيه حتى تمت الصفقة".

"ظننت أنها ستساعد في توجيهك".

قالت كيلي: "سأفعل أكثر من ذلك، أكثر بكثير. يجب أن أعيد كل بنس أدين لك به".

قالت فيرجينيا -التي لا يزال لديها أكثر من مئتي

ألف في حسابها الجاري، وكانت بالفعل تترقب مكاسب مفاجئة أخرى:

"لا داعي للاستعجال الأهم من ذلك يا عزيزتي كيلي، كيف هي الصغيرة سيندي؟".

"لم أرها بتلك السعادة من قبل، إنها تحب مدرستها الجديدة، ولديها العديد من الأصدقاء بالفعل".

"أنا أحسدك، لطالما أردت طفلًا، ولكن الآن فات الأوان، ربما تسمحين لي أن أكون جدتها الفخرية".

ترددت كيلي لحظة قبل أن تضيف: "لا يمكنني التفكير في أي أحدٍ ملائم أكثر منك لإرشاد سيندي خلال سنوات تكوينها. ولكن هناك شيء آخر أود مناقشته معك؛ حول شعوري بأنني مذنبة قليلًا فيرجينيا".

"ليس لديك ما تشعرين بالذنب حوله يا عزيزتي، بل على العكس، لن أقدر على رد لطف والدك معي خلال تلك السنوات".

ترددت كيلي مجددًا ولكن هذه المرة لم تأتِ فيرجينيا لنجدتها، "يجب عليّ الآن أن أكافئك على لطفك، لأنني أعرفك، إن والدي لم يكن صديقًا مقربًا فقط، بل شريك عمل أيضًا، ولذلك سأسألك سؤالًا محرجًا.

"ما هي النسبة التي دفعها بعد إبرامك للصفقة؟".

فيرجينيا كانت مستعدة لهذا السؤال فقالت: "كان ديزموند رجلًا كريمًا، ودائمًا ما دفع لي رسومًا مقدارها خمسةٌ وعشرون ألف جنيه استرليني، وعشرة بالمئة من التسوية النهائية بالإضافة إلى نفقات كنت أحملها عنه، ولكن لا داعي لذلك".

"بالتأكيد هناك داعٍ، سأعاملك بالطريقة نفسها التي عاملك بها والدي، وسيدفع لك بالكامل حالما تُعقد

الصفقة مع توماس كوك".

قالت فيرجينيا: "عزيزتي، لا داعي للعجلة، صداقتك هي الأهم بالنسبة إليَ".

***

بعد خمسة أسابيع تلقت كيلي شيكًا بقيمة ثلاثة ملايين جنيه من توماس كوك، وفي الحال أرسلت إلى فيرجينيا شيكًا بقيمة 345 ألفًا، ويشمل تسديد قرضها المستحق ورسوم الفائدة وعشرة في المئة من الثلاثة ملايين.

لم تضغط فيرجينيا على كيلي من أجل الحصول على أي نفقات إضافية، ففي النهاية لم تستثمر مبلغًا ضخمًا لتحصل على المزيد، فقد أجرت بعض المكالمات الهاتفية، وتناولت وجبتين في مطعمين مختلفين برفقة كيلي بمجرد عودتها إلى إنكلترا، لتفادي احتمال أن يتعرَف إليها أحد، إلا أن التكلفة الحقيقية كانت توظيف محقق خاص لتعقب كيلي ميلور المجهولة العنوان في شيكاغو. ولكي أكون دقيقًا، فقد التقت أولًا بسيندي ميلور في مدرستها، وسلَمتها رسالتين إلى والدتها، وعندما أتت بعد ظهر ذلك اليوم لتقلَ ابنتها، أجرت اتصالًا هاتفيًا من صندوق الهاتف ما إن قرأت الرسالتين، لذلك عندما اتصل جايلز بفيرجينيا عرفت غايته في الحال.

كانت فاتورة المحقق 2000 دولار غطَاها بنك فاردنغز مقابل الحصول على نسخة من وصية ديزموند ميلور وعنوان يقوده إلى أقربائه، كما أنقذها سيباستيان كليفتون من نفقات السفر إلى شيكاغو، بعد أن أعاد كيلي ميلور الى إنكلترا، وقد جهَزت لمقابلة سوركين، لينتهي الأمر إلى دفع الضعف إلى كيلي مقابل 51 في المئة من أسهم الشركة، فقرَرت فيرجينيا أن تكون متساهلة بشأن

النفقات وتتنازل عنها هذه المرة، كما كانت واثقة من أن كيلي كانت على وشك استبدال والدها بمصدر بديل للدخل.

***

قال السيد إدوارد ميكبيس: "دعيني أحاول فهم ما تقترحينه يا سيدة فيرجينيا، تريدينني أن أقابل محامي سايروس تي غرانت وأقترح عليه استعدادك لتسوية الدعوى مقابل دفعك خمسمئة ألف جنيه إسترليني دفعةً واحدة ولمرةٍ فقط، بدلًا من دفع مئة ألف جنيه إسترليني سنويًا خلال السنوات التسع المقبلة؟"

"نعم، على أن تكون التسوية كاملة ونهائية".

"سأتواصل مع اللورد غودمان وبعد ذلك سأُعلمك برأيه في عرضك".

استغرق التفاوض شهرًا كاملًا، فبعد أن تردّد سايروس تي غرانت في قبول التسوية التي اقترحتها فيرجينيا، وافق أخيرًا على أن تدفع خمسمئة ألف جنيه دفعةً واحدة ولمرةٍ فقط، بعد إلحاح إيلي ماي المتواصل، وترديدها قولًا قديمًا اعتاد جدها على أن يقوله: "الدولار في البنك أفضل من الوعد بالمهر".

***

مر شهرٌ آخر قبل أن تتلقى فيرجينيا فاتورة من السيد إدوارد ميكبيس بقيمة 2300 جنيه، وفي الحال قرّرت إنهاء خدماته التي لم تعد بحاجة إليها مرة ثانية.

كانت إحدى الرسائل القلائل التي فتحتها خلال الأسابيع التالية مرسلة من كوتس، لإعلامها بأن المبلغ المتوفر في حسابها الجاري 41 ألف جنيه في

شكل ائتمان، ما أثبت أن موت ديزموند ميلور كان مربحًا أكثر من حياته.

عندما عادت عقارب الساعة إلى الوراء ساعةً واحدةً، وبدأت درجة الحرارة بالانخفاض، تحوَلت أفكار فيرجينيا إلى عطلة الشتاء، ووجدت صعوبة في أن تقرَر مكان قضائها بين فيلا في جنوب فرنسا أو الجناح الملكي في فندق ساندي لين في باربادوس، أو ربما ستدع الشاب الذي التقت به مؤخرًا في أنابيل أن يختار المكان الذي يفضَله. وعندما فتحت رسالة أخرى كانت تفكَر في ألبيرتو، ولكن سرعان ما أزاحت فكرة العطلة من رأسها بعد أن تعرّضت لصدمة أدَت إلى انهيارها، وما إن استعادت قواها حتى بحثت عن رقم مدير البنك وحدّدت موعدًا للقاء السيد لي في اليوم التالي.

***

اعترضت فيرجينيا قائلة: "أتطالبني بمئة وخمسة وثمانين ألف جنيه؟".

قال السيد لي ما إن قرأ الرسالة المبعوثة من مفتش الضرائب: "هذا صحيح سيدتي".

"ولكن كيف يمكن أن يكون ذلك ممكنًا؟".

"سيدتي، أفترض أن لك علمًا بضريبة أرباح رأس المال؟".

"نعم، أعلم ولكن لم أكلَف بدفعها أبدًا"، قال السيد لي: "حسنًا، أخشى أنك ستكلَفين بدفعها، لأن موظف الضرائب يطالب بثلاثين في المئة من الأرباح البالغة مئتين وثلاثين ألف جنيه التي جنيتها من بيع لوريس، إضافة إلى العمولة التي حصلت عليها والبالغة ثلاثمئة ألف جنيه، ورسوم بقيمة خمسة وعشرين ألف جنيه، على المبالغ التي قبضتها بعد النجاح في الاستيلاء على شركة ميلور

ترافل.

"ألا يدرك موظف الضرائب أنني أنفقت المبالغ كلها مقابل تسوية ديوني مع سايروس، وأنني لا أملك مئة وخمسة وثمانين جنيه لتسديد هذه الضرائب؟".

أشار السيد لي، وقد نفد صبره: "إن مفتش الضرائب لا يكترث لمشاكلك الشخصية، فهو يهتمَ بالأرباح وليس بمعدَل النفقات".

"ماذا سيحصل إذا لم أردَ على رسالته؟".

"إذا تخلَفت عن الرد خلال ثلاثين يومًا، فسيفرض عليك معدل فائدة مرتفعًا على شكل عقوبة إلى أن تلتزمي بدفع المبلغ كاملًا".

"وإذا لم أستطع دفعه؟".

"سيقتادك إلى المحكمة، وسيؤدَي ذلك إلى إعلان إفلاسك، ومصادرة جميع ممتلكاتك".

قالت فيرجينيا: "مَن كان يظنَ أن موظف الضرائب سيتحوَل إلى عاهرة أسوأ من إيلي ماي غرانت".

***

عرفت فيرجينيا الإنسانة الوحيدة الذي يُعتمد عليه لحل مشاكلها مع موظف الضرائب، على الرغم من أنها لم تتواصل معها منذ عدة أشهر بحجَة ضغط العمل، ولكنها لم تكن تظنَ أنه قد يصعب عليها إقناع كيلي باستثمار بعض مئات الآلاف في صفقة لن تفشل أبدًا.

بعد مقابلة السيد لي، عادت فيرجينيا إلى المنزل، وفور وصولها أمضت بعض الوقت وهي تبحث عن الرسالة التي أرسلتها كيلي إليها منذ عدة أسابيع، والتي ندمت على أنها لم تردَ عليها، ومع ذلك فكَرت وهي تنظر إلى العنوان في أعلى الورقة، في أن هناك سببًا إضافيًا للقيام بزيارة مفاجئة إلى ليتيل

جابلز، نيلسي، بالقرب من بريستول.

في صباح اليوم التالي، استيقظت فيرجينيا قبل بزوغ الشمس، وعلى الرغم من أن هذا الحدث غير اعتيادي، إلا أنها لم تقدر على النوم طوال الليل.

انطلقت فيرجينيا إلى الريف الغربي عند الساعة التاسعة صباحًا، وقد قامت بالرحلة الطويلة للتدرّب على الخطوط الأساسية للفرصة الاستثمارية - فرصة العمر - والتي إذا لم تستفد منها كيلي فسترتكب أكبر خطأ في حياتها.

قبل حلول وقت الظهيرة بقليل مرّت بلوحة تشير إلى نيلسي، فتوقّفت لتسأل رجلًا مسنًا عن الطريق المؤدّي إلى لودج لين، وما إن وصلت إلى خارج ذا ليتل جابلز، خفق قلبها عندما رأت لافتة للبيع معلّقة على بوابة المرج الأخضر الأمامية، فافترضت أن كيلي ستنتقل إلى منزل أكبر، وسارت في الممشى، ثم طرقت الباب الأمامي، وبعد لحظات فتح لها شاب ابتسم لها ابتسامة متكلّفة، فبدا وكأنه يتوقّع حضورها.

"السيدة كامبيون؟".

"لا، أنا لست السيدة كامبيون، أنا الليدي فيرجينيا فيونيك".

"سيدة فيونيك، أنا أعتذر".

"أنا لست السيدة فيونيك أيضًا، أنا ابنة الإيرل ولست زوجة وريثه في الحياة، ويمكنك مناداتي ليدي فيرجينيا".

قال لها: "طبعًا، إنني أعتذر مرةً ثانية، كيف يمكنني مساعدتك ليدي فيرجينيا؟".

"يمكنك البدء بالتعريف بنفسك".

"أنا نيل أوزبورن، وأنا الوكيل العقاري المسؤول

عن بيع هذا العقار، هل أنت مهتمة بشرائه؟".

"بالطبع لا، أنا ببساطة أزور صديقتي القديمة كيلي ميلور، هل مازالت تعيش هنا؟".

"لا، لقد انتقلت بعد فترة قصيرة من عرض المنزل للبيع".

"هل انتقلت إلى مكان قريب؟".

"إلى بيرث".

"في إسكتلندا؟".

"لا، في أستراليا"، فسكتت فيرجينيا للحظة، ما سمح للشاب بإكمال كلامه قائلًا: "يا سيدة فيرجينيا، كل ما يمكنني أن أخبرك به بأن كيلي طلبت مني إيداع عائدات البيع في حساب مصرفي مشترك في بيرث".

"حساب مصرفي مشترك؟".

"نعم، فقد قابلت باري مرة واحدة فقط، وبعد وقت قصير من الإعلان عن خطبتهما، بدا لطيفًا..."، أضاف أوزبورن وهو ينظر خلف فيرجينيا موجهًا كلامه إلى زوجين شابين يسيران في الممشى: "هل أنتما السيد والسيدة كامبيون؟".

***

عندما تلقت فيرجينيا الرسالة الثانية من مفتش الضرائب، أدركت أن هناك شخصًا واحدًا يمكنها اللجوء إليه، على الرغم من أنه لن يصدّق بسهولة قصة الاستثمار الذي لا يمكن أن يفشل.

اختارت فيرجينيا يوم العطلة، لأن فريدي فينويك سيكون في المدرسة الداخلية، وزوجة أخيها التي لم تكن تكترث لأمرها، والتي تبادلها المشاعر نفسها، ستزور عمتها المسنة في دومفريز.

لا تضع فيرجينيا قناع النوم الذي تعتبر تسميته

خاطئة، لأنها لا تستطيع أن تغفو لأكثر من ساعة في ظلّ اهتزاز العربة المتواصل، وبدلًا من ذلك اختارت السفر إلى إسكتلندا خلال النهار، ما منحها مزيدًا من الوقت لمراجعة خطتها والاستعداد إلى الإجابة عن أي سؤال قد يطرحه شقيقها من دون أن تشعر بالإحراج، وعندها اتصلت به، وأبلغته بأنها تريد رؤيته بسرعة ليسدي إليها النصح. لقد كان استخدام كلمة *النصح* خاطئة برأيها، لأنه سيفترض أنها تحتاج إلى أمر آخر لم تعلن عنه، كما كانت تدرك أن مبلغ 185 ألف جنيه إسترليني كبير بعض الشيء، ولكنها كانت متأكدة من أنه سيدعمها على الرغم من ذلك.

عندما وصلت إلى إدنبرة وافرلي، كان أرتشي قد أرسل إليها سيارة -إذا كان في إمكانك أن تدعو سيارة فوكسهول طراز عام 1975، سيارة - لاصطحابها إلى فينويك هالاك، فركبت في المقعد الخلفي من دون أن تخاطب السائق، ورائحة اللابرادور وخراطيش فارغة تفوح منها.

رافق كبير الخدم الليدي فيرجينيا إلى غرفة نوم الضيوف، وأخبرها بأن سيده ذهب للصيد، ولكن من المتوقع عودته مساء لتناول العشاء برفقتها، فاستغرق فيرجينيا إفراغ الحقائب وقتًا طويلًا، وهو ما كانت تفعله مدبرة المنزل في عهد والدها، وبعد ذلك أخذت حمامًا دافئًا وشذبت أظافرها، وارتدت ملابس أنيقة، وجهّزت نفسها استعدادًا للقاء.

تناولا العشاء بهدوء من دون أن يناقشا أي موضوع إلا بعد تقديم القهوة ومغادرة الخادم الغرفة، فقال لها أرتشي بعد أن سكب لنفسه البراندي: "أنا متأكد من أنك لم تجتازي كل تلك

المسافة للاطمئنان على أحوال العائلة يا فيرجينيا، لذلك أخبريني ما السبب الحقيقي لهذه الزيارة؟".

وضعت فيرجينيا فنجان القهوة جانبًا، وتنفَّست بعمق، وقالت: "أنا أفكِّر بكل جدية بشأن الطعن في وصية والدي".

وبعد أن ألقت خطبتها التي استعدَت لها جيدًا، بدا واضحًا من خلال ملامح وجه شقيقها أنه لم يفاجأ.

قال لها بهدوء: "على أي أساس ستقدِمين الطعن؟".

"على أساس أن والدي وعدني بأن يورثني معمل غلين فينويك للتقطير الذي تصل أرباحه السنوية إلى مئة ألف جنيه إسترليني، ما سيوفِّر لي مستوى معيشيًا لائقًا حتى آخر يوم في حياتي".

"ولكنك تعلمين جيدًا يا فيرجينيا، أن والدي أوصى بمعمل التقطير لفريدي الذي هجرتِه منذ سنوات، وتركتِ لي مسؤولية تربيته".

"أنت تعلم أنه ليس ابني، وأنه من نسل الخادم وزوجته، لذلك ليس له الحق أبدًا في أن يرث والدي".

نظرت فيرجينيا إلى عيني شقيقها أرتشي منتظرة ردَ فعله على كلامها، ولكن مرة أخرى لم تظهر على وجهه تعابير تدلّ على تفاجئه، وإنما انحنى وربت على ويلينغتون الذي كان ممدَدًا بجانبه، وقال لها: "لم أكن واثقًا من أن فريدي ليس ابنك، إلا بعد زيارة إيلي ماي غرانت التي أخبرتني بالتفصيل بالتمثيلية التي أعددتها للاحتيال على خطيبها الذي كان يقيم في الريتز منذ سنوات، وبادعائك أنك حامل وأن سايروس هو والد فريدي، وبعد انكشاف الحقيقة لم يعد من مجال للشك".

سألت فيرجينيا: "لماذا أرادت تلك المرأة رؤيتك؟".

"أرادت معرفة ما إذا كنت على استعداد لسداد الأموال التي حصلت عليها عن طريق الاحتيال على زوجها خلال العقد الماضي".

"كان من الممكن أن تعرض عليها دخل معمل التقطير حتى تتمَ تسوية الدين، فكان ذلك من شأنه أن يحلَ جميع مشاكلي".

"أنتِ تعلمين يا فيرجينيا أنني لا أستطيع أن أقدِم إليها هذه الأموال، فمعمل التقطير تركه والدي لفريدي، وسأديره حتى يبلغ الخامسة والعشرين، وبعد ذلك سيصبح تلقائيًا له".

"لكنك تعلم الآن أن فريدي ليس ابني، ومن المؤكد أنك ستدعم أقوالي بأن والدي في وصية سابقة -والتي رآها كلانا - قد أورثني معمل التقطير".

"لكنه غيّر رأيه لاحقًا، ولم أفهم سبب ذلك حتى أخبرتني السيدة غرانت بنوع الويسكي المفضل بالنسبة إلى زوجها، عندها أدركت ما قصده والدنا من ترك زجاجة ويسكي لك من نوع ميكرز مارك في وصيته، ما يؤكّد أنه كان يعلم بأنه ليس ابنك".

قالت له فيرجينيا: "كُلِّفت بدفع ضريبة بقيمة مئة وخمسة وثمانين ألف جنيه إسترليني، ولا أملك المال لتسديدها".

قال أرتشي: "أنا آسف لسماع ذلك، ولكن بحسب خبرتي فإن موظف الضرائب لا يفرض ضريبة بقيمة مئة وخمسة وثمانين ألفًا، إلا على من حقق مكاسب ضخمة..."، تردّد للحظة قبل أن يتابع كلامه قائلًا: "تصل إلى ما يقارب نصف مليون".

"لقد أنفقت كل بنس حصلت عليه من أجل تسوية دين سايروس، ولم أعد أملك بنسًا".

"حسنًا، حتى لو أردت مساعدتك، فأنا لا أملك هذا المبلغ الضخم، فكل بنس أملكه يعود إلى الورثة، وكما ترين فنحن لا نعيش حياة مترفة، وإذا اضطررت إلى إجراء تعديل في النفقات، فلن يتعدّى المبلغ الذي سأعطيك إياه مخصصاتك الشهرية، والمفارقة أن فريدي ورث من والدي أكثر منا جميعًا".

انحنت فيرجينيا ونظرت إلى شقيقها متوسّلة: "ولكن ذلك يمكن أن يتغيّر إذا استعدنا معمل التقطير، وإن دعمتني يا أرتشي فستحصل على نصفه".

"ليس لديك فرصة لتحقيق ذلك يا فيرجينيا، فقد كانت رغبة أبي في أن أحرص على تنفيذ الوصية، وهذا ما أنوي القيام به".

"ولكن من المؤكد أن صلة الدم هي الأقوى".

"اصمتي يا فيرجينيا، وأنا أحذّرك من التهور وتحدّي إرادة والدي، وإذا كنت ستلجئين إلى المحكمة، فلن أتمكّن من الوقوف مكتوف اليدين بل سأدعم فريدي، لأن ذلك ما كان يتوقّعه مني والدي".

فكّرت فيرجينيا في أثناء رحلة عودتها إلى لندن بأن عليها الاتصال على وجه السرعة بقريبها الموجود في الأرجنتين.

***

في صباح اليوم التالي، تلقّت فيرجينيا الإنذار الأخير من مفتش الضرائب، فمزّقته ورمته في أقرب سلة مهملات، وعند حلول فترة الظهيرة، كانت تفكّر بجدية في حجز تذكرة في الدرجة الاقتصادية إلى بيونس أيرس، حتى إنها بدأت بحزم أمتعتها، وقد فكّرت في الذين ستفتقدهم بعد أن تنفي نفسها كأنابيل وصديقتها بريسيلا وبوفي وحتى صحيفة

الديلي ميل، إلا أنها أقنعت نفسها بطريقة ما بأن صحيفة بيونس أيرس هيرالد لها الجاذبية نفسها.

لفت نظرها مقال نايل ديمبستر المرفق بصورة امرأة في أعلى المقال، لم تهتمَ بأمرها كما لم يحزنها خبر موتها.

كتب ديمبستر: *ببالغ الحزن والألم أنعي إليكم لافينيا* - دوقة هيرتفورد - *تلك السيدة الساحرة المفعمة بالسحر والجمال والحيوية والحادة الذكاء* -فكَرت فيرجينيا في أنه لم يتغنَّ بخصالها أبدًا عندما كانت لا تزال على قيد الحياة - وسوف *يفتقدها العديد من الأصدقاء*- لقد انضمَوا إليها في حفلات الشاي في مجلس اللوردات، لأنها امرأة غنية وقوية جدًا، لذلك انحنى لها الجميع - *وستقام الجنازة في دير سانت ألبانس بحضور الأميرة مارغريت إحدى أقدم صديقات الدوقة، وابنها اللورد كلارنس، وابنتيها الليدي كاميليا والليدي أليس، وزوجها المخلص الدوق الثالث عشر هيرتفورد، وستقام الجنازة عند الساعة*... فتحت فيرجينيا دفتر مذكراتها ودوّنت التاريخ.

22

ربما كانت فيرجينيا مفلسة، ولكن لا أحد ممن رآها تمشي في ممر دير سانت ألبانس قد يصدَق ذلك، فقد كانت ترتدي فستانًا حريريًا أسود، وتتزيَن ببروش من اللؤلؤ ورثته من جدتها، وحملت حقيبة يد سوداء من هيرميس، لم تدفع ثمنها بعد.

دخلت عبر الباب الغربي قبل دقائق قليلة من بدء القداس، فكان الدير ممتلئًا، ما جعلها تشعر بالقلق من ألا تجد مكانًا في الصفوف الأمامية، فنظرت إلى مقاعد المعزين ولكنها لم تلاحظ وجود أي مقعد فارغ، ثم رأت رجلًا طويلًا وأنيقًا يرتدي معطفًا، ويحمل بيده عصا، فابتسمت له ابتسامة دافئة، ولكن بدا واضحًا أنه لم يتعرَف إليها، فهمست إليه: "أنا الليدي فيرجينيا فيونيك، صديقة العائلة المقربة".

"طبعًا سيدتي، اتبعيني من فضلك".

رافقت فيرجينيا المرشد في الممر، فكانت صفوف المعزين الأخيرة قد امتلأت مقاعدهم، ما جعلها في غاية السعادة، وعندما عرفت أن مقعدها في الصف الخامس خلف مقاعد العائلة مباشرةً، شعرت بالراحة لأن ذلك يتناسب تمامًا مع الجزء الأول من خطتها.

بينما كانت تتظاهر بدراسة مكان إجراء القداس، تلفَتت حولها لتعرف هوية من يجلس بالقرب منها، فتعرَفت إلى دوقات نورفولك ووستمنسر ومالبورو، بالإضافة إلى العديد من الورثة الذين كانوا أصدقاء والدها الراحل، ثم رأت بوفي بريدجيستون يجلس خلفها بعدة صفوف، لكنها لم تكن تثق بانحناءته المبالغ فيها.

عزفت الالة الموسيقية لتعلن بداية القداس

العظيم، والذي قاده بهدوء قائد القداس في الممر.

تبع اللورد هيرتفورد عمدة المقاطعة وحاكمها، ثم جلسوا في أماكنهم في الصف الثالث، وبعد لحظات تبعهم اللورد بارينغتون الزعيم السابق لمجلس اللوردات في بريستول دوكلادنز.

تراجعت فيرجينيا إلى الخلف عندما مرَ جايلز، لأنها لم ترد أن يعلم طليقها بأنها تشارك في الجنازة، كما أن ذلك لم يكن من ضمن خطتها المعدة بإحكام، وبعد أن جلس جايلز في مقعده في الصف الثاني شعرت بالارتياح.

بعد لحظة نهض المعزون جميعًا عندما وصل التابوت المغطى بالزنابق البيضاء إلى الممر، وقد زفع على أكتاف ستة حراس من حراس كولد ستريم الذين التحقوا بالكتيبة الأولى، وهي الكتيبة التي خدم فيها الدوق برتبة رائد خلال الحرب العالمية الثانية، وقد أصبح الآن كولونيلا فخريًا فيها، وساروا باتجاه المذبح، ومشى دوق هيرتفورد الثالث عشر خلفهم، وتبعه ابنه وابنتاه، ثم أخذوا أماكنهم في الصف الأمامي، بينما وُضِع التابوت على نعش في القنطرة، وقد أقام مراسم الجنازة أسقف هيرتفورد الذي ذكّر الحاضرين بما كانت عليه الدوقة الراحلة، مؤكدًا على عملها الدؤوب بصفتها راعية للدكتور بارناردو ورئيسة اتحاد الأمهات، وختم الأسقف تأبينها بالإعراب عن تعازيه القلبية للدوق وعائلته، وفي النهاية أضاف أنه يأمل في أن يساعدهم الله تعالى وأن يتأقلموا مع خسارتهم الكبيرة.

علَقت فيرجينيا قائلة: ذلك مع القليل من المساعدة مني.

عندما انتهى القداس، انضمت فيرجينيا إلى

مجموعة من المعزين الذين حضروا الدفن، ثم انتقلت إلى القلعة لحضور حفل الاستقبال الذي لم تكن مدعوة إليه، وعندما وصلت، توقفت للحظات أسفل السلالم لتتأمَل البناء اليعقوبي الذي أثار إعجابها، فبدت وكأنها مشترية محتملة، وقد بقيت ساكنة خلال الجنازة والدفن، ولكن عندما أعلن الخادم عن وصولها قائلًا: "الليدي فيرجينيا فيونيك" لم تهدأ حركتها.

لقد أرادت أن تقول له لم أكن لأفتقدها في هذا العالم، ولكن كلامها اقتصر على قول: "يا لها من فاجعة! فقد كانت سيدة لطيفة وعزيزة، سوف نفتقدها جميعًا".

قال الدوق من دون أن يترك يدها: "هذا لطف منك أن تقولي ذلك، يا فيرجينيا، وآمل في أن نبقى على اتصال دائم".

علَقت فيرجينيا بصمت لا داعي للخوف من ذلك، ولكنها قالت بنبرة رقيقة: "إنه شرفٌ عظيم، يا سيدي".

ثم أعلن رئيس الخدم: "السيد دوق وستمنستر".

تنقلت فيرجينيا في القاعة الكبيرة، وبينما كانت تحدَق إلى الأيائل والزوارق المعلقة على الجدران، جالت عيناها في القاعة بحثًا عن الأشخاص الثلاثة الذين كانت بحاجة إلى لقائهم والشخص الوحيد الذي كانت تأمل في تجنبه، وقد رفضت عدة عروض للمقبلات والنبيذ في أثناء تجوَلها، لأنها كانت تدرك جيدًا أن وقتها كان ضيقًا وأن لديها مهمة محددة عليها أن تنفَذها.

توقفت للدردشة مع مايلز نورفولك للحظات، إلا أنه لم يكن سوى محطة توقف قبل التقدَم إلى الشخص المنشود، وعندما رأته متكئًا على المدفأة،

وهو يتحدّث إلى رجل اخر لم تتعرّف إليه، تركت مايلز وسارت باتجاهه، وفي اللحظة التي انتقل فيها الرجل المسن إلى التحدث إلى ضيف آخر، انطلقت باتجاه هدفها مثل شعاع الليزر.

"كلارنس، لعلك لا تتذكّرني".

قال بثقة: "ليس من السهل نسيانك ليدي فيرجينيا، أبي يتحدّث دائمًا عنك بحرارة".

قالت فيرجينيا: "يا له من رجل لطيف! هل ما زلت تخدم مع البلوز والرويالز؟".

"أجل، ولكن للأسف أنا على وشك أن أُعيَن في خارج البلاد، وأشعر بالأسف لاضطراري إلى السفر وترك والدي وحيدًا بعد وفاة والدتي بوقت قصير".

"لكن الدوق سيحظى بدعم شقيقتيك".

"للأسف لن يحصل ذلك، فكاميلا متزوجة من مربي أغنام في نيوزيلندا، يمتلك مئة ألف فدان، هل تصدّقين ذلك؟ وسوف يعودان إلى كرايستشيرش خلال أيام قليلة".

"ذلك مؤسف حقًا، هذا يعني أن مسؤولية كبيرة ستلقى على عاتق أليس".

"وهنا تكمن المشكلة، فقد غرض على أليس منصب رفيع في شركة لوريال في نيويورك، وقد فكّرت في رفضه، ولكن أبي أصرَ على أنه لا ينبغي لها أن تفوّت مثل هذه الفرصة الذهبية".

"والدك مثالي، ولكن إذا كنت تعتقد أن ذلك قد يساعد يا كلارنس، فسأكون سعيدة جدّا بزيارته من وقت إلى آخر".

"سيخفّف ذلك من قلقي ليدي فيرجينيا، ولكن يجب أن أحذرك، إذ يمكن أن يكون الرجل العجوز متعبًا قليلًا، فأحيانًا أعتقد أنه يقترب من سن

السابعة لا السبعين".

قالت فيرجينيا: "هذا تحدٍ سأستمتع بمواجهته، فليس لديَ الكثير من الأعمال التي تشغلني في حياتي الآن، كما كانت دائمًا تسرّني صحبة والدك، وربما يمكنني أن أتحدث إليك من وقت إلى آخر وأخبرك بأحواله".

"كم أنت رقيقة المشاعر ليدي فيرجينيا! ولكن أمل ألا يشكّل الاهتمام به عبئًا كبيرًا عليك".

قال الرجل الذي انضمَ إليهما: "إن العرض الذي قدمته جيد، فقد جعلت المرأة العجوز فخورة بنفسها".

قال كلارنس: "شكرًا لك أيها العم بيرسي".

تركتهما فيرجينيا لمواصلة هجومها الثلاثي، فقد غيّر الصاروخ اتجاهه نحو هدفه الثاني.

"تهانينا على وظيفتك الجديدة يا أليس، ولا بد أن أقول إنني أوافق والدك في الرأي، فيجب أن لا تتخلَي عن هذه الفرصة الذهبية".

قالت أليس وهي غير متأكَدة من هوية من تخاطبها: "لطف منك أن تقولي ذلك، ولكنني ما زلت غير قادرة على أن أحسم أمر قبول العرض أم رفضه".

"ولكن لمَ لا يا عزيزتي؟ فقد لا تحصلين على فرصة كهذه مرة أخرى".

"أعتقد أنك محقة، ولكنني سأشعر بالذنب إذا تركت أبي يتدبّر أموره وحده".

"صدَقيني يا عزيزتي لا داعٍ للقلق، فسيكون هناك عدد أكثر من كافٍ للتأكد من أنه يتلقى العناية على نحو جيد، لذا اذهبي، وأثبتي لهؤلاء الأميركيين ما يمكن أن يفعله البريطانيون".

قالت أليس: "أعلم أن هذا ما يريده، ولكنني لا أستطيع التفكير في تركه وحده بعد فترة قصيرة فقط من وفاة أمي".

قالت فيرجينيا، وقد بدت مسرورة لرؤية جايلز يودّع الدوق قبل أن يرحل: "لا داعي للقلق بشأن ذلك".

ضمّت فيرجينيا أليس بحرارة قبل أن تذهب للبحث عن فريستها الأخيرة، فلم يكن العثور على أم وأب وثلاثة أطفال صعبًا، ولكن هذه المرة لم يُرحّب بها بالحماسة نفسها.

بدأت فيرجينيا كلامها قائلة: "مرحبًا، أنا..."، وقبل أن تكمل جملتها المعدة ببراعة، قالت السيدة كاميليا: "أعلم جيدًا من أنتِ"، ثم أدارت ظهرها، وبدأت تتحدّث إلى صديق قديم لها من أيام المدرسة من دون إشراك فيرجينيا بالمحادثة.

ابتعدت فيرجينيا بسرعة قبل أن يلاحظ أحد ما تعرّضت له من إحراج، كما أن تحقيق هدفين اثنين من ثلاثة لا يعدّ نتيجة سيئة، وخاصةً أن الشخص الثالث يقيم في الطرف الآخر من العالم، فرأت فيرجينيا أنه لا فائدة من التسكع في المكان أكثر، لذلك شقت طريقها إلى الدوق لتوديعه في المرحلة الحالية.

قالت له: "لقد قضيت وقتًا ممتعًا بتجديد معرفتي بأولادك اللطفاء"، تساءلت إذا كان يعلم بمدى قلة المناسبات التي كانت تلتقي بهم فيها خلال العشرين سنة الماضية، ربما لأن الدوقة حرصت على ذلك.

أجابها الدوق: "أنا متأكد من أن رؤيتك مجددًا قد أسعدتهم"، وأضاف قائلًا: "وأنا آمل في ألا تظلّ هذه المسافة بيننا في المستقبل، وأن نكون على اتصال دائم إذا لم يكن لديك ما تقومين به".

قالت له، بينما بدأ يتشكّل طابور انتظار خلفها: "إنه لشرفٌ عظيمٌ لي، وسأنتظر اتصالك".

همس الدوق لها: "لن يتمكّن أفراد عائلتي من البقاء إلى جانبي سوى بضعة أيام، فهل يمكنني الاتصال بكِ فور مغادرتهم؟".

"سأنتظر اتصالك بلهفة، يا بيري"، وهو اسم استخدمته الدوقة الراحلة فقط، بالإضافة إلى بعض أصدقاء الدوق القدامى، أما الباقون فينادونه دوق هيرتفورد.

لم تضيّع كاميليا وقتها، فما إن غادرت فيرجينيا حتى اقتربت من شقيقها، وقالت له:

"هل كنت تتكلّم مع تلك المرأة الخطيرة، فيرجينيا فينويك؟".

قال كلارنس: "نعم، تبدو لطيفة، وقد وعدتني برعاية والدنا عندما نغادر جميعنا".

"أراهن على أنها ستفي بوعدها، وإن كان هناك ما يمنعني من العودة إلى نيوزيلندا، فهو أنها ستسيطر على والدنا".

"لا يمكن أن تفعل ذلك، فهي رقيقة المشاعر إلى أقصى درجة".

"لا تسمح لتلك الممثلة البارعة بخداعك ولو للحظة واحدة".

"لماذا تحاربينها يا كاميليا، في حين أن كل ما تريده هو تقديم المساعدة؟".

"لأن أمي العزيزة كان لديها صفة الحكمة التي يعرفها بها الجميع، بينما كانت لليدي فيرجينيا بحسب رأيها صفتان لا أكثر، وهما الوضيعة والماكرة".

***

سألت فيرجينيا: "كم لديَ من الوقت؟".

أجاب مدير البنك: "لن تمنحك الإيرادات أكثر من تسعين يومًا قبل بدء الإجراءات، يا سيدتي".

أجابت فيرجينيا: "حسنًا، كم لديَ من الوقت؟".

قلَّب السيد لي عدة صفحات قبل أن يجيبها: "الموعد النهائي للدفع هو الحادي والعشرون من كانون الأول، إذا لم ترغبي في أن ترتفع نسبة الفوائد التي لن تتمكَني من تسديدها بسهولة".

قالت له فيرجينيا: "شكرًا لك"، قبل أن تغادر من دون أن يضيف مدير البنك أي كلمة.

تساءلت فرجينيا عن المدة التي عليها أن تنتظرها قبل أن يتَصل بها الدوق، لأنه إذا لم يتصل بها قريبًا فستقضي عطلتها في بيونس أيرس.

23

لم تكن فيرجينيا مضطرة إلى انتظار أن يتصل بها الدوق ويدعوها للخروج في موعدهما الأول طويلًا، وقد تطلَّعت إلى أمسيتهما في موسيمان، فبدت خجولة ومغرية ما دفع الدوق إلى مغازلتها، وقد جعلته يشعر بأنه أصغر بعشرين عامًا، أو على الأقل هذا ما قاله لها في شقتها في تشيلسي، بعد أن قبَلها على خدها، وقد فكَّرت فيرجينيا في أن ذلك يبدو مناسبًا في الموعد الأول.

ولم تدعْ صديقها لاحتساء القهوة لعدة أسباب منها أنه سيلاحظ الخطافات التي علَّقت عليها اللوحات في وقت سابق.

اتصل الدوق في صباح اليوم التالي، ودعا فيرجينيا إلى موعدهما الثاني، وقال لها:

"لديَ تذكرتان لحضور فيلم نويز أوف من بطولة بول إيدينغتون، وسنتناول العشاء بعد ذلك".

قالت وهي تنظر إلى ورقة فارغة في يومياتها: "هذا لطف منك يا بيري، ولكن لسوء الحظ يجب أن أحضر حفلًا خيريًا هذا المساء، ولكنني سأكون متفرغة مساء الخميس".

لقد كان على بطاقة الرقص اسم واحد فقط.

فوجئت فيرجينيا بمدى استمتاعها بدورها بصفتها رفيقة للدوق، وصديقة مقربة إليه، وسرعان ما تكيَّفت مع نمط الحياة المرفهة، والذي اعتادت عليه طوال حياتها، ومع ذلك كان عليها ألا تنسى أن موظف الضرائب لا يزال يطالب بالضريبة البالغة 185 ألف جنيه على وجه الدقة، وإذا لم تسدّدها في موعدها، فإن هذا الحياة المثالية ستتدمّر فجأة مثل القطار الذي يخرج عن مسار سكّته، ففكَّرت في

طلب قرض من بيري لتسديد فاتورتها الضريبية، ولكنها شعرت في أن ذلك كان مبكرًا بعض الشيء، كما سيجعله يعتقد أن المال كان السبب الوحيد الذي دفعها إلى الاهتمام به، ومن المؤكد أن العلاقة ستنتهي حينها بالسرعة التي بدأت بها.

***

على مدار الأسابيع القليلة التي أمضتها برفقة الدوق، أمطرها بوابل من الهدايا على اختلاف أنواعها بالإضافة إلى باقات الزهور وحتى المجوهرات، وعلى الرغم من أنها فكَرت في بيعها إلى بعض المؤسسات العصرية في شارع بوند للحصول على المال، إلا أنها لم تكن كافية لتسديد الضريبة، وعلى أي حال ستكون مسألة وقت قبل أن يكتشف الدوق ما قامت به.

عندما تغيَر الطقس مع حلول كانون الأول وصار شديد البرودة، ورحل تشرين الثاني المعتدل، بدأت فيرجينيا تشعر باليأس، وقرَرت أنه ليس لديها خيار سوى إخبار بيري بالحقيقة، مهما كانت العواقب.

اختارت أن تبلغه بالحقيقة في عيد ميلاده السبعين، وفي أثناء تناول العشاء في لي فروش انتظرت اللحظة المناسبة لتقديم هديتها لباري التي أنفقت عليها معظم مصروفها الشهري، ما جعلها غير قادرة على تحمَل نفقات باقي الشهر، وكانت الهدية عبارة عن زرين ذهبيين من صنع كارتييه، وقد حُفر عليهما شعار هيرتفورد، وكانت قد استعدت لشرح أسباب مغادرة بوينس أيرس مبكرًا بعد تقديم الهدية إليه.

في أثناء تناول الطعام واحتساء الشمبانيا المعتقة، بدا الدوق مخادعًا صغيرًا، وبدأ يتحدَث عن عبور خط النهاية، وهو تعبيره المخفف للموت.

وبَخته فيرجينيا قائلة: "لا تكن سخيفًا يا بيري، فأمامك الكثير من السنوات قبل أن تحتاج إلى التفكير في أي شيء محبط كالموت، خاصة إذا كان لديك ما تعيش من أجله، ولا تنس فقد وعدت الأولاد بأنني ساعتني بك".

وأردفت قائلة: "لديك أشياء بالغة الأهمية في حياتك، أيها العجوز".

قال لها، وهو يمسك بيدها: "في الواقع لا أعرف كيف كنت سأعيش من دونك".

لقد اعتادت فيرجينيا على إشارات الدوق العاطفية الصغيرة، فكانت يده تمتدَ تحت الطاولة وتنتهي إلى فخذها، ولكن الليلة بقيت مكانها بينما كان النادل يفتح زجاجة أخرى من الشمبانيا، فشربت فيرجينيا القليل في ذلك المساء، لأنها كانت بحاجة إلى أن تكون يقظة، كما لو أنها ستواجه القاضي الذي ستقدَم إليه عذرها للتخفيف من الحكم الصادر بحقها، وبعد أن قدَمت إليه هدية عيد ميلاده، نزع غلافها ببطء، وفتح الصندوق الجلدي، وقال لها:

"عزيزتي فيرجينيا، يا لكِ من امرأة لطيفة! إنها أكثر هدية مختارة بعناية حصلت عليها في حياتي"، وانحنى وقبَل شفتيها بلطف.

"أنا سعيدة لأنها أعجبتك يا بيري، لأنه من المستحيل العثور على هدية مناسبة لرجل يملك كل شيء".

عندما نظرت إلى الفاتورة رأت الرقم 18.50 جنيهًا إسترلينيًا، فخطرت فكرة في ذهنها، ولكن هل يمكنها المخاطرة بتنفيذها؟ كان عليها الاعتراف بأن الحصول على فرصة كهذه لن تتكرَر، فانتظرت النادل أن يسكب كأسًا ثانية لباري قبل أن تقول له:

"الفاتورة جاهزة يا بيري، هل أحزِر الشيك بينما أنت تستمتع بمشروبك؟".

قال الدوق وهو يخرج دفتر الشيكات، ويعطيها إياه: "فكرة جيدة أيتها العجوز، وكوني حريصة على إضافة إكرامية سخية"، قال وهو يشرب كأسه: "لقد كانت أمسية لا تُنسى".

كتبت فيرجينيا الرقم بعد إزاحة الفاصلة وإضافة صفرين إلى جانب الرقم الأساسي، 185000، ثم نزعت الشيك قبل وضعه أمامه، وقد وضعت تاريخ الثالث من كانون الأول 1982، فوقَع من دون أن ينتبه إلى أسفل الشيك، إذ غطت فيرجينيا الصفرين الإضافيين بإصبعها، وعندما ذهب باري إلى دورة المياه، وضعت الشيك في حقيبتها، وأخرجت دفتر شيكاتها وكتبت المبلغ الصحيح، وسلَمته للنادل قبل عودته.

قالت فيرجينيا: "إنه عيد ميلاد الدوق، لذلك الدعوة على حسابي".

لم يعلَق ماركو على عدم إضافتها الإكرامية السخية التي تحدَث عنها الدوق.

حالما جلسا في سيارة الرولز رايس، انحنى الدوق، وأخذ فيرجينيا بين ذراعيه وقبَلها قبلة رجلٍ كان يأمل في المزيد.

عندما توقَفت السيارة خارج منزل الدوق في إيتون سكوير، اندفع السائق بسرعة إلى فتح الباب الخلفي، مما منح فيرجينيا وقتًا كافيًا لتسوية فستانها، بينما كان الدوق يلبس سترته.

قاد الدوق فيرجينيا إلى المنزل، فوجدا الخادم ينتظرهما، كما لو كان منتصف النهار لا منتصف الليل، فقال بينما كان يأخذ المعطفين: مساء الخير يا سيدي، هل أجلب لك طلبك المعتاد البراندي

والسيجار؟".

أجابه الدوق: "ليس الليلة"، ثم أمسك بيد فيرجينيا، وصعدا الدرج إلى غرفة لم تدخلها من قبل، فكانت غرفة نومه بحجم شقتها كلها، وقد هيمن عليها لوحٌ خشبي معتق من خشب البلوط، مُزين بشعار العائلة إيفر فيجيلانت.

كانت فيرجينيا على وشك الجلوس، عندما شعرت بأن السحاب الذي على ظهر ثوبها يُفتح بشكل مضطرب، فلم تبذل أي محاولة لمنعه من السقوط على الأرض، وبدأت بفك حزام الدوق الذي كان يدفعها بثبات نحو السرير، فلم تستطع أن تتذكَر متى كانت آخر مرة مارست الحب، كما كانت تأمل في أن يكون الأمر نفسه بالنسبة إلى الدوق.

لقد كان مثل تلميذٍ في موعده الأول، يداعب ويتخبَط، ومن الواضح أنه احتاج إليها لتتولَى القيادة، وقد كانت سعيدة بذلك.

قال لها ما إن عادت دقات قلبه إلى طبيعتها: "هذه أفضل هدية عيد ميلادٍ كنت أتمنى أن أحصل عليها".

قالت فيرجينيا: "أنا أيضًا"، لكنه لم يسمعها لأنه غرق في النوم.

عندما استيقظت فيرجينيا في صباح اليوم التالي استغرق تذكّر مكان وجودها لحظات.

بدأت تحلَل عواقب ما حدث في الليلة السابقة، فقرَرت عدم تقديم الشيك -185000 جنيه إسترليني -قبل الثالث والعشرين من كانون الأول، لأنها كانت واثقة من أنه لن يتمَ تحصيله قبل عيد الميلاد، وربما قبل ليلة رأس السنة الجديدة.

ومع ذلك كان هناك احتمال أن يعتبر شخص ما

أن من واجبه تنبيه الدوق إلى سحب هذا المبلغ الكبير، كما كان هناك احتمال وإن لم تُرجّح فيرجينيا كفَته، وهو أن يُرفض الشيك، ولكن إذا حدث أي منهما، فستكون في طريقها إلى هيثرو وليس إلى قلعة هيرتفورد، وحينها لن يلاحقها مفتش الضرائب وحده، بل سيلاحقها دوق يقظ أيضًا، كما كانت واثقة من أن ابنته كاميلا لن تظلّ مكتوفة اليدين.

كان الدوق قد دعا فيرجينيا لقضاء عيد الميلاد في منزله في هيرتفورد، وقد قبلت دعوته عندما علمت بأن كاميلا وأفراد عائلتها لن يأتوا من نيوزيلندا، إذ شعروا بأن رحلتين إلى إنكلترا خلال بضعة أشهر كانت تبذيرًا غير مبرّر.

كتبت فيرجينيا إلى كلارنس وأليس بانتظام خلال الأسابيع القليلة الماضية، لاطلاعهما على كل ما يخطّط له والدهما، أو بشكل أدقّ كتبت نسختها الخاصة، وقد أوضحا كلاهما في ردودهما مدى سعادتهما لانضمامها إليهما في قلعة هيرتفورد في عيد الميلاد.

لست متأكدةً من أن ذلك سيكون حكيمًا يا بيري، خاصة إذا كان الأولاد سيقيمون في القلعة خلال عيد الميلاد، ربما في وقت مبكر من العام الجديد، أي بعد رحيلهم؟

"حسنًا، على الأقل ابقي معي إلى أن يصلوا؟".

وافقت فيرجينيا بسعادة على طلبه، ولكنها لم تترك سوى قطعة ملابس واحدة في سكوير إيتون، لأنها كانت تدرك أنها قد تقوم بحزم أمتعتها في أي لحظة.

وصل كلارنس إلى هيثرو صباحًا، فعادت إلى شقتها الصغيرة في تشيلسي، ولكنها اكتشفت على الفور مدى اشتياقها لا لأسلوب حياتها الجديد

فحسب بل لبيري أيضًا.

جيسيكا كليفتون
1982-1984
24

عندما انضمّت جيسيكا إلى والدها لتناول الفطور قالت له: "أنا مندهشة لأنك لم تتوقّع أن ذلك سيحدث، يا أبي".

قال لها سيباستيان: "بالطبع توقّعت ذلك"، فبدأ جيك بالنقر على كرسيه المرتفع لجذب الانتباه، فقال له سيب: "لست بحاجة إلى رأيك، أيها الشاب"، إنه يستعدّ لتولّي منصب فاردنغز كوفمان".

"تمنّيت أن أكون الرئيس القادم".

"ليس إذا استمرّت السيدة فيرجينيا في حياكة المكائد من حولك".

"يبدو أنك نسيت، أيتها الشابة، أن فيرجينيا لديها مسارها الداخلي، فقد زارت ميلور في السجن بانتظام، ونحن نعلم الآن أنها لم تقرأ الرسالة التي كتبها إلى ابنته فحسب، بل كانت على اتصال بها قبل فترة طويلة من هبوط طائرتي في شيكاغو".

"ولكن كانت لديك الفرصة للسيطرة على الشركة، إلا أنك تراجعت ورفضتها".

في ذلك الوقت - إذا كنت تتذكّرين بشكل دقيق - كنت تعارضين قراراتي، حتى عندما زرت ميلور في السجن، وقد بدا موقفك واضحًا للغاية.

قالت سامانثا وهي تلتقط الملعقة التي أوقعها جيك على أرضية المطبخ: "يجب أن تدرك أنه كان لدى فيرجينيا فرصة لتجني بعض المال وقد استغلتها"، قالت جيسيكا، متجاهلة والدتها: "لا يمكن الوثوق بها".

"وهل لي أن أسأل متى علمت كل ذلك؟ من دون شك أنك تعلَّمته خلال أحد فصول الاقتصاد في المستوى الأخير".

قالت سامانثا وهي تضع طبقًا من الخبز المحمص على الطاولة: "لم تكن مضطرة إلى ذلك، فقد كانت تتنصّت إلى محادثات الفطور على مدار الستة أشهر الماضية، إنه ليس أكثر من إدراك متقدِّم، لذا لا تستغرب يا سيب".

أضافت جيسيكا: "بالإضافة إلى الحدس الأنثوي".

قال سيب: "إذا لم تلاحظي، فقد استحوذت السيدة الشابة -توماس كوك - على شركة ميلور ترافل، وتستمرّ أسهمها بالارتفاع، على الرغم من مخاوفك من عدم حصول ذلك".

قالت: "ولكن كان عليهم أن يدفعوا أكثر بكثير مما كنت تنوين في الأصل، وما أودّ معرفته هو كمية المبالغ الإضافية التي انتهى بها الأمر إلى جيب فيرجينيا".

لم يكن سيباستيان يعرف، على الرغم من أنه كان يشتبه في من دفع مبلغًا أكبر للبنك، ولكنه أخذ بنصيحة سامانثا.

بعد أن عانقت جيسيكا جيك عناقًا حارًا، قالت وقد بدت مستاءة: "بعد كل تلك الزيارات إلى السجن لن تكون المبالغ ضئيلة".

ابتسمت سامانثا عندما غادرت ابنتها الغرفة، لأنها عندما أخبرت سيب بعد وقت قصير من ولادة جيك بأنها كانت قلقة بشأن كيفية تعامل جيسيكا مع الوافد الجديد، بعد أن كانت محور اهتمامهما لفترة طويلة، اتضح لها العكس تمامًا، لأن جايك أصبح على الفور مركز اهتمام جيسيكا، فكانت تسعدها مجالسته في حال أراد والداها الخروج في المساء،

وفي عطلات نهاية الأسبوع كانت تأخذه في نزهة إلى حديقة سانت جيمس في عربته، وفي المساء تضعه في فراشه.

كان من يشاهدهما معًا لا يبدو واثقًا مما إذا كانت جيسيكا أختًا أكبر سنًا بكثير من جيك أم أنها أمٌّ غير متزوجة.

لقد أقامت جيسيكا في البلد الذي اختارته، بعد أن أعادت والديها إلى رشدهما، والآن تشعر بالبهجة لا لسعادتهما فحسب، وإنما لإنجاب أخ صغير لها، فقد عشقت عائلتها الجديدة، الأب المتسامح واللطيف والممتع في بعض الأحيان، والجد الحكيم والمفكر والملهم، والجدة التي أطلق عليها لقب بوديسيا بريستول، مما جعل جيسيكا تشعر بأن بوديسيا هي جحيم المرأة.

إلا أن الشعور بالاستقرار في مدرستها الجديدة لم يكن سهلًا تمامًا، فقد وصفتها بعض الفتيات بالنيويوركية، ووصفتها أخريات بحشرة العصا، ما جعلها تستنتج أن عصابات المافيا والمنظمات العنصرية معًا كانت تشكّل أبرز عناصر تخويف الفتيات من تلاميذ مدرسة سانت بول، وبحلول نهاية عامها الأول، لم يكن لديها سوى صديقة واحدة تدعى كلير تايلور وقد شاركتها معظم اهتماماتها، بما في ذلك الفتيان.

***

تراجع أداء جيسيكا في منتصف الفصل الدراسي خلال سنتها الدراسية الأخيرة في مدرسة سانت بول، فتفوّقت عليها كلير في كل الموادَ باستثناء مادة الفن، التي حافظت على تفوّقها فيها، وبينما كان معظم زملائها في الفصل قلقين بشأن الحصول على جامعة يلتحقون بها، لم يشك أحدهم في اسم

الجامعة التي ستلتحق بها جيسيكا.

ومع ذلك فقد عبَرت جيسيكا لصديقتها كلير عن خوفها من أنها إذا حصلت على المنحة التي تخوّلها الالتحاق بمدرسة سليد للفنون الجميلة، قد تكتشف أن كلام أفريل بيركينغ - التي احتلت المرتبة الثانية في الفن- التي قالت لها إنها كانت مجرد سمكة كبيرة في بركة صغيرة، وبأنها بلا شك ستغرق إذا أُلقيت في المحيط من دون أن تترك أي أثر.

إلا أن كلير قالت لها ألا تصغي إلى كلام أفريل، لأنها حرباء صغيرة، ولكن جيسيكا قضت الفصل الأخير في سانت بول تتساءل عما إذا كانت على حق.

عندما أعلنت مديرة المدرسة عن تقديم الجوائز، كانت قد حصلت جيسيكا كليفتون على منحة جينزبورو الدراسية في مدرسة سليد للفنون الجميلة، وقد بدت الشخص الوحيد الذي تفاجأ في القاعة.

في الواقع قد سرّها كثيرًا تحقيق كلير هدفها وحصولها على مكان في الكلية الجامعية لدراسة اللغة الإنكليزية، إلا أن ما نغّص عيشها معرفة أن أفريل بيركنغ ستنضمّ إليها في مدرسة سليد.

***

"يودّ الرئيس أن يتحدّث إليك، سيد كليفتون".

توقّف سيباستيان عن توقيع الرسائل ونظر إلى سكرتيرة الرئيس الواقفة أمام المدخل: "اعتقدت أنه كان في كوبنهاغن؟"

قالت أنجيلا: "لقد عاد على متن أول رحلة هذا الصباح، وطلب أن يراك لحظة دخوله إلى مكتبه". قال سيب بدهشة، من دون أن يتلقى أي تعليق:

"يبدو أن الأمر خطير".

"كل ما يمكنني أن أخبرك به يا سيد كليفتون، بأنه ألغى مواعيده لبقية الصباح".

قال سيب محاولًا أن يشتّت تفكير أنجيلا: "ربما سيطردني".

"لا أعتقد ذلك، لأن الطرد عادة يستغرق بضع دقائق فقط".

همس سيباستيان إليها، وهما يغادران مكتبه، ويمشيان في الممر: "أليس لديك أي إشارة؟".

قالت أنجيلا: "كل ما أرغب في قوله هو أنه لا يمكنك أن تتجاهل حقيقة أن السيد بشارة سافر إلى كوبنهاغن ست مرات خلال الشهر الماضي"، وأضافت قبل أن تطرق باب الرئيس: "ربما أنت على وشك معرفة السبب".

قال سيب بينما كانت أنجيلا تفتح الباب، وهي تقف جانبًا للسماح له بالدخول: "هل طرد ليجو أو كارلسبيرغ؟"

قال سيب لحكيم: "صباح الخير أيها الرئيس"، لكنه لم يستطع تمييز تعابير وجه حكيم بشارة- الشبيه بأبي الهول- إذا كانت أخبارًا جيدة أو سيئة.

"صباح الخير يا سيباستيان، تفضَل بالجلوس"، فكّر سيب في أن الدليل الأول، وهو أن المدير يناديه بسيباستيان اذا كان على وشك مناقشة موضوع جاد فقط، والدليل الثاني أنه لم يكن اجتماعًا قصيرًا.

"أودَ أن تكون أول من يعلم بأنني تزوجت يوم السبت، يا سيباستيان".

فكّر سيب في ستة أسباب محتملة، قد يرغب رئيس مجلس الإدارة في رؤيته من أجلها، ولكن

الزواج لم يكن من بينها، والقول إنه تفاجأ بزواجه سيكون أقل مما شعر به.

للحظة لم يستطع التفكير في الذي سيقوله.

عاد حكيم إلى كرسيه وهو مستمتع بتأمّل ردة فعل المدير التنفيذي الذي أذهله خبر زواجه.

سأله سيب في النهاية: "هل أعرف السيدة بشارة؟".

"لا، لكنك رأيتها من بعيد".

انضم سيباستيان إليه لمشاركته اللعبة: "أرأيتها في لندن؟".

"نعم".

"في سيتي؟".

قال له حكيم: "نعم، لكنك تسير في الطريق الخطأ".

"هل هي مصرفية؟".

"لا، مهندسة مناظر طبيعية".

قال له سيب: "لذلك لابد أنها عملت في أحد مشاريعنا".

"نعم، ولا".

"هل كانت تعمل إلى جانبنا أم كانت ضدنا؟".

قال حكيم: "لا هذا ولا ذاك، يمكن أن أصفها بأنها محايدة، ولكنها لم تكن مفيدة للقضية".

ساد صمت طويل، قبل أن يقول سيباستيان: "يا إلهي! إنها المرأة التي أدلت بالشهادة في أثناء محاكمتك، السيدة...".

"بيرغستروم".

"لكنها كانت شاهدة رئيسية لكارمان، وهي بالتأكيد لم تساعد في قضيتنا، أتذكّر أن الجميع ندموا على

تعقب السيد كارمان أثرها".

قال له حكيم: "الجميع ما عداي، فقد قضيت ليالي السجن الطويلة، وأنا نادم لأنني لم أتحدَث إليها عندما جلسنا بجانب بعضنا في رحلة العودة من لاغوس، لذا بعد أيام قليلة من إطلاق سراحي، سافرت إلى كوبنهاغن".

"لم أظنَ مطلقًا أنك من النوع الرومانسي يا حكيم، وأظنَ أن معظم زملائنا في سيتي سيوافقونني في الرأي، هل لي أن أسأل ما الذي قاله السيد بيرغستروم بشأن عرض المناقصة المقترح؟".

"ما كنت لأركب الطائرة لو كان هناك السيد بيرغستروم، فقد استغرق الأمر بضعة أيام فقط، ليكتشف باري هاموند أن زوج كريستينا توفي بنوبة قلبية في سن الثانية والخمسين".

"لا تقل لي، إنه كان مصرفيًا".

"كان رئيس قسم القروض في رويال بنك في كوبنهاغن".

"لقد كادوا أن يفلسوا منذ عامين".

قال حكيم بهدوء وسكينة، وهو ينظر إلى ساعته: "وكذلك السيدة بيرغستروم، السيدة بشارة".

"هل ستنتقل إلى لندن؟".

"ليس في الوقت الحالي، فلديها ولدان لا يزالان في المدرسة، وهي لا تريد أن تغيّر نظام حياتهما في هذه المرحلة، لذلك كان عليَ أن أعقد صفقة".

"عادةً تكون بارعًا في إبرام الصفقات".

"ليس عندما يكون الأمر شخصيًا، وهو أمر لطالما حذرتك منه، فنحن نخطَط للعيش في كوبنهاغن للعامين المقبلين، وقد وافقت كريستينا على الإقامة في إنكلترا بعد أن يلتحق إنجي وأكسيل بالجامعة".

"خلال ذلك الوقت ستعيش على متن طائرة".

"لا مجال لذلك، فقد أوضحت كريستينا تمامًا أنها لا تحتاج إلى زوج ثانٍ معرّض للموت بنوبة قلبية، وهذا ما جعلني أستدعيك من أجله يا سيباستيان، أريدك أن تتولَى منصب رئاسة مجلس إدارة البنك".

ذهل سيب وغرق في صمت طويل، فاستغلَ حكيم صمته مرة أخرى، وتابع قائلًا:

"أنوي عقد اجتماع لمجلس الإدارة في وقت مبكر من الأسبوع المقبل، لأتمكَن من إخبار المدراء بقراري، وسأقترح أن تحلَ مكاني بصفتك رئيس مجلس الإدارة، وسأظلَ رئيسًا للبنك".

"كل ما عليك أن تقرّره هو من سيكون الرئيس التنفيذي".

لم يكن سيب بحاجة إلى قضاء الكثير من الوقت في التفكير في قراره، ولكنه انتظر سماع رأي حكيم أولًا.

قال حكيم: "أفترض أنك سترغب في أن يحلَ فيكتور كوفمان مكانك، فبعد كل شيء، هو أحد أقدم أصدقائك، ويمتلك خمسة وعشرين في المئة من أسهم البنك".

"هذا لا يؤهَله ليكون مسؤولًا عن العمليات اليومية لمؤسسة مالية كبرى، فنحن ندير بنكًا يا حكيم، وليس ناديًا رياضيًا محليًا".

"هل هذا يعني أن لديك مرشحًا آخر؟"

قال سيب من دون تردد: "سيكون جون آشلي خياري الأول".

"لكنه عمل في البنك منذ عامين فقط، وقد أثبت نفسه بصعوبة".

ذكَره سيب قائلًا: "لقد كانت سيرته الذاتية حافلة،

فقد تخرج من مدرسة قواعد مانشستر، وكلية لندن للاقتصاد، ونال منحة دراسية في كلية هارفارد للأعمال، ودعنا لا ننس المبلغ الذي دفعناه لإبقائه بعيدًا عن تشيس مانهاتن، وبرأيك كم سيمضي قبل أن يقدَم له أحد منافسينا فرصة ذهبية؟ عاجلًا وليس آجلًا، خاصة إذا انتهى فيكتور رئيسًا تنفيذيًا لفارذنغز".

وأردف قائلًا: "إذا كنت تريدني أن أكون رئيس مجلس الإدارة يا حكيم، فإن مفتاح الاتفاق هو تعيين جون آشلي مديرًا تنفيذيًا".

***

قالت جيسيكا: "مبارك منصبك الجديد".

سأل جيك: "ما الرئيس؟".

قال سيباستيان: "شخص مسؤول عن كل شيء وكل شخص، مثل المديرة العُليا".

انفجرت سامانثا ضاحكة: "لم أفكَر في الأمر بهذه الطريقة أبدًا".

دارت جيسيكا حول الطاولة، وعانقت والدها، وهي تكرَر قولها: "مبارك منصبك الجديد".

قالت سامانثا، وهي تقطع الجزء العلوي من بيضة جايك: "يبدو حكيم أصغر من أن يتقاعد".

قال لها سيب: "أوافقك في الرأي، ولكنه وقع في الحب".

"لم أدرك أنك إذا كنت رئيس أحد البنوك ووقعت في الحب، من المتوقع أن تستقيل".

قال سيب ضاحكًا: "هذا ليس إلزاميًا، ولكن البنوك تفضَل عمومًا أن يقيم رئيسها في البلد نفسه، والسيدة بشارة تعيش في كوبنهاغن".

سألته جيسيكا: "لماذا لا تقيم في إنكلترا؟".

"كريستينا بيرغستروم مهندسة ناجحة للغاية، وتتمتع بسمعة مشرِّفة في معظم دول العالم، ولديها ولدان من زواجها الأول، ولا تريد تغيير مدرستهما في هذه المرحلة الحساسة، كي لا تعقّد حياتهما قبل أن يعتادا على زواجها".

"ولكن كيف سينظِّم حكيم وقته، وهو يمتلك طاقة توازي عشرة رجال؟".

"إنه يخطِّط لافتتاح فرع جديد لفارذنغز في كوبنهاغن، وستكون شركة كريستينا أول عميل له، مع العلم أنها وافقت على أنه ما إن يلتحق ولديها بالجامعة، فستقيم معه في لندن".

"وعندها هل سيعود حكيم إلى منصبه؟".

"لا، لن يعود إلى منصبه، ففي الأول من أيلول، سيصبح رئيس فارذنغز كوفمان، وسأتولَى منصب رئيس مجلس الإدارة، وسيشغل جون آشلي منصب الرئيس التنفيذي.

سألته سامانثا: "هل أخبرت فيكتور؟".

"لا، سأراه عند الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم، وأنوي إبلاغه بالخبر".

قالت سامانثا: "كم أودَ أن أكون ولو ذبابة على حائط من أجل معرفة ما سيجري في ذلك الاجتماع".

"هل قابلت السيدة بيرغستروم من قبل؟".

"لا، لقد رأيتها بين الشهود فقط، عندما أدلت بالشهادة في قضية حكيم، ولأنه كان في الحجز في ذلك الوقت، لا بد أنه كان حبًا من النظرة الأولى".

قالت جيسيكا، التي ظلت صامتة حتى ذلك الحين: "غالبًا ما يقع الرجال في الحب من النظرة الأولى، أما النساء فنادرًا ما يقعن فيه".

قال سيب: "إننا ممتنون لسماع وجهة نظرك في موضوع الحب يا جيسيكا، كما كان لك دراية واسعة بالاقتصاد".

قالت جيسيكا: "هذا ليس رأيي، بل هو اقتباس من لورانس، عاشق السيدة شاتيرلي، والذي على الرغم من أنه لم يكن أحد النصوص الإنكليزية في سانت بول، فقد اعتقدت كلير أنه يجب أن أقرأه على أي حال"، فتبادل سيباستيان وسامانثا النظرات بحيرة.

قالت جيسيكا: "ربما هذا أفضل وقت لأخبركما بأنني أخطط لمغادرة المنزل".

قال جيك: "لا، لا، لا".

على الرغم من أن سيب قد يوافق ابنه في الرأي، إلا أنه لم يقاطع كلام ابنته.

"لقد عثرنا أنا وكلير على شقة صغيرة قبالة شارع جوير، على بعد نصف ميل فقط من سليد".

قالت سامانثا: "ذلك يبدو مثاليًا، متى ستغادرين؟".

"في المساء إذا لم يكن لديك مانع يا أبي".

قالت سامانثا: "بالطبع لا مانع لديه".

قال جيك مشيرًا بملعقته إلى جيسيكا: "لا، لا، لا".

قالت والدته: "لا تُشر إليها بالملعقة، يا جيك".

25

قال البروفيسور هوارد: "لقد ألغي درس الرسم- الحياة اليومية - اليوم"، فتأفف الجميع في القاعة، ثم أضاف البروفيسور: "لم يتمكّن عارضنا من الظهور مرة أخرى".

وبينما كان الطلاب الإثنا عشر يجمعون معداتهم، نهض شاب لم تره جيسيكا من قبل من مقعده، ومشى إلى وسط الغرفة، وخلع ملابسه وجلس على المنصة، فتبع ذلك جولة من التصفيق الحار، ثم عاد طلاب السنة الأولى إلى أماكنهم وباشروا العمل.

كان باولو رينالدو أول رجل تراه جيسيكا عاريًا، فلم تستطع أن ترفع عينيها عنه، فقد رأته مثل تمثال يوناني، حسنًا، وبشكل أدق مثل تمثال برازيلي.

رسمت خطوطًا أولية لجسمه باستخدام الفحم إلى جانب بعض الخطوط الإضافية، وهو تمرين يستغرق وقتًا أطول بكثير من زملائها، ولكن نتائجه لا تكون نفسها، وبعد ذلك ركّزت على رأسه، وأضافت مزيدًا من التفاصيل، كالشعر الطويل الداكن والمجعد، وقد أرادت أن تمرّر يديها على جسده، ثم نظرت بعينيها إلى الجزء السفلي منه، وبدأت تتمنى لو كانت نحاتة، ثم استعادت التركيز بينما كان ينظر معلمها إلى رسمها من خلفها.

قال البروفيسور هوارد: "لقد أصبت الهدف، وهذا مثيرٌ للإعجاب، ولكنني أريدك أن تفكّري في الظل والمنظور، ولا تنسي أبدًا، الأقل هو الأكثر، فهل سبق لك أن رأيت رسومات بونارد لزوجته وهي تخرج من الحمام؟".

"لا".

"ستجدين بعض الأمثلة الممتازة في مكتبة

الأكاديمية، إنها الدليل -إذا كانت هناك حاجة إلى دليل- على أنه إذا أردت أن تعرفي مدى عظمة الفنان، فيجب دراسة رسوماته الأولية قبل أن تفكِّري في أعماله الرئيسية، بالمناسبة، حاولي ألا تجعلي الأمر واضحًا تمامًا كما تتخيلينه".

***

خلال الأسبوع التالي، لم تصادف جيسيكا باولو مرة أخرى، فلم تعثر عليه في المكتبة، كما أنه لم يحضر المحاضرات، وبعد ملاحظات الأستاذ هوارد، لم تحاول معرفة المزيد عنه من زملائها الطلاب.

ولكن كلما ورد اسمه، توقَّفت عن الكلام، وبدأت بالاستماع إلى الحديث.

قالت طالبة من العام السابق: "إنه ابن رجل صناعي برازيلي، أراده والده أن يأتي إلى لندن، ليتعلَّم اللغة الإنكليزية، من بين عدة أمور أخرى".

أضافت طالبة أخرى: "أعتقد أنه ينوي التسكع لبضع سنوات فقط، ثم سيعود إلى ريو ويفتتح ملهى ليليًا"، بينما قالت ثالثة، بصوت عالٍ إلى حد ما: "إنه يأتي فقط للرسم المجازي للبحث عن ضحيته التالية"، قالت أفريل بيركنز: "يبدو أن لك دراية جيدة به".

قالت الفتاة بشكل عرضي: "أجل، لقد أقمت معه علاقة لست مرات قبل أن يهجرني، فهكذا يقضي معظم وقته، باستثناء المساء".

كانت جيسيكا غير قادرة على البقاء صامتة أكثر، فسألتها: "ماذا يفعل في المساء؟".

"يجري دراسة ميدانية للنوادي الليلية الإنكليزية، بدلًا من الألوان المائية الإنكليزية، فهو يدَّعي أن ذلك هو السبب الحقيقي لوجوده في إنكلترا، ولكنه

أخبرني بأنه يخطط لإقامة علاقة مع كل طالبة في سليد بحلول نهاية عامه الأول".

ضحك الجميع باستثناء جيسيكا، التي كانت تأمل في أن تكون ضحيته التالية.

***

عندما ظهرت جيسيكا في درس الرسم يوم الخميس التالي، كانت فتاتان تجلسان إلى جانب باولو، وكانت إحداهما أفريل بيركنز، بينما جلست جيسيكا في الجانب الآخر من نصف دائرة الطلاب، محاولة التركيز على العارضة، وهي امرأة في منتصف العمر، وقد بدت مملة ومتبلّدة على خلاف أفريل.

ركّزت عينيها في النهاية على باولو، فوجدت أنه لم يستخدم سوى يد واحدة للرسم، بينما استقرّت اليد الأخرى على فخذ أفريل.

عندما اقترح الأستاذ هوارد أخذ استراحة الصباح، انتظرت جيسيكا مغادرة أفريل قبل أن تتجوّل في الغرفة لتتأمّل الرسومات، متظاهرة بدراسة أعمال زملائها، فلم يكن باولو سيئًا فحسب، بل كان مروعًا، وتساءلت كيف سُمح له بالالتحاق بمدرسة سليد.

قالت جيسيكا بينما استمرّت بالنظر إلى رسمه: "ليس سيئًا".

قال باولو: "أوافقك في الرأي، إنه مروع، وأنتِ تعرفين ذلك، لأنك أفضل بكثير من أي واحد منا". هل كان يمزح، أم أنه مقتنع حقًا بما قاله؟ إلا أنها لم تهتمّ كثيرًا بالتفكير في ذلك.

فسألها: "هل ترغبين في الخروج لتناول مشروب الليلة؟".

قالت: "نعم، من فضلك"، وندمت على الفور لقولها

من فضلك.

"سأصطحبك قرابة الساعة العاشرة، ويمكننا الذهاب إلى النادي الليلي".

لم تذكر جيسيكا أمامه أنها بحلول ذلك الوقت تكون مستلقية في السرير، وهي تقرأ كتابًا، بدلًا من التسلّل إلى الخارج.

هرعت إلى المنزل مباشرة بعد انتهاء صفها، وأمضت أكثر من ساعة وهي تختار ما سترتديه من أجل موعد فقدان عذريتها، وقد استشارت كلير في ما سترتديه كالعادة، فانتهى بها الأمر إلى ارتداء تنورة قصيرة من الجلد الوردي، وبلوزة من جلد النمر الصناعي، وجوربين أسودين مزخرفين، وانتعال حذاء ذهبي عالي الكعب.

صرخت جيسيكا عندما نظرت إلى المرآة: "أبدو مثل فتاة وضيعة!".

قالت كلير: "صدّقيني إذا كنت تأملين في الحصول على ما تريدينه أخيرًا، فهذا هو الزي المثالي"، فاستسلمت جيسيكا لخبرة كلير الكبيرة في الأزياء.

***

أتى باولو إلى الشقة متأخرًا ثلاثين دقيقة، ومن الواضح أن التأخّر من عادته، وما لم تكن جيسيكا مستعدة إليه وقد فاجأها في تلك الليلة، أن يكون بهذه الوسامة ويمتلك سيارة فيراري، همست إليها كلير وهي تغادر الشقة: "أخبريه بأنك متفرغة ليلة الغد".

أما المفاجأة الثالثة فكانت سحر باولو ونضجه، فهو لم يقفز عليها على الفور، كما ادّعى زملاؤها أنه سيفعل، وفي الواقع لم يكن من الممكن أن يكون أكثر تحضرًا ورقيًا، حتى إنه فتح باب السيارة

لها، وفي طريقهما إلى ويست إند، تجاذبا أطراف الحديث حول التأثير الذي كانت تحدثه في سليد، ما جعلها تندم بالفعل على اختيارها تلك الملابس، بينما ظلّت تسحب تنورتها إلى الأسفل.

عندما أوقف سيارته الفيراري خارج أنابيل، أخذ البواب المفاتيح وقاد السيارة بعيدًا، فنزلا الدرج إلى ملهى ليلي خافت الإضاءة، وسرعان ما أصبح واضحًا أن باولو كان معروفًا فيه، فتقدَم رجل إلى الأمام واستقبله بحفاوة وهو يدعوه باسمه، قبل أن يقودهما إلى طاولة في الزاوية.

وما إن اختارا وجبتين من ضمن أكبر قائمة رأتها جيسيكا على الإطلاق - تكاد تكون كتابًا تقريبًا - بدا باولو حريصًا على معرفة كل ما يتعلّق بها، على الرغم من أنها لم تثر موضوع عائلتها، إلا أنه بدا يعرف جيدًا من يكون أجدادها، فقال لها إنه كان دائمًا يحتفظ بآخر أعمال ويليام وورويك رحلة العودة الطويلة إلى ريو.

في اللحظة التي أنهى فيها وجبته، أشعل باولو سيجارة وقدّم إليها واحدة، فرفضتها، ولكنها دخّنت من سيجارته، فلم تجد أن نكهتها تشبه أي سيجارة دخّنتها من قبل، ثم قادها إلى حلبة الرقص المزدحمة بعد احتساء القهوة، فكانت الإضاءة خافتة، ولكن سرعان ما أدركت أن الرقص كان مهارة أتقنها باولو- على عكس الرسم - كما لاحظت أيضًا أن العديد من النساء الأخريات لم يُعرن شركاءهن اهتمامًا كبيرًا، حتى استُبدلت أغنية تشاكا خان بـهيلو لليونيل ريتشي، فانحرفت يدا باولو تحت خصرها، ولكنها لم تقاوم ذلك أبدًا.

كانت قبلتهما الأولى خرقاء بعض الشيء، ولكن بعد القبلة الثانية، كل ما أرادت فعله هو مرافقته

إلى المنزل، على الرغم من أنها ربما لن تظلَ على القائمة في المساء التالي. لم يغادرا أنابيل إلا بعد أن تجاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وبمجرد عودتهما إلى السيارة، ذهلت جيسيكا بقدرة باولو على قيادة سيارة فيراري بيد واحدة، بينما كان يضع الأخرى على فخذها، من دون أن تتجاوز السيارة السرعة الأولى.

استمرَت ليلة المفاجآت الطويلة، فبدت شقته كمعرض مايو أنيقة ومعاصرة ومليئة بالصور الفنية والأنتيكات، فرغبت في قضاء المزيد من الوقت، وهي تتأمَلها وتبدي إعجابها بها، لو لم يمسكها بيدها ويقودها مباشرة إلى غرفة النوم، فاستقبلها أكبر سرير شاهدته في حياتها، وكان غطاؤه الحريري الأسود مطويًا بترتيب.

ضمَها باولو إلى صدره، فاكتشفت جيسيكا مهارات أخرى قد امتلكها، وهي تعرية امرأة بينما كان يقبَلها، وقال لها: "أنت جميلة جدًا"، وبعد أن نزع قميصها وتنورتها بمهارة، كانت ستجيبه، ولكنه جثا على ركبتيه، وأخذ يقبَل فخذيها، بدلًا من شفتيها، ثم سقطا على السرير، وعندما فتحت عينيها، كان عاريًا بالفعل، فتساءلت كيف تمكَن من القيام بذلك، فاستلقت وانتظرت أن يحدث ما أخبرتها به كلير.

بعد لحظات، استلقى إلى جانب السرير، وتمتم: "لقد كنت رائعة"، وهذا جعلها تتساءل عما إذا كان يمكن تصديق أي شيء آخر كان يهمس به في ذلك المساء.

انتظرت أن يضع ذراعيه حولها، ويخبرها بالمزيد من الأكاذيب، ولكنه بدلًا من ذلك أدار لها ظهره، وخلال لحظات غرق في النوم، فانتظرت جيسيكا حتى سمعت تنفسًا ثابتًا، ثم تسلَلت من تحت

الملاءة، متجهة بأطراف أصابعها إلى الحمام، ولم تشعل الضوء حتى أغلقت الباب، فأستغرق ترتيب شعرها وتنظيف وجهها بعض الوقت، ثم لاحظت أنها لا تزال ترتدي الجوربين الأسودين، فلا شك في أن كلير ستشرح أهمية ذلك عندما تعود إلى المنزل، وبعد ذلك عادت إلى غرفة النوم، متسائلة عما إذا كان بالفعل مستيقظًا ويأمل فقط في أن تعود إلى المنزل، فالتقطت ملابسها المرمية على الأرض وارتدتها بسرعة، وتسلّلت من غرفة النوم، ثم أغلقت الباب خلفها بهدوء.

لم تتوقّف جيسيكا لتعبّر عن إعجابها باللوحات، لأنها لم تُطق الانتظار للخروج من الشقة، خوفًا من أن يستيقظ باولو ويتوقّع منها تكرار التجربة المروعة بأكملها، فسارت على أطراف أصابعها على طول الممر، واستقلّت المصعد إلى الطابق الأرضي.

سأل البواب بلباقة: "هل ترغبين في أن أطلب لك سيارة أجرة يا آنسة؟"، من الواضح أنه لم يتفاجأ برؤية شابة ترتدي ملابس ضيقة تظهر في الردهة عند الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل.

قالت جيسيكا: "لا، شكرًا لك"، وألقت على الفيراري نظرة أخيرة قبل أن تخلع حذاءها عالي الكعب، وتنطلق في رحلتها الطويلة إلى شقتها الصغيرة".

26

تفاجأت جيسيكا عندما طلب منها باولو الخروج في موعد ثانٍ، فقد افترضت أنه هجرها بالفعل، وبعد ذلك تذكَرت الفتاة التي ادعت أنها أقامت معه علاقة لست مرات قبل أن يهجرها.

أخبرت كلير أنها تحب التجول معه في سيارة الفيراري، وتناول الطعام في أنابيل وارتشاف أرقى أنواع الشمبانيا، كما اعترفت لصديقتها بأنها استمتعت بصحبته، وكانت ممتنة له لحلَ مشكلة فضّ *عذريتها*، حتى إن خوض تلك التجربة لم تزعجها.

أكَدت لها كلير قائلة: "الوضع سيتحَسن، وفي الحقيقة لن تسنح الفرصة لأي واحدة منا أن تحتسي الشراب الفاخر وتتناول العشاء مع برازيلي قبل أن تفقد عذريتها، وأنا متأكدة من أنكِ تتذكَرين تجربتي خلف المدرسة مع براين، حارس الويكيت الثاني عشر".

الشيء الوحيد الذي تغيّر في الموعد الثاني هو الملهى الليلي، فقد تمَ استبدال أنابيل بترامب، ولكنها شعرت براحة أكبر بالاختلاط مع شباب أصغر سنًا، وعندما عادت وباولو إلى شقته قرابة الساعة الثانية من بعد منتصف الليل، لم تغادرها بعد أن غرق في نوم عميق.

استيقظت في الصباح لتجد باولو يقبّل صدرها بلطف، وقد حملها بين ذراعيه بعد فترة وجيزة من إقامة العلاقة، وعندما رأت الساعة على المنضدة المجاورة للسرير، صاحت به قائلة: "ساعدني!"، ونهضت من الفراش، ثم أخذت حمامًا ساخنًا.

بدا واضحًا أن باولو لم يحبَ وجبة الفطور، لذا

قبَلته وتركته مستلقيًا على السرير، وخلال محاضرة - الطبيعة الصامتة - لم تقدر جيسيكا على التركيز، فكان عقلها يفكّر باستمرار في باولو، هل وقعت في الحب؟

تجهَم وجه البروفيسور هوارد عندما ألقى نظرة فاحصة على رسمها لوعاء من البرتقال، حتى إنه تفحَصها للتأكد من أنها جيسيكا نفسها الجالسة أمامه، وعلى الرغم من أن رسمها لا يزال متفوقًا على رسومات زملائها، إلا أن معلمها استمرَ متجهمًا.

خلال أسبوع زارت جيسيكا ثلاثة نوادٍ ليلية أخرى، وكان يتمَ الترحيب به بحفاوة في كل ملهى يرتاده، وعلى مدار الأسابيع القليلة التي قضتها برفقته، بدأت بتطوير شغفها بعلامته التجارية المفضلة من السجائر، والتي لا يبدو أنها معلبة، كما اعتادت على الاستمتاع بالبراندي الذي يظهر دائمًا بعد لحظات من احتساء زجاجة النبيذ الثانية.

مع مرور الأشهر، بدأ ظهور جيسيكا في سليد يتلاشى تدريجيًا، فغابت عن معظم المحاضرات ولأيام كاملة من دون أن تلحظ أنها ابتعدت عن عالمها القديم، لتصبح جزءًا من عالم باولو.

***

وصل الخطاب الأول مع اقتراب نهاية الفصل الدراسي، فكان ينبغي أن يكون دعوة لاستعادة رشدها، ولكن باولو أقنعها بتجاهله، وقال لها: "وصلني ثلاثة منها في الفصل الدراسي الأول، وبعد فترة توقفت الإدارة عن إرسالها".

قرَرت جيسيكا أنه ما إن يشعر بالملل من رفقتها، وإن كانت تخشى أن يحدث ذلك بعد فترة قصيرة، لأنها تجاوزت بالفعل المدة القانونية، ستعود إلى العالم الحقيقي، على الرغم من أنها بدأت تتساءل

عما إذا كان ذلك ممكنًا بعد الان، وفي أثناء محاضرة حول الرسم المائي الإنكليزي غرقت في النوم، وعندما استيقظت كان الطلاب يغادرون قاعة المحاضرات، فقرَرت أنها بدلًا من العودة إلى شقتها، ستذهب مباشرة إلى شقة باولو.

استقلَت الحافلة إلى جسر نايتس، ثم ركضت طوال الطريق إلى لانسلوت بليس، ففتح البواب لها الباب بإحدى يديه، وحيّاها باليد الأخرى، ثم استقلت المصعد، ووصلت إلى الطابق الرابع، فنقرت برفق على باب باولو، الذي فتحته خادمته البرازيلية، فبدت وكأنها على وشك أن تقول لها شيئًا ما، ولكن جيسيكا تجاوزتها وتوجَهت إلى غرفة النوم، وبدأت بخلع ملابسها، وتركها على الأرض خلفها، ولكن عندما دخلت الغرفة تسمَرت في مكانها، فكان باولو في السرير يدخن مع أفريل بيركنز.

عرفت جيسيكا أن هذه هي اللحظة التي كان عليها أن تستدير وتغادر المكان من دون أن تنظر إلى الوراء أبدًا، ولكنها بدلًا من ذلك وجدت نفسها تمشي ببطء نحوهما، فابتسم باولو وزحف من السرير، ودفع أفريل جانبًا، وأخذ جيسيكا بين ذراعيه، ونزع عنها الثوب الوحيد الذي كانت ترتديه.

***

تمَ التوقيع على الرسالة الثانية التي تلقتها جيسيكا من مدير مدرسة سليد، وكانت كلمات التحذير في الخطاب الثاني أشدَ قسوة.

أشار السيد نايت إلى أنها فوَتت آخر ستة دروس في الرسم، كما أنها تخلَفت عن حضور المحاضرات لأكثر من شهر، وحذَر من أنه إذا استمر هذا الحال، فسيتعيَن على المجلس التفكير في إلغاء منحتها

الدراسية، وعندما أشعل باولو النار في الرسالة، انفجرت جيسيكا ضاحكة.

خلال الفترة التالية، أقامت جيسيكا في شقة باولو خلال النهار، وقضت معظم الليالي برفقته في النوادي الليلية، وفي المناسبات النادرة التي ظهرت فيها وباولو في سليد، لم يتعرَّف إليهما سوى عدد قليل من الناس، وقد اعتادت على مجموعة من الفتيات اللواتي يأتين ويذهبن خلال النهار، ولكنها كانت الوحيدة التي تمضي الليل برفقته.

لا يمكن تجاهل الرسالة الثالثة، التي سلَّمها البروفيسور هوارد إلى جيسيكا شخصيًا في إحدى المناسبات النادرة التي استيقظت فيها في الوقت المناسب لحضور محاضرة الرسم الصباحي، فأبلغها المدير بأنها شوهدت وهي تدخِّن الماريجوانا في مبنى الكلية، وأنه تمَّ إلغاء منحتها الدراسية التي ستمنح لطالب آخر، كما أبلغها بأنه سيُسمح لها بمتابعة الدراسة في سليد، شرط أن تحضر المحاضرات كلها في الفصول الدراسية الباقية، وأن يتحسَّن أداؤها بشكل كبير.

كما حذَّرها البروفيسور هوارد من أنها إذا كانت تأمل في التخرج والحصول على مكان في الأكاديمية الملكية للدراسة لنيل درجة الماجستير، فسيتعيَّن عليها تقديم مجموعة من الأعمال، ليأخذها الممتحنون بعين الاعتبار، وقد حذَّرها من أن الوقت بدأ ينفد، وعندما عادت جيسيكا إلى المنزل بعد ظهر ذلك اليوم، لم تُخبر كلير بالرسالة التي أعطاها إياها المدير، إذ إنها نادرًا ما تتغيَّب عن أي محاضرة، كما أن صديقها الوحيد دارين، كان يفكِّر في ذاك اليوم في مرافقتها إلى مطعم بيتزا إكسبريس.

***

كانت جيسيكا كلما زارت والديها أو جديها - وقد أصبحت زياراتها لهم تقل تدريجيًا - ترتدي ملابس أكثر احتشامًا، كما أنها لم تدخن أو تشرب الكحول بحضورهم.

ولم تذكر حبيبها أمامهم أو الحياة المزدوجة التي كانت تعيشها، كما شعرت بالارتياح لأن باولو لم يقترح أبدًا أن يقابل أفراد أسرتها. عندما أثار أحد والديها موضوع الأكاديمية الملكية، أكَدت أن الأستاذ هوارد معجب بتقدَمها، وأنها على يقين من أن الأكاديمية ستقدَم إليها مكانًا في العام التالي.

***

في بداية سنتها الثانية في مدرسة الفنون، كانت جيسيكا تعيش حياتين، ولا واحدة منهما تنتمي إلى العالم الحقيقي، وكان يمكن أن يستمرَ ذلك، لو لم تصطدم بالسيدة فيرجينيا فينويك.

كانت جيسيكا تقف في حانة أنابيل عندما استدارت في اللحظة نفسها وسيدة مسنة، كانت تدير ظهرها لها، فانسكب بعض الشمبانيا على كم فستانها.

قالت فيرجينيا: "ما الذي يأتي من الشباب؟"، فلم تهتم جيسيكا بالاعتذار منها.

قال لها الدوق: "ليس هؤلاء الشباب فقط، فأحد الشباب الجدد الذين عيَنهم شريكي، كان لديه الجرأة في مخاطبتي باسمي المسيحي".

قالت فيرجينيا: "ماذا سيحصل بعد، بيري؟"، عندما اقترب النادل من مائدتهما المعتادة، تابعت قائلة: "ماركو، هل تعرف من تلك الشابة التي تقف أمام المنضدة؟".

"اسمها جيسيكا كليفتون، سيدتي".

"حقًا؟ وما اسم الشاب الذي برفقتها؟".

"السيد باولو رينالدو، وهو أحد زبائننا الدائمين".

في الدقائق القليلة التالية، قدَمت فيرجينيا إشارات أحادية إلى كل ما قاله الدوق، ونادرًا ما أبعدت نظرها عن الطاولة في الجانب البعيد من الغرفة، وفي النهاية نهضت وأخبرت الدوق بأنها بحاجة إلى الذهاب إلى الحمام، ثم أخذت ماركو جانبًا، وأعطته ورقة نقدية بقيمة عشرة جنيهات، ونظرًا إلى أن الليدي فيرجينيا لم تكن معروفة بكرمها، فقد افترض ماركو أن المال لا يمكن أن يكون مقابل الخدمات المقدمة مسبقًا، وإنما مقابل الخدمات التي على وشك تقديمها، وبحلول الوقت الذي عادت فيه إلى الدوق، اقترحت أن الوقت قد حان للعودة إلى المنزل، بعد أن أصبحت تعرف كل ما تحتاج إلى معرفته بشأن باولو رينالدو، والشيء الوحيد الذي تحتاج إلى معرفته كان يتعلَق بجيسيكا كليفتون.

***

عندما اصطحب باولو جيسيكا إلى أنابيل للاحتفال بعيد ميلادها التاسع عشر، لم يلاحظ أي منهما الزوجين المسنين الجالسين في إحدى الزوايا.

فيرجينيا والدوق عادة يغادران النادي قرابة الساعة الحادية عشرة، ولكنهما لم يغادراه تلك الليلة.

ظلَت فيرجينيا تقول من دون أي تفسير: "ليس بعد، يا حبيبي".

في اللحظة التي طلب فيها باولو الفاتورة، خرجت فيرجينيا، وشقت طريقها بسرعة إلى كشك الهاتف

الخاص الموجود في الممر، وكان لديها بالفعل رقم هاتف الضابط الذي تمَ التأكيد عليه وجوده في الخدمة، واتصلت بالرقم بهدوء، فكان الرد على المكالمة الهاتفية سريعًا تقريبًا.

"كبير المفتشين مولينز".

"حضرة كبير المفتشين، اسمي الليدي فيرجينيا فينويك، وأريد الإبلاغ عن سائق متهوَر يشكَل خطرًا على حياة الآخرين، وأعتقد أن السائق ثمل، لأنه كاد يصطدم بسيارتنا الرولز رايس بينما كان يقودها بسرعة جنونية".

"هل يمكنك وصف السيارة يا سيدتي؟".

"كانت سيارة فيراري صفراء، وأنا متأكدة تمامًا من أن السائق لم يكن إنكليزيًا".

"ألم تحصلي على رقم التسجيل؟".

تفحَصت فيرجينيا الورقة في يدها، وقالت له: "A786 CLC".

"وأين حصل ذلك؟".

"كان سائقي يقود سيارتي في ساحة بيركلي، عندما انعطفت الفيراري يمينًا أسفل بيكاديللي، وانطلقت باتجاه تشيلسي".

"شكرًا لك سيدتي، سأتحقَق من الأمر على الفور".

وضعت فيرجينيا الهاتف جانبًا عندما مرَ بها باولو وجيسيكا في الممر، وبقيت في الظل بينما كان الشابان يشقَان طريقهما صعودًا على الدرج إلى ساحة بيركلي.

سلَم البواب المرهق باولو مفتاح سيارته، فأعطاه بالمقابل خمسة جنيهات، ثم قفز باولو إلى مقعد السائق، ووضع مبدل السرعة على الرقم واحد، وانطلق مسرعًا كما لو كان في وضع الانطلاق في

مونت كارلو، ولم يتقدم سوى بضع مئات من الأمتار، حتى رأى سيارة شرطة عبر مرآة الرؤية الخلفية.

قالت جيسيكا: "ناورها، إنها مجرد سيارة مصقولة".

انتقل باولو إلى السرعة الثالثة، وبدأ بتفادي حركة المرور البطيئة متجاوزًا كل السيارات أمامه، بينما كانت جيسيكا تصرخ بكلمات بذيئة، وعندما انطلقت صفارة الإنذار، نظرت إلى الوراء لترى أن كل السيارات كانت تبتعد عن طريق سيارة الشرطة لتسمح لها بالمرور.

نظر باولو إلى مرآة الرؤية الخلفية، فكانت قد تحوّلت إشارة المرور أمامه إلى اللون الأحمر، ولكنه تجاوز الإشارة، فانعطف يمينًا بقوة متجنبًا بصعوبة الاصطدام بحافلة في طريق بيكاديللي، وبحلول الوقت الذي وصل فيه إلى هايد بارك كورنر، كانت هناك سيارتان للشرطة بانتظاره، وما إن ظهر أمامهما حتى بدأتا تطاردانه، أما جيسيكا فكانت متشبثة بلوحة القيادة، وهي تتمنى لو أنها لم تشجّعه على المناورة أبدًا.

عندما انعطف عند هايد بارك وسلك طريق برومبتون، أضاءت إشارة حمراء أخرى، ورأى سيارة شرطة ثالثة تتجه نحوه، فضغط على الفرامل وأوقف السيارة، ولكن بعد فوات الأوان، إذ إنه لم يتمكّن من تجنب اصطدام رأسه بمقود سيارة.

لم تقض جيسيكا عيد ميلادها التاسع عشر بين أحضان عشيقها في شقته الفاخرة في جسر نايتس، بل قضته وحدها في أثينا، على مرتبة من الإسفنج الملطّخ بالبول في الزنزانة رقم 3 في مركز الشرطة..

27

في صباح اليوم التالي، أيقظت سامانثا قبل الساعة السابعة مكالمة هاتفية من كبير المفتشين مولينز، ولم تحتج إلى إيقاظ سيب الذي كان يحلق في الحمام، وعندما سمع صوت زوجته القلق، رمى موس الحلاقة، وعاد بسرعة إلى غرفة النوم، فلم يتذكَر متى رأى سام وهي تبكي آخر مرة.

بعد الساعة السابعة والنصف صباحًا توقَفت سيارة أجرة خارج مركز شرطة سافيل رو، وما إن ترجَل سيباستيان وسام منها، حتى ومضت المصابيح، وعلا صراخ الصحفيين، وهم يطرحون الأسئلة، ما ذكّر سيب بمحاكمة حكيم في أولد بيلي، ولكن ما لم يستطع فهمه من كان في إمكانه إبلاغ الصحافة في ذلك الوقت المبكر من الصباح.

صاح به أحدهم: "هل ابنتك مدمنة مخدرات؟".

سأله آخر: "هل كانت تقود السيارة وهي ثملة؟".

"هل شاركت في طقوس العربدة؟"

تذكّر سيب قاعدة جايلز الذهبية عند مواجهة مجموعة من المتسللين: إذا لم يكن لديك ما تقوله، فلا تقل شيئًا.

عندما دخل سيب إلى مركز الشرطة، أبلغ الرقيب المناوب باسمه.

فقال الرقيب لشرطي شاب: "خذ السيد والسيدة كليفتون إلى الزنزانة رقم ثلاثة، وأنا سأخبر رئيس المركز بوصولهما".

قادهما الشرطي إلى الممر ثم نزلوا إلى الطابق السفلي على الدرجات الشديدة الانحدار، وبعد ذلك أدخل مفتاحًا كبيرًا في قفل الباب الثقيل وفتحه، ثم تنحَى جانبًا للسماح لهما بدخول الزنزانة.

حدّق سيباستيان إلى الفتاة التي بدت بحالة مزرية وهي تجلس على زاوية السرير، وقد لطَخت المسكرة وجهها بسبب كثرة البكاء.

استغرق الأمر بضع دقائق قبل أن يدرك أنها ابنته.

عبرت سامانثا الغرفة بسرعة، وجلست بجانب جيسيكا ولفّت ذراعيها حولها.

"كل شيء على ما يرام يا عزيزتي، نحن إلى جانبك".

على الرغم من أن جيسيكا استيقظت، إلا أن رائحة الكحول والماريجوانا لا تزال تفوح من أنفاسها، وبعد لحظات قليلة انضمّ إليهم الضابط المسؤول عن الحالة، والذي عرّف بنفسه بصفته كبير المفتشين مولينز، وشرح سبب قضاء ابنتهما الليلة في زنزانة الشرطة، ثم سأل عما إذا كان أي منهما يعرف السيد باولو رينالدو.

قال كلاهما من دون تردد: "لا".

"كانت ابنتك برفقة السيد رينالدو عندما اعتقلناهما هذا الصباح، وقد وجّهنا إليه تهمة القيادة تحت تأثير الكحول، وحيازة ثلاث أونصات من الماريجوانا.

حاول سيب التزام الهدوء، وهو يقول: "وابنتي هل تمّ توجيه الاتهام إليها أيضًا، حضرة كبير المفتشين؟".

"لا يا سيدي، على الرغم من أنها كانت ثملة في ذلك الوقت، ونشتبه في أنها كانت تدخن الماريجوانا، كما أنها اعتدت على أحد رجال الشرطة، ولكننا لن نوجّه إليها أي اتهامات، في هذه المناسبة".

قالت سامانثا: "أنا في غاية الامتنان لك".

سأله سيباستيان: "أين الشاب؟"

"سيعرض أمام القاضي في وقت لاحق هذا الصباح".

سألته سامانثا بصوت خافت: "هل ابنتي حرة في المغادرة أيها المفتش؟".

"نعم يا سيدة كليفتون، وأنا آسف بشأن الصحفيين، فهناك من أخبرهم، ولكن يمكنني أن أؤكّد لكما أننا لسنا من دعاهم للحضور".

أمسك سيب بذراع جيسيكا برفق وقادها خارج الزنزانة، صعودًا عبر السلالم، ثم خرج من مركز الشرطة إلى سافيل رو، حيث تمَ الترحيب بهم مرة أخرى بمصابيح وامضة وأسئلة مبطنة، وركب سيب وزوجته وابنته في مؤخرة سيارة الأجرة، وأغلق الباب وطلب من السائق أن ينطلق بسرعة.

جلست جيسيكا مرتعبة بين والديها، ولم ترفع رأسها حتى بعد أن انعطفت السيارة عبر الزاوية، ولم يعد في الإمكان رؤية الصحافيين.

***

عندما عادوا إلى ديارهم في حدائق لينوكس، قابلهم عدد آخر من المصورين والصحفيين، وقد طرحوا الأسئلة نفسها، ولكن من دون تقديم أي إجابات حتى الآن، وما إن وصلوا إلى الداخل بأمان، حتى رافق سيب جيسيكا إلى غرفة الجلوس، وقبل أن تتاح لها فرصة الجلوس، طالبها بقول الحقيقة ولا شيء غيرها.

"لا تخفي شيئًا، لأنني لا أشك في أننا سنقرأ كل التفاصيل لاحقًا اليوم".

المرأة الشابة الواثقة من نفسها والتي تركت أنابيل بعد الاحتفال بعيد ميلادها، تحوّلت إلى فتاة تبلغ

من العمر تسعة عشر عامًا متلعثمة باكية، فردّت على أسئلتهما بصوت مرتجف، لم يمكّن أيّا من والديها من سماع ما قالته، وبين فترات الصمت المحرجة، شرحت لهما جيسيكا كيف قابلت باولو للمرة الأولى، وكيف أصبحت مفتونة بسحره ونضجه، والأهم من ذلك كله كيف أعجبت بالتدفق اللامتناهي للأموال، وعلى الرغم من أنها أخبرت والديها بكل شيء، إلا أنها لم تلق اللوم على حبيبها، بل سألتهما عما إذا كان من الممكن أن يسمحا لها برؤيته مرة أخيرة.

سألها سيباستيان "لأي غرض؟".

ترددت وهي تقول له: "لكي أودعه، وأشكره".

لا أعتقد أن ذلك سيكون حكيمًا، لا سيما أن الصحافة ستتبَع كل خطواته، وآمل في أن تفعل ذلك بالضبط، ولكن إذا كتبت له رسالة، فسأحرص على أن تصله".

"شكرا جزيلًا".

جيسي، عليكِ أن تواجهي حقيقة أنك خيّبتِ ظنّنا بشكل مخزٍ، ومع ذلك هناك شيء واحد مؤكد، وهو أنك لن تربحي أي شيء بالخداع، وقد حان الوقت لاتخاذ قرارك، فأنت وحدك من سيقرّر ما تريدين القيام به بشأن مستقبلك"، نظرت جيسيكا إلى والديها، ولكنها لم تتفوّه بكلمة.

قال سيب: "أرى أن لديك خيارين، يمكنك العودة إلى المنزل ومعرفة ما إذا كان من الممكن ترميم ما حدث، أو يمكنك المغادرة والعودة إلى حياتك السابقة".

قالت جيسيكا، والدموع تترقرق في عينيها: "أنا آسفة جدًا".

وتابعت كلامها قائلة: "أعرف أن ما فعلته لا يغتفر،

لا أريد العودة إلى تلك الحياة، وأعدكما بأنني سأفعل كل ما في وسعي لتعويضكما خيبة أملكما إذا منحتماني فرصة أخرى".

قالت سامانثا: "بالطبع سنفعل، ولكن لا يمكنني التحدث باسم سليد".

***

بعد مرور ساعتين غادر سيباستيان الشقة ليجلب نسخة من صحيفة المساء، فقرأ العنوان قبل وقت طويل من وصوله إلى بائع الصحف:

حفيدة وكيلة وزيرة الصحة متورطة

في فضيحة مخدرات

قرأ المقال وهو يسير ببطء عائدًا إلى المنزل، تضمَن المقال كل التفاصيل التي روتها جيسي في وقت سابق تقريبًا، من الليلة التي أمضتها في زنزانة الشرطة، إلى تناول الشمبانيا والماريجوانا وزجاجتي نبيذ باهظتي الثمن، وقد تبعهما براندي تناولاه في أنابيل في مايفير، فمطاردة الشرطة التي انتهت بارتطام سيارة فيراري بقيمة مئة ألف جنيه إسترليني بإحدى سيارات الشرطة.

لم يبرِّر باولو رينالدو ما ارتكبه في تلك الليلة، ولكن المراسل كان مهتمًا أكثر بالإشارة إلى البارونة إيما كليفتون، وكيلة وزارة الخارجية للصحة، والسير هاري كليفتون، المؤلف الشعبي والناشط في مجال الحقوق المدنية، واللورد بارينغتون، الزعيم السابق لمجلس اللوردات، وسيباستيان كليفتون، رئيس أحد البنوك الرائدة في المدينة، على الرغم من حقيقة أنهم كانوا جميعًا نائمين في الوقت الذي قُبض فيه على جيسيكا كليفتون.

أطلق سيباستيان تنهيدة عميقة، املًا في

أن تتمكّن ابنته الحبيبة في نهاية المطاف من الاستفادة من تلك التجربة، وأن تتعافى تمامًا من آثارها مع مرور الوقت، كما تمنى أن تسترجع تألّقها وتميّزها من جديد، ولكنه ما إن قرأ الفقرة الأخيرة، حتى أدرك أن ذلك لن يكون ممكنًا.

***

اشترت فيرجينيا نسخة من صحيفة المساء، ولم تستطع التوقّف عن الابتسام عندما قرأت الكلمة "حصريًا"، فأدركت أنها لم تنفق العشرة جنيهات سدى، ولكنها شعرت بخيبة أمل عندما عرفت أن باولو رينالدو قد اعترف بالذنب، وتلقّى غرامة قدرها خمسمئة جنيه إسترليني بعد أن أكّد للقاضي أنه سيعود إلى البرازيل في الأيام القليلة المقبلة.

إلا أن الابتسامة ارتسمت مجددًا على وجه فيرجينيا عندما وصلت إلى الفقرة الأخيرة من المقال، والتي تناولت إعلان السيد جيرالد نايت، مدير مدرسة سليد للفنون الجميلة أنه لم يكن أمامه خيار سوى طرد السيد رينالدو والآنسة جيسيكا كليفتون من الكلية، كما أضاف أنه فعل ذلك على مضض بالنسبة إلى طرد الآنسة كليفتون، لأنها كانت طالبة موهوبة للغاية.

***

"إنه شرفٌ عظيمٌ لي أن ألتقي بك أخيرًا يا دكتورة بارينغتون، لطالما كنت معجبًا بك.

"هذا لطفٌ منك أيها السير جيمس، ولكنني لم أتوقّع أنك تعرفني".

بينما كانا يجلسان بجوار الموقد، قال لها السير جيمس: "كنت أستاذة زوجتي هيلين في كامبريدج".

"ما كان اسمها قبل الزواج، سيد جيمس؟".

"هيلين برنتيس، وقد التقينا عندما كنت أدرس في ترينيتي".

"آه، نعم، أتذكّر هيلين، لقد عزفت على آلة التشيلو في أوركسترا الكلية، هل ما زالت تجيد العزف؟".

"إنها تعزف في عطلات نهاية الأسبوع عندما لا يستمع إليها أحد"، وضحكا كلاهما.

"حسنًا، أرسل إليها أطيب تمنياتي".

"سأفعل بالتأكيد، يا دكتورة بارينغتون، ولكنني أعترف بأنني لم أعرف سبب رغبتك في رؤيتي حتى الآن، إلا إذا كنت إحدى العضوات في حملات جمع الأموال المنتشرة بكثرة، وفي هذه الحالة يجب أن أذكّرك بأن شركة بريتش بتروليوم قد زادت مؤخرًا المنح السنوية التي تقدّمها إلى كلية نيونهام، من صندوق المنح الدراسية".

ابتسمت غريس: "سيد جيمس، لم أحضر من أجل منحة بريتش بتروليوم، بل لمقابلة رئيس مدرسة سليد للفنون الجميلة".

"ليس تصرّفًا حكيمًا".

"حاول ألا تفكّر في أنني من آل بارينغتون، بل كوني مرتبطة بأفراد آل كليفتون، وبالأخص ابنة أختي الكبرى جيسيكا، التي أتيت للترافع عنها".

سرعان ما تحوّل سلوك السير جيمس نيفيل المرح واللطيف إلى عبوس وتجهم.

"حتى لو كنت بورتيا، أخشى أن مناشداتك لن تلاقي آذانًا صاغية، يا دكتورة بارينغتون، فقد صوّت المجلس بالإجماع على طرد الانسة كليفتون من سليد، فهي لم تكن ثملة وتحت تأثير المخدرات فحسب، بل اعتدت على الشرطة في أثناء إلقاء

القبض عليها، وأنا شخصيًا شعرت بأنها كانت محظوظة للغاية ليس لأنه لم توجَه إليها تهمة فقط، بل لأنه لم يُحكم عليها بالسجن أيضًا".

"وهذا هو بيت القصيد، يا سيد جيمس، فهي لم يتمَ اتهامها أو يحكم عليها بالسجن".

"ولكن الشاب الذي كان يقود السيارة في ذلك الوقت -إذا كنت أتذكَر بشكل صحيح- فقد تمَ اتهامه، وحكم عليه بدفع غرامة مالية كبيرة، ثم رَحَل إلى بلاده".

"إنه فرد أكبر منها سنًا، وأكثر نضجًا بكثير، ولسوء الحظ تورَطت جيسيكا معه".

"قد يكون ذلك صحيحًا، يا دكتورة بارينغتون، ولكن هل تعلمين أن منحة الآنسة كليفتون قد أُلغيت أيضًا في وقت سابق من هذا العام، بعد أن ضُبطت، وهي تدخن الماريجوانا في مبنى الكلية؟".

"نعم، أعلم يا سيد جيمس، فقد أخبرتني جيسيكا بكل ما حدث خلال العام الماضي، ويمكنني أن أؤكَد لك أنها نادمة على ما ارتكبته من أخطاء، ولكن إذا منحتها فرصة ثانية، فلن تخذلك مرة أخرى".

"ما الضمانة بأنها لن تكرَر ارتكاب أخطائها؟"

"أعطيك ضمانتي الشخصية".

تردَد السير جيمس، قبل أن يقول: "أخشى أن ذلك غير وارد يا دكتورة بارينغتون، هل أخبرتك الآنسة كليفتون بأنها حضرت ثلاث محاضرات وسبعة فصول دراسية فقط خلال الفصل الدراسي الماضي، وأن أداءها خلال ذلك الفصل قد تحوَل من ممتاز إلى غير مقبول؟".

"نعم أطلعتني على كافة تفاصيل الفصل الدراسي الماضي".

"وهل أخبرتك بأن مشرفها، البروفيسور هوارد، عندما ناقش معها مسألة تراجع أدائها، قالت له - وأنا أعتذر عن أسلوبي - أغرب عن وجهي؟".

"وأنت ألا تلجأ إلى قول مثل هذه العبارات، يا سيد جيمس؟".

"ولكنني لا أخاطب أستاذي بهذا الأسلوب غير اللائق، ولا أظنّ أن ابنة أختك الكبرى قد استخدمت هذا الأسلوب أمامك، أو أمام أي فرد آخر من أفراد أسرتك".

"حسنًا، ألم يسبق لك أن سمعت أن الطالب قد يتمرّد على ما نعتبره أنا وأنت سلوكًا حسنًا؟ بعد كل ذلك، لديك ابن وابنتان"، صمت السير جيمس للحظة، مما سمح لغريس بالاستمرار: "لقد حظيث بامتياز تعليم العديد من الشابات الموهوبات على مرّ السنوات، ولكنني نادرًا ما صادفت فتاة موهوبة مثل ابنة أختي".

"الموهبة ليست عذرًا للاستهزاء بالضوابط الأخلاقية وخرق قواعد الكلية، نتوقّع من الجميع أن يتحلّوا بالقيم الفاضلة، وأن يحسنوا التعامل مع الآخرين، وقد أوضح المدير في تقريره أن هذه الحالة ميؤوس منها".

"وفي التقرير نفسه، سير جيمس، أوصى الأستاذ هوارد أعضاء مجلس الإدارة برعاية موهبة جيسيكا، إن كنت أذكر كلماته بشكل صحيح، فقد قال إنها تمتلك موهبة نادرة وينبغي صقلها وتعهّدها بالرعاية، لا القضاء عليها وتدميرها".

"نظر المجلس في كلمات البروفيسور هوارد بعناية فائقة قبل اتخاذ القرار، وأخشى أن الفوضى الإعلامية المصاحبة لها لم تترك لنا أي خيار...".

"الإعلام المصاحب لها يا سيد جيمس، لم يكن

بسبب جيسيكا، بل بسبب أختي إيما، وصهري هاري، وأخي جايلز بارينغتون".

"ربما يكون هذا هو الحال يا دكتورة بارينغتون، ولكن امتياز أن يترعرع المرء في كنف مثل هذه العائلة الرائعة يرتّب عليه مسؤولية إضافية".

"وإذا كانت جيسيكا ابنة أم عزباء تخلّى عنها والدها، أيمكن أن يجعل موقفك مختلفًا؟".

نهض السير جيمس من مكانه غاضبًا، وقال لها: "أعتذر يا دكتورة بارينغتون، لكنني لا أرى أي هدف من إطالة هذه المناقشة، فقد اتخذت الإدارة قرارها، وليس لديّ سلطة لنقضه".

قالت غريس من دون النهوض من مقعدها: "أنا أكره أن أصحّح لك يا سيد جيمس، ولكن لو دقّقت في قانون سليد بعناية، أعتقد أنك ستجد أن المادة الثالثة والسبعين تسمح لك بفعل ذلك".

قال السير جيمس وهو يعاود الجلوس على كرسيه: "لا أتذكّر المادة الثالثة والسبعين، ولكن لديّ شعور بأنك على وشك تنشيط ذاكرتي".

قالت غريس بهدوء: "من حق الرئيس إلغاء قرار الإدارة إذا رأى أن هناك ظروفًا مخففة لم تؤخذ بعين الاعتبار في ذلك الوقت".

قال السير جيمس: "مثل أي ظروف؟"، بالكاد كان قادرًا على إخفاء انزعاجه.

"ربما حان الوقت لتذكيرك بطالب آخر لم يتمتّع بالامتيازات نفسها التي تتمتّع بها جيسيكا كليفتون، وكان طالبًا جامعيًا في جامعة كامبريدج، أخذ دراجة معلمه النارية، وقام بنزهة عليها في منتصف الليل من دون أن يطلب الإذن من معلمه، وعندما أوقفته الشرطة لتجاوزه السرعة القانونية، ادعى أن

صاحبها قد أذن له بركوبها".

"كان تلك مجرد دعابة غير مؤذية".

"وعندما ظهر أمام القاضي في صباح اليوم التالي، لم توجّه إليه أي تهمة، ولكن ظلب منه إعادة الدراجة إلى مالكها والاعتذار إليه، ولحسن الحظ، لم يكن الشاب ابن وزير في الحكومة، لذلك لم يُنشر الحادث، كما لم يُشر إليه ولو بفقرة في *أخبار كامبريدج المسائية*".

"هذا ليس منصفًا يا دكتورة بارينغتون".

"وعندما أعاد الدراجة إلى معلَمه واعتذر إليه، لم يتمّ طرده أو حتى فصله مؤقتًا من الجامعة، لأن معلمه كان زميلًا متحضرًا، وأدرك جيدًا أن الشاب كان لديه أسابيع قليلة للتخرج".

"هذا الكلام تحت الحزام، دكتورة بارينغتون".

قالت له غريس: "لا يمكنني أن أعارض كلامك، ولكن الجدير بالذكر أن الشاب المعني تخرج بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف الأولى، وأصبح رئيسًا لمدرسة سليد للفنون، وفارسًا من فرسان المملكة".

أحنى السير جيمس رأسه تواضعًا.

"أعتذر عن اللجوء إلى مثل هذا التكتيك، سيد جيمس، وآمل أن تسامحني عندما يتمّ تعيين السيدة جيسيكا كليفتون رئيسًا للأكاديمية الملكية".

***

قالت جيسيكا: "أخبرني يا جدي، هل سبق أن خدعت نفسك تمامًا، فآمنت بمفاهيم خاطئة؟".

سألها هاري مازحًا: "هل تقصدين هذا الأسبوع أو الأسبوع الماضي؟".

"أنا جادة، يا جدي، هل حصل ذلك عندما كنت شابًا أو ولدًا صغيرًا".

قال لها هاري: "حصل ذلك منذ زمن بعيد، ولا أستطيع حتى أن أتذكَره".

التزمت جيسيكا بالصمت، وهي تنتظر إجابته عن سؤالها: "ماذا عن القبض عليّ بتهمة القتل؟ هل يُحتسب ذلك؟".

"لكنك كنت بريئًا، وكان ذلك الاتهام خطأ فادحًا".

"يبدو أن القاضي لم يعتقد ذلك، لأنه حكم عليّ بالسجن لمدة أربع سنوات".

"هل تعتقد أن والدي سيسامحني يومًا ما؟"

"لا سبب يمنعه من مسامحتك، فقد ارتكب أخطاء أسوأ بكثير وهو في مثل عمرك، وهي التي دفعت والدتك إلى تركه والعودة إلى أميركا".

"لقد أخبرتني بأنهما انفصلا".

"صحيح، ولكنها لم تخبرك بسبب انفصالهما، وعليهما أن يشكراك على جمعهما مجددًا".

"وأنا من عليّ أن أشكره؟".

"الخالة غريس، إذا كنت تسألين عمن قدّم لك فرصة العودة إلى سليد في أيلول".

"كنت أظن أنك أنت أو جدّتي قد تدخّلتما لإعادتي إلى الكلية".

"لا، على الرغم من أن غريس لن تشكرني على إخبارك، ولكنها قد انضمَت إلى البروفيسور هوارد، لتثبت أنه عندما يتّحد شخصان معًا، يمكن أن يمتلكا قوة جيش كامل".

"كيف يمكنني شكرهما؟".

"من خلال إثبات أنهما كانا محقين، وهو ما يقودني إلى التساؤل عن مستوى أدائك".

"إن أردت أن أجيب بصدق فلا أعرف، هل يمكنك أن تقيّم كتابك وأنت تكتبه؟".

"لا، في النهاية، أترك أمر تقييمه للنقاد والجمهور لاتخاذ هذا القرار".

"وهذا ينطبق على أعمالي، فهل ستكون مستعدًا لإبداء رأيك بصدق بشأن عملي الأخير؟".

قال هاري، آملًا ألا يضطرّ إلى إخفاء الحقيقة: "يمكنني المحاولة".

أمسكت جيسيكا بيده وأخرجته من المكتب قائلة: "حسنًا، ليس هناك وقت أنسب من الآن"، وأضافت في أثناء صعود الدرج: "لقد كان لطفًا منك أن تسمح لي بالصعود إلى هذه الغرفة في الصيف ومعرفة إذا كان في إمكاني التقاط تلك القطع".

"وهل جمعتها؟".

فتحت جيسيكا باب غرفة اللعب القديمة ووقفت جانبًا قائلة: "هذا هو بالضبط ما آمل أن تخبرني به".

سار هاري مترددًا، ونظر إلى الرسومات الأولية المنتشرة على الأرض صفًا تلو الآخر، فلم يكتمل بعد الرسم على القماش الذي كان على حامل في وسط الغرفة، فحدَق إلى لوحة من مانور هاوس، والتي اعتقد أنه يعرفها جيدًا، وقد ظهر فيها العشب وأزهار الحديقة والبحيرة وأشجار البلوط الباسقة التي تنقلك إلى الأفق البعيد، وكل لون كان مستخدمًا بدا بعد دمجه في باقي الألوان...

عندما لم تتمكَن جيسيكا من تحمل صمته، قالت له: "حسنًا، ألا يمكنك أن تقول شيئًا يا جدي؟".

"آمل أن يكون كتابي الأخير نصف قيّم مقارنة بما أراه أمامي".

28

أصرَت إيما: "لكنه تقليد عائلي".

سخر سيباستيان قائلًا: "ألا يمكن أن يكون لدينا هذا العام إجازة؟".

"بالتأكيد لا، لقد وعدت جدك الأكبر بأن العائلة ستقضي عيد الميلاد دائمًا معًا، وفي ليلة رأس السنة سنخبر بعضنا بقرارات السنة الجديدة".

"حسنًا، من يودّ أن يبدأ هذا العام؟".

قالت سامانثا: "كان والدي الأسوأ، لقد جعلنا نكتب قراراتنا، وبعد عام كان علينا قراءتها لتذكير الجميع بوعودنا الحمقاء".

قالت إيما: "لطالما أحببت والدك، لماذا لا تبدأي؟".

أجابت سامانثا: "بحلول هذا الوقت من العام المقبل، سأحصل على وظيفة".

قالت إيما: "لكن لديك وظيفة بالفعل، فأنتِ تعتنين بالرئيس القادم لفارذنغز كوفمان".

قال سيب وهو ينظر إلى ابنه، الذي كان يهبط بنموذج طائرة كونكورد على الأرض: "لا أعتقد ذلك، يبدو أنه يخطّط ليكون طيارًا".

قالت إيما: "وبعد ذلك سيتعيّن عليه أن يصبح رئيس مجلس إدارة الخطوط الجوية البريطانية".

اقترحت غريس قائلة: "ربما لن يرغب في أن يكون رئيسًا لأي مجلس إدارة على الإطلاق".

عقب هاري: "إذا كان لديك خيار يا سام، ما الوظيفة التي تودّين الحصول عليها؟".

"لقد تقدَمت إلى وظيفة في معهد كورتولد، في قسم الأبحاث، بدوام عمل مرن يتكيّف مع دوام جيك في الحضانة لاحقًا، كما سيكون مثاليًا بالنسبة

إليّ".

قال سيباستيان: "بالنسبة إلى الأفراد العمليين في عائلتنا، سيكون من المفيد أن يعرفوا أن توظيف مربية سيكلّف أكثر مما تأمل سام في كسبه من عملها بصفتها باحثة في كورتولد".

أجابته غريس: "إنه التوزيع العادل للثروة، يقوم كل شخص بالعمل الذي يختاره، وتتمّ مكافأتهما كليهما وفقًا لذلك".

سألها سيباستيان: "ما القرار الذي ستتخذينه في السنة الجديدة، أيتها الخالة غريس؟".

"لقد قرّرت التقاعد المبكر، وسأترك الجامعة في نهاية العام الدراسي".

قال لها جايلز: "انضمّي إلينا في مجلس اللوردات، ويمكننا أن نستفيد من حكمتك وحسّك العلميّ".

قالت له غريس: "شكرًا لك، لكن اثنين من آل بارينغتون يكفيان في مجلس النواب، وعلى أي حال أسعى إلى الحصول على وظيفة أخرى كسامانثا تمامًا".

سألها هاري: "هل أجرؤ على سؤالك ما الوظيفة المختارة؟".

"لقد تقدّمت إلى وظيفة تدريس في جامعة محلية شاملة، على أمل أن أتمكّن من مساعدة بعض الفتيات الصغيرات اللواتي لم يعتبرن ذلك ممكنًا".

سألها جايلز: "لم الفتيات لا الفتيان؟".

"لأن في كامبريدج عددًا كافيًا منهم بالفعل".

قال لها سيباستيان: "لقد ألحقت بنا العار جميعًا، أيتها الخالة غريس".

قالت له غريس: "حسنًا، وما الذي خطّطت له لهذا العام يا سيب، باستثناء جني المزيد والمزيد من

المال؟".

"آمل في أن تكوني على صواب، لأن ذلك ما يتوقعه مني عملائي، وأنت واحدة منهم".

قالت غريس: "دورك يا جيسيكا، أتمنى أن تقومي بعمل أكثر قيمة من رئاسة بنك".

لا أحد بحاجة إلى تذكيرها بقرار جيسيكا العام الماضي: *أن أكون جديرةً بثقة خالتي العظيمة بي، وأن أقدِّم الأفضل بعد حصولي على فرصة ثانية.*

"أنا مصممة على الحصول على منحة دراسية في الأكاديمية الملكية".

قالت إيما: "أحسنت".

قالت غريس: "هذا ليس جيدًا بما يكفي، جميعنا نعلم أنكِ ستحققين ذلك، ارفعي المستوى، أيتها الشابة".

تردَّدت جيسيكا للحظة، قبل أن تقول: "سأفوز بالفوندرز برايز".

قالت لها غريس: "هذا أفضل إلى حد كبير، وسنكون جميعًا حاضرين عند تلقيكِ الجائزة".

قال سيباستيان لإنقاذ ابنته من أسئلة غريس المتلاحقة: "دورك يا أمي".

"سألتحق بصالة ألعاب رياضية، لأخسر ثلاثة كيلوغرامات من وزني".

"لكنه كان قرارك العام الماضي!".

قالت إيما: "أعلم، والآن أصبحت بحاجة إلى أن أفقد ستة".

قال جايلز: "أنا أيضًا اتخذت قرارًا، ولكنني على عكس إيما، فقد حققت القرار الذي اتخذته العام الماضي".

قال هاري: "هلا تذكِّرنا بقرارك في العام الماضي".

"أقسمت إنني سأعود إلى مقاعد البدلاء الأمامية، وأن يُعرض عليَ حقيبة وزارية مليئة بالتحديات، وبعد أن استقال مايكل فوت وأفسح الطريق أمام شخص يريد بجدية الإقامة في 10 داونينغ ستريت".

سألت غريس: "ما الحقيبة التي طلب منك السيد كينوك أن تحافظ عليها؟".

لم يستطع جايلز إلا الابتسام.

قالت إيما: "لا، لن تجرؤ على الموافقة، أفترض أنك رفضت؟".

قال لها جايلز: "لم أستطع مقاومة العرض، لذا فإن قراري في السنة الجديدة هو التسبب بالإحباط والمضايقة وبإثارة أكبر قدر ممكن من المشاكل للحكومة وخاصة لوزير الصحة".

قالت إيما: "أنت جرذ!".

"لا، لكي أكون عادلًا يا أختي، أنا صائد الفئران".

قال هاري ضاحكًا: "وقت مستقطع، قبل أن تصابا كلاكما بضربات مميتة، من التالي؟".

قالت كارين: "ربما حان دور فريدي".

كان أول عيد ميلاد لفريدي في مانور هاوس، وقد عاملته جيسيكا كطفل وحيد، بينما لم يبدُ جيك متخلفًا عن صديقه الجديد بأكثر من خطوات قليلة.

قال فريدي: "قراري للعام الجديد، سيكون القرار نفسه لهذا العام، وكل عام، حتى أحققه". ربما لم يكن فريدي ينوي ذلك، ولكنه جذب انتباه الجميع، وتابع قائلًا: "سأحقق رقمًا قياسيًا، وأكون مثل والدي".

أدار جايلز رأسه كي لا يحرج الصبي.

سأل هاري فريدي، عندما رأى أن صديقه القديم

على وشك البكاء: "وما إن تحقق غايتك، ماذا ستكون الخطوة التالية؟".

قال فريدي من دون تردد: "سأضاعف ذلك، يا سيد هاري".

قالت غريس: "لن يكون من الصعب تحديد ما تريده في العام التالي، ما إن تحقق هدفك".

ضحك الجميع.

قالت إيما: "حان دورك الآن يا كارين".

"سأشارك في ماراثون لندن، وسأجمع الأموال للمهاجرين الذين يرغبون في الالتحاق بالجامعة".

سألت سامانثا: "ما المسافة التي ستجتازينها في الماراثون؟".

"حوالى ستة وعشرين ميلًا".

"لا أحسدك على ذلك، ولكن ضعيني في القائمة مقابل خمسة جنيهات للميل".

"هذا كرم منك للغاية، يا سام".

قال سيباستيان: "أنا أيضًا".

وأضاف جايلز: "وأنا أيضًا".

قالت كارين وهي تتناول دفتر ملاحظاتها من جيبها: "شكرًا لكم، ولكن لا، لقد قمت بالفعل بتدوين خمسة جنيهات مقابل كل ميل من سامانثا، ومن المتوقع أن يقدِم الباقون النسبة نفسها وفقًا لدخلهم".

قال سيباستيان: "النجدة!".

قالت كارين وهي تبتسم لسيب قبل الرجوع إلى قائمتها: "سأصل إليك أخيرًا، سيكون على غريس أن تدفع خمسة وعشرين جنيهًا مقابل كل ميل، وإيما وهاري سيدفع كل واحد منهما خمسين جنيهًا مقابل كل ميل، وجايلز مئة جنيه مقابل كل ميل".

"أما أنت يا سيباستيان بصفتك رئيسًا للبنك، فعليك أن تدفع ألف جنيه مقابل كل ميل"، تفقدت دفتر ملاحظاتها مرة أخرى، وتابعت قائلة: "هذا بالإضافة إلى واحد وثلاثين ألفًا وتسعمائة وثمانين جنيهًا إسترلينيًا".

"هل يمكنني تقديم التماس نيابة عن طالبة فنون مهاجرة من العالم الجديد، وهي غير متأكدة على الإطلاق من هوية والديها، وقد خسرت منحتها الدراسية؟".

ضحك الجميع.

قال جيسيكا: "إضافة إلى الجميع، سنقدَم أنا وفريدي وجيك عشرة جنيهات مقابل كل ميل".

قال لها والدها: "ولكن هذا سيكلَفك سبعمائة وثمانين جنيهًا، لذلك عليَ أن أسألك، كيف تنوين الدفع؟".

قالت له جيسيكا: "سيطلب البنك صورة لرئيسه ليعلَقها في غرفة مجلس الإدارة، وخمَن من سيرسمها، وكم ستكون أتعابه؟".

ابتسم هاري مسرورًا بحفيدته التي استعادت نزعة التحدي، إلى جانب روح الدعابة اللاذعة.

سألها سيب: "ألا رأي لي في ذلك؟".

قالت جيسيكا: "بالتأكيد لا، وإلا ما الفائدة من كونك أبًا؟".

قالت غريس: "أحسنت يا كارين، كلنا نشيد بك".

قال سيب: "انتظروا، انتظروا، انتظروا، سيكون هناك بند إضافي مرفق بالعقد، ينص على أنه لن يتمَ دفع فلس واحد إذا لم تحقق كارين الفوز".

قالت له كارين: "هذا عادل، وأقدَم لكم جميعًا شكري مسبقًا".

سألت إيما: "من لم يعلن قراره بعد؟".

حوّل الجميع انتباههم إلى هاري الذي لم يستطع مقاومة جعلهم جميعًا يمنحونه وقتهم.

"كانت هناك سيدة عجوز رائعة، وقبل وفاتها مباشرة، كتبت رسالة إلى ابنها تقترح عليه كتابة تلك الرواية التي كان يرويها لها عندما كان يزورها".

صمت قليلًا ونظر إلى الأعلى، ثم قال: "حسنا يا أمي، لقد حان الوقت، فلم يعد لدي أي عذر لعدم تلبية رغبتك، لأنني انتهيت للتو من الكتاب الأخير من سلسلة ويليام ووررويك".

تطرّقت إيما إلى الموضوع لتزيد الحماسة: "لو لم يكن ناشرك شريرًا، لكان عليه أن يقدّم إلى مؤلفه المرهف الحس عرضًا مغريًا، يجعل من المستحيل مقاومته".

قال لها هاري: "يسعدني أن أخبرك بأن ذلك لم يعد ممكنًا".

"لماذا؟".

لقد أرسلت للتو المسودة النهائية إلى آرون غوينزبورغ، وهو على وشك اكتشاف أنني قتلت ويليام ووررويك".

ذُهل الجميع وعجزوا عن التفوّه بأي كلمة، باستثناء جايلز، الذي قال له: "هذا لم يمنع السير آرثر كونان دويل من إعادة شيرلوك هولمز إلى الحياة، بعد أن اعتقد قراؤه المخلصون أن موريارتي قد ألقاه من أعلى المنحدر.

قال له هاري: "لقد خطرت في ذهني الفكرة نفسها، لذلك أنهيت الكتاب بجنازة ويليام ووررويك، وقد وقفت زوجته وأطفاله بجانب القبر يشاهدون نعشه وهو يوارى الثرى، وبحسب ما أذكر، فقد قام شخص

واحد من بين الأموات." وقد أسكت كلامه جايلز.

سألت كارين التي كانت تصغي إلى هاري مثل الجميع، وهو يعلن عن وفاة ويليام ورويك للمرة الأولى: "هل تستطيع إخبارنا ببعض أحداث الرواية التالية؟".

مرة أخرى انتظر هاري أن يجذب انتباه الجميع إليه وحتى جيك.

"أحداث القصة تجري في إحدى الدول التابعة لروسيا، على الأرجح في أوكرانيا، وسيبدأ الفصل الأول بتناول أفراد أسرة مؤلفة من الأم والأب ابنهما العشاء معًا في منزلهم الواقع في إحدى ضواحي كييف".

سألت جيسيكا: "هل الابن فتى أم فتاة؟".

"إنه فتى".

"ما عمره؟".

"لم أقرّر بعد، خمسة عشر أو ربما ستة عشر، كل ما أعرفه على وجه اليقين هو أن الأسرة تحتفل بذكرى مولد الفتى، وخلال تناول طعامهم - لم تكن وليمة بالضبط- سيتعرّف القارئ إلى المشاكل التي يواجهونها في ظل نظام قمعي، يُنظر فيه إلى الأب -وهو زعيم نقابي- على أنه مسبب للمشاكل ومنشقَ عن النظام، ويجرؤ على تحدي سلطة الدولة.

قال جايلز: "لو ولد في هذا البلد، لكان زعيم المعارضة".

تابع هاري: "أما في بلده فيعامل مثل الخارجين عن القانون كأي مجرم خطير".

سألته جيسيكا: "ماذا سيحدث بعد ذلك؟".

"كان الولد على وشك أن يفتح هديته الوحيدة، عندما توقّفت شاحنة عسكرية خارج المنزل، وحطَم

عشرات الجنود الباب، وسحبوا الأب إلى الشارع، وأطلقوا النار عليه أمام زوجته وابنه".

قالت إيما في ذهول: "أيمكن أن تقتل البطل في الفصل الأول؟".

قالت غريس: "ستدور هذه القصة حول الطفل لا الأب".

قال هاري: "أو الأم، تلك المرأة الذكية التي أدركت أنهما إذا لم يهربا من البلاد، فلن يمرّ وقت طويل قبل أن يسعى ابنها المتمرد إلى الانتقام، وتكون نهايته مثل نهاية والده".

سألت جيسيكا: "حسنًا إلى أين سيهربان؟".

"احتارت الأم بين السفر إلى أميركا أو إنكلترا".

سألت كارين: "كيف سيقرّران؟".

"من خلال رمي قطعة نقدية".

استمرّ باقي أفراد العائلة بالتحديق إلى الراوي.

سأله سيب: "وكيف ستتطور الأحداث؟".

"نتابع ما يحدث للأم والطفل، فصلًا تلو الآخر، ففي الفصل الأول، يهربان إلى أميركا، وفي الفصل الثاني إلى إنكلترا، لذا فهناك قصتان متوازيتان ومختلفتان للغاية تحدثان في الوقت نفسه".

قالت جيسيكا: "واو، وماذا سيحدث بعد ذلك؟".

قال هاري: "أتمنى لو كنت أعرف، ولكن اكتشاف ذلك سيكون قرار السنة الجديدة".

29

قال صوت عبر المكبر: "عشر دقائق على الانطلاق".

واصلت كارين الهرولة محاولة الوصول إلى ما أطلق عليه هؤلاء المتسابقون "المنطقة"، لقد قضت ساعات طويلة وهي تتدرّب حتى إنها عبرت نصف الماراثون، ولكنها شعرت فجأة بالقلق الشديد وهي تقف على خط البداية.

أعلن الصوت قائلًا: "خمس دقائق".

تفحصت كارين ساعة الإيقاف، وهي هدية حديثة من جايلز. 0.00.

قال لها فريدي، اقتربي من الأمام قدر المستطاع، وإلا فما فائدة أن تخسري مسافة أو وقتًا إضافيين في السباق؟ لم تعتبر كارين أن الماراثون سباقًا عاديًا، فقد كانت تأمل فقط في أن تجتاز المسافة في أقل من أربع ساعات، وفي الوقت الحالي كانت تأمل في الوصول إلى خط النهاية فقط.

دوى الصوت مرة أخرى: "دقيقة واحدة".

كانت كارين في الصف الحادي عشر، ولكن نظرًا إلى وجود أكثر من ثمانية آلاف عداء، اعتبرت أن المسافة قريبة بما يكفي من المقدمة، بدأ الصوت بالعد العكسي: "عشرة، تسعة، ثمانية، سبعة، ستة، خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحدا!" صرخ المتسابقون جميعًا بانسجام تام، قبل أن ينفجر البوق منذرًا بانطلاق المتسابقين.

ضغطت كارين على زر ساعة الإيقاف وانطلقت بأقصى سرعة، واجتاحت موجة هائجة من العدائين.

كان كل ميل مخططًا بخط أزرق سميك ممتد على

طول الطريق، لقد اجتازت كارين الميل الأول في أقل من ثماني دقائق، ثم استقرَت على إيقاع ثابت، بعد أن أصبحت أكثر وعيًا وإدراكًا أن حشود الناس الذين يصطفُون على جانبي الطريق، كان بعضهم يهتفون، وبعضهم الآخر يصفقون، بينما كان يحدَق بعضهم إلى هذا التجمع البشري الهائل بذهول غير مصدقين ما تراه أعينهم، فبدا بالنسبة إليهم بجميع أشكاله وأحجامه، يمرَ من أمامهم بسرعات مختلفة.

بدأت الأفكار تتزاحم في عقلها، ففكَرت في جايلز الذي قادها إلى قرية الخيام الصغيرة في وقت سابق من صباح ذلك اليوم لتسجيل اسمها، وهو سيكون الآن في مكان ما ينتظر وصولها في هذا الجو البارد بين الجموع، ثم تحوَلت أفكارها بعد ذلك إلى زيارتها الأخيرة مجلس النواب لتسمع وزير الصحة وهو يجيب عن الأسئلة، فقد أجادت إيما عملها بالفعل، وفي رأي جايلز خطت خطواتها إلى الأمام بسرعة كبيرة.

عندما اجتازت كارين علامة منتصف الطريق، كانت تأمل في أن تتمكَن من إنهاء الماراثون، على الرغم من أنها قبلت أن الفائز ربما تخطَى في الوقت الحالي خط النهاية.

***

لقد حذَرهم جايلز من أنه من غير المرجح أن تنهي كارين السباق في أقل من أربع ساعات، لذلك استيقظت العائلة في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم للتأكد من أنه يمكنهم العثور على مكان تستطيع رؤيتهم منه بسهولة، وفي الليلة السابقة، جلس فريدي على ركبتيه وحضَر لها لافتة، أملًا في أن تجعل كارين تضحك عندما تمرَ من أمامهم وتراها.

وما إن عاد جايلز إلى سميث سكوير بعد أن أوصل زوجته إلى خيمة التسجيل A-D في غرينتش بارك، قاد مجموعة صغيرة من مؤيديها إلى الجزء الخلفي من مبنى وزارة المالية، ثم وجد مكانًا في الصف الأمامي خلف الحواجز في ساحة البرلمان مقابل تمثال ونستون تشرشل.

***

اقتربت كارين الآن مما يعرفه جميع عدائي الماراثون بالجدار، وهو يكون عادة على بعد حوالي سبعة عشر أو عشرين ميلًا، وقد سمعت صوت الوساوس التي تحاول إقناعها بالانسحاب من دون أن يلاحظها أحد.

ولكن لا، سيلاحظ الجميع انسحابها، وقد لا يعلّقون عليه، ولكن سيباستيان أوضح أنه لن يدفع فلسًا واحدًا ما لم تتجاوز خط النهاية، وقد ذكّرها بأن الاتفاق سارٍ، ولكنها بدت وكأنها تسير أبطأ فأبطأ.

لكن شيئًا ما -ربما كان الخوف من الفشل- جعلها تناضل، وتتظاهر بأنها لم تلحظ تجاوزها مكتب البريد، وبعد بضع دقائق اجتازت رافعة السفن، فقالت لنفسها: انطلقي، انطلقي، انطلقي، بينما كانت تصرّ قدماها على القول: توقفي، توقفي، توقفي، وعندما تجاوزت علامة العشرين ميلًا، هتف الحشد بصوت عالٍ، ليس من أجلها، ولكن من أجل الصف الجزار الذي كان يتخطّاها.

عندما رصدت كارين برج لندن من بعيد، بدأت تعتقد أن وصولها سيتحقّق إلى حد بعيد، فتفحّصت ساعتها، فكان قد مضى ثلاث ساعات و32 دقيقة، فهل لا يزال في إمكانها إكمال السباق في أقل من أربع ساعات؟ وعندما عبرت بيغ بن، ارتفعت الهتافات المتواصلة بصوت عالٍ، فرأت جايلز وهاري

وإيما يلوّحون لها بقوة.

بينما لم تتوقّف جيسيكا عن الرسم أبدًا، وقد حمل فريدي لافتة مكتوب عليها استمرّي، أعتقد أنك في المركز الثالث!". فتمكّنت كارين بطريقة ما من رفع ذراعها لشكرهم، ولكن بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى المركز التجاري، بالكاد استطاعت أن ترفع قدمها، ولم يعد أمامها إلا ربع المسافة، وقد أصبح لها دراية بالمدرجات المزدحمة على جانبي الطريق، وكانت الحشود تهتف بصوت أعلى من أي وقت مضى، وكان أفراد طاقم تلفزيون بي بي سي يصورونها في أثناء الجري إلى الخلف أسرع مما كانت تجري إلى الأمام.

نظرت إلى الأعلى لترى الساعة الرقمية فوق خط النهاية تتحرّك بلا توقّف، ثلاث ساعات و57 دقيقة، وفجأة بدأت تهتمّ بالثواني، 31، 32، 33...

وبعد بذلها الجهد للمرة الأخيرة، اندفعت إلى الأمام بقوة، وأخيرًا تجاوزت خط النهاية، رافعةً ذراعيها عاليًا في الهواء كما لو أنها بطلة أولمبية، وبعد بضع خطوات أخرى، انهارت على الأرض.

خلال لحظة، اقترب منها المسؤول عن تنظيم السباق، وكان يرتدي سترة الصليب الأحمر، فجثا إلى جانبها، وكان يحمل زجاجة ماء في يد، وميدالية فضية لامعة في اليد الأخر.

قال وهو يضع الميدالية حول عنقها: "حاولي أن تستمرّي بالسير إلى الأمام".

بدأت كارين تمشي ببطء شديد، ولكن معنوياتها قد تحسّنت عندما رأت فريدي يركض نحوها، وذراعاه ممدودتان، وجايلز خلفه ببضع خطوات فقط.

صرخ فريدي قبل أن يصل إليها: "مباركـ! اجتزت

المسافة خلال ثلاث ساعات وتسع وخمسين دقيقة وإحدى عشرة ثانية، وأنا متأكد من أنك ستكونين أفضل في العام المقبل".

قالت كارين بثقة كبيرة: "لن يكون هناك عام قادم، حتى ولو قدّم إليّ سيباستيان مليون جنيه".

الليدي فيرجينيا فينويك

1983-1986

30

انتقلت فيرجينيا من شقتها في تشيلسي إلى منزل الدوق في إيتون سكوير وذلك في اليوم التالي من اصطحاب سائقه كلارنس وأليس إلى هيثرو للذهاب في طريقيهما المتعاكسين، فأحدهما سافر شرقًا والآخر غربًا.

على الرغم من أنها بدت قلقة بعض الشيء، إلا أنها بعد أن سافرت برفقة الدوق إلى قلعة هيرتفورد لقضاء عطلة نهاية أسبوع طويلة، أصبحت أكثر ثقة بأنها ستفلت من العقاب.

وبينما كان الدوق في رحلة صيد، قام السيد موكستون، مدير الولاية، بإرسال مذكرة خطية يطلب فيها مقابلتها.

قال لها بعد أن دعته فيرجينيا للانضمام إليها في غرفة الرسم: "أعتذر عن إثارة الموضوع، ولكن هل يمكن أن أسأل عن المئة وخمسة وثمانين ألفًا التي قدَمها الدوق إليك؟ أكانت هدية أم قرضًا؟".

سألت فيرجينيا بحدة: "هل هناك فرق؟".

"نعم، الفرق في الرسوم الضريبية، سيدتي".

سألته بنبرة لطيفة: "أيهما سيكون أكثر ملاءمة؟".

قال موكستون وهو لا يزال واقفًا: "القرض، لأنه في هذه الحالة لا يترتب عليك دفع رسوم ضريبية، أما إذا كانت هدية، فستكونين مسؤولةً عن دفع رسوم ضريبية تبلغ حوالي مئة ألف جنيه إسترليني.

قالت فيرجينيا: "وأنا لا أرغب في ذلك، ما المهلة المتوقعة لسداد القرض؟".

"هل يناسبك خلال خمس سنوات؟ على كل حال في أي وقت يمكن أن يسدَد القرض".

"بكل تأكيد".

"ومع ذلك هناك خيار غير محتمل أن يحدث قريبًا، وهو أن يموت الدوق قبل انتهاء المدة، وستكونين حينها مسؤولةً عن إعادة المبلغ بالكامل".

"لذلك يجب أن أفعل كل ما في وسعي للتأكد من أن يعيش الدوق لمدة خمس سنوات أخرى على الأقل".

قال موكستون من دون أن يعرف أكان عليه أن يضحك أم يعبس: "أعتقد أن ذلك سيكون أفضل للجميع، يا سيدتي، ولكن هل لي أن أسألك عما إذا كان من المحتمل أن يكون هناك أي قروض أخرى من هذا النوع في المستقبل؟".

"بالتأكيد لا يا موكستون، كان ذلك لمرة واحدة فقط، وأنا أعلم أن الدوق لن يحبّذ الإشارة إلى الأمر مرة أخرى".

"بالطبع سيدتي، سأضع وثيقة القرض اللازمة لتوقيعها، وبعد ذلك سيتمّ تسوية كل المعاملات".

مع مرور الأسابيع ثم الأشهر، أصبحت فيرجينيا أكثر ثقة بأن الدوق لم يكن على علم بالاتفاق مع موكستون، ولكن حتى لو كان يعلم، فمن المؤكد أنه لم يشر إلى ذلك أبدًا، وعندما حان الوقت للاحتفال بعيد ميلاد الدوق الحادي والسبعين، كانت فيرجينيا مستعدة للانتقال إلى المرحلة التالية من خطتها.

***

إذا كان عام 1983 عامًا كبيسًا، فربما تكون المشكلة قد حلَت نفسها، ولكنها لم تكن كذلك، وفيرجينيا لم ترغب في الانتظار.

لقد مضى على إقامتها في إيتون سكوير مع الدوق عامًا تقريبًا، وبمجرد انتهاء فترة الحداد الرسمية، كان هدفها التالي ببساطة أن تصبح دوقة هيرتفورد، ولم يكن في طريقها سوى عقبة واحدة، وهي رضا الدوق عن الوضع الحالي، فلم يثر موضوع الزواج أبدًا، في هذه الحالة يجب أن تتقدَم إلى الأمام، ولكن كيف؟ نظرت فيرجينيا في البدائل التي كانت متاحة لها.

كان في إمكانها مغادرة إيتون سكوير والعودة إلى تشيلسي، لجعل بيري يشتاق إلى صحبتها، والأهم من ذلك إلى الجنس الذي لم يعد منتظمًا كما كان سابقًا، وكانت تأمل في أن تنفع تلك الحيلة، إلا أنها خشيت أن تنتظر لوقت طويل قبل أن يقوم بهذه الخطوة، فالإعانة التي يقدَمها إليها شقيقها وقدرها ألفا جنيه فقط شهريًا، لا يمكنها توفير احتياجاتها، فخطر في بالها أن تتقدَم إليه للزواج، من دون أن تهتمَ بالإذلال الناتج عن رفضها، أو يمكنها ببساطة أن تتركه، ولكن ذلك الحل لم تتحمَل التفكير فيه.

عندما ناقشت المشكلة في أثناء تناول الغداء مع بوفي بريدجوتر وبريسيلا بينغهام، كان بوفي قد توصَل إلى حل بسيط من شأنه أن يجبر الدوق على اتخاذ القرار بأسرع وقت.

قالت له فيرجينيا: "لكنه قد يردَ بإطلاق النار، وبعد ذلك سأعود إلى شارع كوير".

وافقها بوفي في الرأي، وقال: "يمكن أن تكوني على حق، ولكن بصراحة لم يعد لديك الكثير من الخيارات، أيتها العجوز، إلا إذا كنت سعيدةً وأنت تلهثين خلف الدوق حتى يحين وقت حضور جنازته بصفتك صديقة قديمة".

"لا، أؤكَد لكما أن ذلك ليس جزءًا من خطتي،

وإذا تركت ذلك يحدث، فستلاحقني السيدة كاميلا هيرتفورد، وتطالبني بسداد القرض البالغ مئة وخمسة وثمانين ألف جنيه إسترليني بالكامل، وإذا كنت سأخاطر بكل شيء برمية نرد واحدة، فسيكون ذلك قبل عيد الميلاد".

سألت بريسيلا: "لماذا قبل عيد الميلاد؟".

"لأن كاميلا ستطير من نيوزيلندا، وقد كتبت رسالة إلى بيري تحذّره فيها قائلة: إذا كانت تلك المرأة من بين ضيوف المنزل، فلن أستقلّ الطائرة لا أنا ولا زوجي ولا حفيداك فهما حفيداه اللذان يعشقهما".

"أهي تكرهك كثيرًا؟".

"أكثر مما كرهتني والدتها الراحلة، إذا كان ذلك ممكنًا، لذا إذا كنا سنفعل أي شيء حيال ذلك، فالوقت ليس في صالحي".

قال بوفي: "من الأفضل أن أجري هذه المكالمة".

***

"صحيفة الديلي ميل".

"هل يمكن أن توصلني بنايجل ديمبستر".

"من يتصل؟".

"اللورد بريدجوتر".

قال الصوت التالي على الخط: "يسعدني سماع أخبارك يا بوفي، ما الذي في حوزتك؟".

"لقد تلقيت مكالمة من ويليام هيكي في اكسبريس، نايجل، وبالطبع رفضت التحدث إليه".

"أنا ممتن لك، يا بوفي".

"حسنًا، إذا كان لابد من نشر القصة، فأنا أفضل أن تكون في عمودك".

كتب ديمبستر كل كلمة قالها له بوفي، وكان

متفاجئًا إلى حد ما لأنه كان يصف دائمًا اللورد بريدجوتر في عموده بأنه "عازب مؤكد"، ولكن لم يكن هناك أي شك في أن هذا الخبر الحصري كان يأتي مباشرة من فم الحصان.

***

ما إن نشرت صحيفة ديلي ميل الخبر في صباح اليوم التالي، حتى كانت تمسك فيرجينيا بها، وقد تجاهلت عنوان الصفحة الأولى "الطلاق" الوارد فوق صورة رود وألانا ستيوارت، وسرعان ما تحوّلت إلى عمود ديمبستر، فكان العنوان الرئيسي "زواج" فوق صورة تجمع بين السيدة فيرجينيا فينويك في مونتي كارلو مع بوفي، والتي لم تظهر فيها جذابة أبدًا.

عندما قرأت فيرجينيا قصة ديمبستر المختلقة، أعربت عن أسفها لإطلاق حرية بوفي في التصرف، *لقد أطلعني صديق مقرب من العائلة على أن اللورد بريدجوتر يأمل في أن يعلن خطوبته قريبًا من السيدة فيرجينيا فينويك.(لمَح إلى موضوع القصة الحقيقي) وقد يكون الخبر مفاجئًا لقرائي المعتادين، لأن الأسبوع الماضي شوهدت السيدة فيرجينيا فينويك -الابنة الوحيدة للراحل إيرل فيونيك- بين ذراعي دوق هيرتفورد، في هذه المساحة.*

قرأت فيرجينيا المقال مرة أخرى، خوفًا من أن يكون بوفي قد بالغ في تحريك البودينغ، لأنها لم تكن بحاجة إلى القراءة بين السطور لإدراك أن ديمبستر لم يصدّق أي كلمة مما قالها له، فكان عليها أن تتصل بببري وتخبره بأن الأمر كله مجرد هراء، فبعد كل شيء كان الجميع يعرف أن بوفي كان شاذًا.

بعد احتساء عدة فناجين من القهوة والتدرب على

المزيد من البدايات الخاطئة، التقطت أخيرًا الهاتف، واتصلت برقم بيري في إيتون سكوير، كان قد بدأ بالرنين عندما طرق أحدهم بابها الأمامي.

قال الصوت من الطرف الآخر، وقد تعرّفت إليه على الفور: "منزل دوق هيرتفورد".

"أنا الليدي فيرجينيا يا لوماكس، أتساءل عما إذا كان في إمكاني التحدث إلى..."، استمرَ الطرق على الباب.

قال كبير الخدم: "أخشى أن الدوق ليس في المنزل، يا سيدتي".

"هل تعلم متى سيعود؟"

"لا يا سيدتي، لقد غادر على عجل هذا الصباح، ولم يوجّه أي تعليمات، هل تريدينني أن أعلمه بأنك اتصلت؟".

قالت فيرجينيا، وهي تغلق الهاتف: "لا شكرًا"، استمرَ القرع على الباب مثل طرق جامع الإيجار الذي يعرف أن المستأجر في الداخل.

مشت نحو الباب في حالة ذهول، وقد تخيّلت أن بيري هجرها وغادر البلاد، وقد قام بذلك للمرة الأولى منذ أكثر من عام.

كانت بحاجة إلى وقت للتفكير، ولكن يجب عليها أولًا التخلص من الذي كان يطرق على بابها بإلحاح.

فتحته وكانت على وشك أن تعيد إغلاقه عندما لم تر الطارق، فنظرت إلى الأسفل لتجد بيري راكعًا على ركبة واحدة فقط، وقال وهو ينظر إليها بقلق: "لا تقولي لي إن الأوان قد فات، أيتها العجوز".

"بالطبع لا يا بيري، ولكن انهض".

"ليس قبل أن تقولي إنك ستتزوجينني".

قالت وهي تساعد الدوق في الوقوف على قدميه:

"بالطبع سأفعل، يا حبيبي، لقد أخبرت بوفي بأنك الرجل الوحيد في حياتي، ولكنه لم يقبل بردّي على طلبه".

قال: "أنا لا أريد أن أتسكّع، أيتها العجوز، مع أنني أستطيع أن أرى خط النهاية، إلا أنه من الأفضل أن نجتازه معا".

قالت فيرجينيا: "أنا أفهم بالضبط ما تشعر به، ولكن ألا تعتقد أن عليك التحدث إلى أولادك قبل اتخاذ مثل هذا القرار المهم؟".

"بالتأكيد لا، لا يطلب الآباء إذن أبنائهم عندما يرغبون في الزواج، على أي حال أنا متأكد من أنهم سيكونون سعداء من أجلي".

بعد ثلاثة أسابيع، وبفضل نصيحة صديق العائلة، طبع نايجل ديمبستر صورة حصرية لدوق ودوقة هيرتفورد، وهما يغادران مكتب تسجيل تشيلسي تحت المطر الغزير، وكتب ديمبستر *سيمضي الزوجان السعيدان شهر العسل في ملكية الدوق بالقرب من كوروتونا، وهما يخطّطان للعودة إلى قلعة هيرتفورد لقضاء عيد الميلاد مع أفراد العائلة*.

31

كان عيد الميلاد مع آل هيرتفورد فاترًا داخل القلعة وخارجها، وحتى كلارنس وأليس كانا مستاءين بشكل واضح لأن والدهما قد تزوّج من دون إخبارهما، بينما لم تترك كاميلا أي شخص من أفراد العائلة أو الموظفين يشكِّك في شعورها بالكره والنفور من تلك المغتصبة.

كلما دخلت فيرجينيا غرفة، كانت كاميلا تغادرها مع زوجها، ويتبعهما طفلاهما.

ومع ذلك كانت فيرجينيا لا تزال تتمتّع بميزة تميّزها عن بقية أفراد الأسرة، وهي أن هناك غرفة واحدة لا يمكن لأي منهم دخولها، وهي الغرفة التي كان لديها فيها مجال واسع يمتدّ ثماني ساعات كل أربع وعشرين ساعة.

بينما كانت فيرجينيا تعمل على استمالة زوجها ليلًا، ركّزت على كلارنس وأليس نهارًا، متقبلة أن كاميلا لم تكن قابلة للتغيير، على الرغم من أنها لم تتخلّ تمامًا عن التأثير في زوجها وطفليها.

حرصت فيرجينيا على أنه كلما رآها أي فرد من أفراد الأسرة برفقة الدوق، أن تبدو وكأنها تهتمّ به وتلبّي كل احتياجاته، وبحلول نهاية الأسبوع الأول، بدأ بعض الجليد بالذوبان، فكان من دواعي سرورها في ليلة عيد الميلاد، أن تصطحب كلارنس وأليس في جولة صباحية حول ملكيتهما، ففوجئا باكتشاف مدى اهتمام فيرجينيا بصيانة أرضهما.

قالت لكلارنس: "في النهاية عندما تترك الجيش، يجب أن تتولى مشروعًا مزدهرًا لا عقارًا قاحلًا".

فأجاب قائلًا: "وبعد ذلك سأحتاج إلى العثور على زوجة تتمتّع بأخلاق رفيعة وبضمير حي مثلك تمامًا،

يا فيرجينيا".

سقط واحد، وبقي اثنان.

كانت أليس هي التالية في الخطة، عندما فتحت هدية عيد الميلاد وعثرت على أحدث روايات غراهام غرين، الرجل العاشر، سألتها: "كيف عرفت أنه مؤلفي المفضل؟".

قالت فيرجينيا التي قرأت بشكل سريع ثلاث روايات لغرين بعد أن رأت إحدى رواياته بجانب طاولة سرير أليس: "وأنا أيضًا، لست متفاجئة لأن لدينا إعجابًا مشتركًا بهذا النوع من الروايات، وعلى الرغم من أن فيلم *نهاية القضية* ناجح جدًا، إلا أن برايتون روك لا يزال المفضل لديَ".

قالت كاميلا: "هذا ليس مفاجئًا، فهناك الكثير من القواسم المشتركة بينك وبين بينكي براون".

تجهَم وجه أليس، على الرغم من أنه كان من الواضح أن الدوق كانت لديه فكرة عما يتحدَثان عنه.

سقط اثنان، وبقي واحد.

عندما فتح الحفيدان هدايا عيد الميلاد، صرخا بفرح، فقد قدَمت إلى تريستان ساعة ستار تريك، وإلى كيتي دمية باربي.

كانت هدية كاميلا هي الأصعب على الإطلاق، حتى صادفت فيرجينيا صورة لها وهي تعزف على الفلوت في أوركسترا مدرستها، فأخبرتها الطاهية بأنها كانت تفكَر في اقتناء تلك الآلة الموسيقية، وعلى كل حال سيكون لديها الكثير من أوقات الفراغ لملئها إذا كانت أقرب مدينة على بعد مئة ميل.

عندما فتحت كاميلا هديتها ورأت الآلة المتألقة،

عجزت عن الكلام، فاعتبرت فيرجينيا أن راتبها الشهري تمَ إنفاقه بشكل مفيد، وقد تمَ تأكيد ذلك عندما تقدَم تريستان إليها، وقال: "شكرًا لك يا جدتي"، وقبَلها على خدها.

بحلول نهاية الأسبوع الثاني، اتفق كل من كلارنس وأليس على أن والدهما كان رجلًا محظوظًا لأنه عثر على هذه الجوهرة، وعلى الرغم من أن كاميلا لم توافق شقيقيها، إلا أنها لم تعد تغادر الغرفة كلما دخلت فيرجينيا إليها.

يوم مغادرة أفراد العائلة، حضَرت فيرجينيا وجبات غداء معلبة وعصير الليمون للطفلين ليأخذاها معهما على متن الطائرة، وقبل أن يركبوا جميعًا السيارة المنتظرة أمام مدخل الباب، قبَلها الجميع، باستثناء كاميلا، التي اكتفت بمصافحتها.

انطلقت سيارة الرولز رايس التي ستجتاز مسافة طويلة باتجاه هيثرو، ولم تتوقَف فيرجينيا عن التلويح لهم حتى توارت السيارة عن الأنظار.

قال الدوق في أثناء عودتهما إلى القلعة: "يا له من انتصار مطلق بالنسبة إليك! لقد كنت رائعة أيتها العجوز، أعتقد أنه في النهاية حتى كاميلا ستبدأ بالتأقلم معك".

قالت فيرجينيا وهي تشبك ذراعها بذراعه: "شكرًا لك يا بيري، ولكن يمكنني فهم مشاعر كاميلا، وبعد كل شيء، سأشعر بالطريقة نفسها إذا حاول شخص ما أن يحلَ مكان والدتي".

"لديك قلب كبير يا فيرجينيا، ولكن هناك موضوع أثارته معي كاميلا، وأخشى أنه لا يمكنني تأجيل مناقشته معك بعد الآن".

تجمَدت فيرجينيا في مكانها، كيف علمت كاميلا بشأن القرض، لقد رتَبت لقضاء موكستون عطلة

عيد الميلاد في الخارج، ومغادرته في اليوم الذي يسبق وصول الأسرة، والعودة في اليوم الذي يلي مغادرتهم؟

قال الدوق: "أنا آسف لاضطراري إلى إثارة مثل هذا الموضوع المؤلم، لكنني لم أعد صغيرًا في السن، ويجب أن أفكّر في المستقبل، وبالأخص مستقبلك، أيتها العجوز".

لم تبذل فيرجينيا أي محاولة للكلام، لأن ما يتحدَث عنه كانت قد فكَرت فيه بالفعل، فقد علَمها ديزموند ميلور أيضًا أنه كلما كنت ترغب في إبرام صفقة، تأكّد من أن يقدَم الطرف الآخر العرض الافتتاحي.

أضاف الدوق قائلًا: "الموضوع يتعلَق بموتي وما يتبعه من إجراءات، لذلك قرَرت أن أضيفك إلى وصيتي، ولن تشعري بالقلق من المستقبل بعد رحيلي".

قالت فيرجينيا: "قلقي الوحيد من أن أبقى وحيدة بعد رحيلك، وأعلم أنها أنانية مني يا بيري، ولكن إذا كان في إمكاني أن أقرَر مصيري، فسأموت قبلك، لأنني لا أستطيع تحمَل فكرة العيش من دونك"، حتى إنها تمكَنت من أن تذرف دمعة.

قال لها الدوق: "كيف يمكن أن يحالفني هذا الحظ الكبير؟".

ردَت فيرجينيا قائلة: "بل أنا المحظوظة".

"قبل أن أتصل بمحاميَ الخاص وأقوم بتعديل الوصية، أيتها العجوز، أريد أن أقدَم إليك لمحة عما سأتركه لك بالطبع ستصبح دوير هاوس من ضمن أملاكك، كما ستحصلين على مبلغ شهري قدره خمسة آلاف، ولكن إذا كان هناك أي شيء آخر تريدينه، فقط أخبريني به".

"هذا أمر رائع، يا بيري، لا أستطيع التفكير في أي شيء في الوقت الحالي، ربما أطلب منك مجرد تذكار يذكّرني بك لاحقًا".

الحقيقة أن فيرجينيا استغرق تفكيرها في هذا التذكار وقتًا طويلًا، فهو كان جزءًا من خطة التقاعد الخاصة بها.

لم تكن بحاجة إلى تذكّر أنها قد فوّتت وصيتين، ولم تكن تنوي القيام بذلك للمرة الثالثة.

ومع ذلك، فقد احتاجت إلى إجراء المزيد من الأبحاث قبل إطلاع بيري على التذكار الصغير الذي كانت تفكّر في الحصول عليه، وكانت تعرف بالضبط الشخص المناسب لتقديم المشورة إليها بشأن هذا الموضوع، ولكنها لم تستطع دعوته إلى القلعة بينما كان الدوق موجودًا، إلا أن ذلك لا يهمّ فسيتمّ حل هذه المشكلة خلال أسبوعين عندما يذهب بيري إلى لندن لحضور لمّ الشمل السنوي للفوج، وهو حدث لم يفوّته أبدًا لأنه - نظرًا إلى كونه كولونيلًا فخريًا في الجيش - ومن المتوقع أن يترأس حفل العشاء.

32

رافقت فيرجينيا بيري في جولة قصيرة إلى المحطة المحلية، وقالت في أثناء توجّههما إلى المحطة معًا: "كنت أتمنّى أن أسافر معك".

"لا فائدة من ذلك، أيتها العجوز، فسأبقى في البلدة ليلة واحدة فقط، وسأعود بعد ظهر الغد".

"عندها ستجدني أقف في المحطة في انتظارك".

قال عندما توقّف القطار: "لست مضطرةً إلى ذلك".

قالت فرجينيا، وهو يصعد إلى العربة ليحتل مقعده في الدرجة الأولى: "أريد أن أكون هنا عند عودتك".

"هذا مؤثر، أيتها العجوز".

لوّحت فيرجينيا له قائلةً: "وداعًا".

عندما انطلق القطار في رحلته إلى لندن، غادرت المحطة مسرعة بحثًا عن رجل آخر.

سألت شابًا يقف على الرصيف، ويبدو تائهًا بعض الشيء: "هل أنت بولتيمور؟"، كاد شعره الأشقر الفاتح أن يصل إلى كتفيه، وكان يرتدي معطفًا واقيًا من المطر، ويحمل حقيبة صغيرة.

قال لها: "نعم، هذا أنا، سيدتي، ولكنني لم أكن أتوقّع أن تأتي لاصطحابي إلى منزلك".

قالت فيرجينيا، بينما كان السائق يفتح لهما الباب الخلفي للسيارة: "يسعدني ذلك".

في طريق العودة إلى القلعة، أوضحت فيرجينيا سبب دعوة مؤرخ فني من سوثيبنز للحضور، ومشاهدة مجموعة هرتفورد.

فقالت له إن الدوق شعر بالقلق من أن يكون قد أغفل شيئًا ذا قيمة حقيقية من بين تحفه، ويجب

التأكد منه، ونحن نحتفظ بقائمة كاملة تضمَ أسماء تحفه الفنية بالطبع، ولكن نظرًا إلى أن زوجي لا يهتمَ كثيرًا بإرث عائلته، وقد اعتقدت أنه سيكون من المنطقي تقييم ما لديه من تحف قديمة، فبعد كل شيء لا أحد منا له دراية بها.

أجاب بولتيمور: "لقد كنت أتطلَع إلى رؤية المجموعة التي يملكها الدوق، فسماحك لي بمشاهدة مجموعة لم يرها أحد من الناس يُعدَ تميَزًا، وأنا لي دراية بكونستابل كاسل هيرتفورد، وقطعة تيرنر الرئيسية في ميدان سانت مارك، ولكنني لا أطيق الانتظار إلى معرفة الكنوز الأخرى التي في حوزة الدوق.

فكَرت فيرجينيا من دون أن تحبط حماسة الشاب: "أنا أيضًا".

تابع بولتيمور قائلًا: "لم يتطلَب الأمر الكثير من البحث لاكتشاف أن الدوق الثالث، الذي سافر كثيرًا عبر القارة خلال القرن الثامن عشر، كان مسؤولًا عن جمع مثل هذه المجموعة الرائعة".

قالت فيرجينيا: "لكنه لم يكن مسؤولًا عن شراء تيرنر أو كونستابل".

"لا، فقد كانت مهمَة الدوق السابع، كما قام بتكليف غينزبورو برسم صورة لكاترين، دوقة هيرتفورد.

قالت فيرجينيا: "ستجدها معلقة في القاعة"، لقد درست المخزون مسبقًا بتفصيل كبير، قبل أن تتوصَل إلى استنتاج مفاده أن الدوق لن يوافق أبدًا على التخلي عن أي من هذه التحف، إرث عائلة هيرتفورد، ومع ذلك كانت تأمل في أنه خلال الثلاثمائة عام الماضية، تكون قد أفلتت اي تحفة من دون ملاحظتها.

فور وصولها إلى القلعة، لم تضيَع فيرجينيا أي

وقت، ولكنها أخذت الرجل من دار سوثيبنز إلى المكتبة مباشرةً، وقدّمت له ثلاثة مجلدات سميكة مغلفة بالجلد بعنوان مجموعة هيرتفورد.

"سأتركك لتكمل عملك يا سيد بولتيمور، فلا تتردّد في التجول في المنزل، وتذكّر أن هدفك الرئيسي هو محاولة العثور على أي تحفة قد فاتت عائلة هيرتفورد".

قال بولتيمور، وهو يفتح المجلد الأول: "لا أستطيع الانتظار لاكتشاف ذلك".

عندما استدارت للمغادرة، قالت له فيرجينيا: "سيجهز العشاء، يا سيد بولتيمور، عند الساعة الثامنة".

قال بولتيمور في أثناء تناول كوب شيري قبل العشاء: "لقد تمكّنت من التحقق من كل التحف المسجلة في قائمة الجرد، ويمكنني أن أؤكّد أن كل التحف في حالة جيدة، ومع ذلك أعتقد أن التقديرات الحالية لأغراض التأمين أقل بكثير من القيمة الحقيقية للمجموعة".

قالت فيرجينيا: "هذا ليس مفاجئًا، وأشك في أنه إذا كان العديد من الأرستقراطيين يستطيعون تأمين ممتلكاتهم بقيمتها الحالية، أتذكّر أن والدي أخبرني ذات مرة أنه إذا ظهرت الصور العائلية في السوق، فلن يكون قادرًا على شرائها، هل صادفت أي شيء ذي مغزى لم يُحسب حسابه؟".

"حتى الآن لا، ولكن لم تتح لي الفرصة بعد للتحقق من الطابقين العلويين، وهذا ما سأفعله في صباح الغد ما إن أستيقظ من النوم".

قالت فيرجينيا، محاولة إخفاء خيبة أملها: "إنها أماكن الموظفين، لا أعتقد أنك ستجد أي شيء يستحقّ وجودك هناك، ولكن يمكنك تقوم بجولة، بما

أنك حضرت".

قرع الجرس، ثم قادت ضيفها إلى غرفة الطعام.

في صباح اليوم التالي سألت فيرجينيا الخادم عندما نزلت لتناول الفطور: "أين السيد بولتيمور يا لوماكس؟".

"لقد تناول فطوره مبكرًا، سيدتي، وقد رأيته آخر مرة في الطابق العلوي يدوّن ملاحظات حول الصور المعلقة على الجدار".

انعزلت فيرجينيا في المكتبة بعد الفطور وتحقّقت مرة أخرى من قائمة المخزون متسائلة عما إذا كانت هناك تحفة فنية رائعة في مكان ما، لم يكن الدوق مرتبطًا بها بشكل خاص، ليكون على استعداد إلى التخلي عنها، ومع ذلك عندما نظرت إلى التقييمات المنقحة لبولتيمور، لم يكن هناك شيء من شأنه أن يجعلها تستمرّ بالعيش بالطريقة التي تعتبرها جديرة بالدوقة، كان عليها فقط التأكد من رفع مصروفها الشهري من خمسة آلاف جنيه إسترليني إلى عشرة آلاف جنيه إسترليني حتى لا تتضوّر جوعًا، ولكن مزاجها لم يتحسّن عندما أخبرها بولتيمور في أثناء تناول الغداء بأنه لم يجد أي شيء ذي أهمية حقيقية في الطابقين العلويين.

ردّت فيرجينيا: "هذا ليس مستغربًا، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه مقرّ الموظفين".

"لكنني صادفت رسمًا لتيبولو، ولوحةً بالألوان المائية للسير ويليام راسل فلينت يجب إضافتها إلى موجودات المخزون".

قالت فيرجينيا: "أنا في غاية الامتنان، وآمل فقط ألا تشعر بأن زيارتك كانت مضيعة للوقت".

"لا على الإطلاق حضرتك، لقد كانت تجربة ممتعة

للغاية، وإذا كان الدوق قد فكّر في بيع أي شيء من مجموعته، فسيشرّفنا أن نمثّله".

قالت فيرجينيا: "لا أستطيع أن أتخيّل الظروف التي سيحدث فيها ذلك البيع، ولكن إذا حدث ذلك، فسأتصل بك على الفور".

نظر إلى ساعته قائلًا: "شكرا جزيلًا، ما زال لديّ الوقت للتحقق من الطابق الأرضي قبل أن أغادر".

قالت فيرجينيا: "لا أستطيع أن أتخيّل أنك ستجد أي شيء أسفل الدرج، إلا بعض الأواني والمقالي القديمة، والخردة العتيقة التي أخبرت الدوق بأنه كان يجب أن تُستبدل منذ سنوات".

ضحك بولتيمور بصدق، قبل أن ينهي آخر لقمة من حلوى الخبز والزبدة.

قالت فيرجينيا: "ستكون السيارة جاهزة لإيصالك إلى المحطة عند الساعة الثانية والأربعين دقيقة، مما يمنحك متسعًا من الوقت لتلحق برحلة العودة إلى لندن عند الساعة الثالثة وخمس دقائق".

***

كانت فيرجينيا تتحدّث إلى البستاني حول زرع مسكبة زهور جديدة من الفوشيا، وعندما نظرت إلى الأعلى رأت بولتيمور يركض نحوها، فانتظرته حتى يلتقط أنفاسه، قبل أن يقول: "أعتقد أنني ربما وجدت شيئًا قيمًا للغاية، ولكنني سأحتاج إلى مراجعة رئيس القسم الصيني قبل أن أكون متأكدًا تمامًا".

"القسم الصيني؟".

"كدت أن أفوّتها، كانت بعيدًا عن الأنظار في زاوية الممر في الطابق السفلي بالقرب من المخزن".

قالت فيرجينيا وهي تحاول ألا ينفد صبرها:

"تفوّت ماذا؟".

"إنهما مزهريتان كبيرتان باللونين الأزرق والأبيض، لقد راجعت العلامات الموجودة على قاعدتيهما، وأعتقد أنهما ربما يكونان من عهد أسرة مينغ".

حافظت ڤيرجينيا على نبرة صوتها العادية وهي تقول: "هل هي قيّمة بما يكفي لإضافتها إلى قائمة المخزون؟".

"من دون شك، إذا تبيّن أنها أصلية، فقد ظهر زوج مشابه لهما -لكنه كان أصغر من اللتين لدى زوجك- في مزاد علني في نيويورك قبل عامين، وقد بلغ السعر النهائي أكثر من مليون دولار، وقد التقطت بعض الصور لهما، وبالأخص العلامات المميزة على القاعدة، والتي سأعرضها على خبيرنا الصيني بمجرد أن أعود إلى شارع بوند ستريت، وسأراسلك لأعلمك برأيه".

قالت له ڤيرجينيا: "أفضَل أن تتصل بي، فلا أريد رفع آمال الدوق، لأجد بعد ذلك أنه إنذار كاذب".

وعدها بولتيمور قائلًا: "سأتصل بك في وقت ما غدًا".

قالت ڤيرجينيا: "حسنًا، لقد اتفقنا".

عندها وضع الخادم الحقيبة في صندوق السيارة.

"سأقول وداعًا الآن يا سيدتي".

قالت ڤيرجينيا التي انضمّت إليه في الخلف: "ليس بعد، يا سيد بولتيمور".

انتظرت حتى انطلقت السيارة قبل أن تهمس إليه: "إذا قرّر الدوق بيع المزهريتين، فكيف تنصحه أن يقوم بذلك؟".

"إذا أكّد خبيرنا أنهما تعودان إلى عهد أسرة مينغ، فإننا سننصحك أن تبيعيهما، وهو الحل الأنسب

لمثل هاتين القطعتين اللتين لهما أهمية تاريخية كبيرة".

"إذا أمكن، أودَ بيعهما بأقل قدر من الجلبة وبأقصى قدر من حرية التصرف".

قال بولتيمور: "بالطبع، حضرتك، ولكن يجب أن أشير إلى أنه إذا ارتبط اسم هيرتفورد بالمزهريات، فسنتوقَع الحصول على سعرٍ أعلى بكثير، وأنا متأكد من إدراكك لشيئين مهمين عند طرح اكتشاف بهذه الأهمية المحتملة في المزاد، وهو المصدر وزمان ظهور القطعة آخر مرة في السوق، لذلك إذا أمكنكِ الجمع بين اسم هيرتفورد وثلاثمائة عام من التاريخ، فسيكون هذا حلم البائع في المزاد".

قالت فيرجينيا: "نعم، أستطيع أن أرى أن ذلك سيحدث فرقًا، ولكن لأسباب شخصية، قد يرغب الدوق في عدم الكشف عن هويته".

قال بولتيمور بينما كانت السيارة تسير خارج المحطة: "أيا كان ما قرّرت القيام به، فإننا بالطبع سنلتزم برغباتك".

فتح السائق الباب للسماح للدوقة بالخروج.

قالت بينما كان القطار يقترب من المحطة: "أنا أتطلَع إلى أن أسمع منك خبرًا، يا سيد بولتيمور".

"سأتصل بك بمجرد تلقي أي أخبار، ومهما كان القرار الذي ستتخذينه، تأكّدي من أن دار سوثيبنز ستفتخر بخدمتك بأقصى قدر من التكتم".

لم تعد فيرجينيا إلى السيارة، لكنها عبرت جسر المشاة إلى الرصيف رقم اثنين، وانتظرت لبضع دقائق فقط قبل أن يتوقَف قطار لندن، عندها لوَحت للدوق، فبادلها بابتسامة عريضة.

قال وهو ينحني لتقبيلها: "يسرّني أن تأتي

لمقابلتي، أيتها العجوز".

"لا تكن سخيفًا يا بيري، لم أستطع الانتظار لرؤيتك".

سأل الدوق وهو يسلّم مدير المحطة تذكرته: "هل حدث أي شيء مثير للاهتمام في أثناء غيابي؟".

"لقد زرعت مسكبةً من الفوشيا، والذي من المفترض أن يزهر في الربيع، ولكن بصراحة أنا مهتمةٌ أكثر بسماع كل ما حدث خلال عشائك الرسمي".

كان بولتيمور صادقًا في كلامه، فقد اتصل بعد ظهر اليوم التالي لإعلام فيرجينيا بأن السيد لي وونغ، الخبير الصيني في سوثيبنز، قد درس صور المزهريتين، ولا سيما العلامات المميزة الطبوعة على قاعدتيهما، وكان واثقًا إلى حد ما من أنهما تعودان إلى حقبة أسرة مينغ، ومع ذلك أكّد أنه سيحتاج إلى فحصهما شخصيًا قبل تقديم الموافقة النهائية.

ظهر السيد لي وونغ بعد أسبوعين، عندما كان الدوق يزور طبيبه في شارع هارلي لإجراء فحصه السنوي، فلم يكن بحاجة إلى البقاء طوال الليل، حيث كانت بضع دقائق كافية لإقناعه بأن المزهريتين كانتا عملًا فنيًا أثريًا، مما سيثير اهتمام جامعي التحف الصينيين الرائدين في العالم.

بعد قضاء يوم في المتحف البريطاني، غثر على إشارة تؤكّد أن دوق هيرتفورد الرابع قاد بعثة دبلوماسية إلى بكين في وقت ما في أوائل القرن التاسع عشر، نيابة عن حكومة جلالة الملك، ومن المحتمل أن المزهريتين كانتا هدية من الإمبراطور جياكينغ للاحتفال بهذه المناسبة، فاستمرّ السيد لي وونغ بتذكير الدوقة - أكثر من مرة - بأن هذا الدليل

التاريخي سيضيف قيمة كبيرة إلى القطع الأثرية التي يملكها، كما أن هدية من الإمبراطور مينغ إلى دوق، كان يشكّل خبرًا سيثير ضجة في عالم المزاد.

أصيب السيد لي وونغ بخيبة أمل واضحة عندما أخبرته فيرجينيا بأنه إذا استطاع الدوق أن يفترق عن المزهريتين، فمن غير المرجح معرفة العالم بأنه يبيع إرثًا عائليًا.

اقترح الخبير الصيني قائلًا: "ربما يوافق سيادته على التسمية البسيطة، *ملكية رجل نبيل*؟

وافقت الدوقة - التي لم ترافق السيد لي وونغ إلى المحطة -على أنه حل وسطي مرضٍ للغاية، وقد عاد بأمان إلى لندن قبل أن يستقلّ الدوق قطاره متجهًا إلى هيرتفورد.

***

عندما دقّت فيرجينيا باب مكتب الدوق، استرجعت ذكرياتها عندما استدعيت من قبل والدها ليلقي أمامها محاضرة حول عيوبها ونقائصها، أما اليوم فكانوا على وشك أن يخبروها بتفاصيل وصية بيري الدقيقة.

طلب منها في أثناء الفطور أن تنضمَ إليه في مكتبه قرابة الساعة الحادية عشرة، حيث كان يجتمع مع محامي الأسرة في العاشرة لمناقشة محتويات وصيته، وقد ذكّر فيرجينيا بأنها لم تخبره حتى الآن بما ترغب في الحصول عليه.

عند دخولها مكتب زوجها، قام بيري والمحامي على الفور من مكانيهما وظلا واقفين حتى جلست على المقعد بينهما.

قال بيري: "لا يمكن أن يكون توقيتك أفضل من ذلك، لأننا أنهينا للتو صياغة ملحق بالوصية يهمك،

وسيلحقه السيد بلاتشفورد بوصيتي حالًا".

أحنت فيرجينيا رأسها حرجًا.

قال الدوق: "أخشى يا سيد بلاتشفورد، أن زوجتي تجد هذه التجربة برمتها مؤلمة قليلًا، ولكنني تمكّنت من إقناعها بأنه على المرء التعامل مع مثل هذه المواقف إذا لم يكن موظف الضرائب أقرب أقربائك".

أومأ بلاتشفورد إلى الدوق إيماءة حازمة: "أنت لطيف بما يكفي لإطلاع الدوقة على تفاصيل ملحق الوصية، لذلك لا نحتاج أبدًا إلى العودة إلى هذا الموضوع مرة أخرى".

"بالتأكيد، حضرتك".

وتابع كلامه قائلًا: "عند وفاة الدوق، ستحصلين على منزل مع موظفين مناسبين لمساعدتك، كما ستحصلين أيضًا على راتب شهري قدره خمسة آلاف جنيه".

قاطعه الدوق قائلًا: "هل سيكون ذلك كافيًا، أيتها العجوز؟".

قالت فيرجينيا بهدوء: "أكثر من كافٍ يا حبيبي، لا تنسَ أن أخي العزيز لا يزال يمنحني راتبًا شهريًا، لم أستطع إنفاقه قط".

تابع بلاتشفورد: "كما فهمت أن الدوق طلب منك اختيار تذكار شخصي لتتذكّريه دومًا، وأتساءل هل قرّرت ما الذي ستختارينه؟".

لقد مرّ بعض الوقت قبل أن ترفع فيرجينيا رأسها، وتقول: "بيري لديه عصا يتّكئ عليها في أثناء المشي، وستذكّرني به كلما قمت بجولة مسائية حول الحديقة".

"بالتأكيد تريدين شيئًا أكثر قيمة من ذلك، أيتها

العجوز؟".

"لا، سيكون ذلك كافيًا يا عزيزتي".

ظلَت فيرجينيا هادئة لبعض الوقت قبل أن تضيف قائلة: "على الرغم من أنني أعترف بوجود مزهريتين قديمتين مغبرتين أسفل السلالم، لطالما أعجبت بهما، وأرغب في الحصول عليهما إذا استطعت الاستغناء عنهما فقط".

حبست فيرجينيا أنفاسها.

قال بلاتشفورد: "ولكنهما غير مذكورتين في مخزون العائلة، لذا بعد إذن حضرتك، سأضيف عصا المشي جنبًا إلى جنب مع المزهريتين إلى ملحق الوصية، وبعد ذلك يمكنك مراجعة النسخة النهائية".

قال الدوق الذي لم ينزل إلى الطابق السفلي منذ أن كان صبيًا: "بالطبع، بالطبع".

قالت فيرجينيا: "شكرًا لك يا بيري، هذا كرمٌ كبيرٌ منك، في أثناء وجودك هنا يا سيد بلاتشفورد، هل يمكنني أن أطلب توجيهاتك بشأن مسألة أخرى؟".

"بالطبع حضرتكِ".

"أفكّر في كتابة وصية أيضًا".

"هذا تصرّف حكيمٌ جدًا، إذا جاز لي القول يا سيدتي، وسيسرّني أن أحرّر لك وصية، ربما يمكنني تحديد موعد في مناسبة أخرى؟".

"لن يكون هذا ضروريًا يا سيد بلاتشفورد، فأنوي ترك كل ما أملك لزوجي الحبيب".

33

بعد عشرين دقيقة توقَّفت سيارة إسعاف خارج بوابات القلعة، تبعها مسعفان ركضا بسرعة، وقد أرشدتهما فيرجينيا، إلى غرفة نوم الدوق، فرفعاه برفق عن سريره، ووضعاه على نقالة ثم نزلا ببطء إلى الطابق السفلي، فأمسكت فيرجينيا بيد بيري الذي رسم ابتسامة خفيفة على وجهه، وهما ينقلانه إلى سيارة الإسعاف.

ركبت فيرجينيا في سيارة الإسعاف، وجلست بجانب زوجها، ولم تترك يده أبدًا، بينما انطلقت سيارة الإسعاف بسرعة عبر الريف، وبعد عشرين دقيقة وصلوا إلى المستشفى.

كان طبيب وممرضتان وثلاثة ممرضين في انتظارهم، فنُقل الدوق على عربة، وقد عبرت الأبواب المفتوحة باتجاه غرفة خاصة تمَ إعدادها على عجل.

توصَل الأطباء الثلاثة الذين فحصوه إلى النتيجة نفسها، وهي نوبة قلبية خفيفة، وعلى الرغم من أن تشخيصهم لا يثير القلق، فقد أصرَ رئيس الأطباء على بقائه في المستشفى لإجراء المزيد من الفحوصات والتحاليل.

***

زارت فيرجينيا بيري في المستشفى كل صباح، وعلى الرغم من أنه أخبرها مرارًا وتكرارًا بأنه كان بصحة جيدة تمامًا، إلا أن الأطباء لم يوافقوا على خروجه حتى يقتنعوا بأنه تعافى تمامًا، وقد أوضحت له فيرجينيا، أن عليه تنفيذ أوامر الأطباء حرفيًا.

في اليوم التالي، اتصلت هاتفيًا بأولاد الدوق

الثلاثة، وأخبرتهم بتشخيص الأطباء، وهو إصابته بنوبة قلبية خفيفة، وأنه طالما سيمارس بعض التمارين، ويتوخى الحذر في نظامه الغذائي، فسيعيش لسنوات عديدة أخرى، كما أكدت ڤيرجينيا لهم أن الأطباء لم يجدوا أنه من الضروري أن يعود إلى المنزل، وأنها تتطلع إلى رؤيتهم جميعًا في عيد الميلاد.

لم يؤدّ اتباع نظام غذائي يتكوّن من البطيخ والسمك المسلوق والسلطات الخضراء من دون تتبيلة إلى تحسين مزاج الدوق، وعندما أخرجوه أخيرًا بعد أسبوع، أعطى الأطباء ڤيرجينيا قائمة بـ"ما يجب تناوله وما لا يجب تناوله: "لا سكر ولا كربوهيدرات، ولا طعام مقلي، وكأس نبيذ واحد فقط في أثناء تناول العشاء شرط ألا يتبعه براندي أو سيجار، كما أوضحت لهم أن الأهم من ذلك، أن يمشي في الهواء الطلق لمدة ساعة في اليوم.

أعطى الأطباء ڤيرجينيا نسخة من النظام الغذائي الموصى به في المستشفى، والذي وعدت بأنها ستطبّقه فور وصولهما إلى المنزل.

لم تلمَ الطاهية مطلقًا بأوراق الحمية، فسمحت للدوق بأن يبدأ يومه كما اعتاد دومًا، وبدأ بوعاء من العصيدة والسكر البني، يليه البيض المقلي، والنقانق، ولحم الخنزير المقدد والفاصولياء المطبوخة المفضلة لديه، ورافق ذلك التوست الأبيض مع الزبدة والمربى، ثم قهوة ساخنة مع ملعقتين من السكر، وبعد ذلك انعزل في مكتبه ليقرأ صحيفة التايمز، وقد تُركت قطعة من الحلوى على ذراع كرسيه، وقرابة الساعة الحادية عشرة والنصف، كان الخادم الشخصي يحضر له كوبًا من الشوكولاتة الساخنة وقطعة من كعكة القهوة. في

حال شعر بالجوع، مما جعله يستمرّ بالعمل حتى حان موعد تناول الغداء.

تكوَّن طعام الغداء من السمك، تمامًا كما أوصى الأطباء، إلا أنه لم يكن مسلوقًا، بل مقليًا بعد أن ذهن بخلطة خاصة، مع طبق كبير من الرقائق في متناول اليد، وبودنغ الشوكولاتة - وإن لم يذكر الأطباء الشوكولاتة - التي نادرًا ما يرفضها الدوق، ويلي الغداء المزيد من القهوة وسيجاره الأول خلال اليوم.

سمحت له فيرجينيا بقيلولة بعد الظهر، وقبل إيقاظه للقيام بنزهة طويلة حول العقار حتى يتمكّن من زيادة شهيته لتناول وجبته التالية، وبعد تناول العشاء سيستمتع الدوق بارتشاف الشيري، وربما كأسين اثنتين قبل الذهاب إلى غرفة الطعام، وبينما كانت فيرجينيا تهتمَ بشكل خاص باختيار النبيذ الذي سيحتسيانه في أثناء تناول طعامهما، كان الطباخ يدرك جيدًا أن الدوق لا يحبَ أكثر من تناول شريحة لحم من الخاصرة مع البطاطس المشوية ومختلف أنواع المقبلات، كما شعرت الطباخة بأن أقل واجباتها أن تحافظ على سعادة سيدها، إن لم تكن هناك وسيلة تساعد في شفاء كل الأمراض؟ وبعد تناول طعام العشاء، كان الخادم الشخصي يسكب البراندي في كأس الدوق، ويجهَز سيجاره الهافانا قبل إشعاله.

في النهاية عندما يستلقيان في الفراش، كانت فيرجينيا تبذل كل ما في وسعها لإثارة الدوق، على الرغم من أنها نادرًا ما كانت تنجح في خطتها، إلا أنه كان ينام بعد ذلك منهكًا.

حافظت فيرجينيا على روتينها اليومي خاشعة لأدنى نزوة لزوجها بحماسة، بينما كانت تُظهر

للجميع أنها مهتمة بصحته ومتفانية في خدمته، ولم تدل بأي تعليق عندما لم يعد قادرًا على تزرير قمصانه ورفع سحاب بنطاله، أو ينام لفترات طويلة خلال فترة ما بعد الظهر، بل كانت تخبر أي شخص يسأل عن حالته: "إنني أجده أكثر لياقة من قبل، ولن يفاجئني إذا عاش مئة عام"، على الرغم من أن هذا لم يكن تمامًا ما كان يدور في ذهنها.

***

قضت فيرجينيا وقتًا طويلًا في التحضير لميلاد بيري الثاني والسبعين، فكانت مناسبة خاصة -كما وصفتها للجميع - والتي يجب أن يُسمح فيها للدوق لمرة واحدة فقط بالانغماس في الملذات.

بعد الاستمتاع بفطور شهي، ذهب بيري إلى الصيد مع أصدقائه حاملًا بندقية بيردي المفضلة لديه تحت ذراعه، وقارورة ويسكي في جيبه، فكان في قمة نشاطه ذلك الصباح، وقد اصطاد واحدًا وعشرين طائرًا قبل أن يعود متعبًا إلى القلعة.

وقد ارتفعت معنوياته عند رؤية مائدة مجهَّزة بألذّ المأكولات من دجاج غينيا ونقانق وبصل وبطاطس مقلية وحساء دسم، وماذا يمكن أن يطلب الرجل من أصدقائه في تلك المناسبة أكثر من رفع نخب، وفي الحال رفعوا كؤوسهم نخب صحته، وبعد أن غادر آخر ضيف عند المغيب، غرق في نوم عميق.

قال لها عندما أيقظته فيرجينيا في الوقت المناسب لتناول العشاء: "إنك تعتنين بي جيدًا أيتها العجوز، وأنا أكثر رجل محظوظ في العالم".

قالت فيرجينيا وهي تقدَم إليه هدية عيد ميلاده: "حسنًا، إنها مناسبة خاصة يا عزيزي"، لمعت عيناه عندما تخلَص من ورق التغليف ليكتشف علبة سيجار روميو وجولييت.

أعلن قائلًا: "إنها المفضلة لدى تشرشل".

ذكَرته فيرجينيا قائلةً: "لقد عاش أكثر من تسعين عامًا".

في أثناء تناول العشاء، بدا الدوق متعبًا بعض الشيء، ومع ذلك تمكّن من إنهاء الحلوى قبل الاستمتاع بكأس من البراندي وأول سيجار تشرشل، وأخيرًا عندما صعدا الدرج بعد منتصف الليل بقليل، كان عليه أن يتشبث بالدرابزين، وهو يكافح ليصعد خطوة خطوة، وذراعه الأخرى حول كتفي فيرجينيا.

عندما وصلا إلى غرفة النوم، تمكَن من التحرك بضع خطوات فقط قبل أن ينهار على السرير، فبدأت فيرجينيا بخلع ملابسه ببطء، ولكنه نام قبل أن تخلع حذاءه.

ما إن أنهت فيرجينيا خلع ملابسها، حتى انضمت إلى بيري في السرير، فكان يشخر وقد ارتسمت على وجهه ملامح الرضى والسكينة، وهي ملامح لم تظهر على وجهه أبدًا، ثم أطفأت الضوء وخلدت إلى النوم.

***

عندما استيقظت فيرجينيا في صباح اليوم التالي، استدارت لتجد الابتسامة لا تزال على وجه الدوق، فسحبت الستائر، وعادت إلى السرير ونظرت إليه نظرة فاحصة، فاعتقدت أنه بدا شاحبًا قليلًا، ففحصت نبضه، ولكنها لم تشعر به، فجلست عند طرف السرير وفكَرت مليًا في ما يجب أن تفعله.

أزالت أي أثر للسيجار والبراندي، واستبدلتهما بوعاء من المكسرات وإبريق من الماء بالليمون، ثم فتحت النافذة لدخول بعض الهواء المنعش، وبمجرد أن تفقدت الغرفة للمرة الثانية بدقة،

جلست إلى منضدة الزينة الخاصة بها، ووضعت مكياجها، وسرّحت شعرها.

انتظرت فيرجينيا بضع لحظات قبل أن تأخذ نفسًا عميقًا، وتطلق صرخة قوية، ثم هرعت إلى الباب، وللمرة الأولى منذ أن تزوّجت بيري، غادرت غرفتها مرتدية ثوب النوم، ونزلت إلى الطابق السفلي، وفي اللحظة التي رأت فيها لوماكس، ارتجف صوتها، وقالت: "اتصل بسيارة الإسعاف، أصيب الدوق بنوبة قلبية أخرى".

على الفور التقط الخادم سماعة الهاتف في القاعة.

وصل الدكتور أينسلي بعد ثلاثين دقيقة، في الوقت الذي ارتدت فيه فيرجينيا ملابسها، وكانت تنتظره في القاعة، فرافقته إلى غرفة النوم، ولم يستغرق الأمر فحصًا طويلًا قبل أن يخبر الدوقة الأرملة بما عرفته بالفعل.

أجهشت فيرجينيا بالبكاء ولم يتمكّن أحد من مواساتها، ومع ذلك، تمكّنت من إرسال البرقيات إلى كلارنس وأليس وكاميلا، بعد أن أمرت الخادم الشخصي بنقل المزهريتين الزرقاء والبيضاء من ممر الخدم ووضعهما في غرفة نوم الدوق، فشعر لوماكس بالحيرة من هذا الطلب.

كان السائق أكثر حيرة عندما تمّ توجيهه إلى أخذ المزهريتين إلى لندن، ووضعهما في سوثيبنز قبل الذهاب إلى هيثرو لاصطحاب كلارنس وإعادته إلى قلعة هيرتفورد.

اتشحت الدوقة الأرملة بالسواد، وهو اللون الذي يناسبها، وخلال وجبة فطور خفيفة، قرأت نعي الدوق في *التايمز*، الذي احتوى على مديح مسهب، بينما كانت الإنجازات قصيرة، ومع ذلك كانت هناك جملة واحدة رسمت الابتسامة على وجهها، وهي

مات دوق هيرتفورد الثالث عشر بسلام خلال نومه.

34

فكّرت فيرجينيا جيدًا في طريقة تصرفها خلال الأيام القليلة المقبلة، وما إن تتفرَق العائلة ويذهب كل فرد في طريقه بعد الجنازة، كانت تعتزم إجراء تغييرات جذرية إلى حد ما في قلعة هيرتفورد.

كان الدوق الرابع عشر أول فرد يصل من العائلة، وكانت فيرجينيا تقف على أعلى درجة بانتظار الترحيب به، وبينما كان يصعد باتجاهها، نظرت نظرة خاطفة، للتعرف إلى النظام الجديد.

قال لها كلارنس: "يا لها من مناسبة حزينة بالنسبة إلينا جميعًا، يا فيرجينيا! ولكن على الأقل أراحني كثيرًا معرفة أنك كنت بجانبه حتى النهاية".

"لطفٌ منك أن تقول ذلك يا كلارنس، وأنا أيضًا أراحني أن عزيزي بيري لم يعانِ من الألم عند وفاته".

"نعم، شعرت بالارتياح لسماع أن أبي مات بسلام خلال نومه، لنكن شاكرين على هذه الرحمة".

قالت فيرجينيا: "آمل ألا يمرّ وقت طويل قبل أن أنضمَ إليه، لأنني -مثل الملكة فيكتوريا - سأحزن لموت زوجي العزيز حتى يوم وفاتي".

ظهر الخادم الشخصي واثنان من الخدم وبدأوا بتفريغ السيارة، فقالت فيرجينيا: "لقد جهّزت غرفتك القديمة في الوقت الحالي، ولكن بالطبع سأنتقل إلى دويرهاوس ما إن يدفن عزيزي بيري".

قال كلارنس: "لا داعي للعجلة، سأعود إلى عملي بعد الجنازة، وعلى أي حال سنضطرَ إلى الاعتماد عليك للحفاظ على سير الأمور في أثناء غيابي".

"سأكون سعيدةً بالقيام بكل ما في وسعي، لماذا لا نناقش ما يدور في ذهنك فور توضيب أمتعتك

وتناولك طعام الغداء؟".

تأخر الدوق بضع دقائق عن تناول الغداء، فاعتذر منها موضحًا أن العديد من الأشخاص قد اتصلوا به هاتفيًا، وطلبوا رؤيته على عجل.

لم تستطع فيرجينيا سوى أن تتساءل عن هوية المتصلين به، ولكنها قالت له بإصرار: "إذا كنت موافقًا أعتقد أن علينا إقامة الجنازة يوم الخميس".

قال لها الدوق: "يسرَني أن ألتزم برغباتك، وربما يمكنك التفكير أيضًا في ترتيب الخدمة، واقتراح من تعتقدين أنه يجب دعوته إلى حفل الاستقبال بعد ذلك؟".

"بدأت بالفعل بإعداد القائمة، وستحصل عليها اليوم".

"شكرًا لك يا فيرجينيا، كنت أعلم أنه يمكنني الاعتماد عليك، فلديَ بعض الاجتماعات التي سأحضرها بعد ظهر هذا اليوم، لذا آمل في أن تكوني متيقظة عندما تصل أليس".

"بكل تأكيد، ومتى تتوقَع وصول كاميلا وعائلتها؟".

"في وقت لاحق من هذا المساء، وسأكون في مكتب والدي".

قالت فيرجينيا بهدوء: "مكتبك".

"قد يستغرق الأمر بعض الوقت لأعتاد على ذلك، هل يمكن أن تبلغيني عندما تصل أليس؟".

***

كانت فيرجينيا تعمل على قائمة الضيوف الذين أرادت حضورهم الاستقبال الخاص بعد الجنازة، وأولئك الذين لم ترد حضورهم أيضًا، وعندما وقفت سيارة أجرة خارج القلعة وخرجت أليس، مرة أخرى

أخذت مكانها في أعلى الدرج.

كانت أولى كلمات أليس وهي ترحّب بها: "فيرجينيا المسكينة".

"كيف حالك؟".

"لست بخير، لكن الجميع كانوا لطفاء ومتفهمين، وهو ما أراحني بشكل كبير".

قالت أليس: "بالطبع سيكونون كذلك، فبعد كل شيء كنت توأم روحه، وصخرته الصلبة التي كان يستند إليها".

قالت فيرجينيا بينما قادت أليس عبر الدرج إلى غرفة نوم الضيوف التي اختارتها لها: "لطفٌ منك أن تقولي ذلك سأخبر كلارنس أنك هنا".

نزلت إلى الطابق السفلي، ودخلت إلى مكتب الدوق من دون أن تطرق الباب، لتجد كلارنس يجري محادثة جدية مع السيد موكستون، مدير العقارات، فوقف كلا الرجلين على الفور عندما دخلت المكتب.

طلبت مني إخبارك عندما تصل أليس، لقد اخترت لها غرفة كارلايل، وآمل في أن تتمكّن من الانضمام إلينا لتناول الشاي خلال نصف ساعة تقريبًا".

قال الدوق معترضًا دخولها المفاجئ: "قد لا يكون ذلك ممكنًا"، من الواضح أنه لم يكن سعيدًا بمقاطعتهما، الأمر الذي أقلق فيرجينيا إلى حد ما، فغادرت من دون أن تنطق بكلمة أخرى، وتراجعت إلى غرفة الرسم، حيث جلس مونتغومري، كلب بيري العجوز، وبدأ يهزّ ذيله، فجلست بالقرب من الباب المفتوح، مما سمح لها بمراقبة حركة المجيء والذهاب في الممر الخارجي، وكانت تنوي التحدث إلى كلارنس حول استبدال موكستون في المستقبل البعيد.

الشخص التالي الذي دخل إلى مكتب الدوق كان الخادم الشخصي، الذي لم يخرج من المكتب إلا بعد أربعين دقيقة أخرى، ثم اختفى أسفل السلالم، ليعود بعد لحظات برفقة الطاهية، التي لم تستطع فيرجينيا تذكر رؤيتها طوال الوقت في الطابق الأرضي.

مرَت عشرون دقيقة أخرى قبل أن تظهر الطاهية من جديد لتعود إلى الطابق السفلي، فلم يكن أمام فيرجينيا إلا أن تتساءل ما الذي جعلها تبقى كل هذه الفترة الطويلة في المكتب، إلا إذا كانوا قد ناقشوا قائمة الاستقبال، وهي مسؤولية كان يفترض أن يتركها لها الدوق.

سمعت فيرجينيا قرعًا قويّا على الباب الأمامي، ولكن قبل أن تتمكّن من النهوض لمعرفة القادم، ظهر لوماكس وفتح الباب.

قال للزائر: "مساء الخير يا دكتور إينسلي، حضرة الدوق في انتظارك".

في أثناء عبورهما القاعة، خرج موكستون من المكتب وصافح الدكتور إينسلي، ثم غادر المنزل بسرعة.

على الرغم من أنه لا يمكن ألا يلاحظ فيرجينيا التي كانت تقف عند مدخل غرفة الرسم، إلا أنه لم ينظر إليها، وفي جميع الأحوال سوف تتخلّص منه فور عودة الدوق إلى كتيبته.

كانت فيرجينيا مسرورة لرؤية أليس تنزل على الدرج، فخرجت من غرفة الرسم مسرعة للانضمام إليها، وقالت لها من دون انتظار رد: "هل نذهب لرؤية أخيك؟ فأعلم أنه كان يتطلّع إلى رؤيتك"، أضافت وقد فتحت باب المكتب ودخلت من دون أن تطرقه، ومرة أخرى نهض كلا الرجلين من

مكانيهما.

"نزلت أليس للتو من غرفتها، فأخبرتها أنك تريد رؤيتها على الفور".

قال كلارنس معانقًا أخته: "بالطبع، إنه أمر رائع أن أراك يا عزيزتي".

"اعتقدت أننا سنشرب الشاي معًا في الصالون".

قال كلارنس: "هذا أمر رائع يا فيرجينيا، لكنني أودَ الانفراد بأختي بعض الوقت، إذا لم يكن لديك مانع".

بدت أليس مندهشة من نبرة صوت شقيقها المتعالية، فترددت فيرجينيا للحظة قبل أن تقول: "نعم، بالطبع"، وعادت إلى غرفة الرسم، ولكن هذه المرة لم يرفع مونتغومري رأسه.

خرج الدكتور أينسلي من المكتبة بعد عشرين دقيقة، وغادر أيضًا من دون بذل أي جهد لتقديم احترامه للأرملة الحزينة، فانتظرت فيرجينيا بصبر أن يستدعيها الدوق للمكتب، ولكن لم يحصل هذه الاستدعاء، وعندما بدأت الخادمة - التي لم تتذكَر اسمها أبدًا - بإشعال الأضواء في جميع أنحاء المنزل، قرَرت أن الوقت قد حان لتناول العشاء، وكانت قد خرجت من الحمام عندما وقفت سيارة هيردا أمام القلعة، فتوجَهت إلى النافذة لترى أن كلارنس يستقبل كاميلا وعائلتها.

ارتدت ملابسها بسرعة، وبعد عدة دقائق فتحت باب غرفة نومها، ورأت الخادم الشخصي والطفلين يتَجهان نحو الجناح في الزاوية، والذي لم تخصَصه لهم.

سألت فيرجينيا: "أين والدتكما؟".

ركض الأطفال، ولكن لوماكس هو من أجابها قائلًا: "طلب سيادته من السيدة كاميلا وزوجها الانضمام

إليه في المكتب، وقد أكّد على عدم إزعاجهم".

أغلقت فيرجينيا الباب خلفها، ولم تعرف أبدًا لماذا لوماكس خاطبها بهذا الجفاء، فحاولت التركيز على مكياجها، ولكنها تساءلت عما كانوا يناقشونه في مكتب الدوق القديم، فافترضت أنه سيتمّ الكشف عن كل شيء في أثناء تناول العشاء.

بعد نصف ساعة، توجّهت فيرجينيا ببطء إلى الطابق السفلي، وعبرت القاعة، ثم دخلت غرفة الرسم، لتجد أن لا أحد آخر هناك، فجلست وانتظرت، ولكن لم ينضمّ إليها أحد، وعندما قُرع الناقوس عند الساعة الثامنة، شقّت طريقها إلى غرفة الطعام، لتجد أن الطاولة مجهّزة لشخص واحد.

ظهر لوماكس وهو يحمل سلطانية صغيرة من الحساء، فسألته فيرجينيا: "أين باقي أفراد الأسرة؟".

قال لها من دون توضيح: "إن سيادته والليدي كاميلا والليدي أليس تناولوا عشاءً خفيفًا في المكتبة".

ارتجفت فيرجينيا، على الرغم من أن النار كانت مشتعلة في الموقد، وقالت له: "والأطفال؟".

"لقد تناولوا طعامهم بالفعل، ولأنهم كانوا متعبين بعد رحلتهم الطويلة خلدوا مباشرة إلى النوم".

سيطر عليها شعور بالخطر، وحاولت إقناع نفسها بأن لا شيء يدعو للقلق، ولكن من دون أي نتيجة، فانتظرت حتى الساعة التاسعة في الصالة، ثم غادرت غرفة الطعام، واتجهت ببطء إلى غرفتها في الطابق العلوي، وخلعت ملابسها واستلقت في الفراش، لكنها لم تستطع أن تغفو، فهي لم تشعر قط بمثل هذه الوحدة من قبل.

***

في صباح اليوم التالي شعرت فيرجينيا بالارتياح عندما انضمَ إليها كلارنس وأليس لتناول الفطور، إلا أن المحادثة كانت متكلفة ورسمية، كما لو أنها امرأة غريبة تقيم في منزلهما.

بادرت فيرجينيا إلى القول: "لقد أكملت ترتيب الخدمة، وفكَرت في أنه ربما...".

قاطعها كلارنس قائلًا: "لا داعي لإضاعة المزيد من وقتك في التحضيرات، فأنا على موعد مع الأسقف في العاشرة صباحًا، وقد اتفقت معه على كل تفاصيل الحفل منذ بعض الوقت".

"وهل توافقني الرأي في إقامته يوم الخميس".

قال كلارنس بحزم: "لا، إنه يوصي بيوم الجمعة، والذي سيكون أكثر ملاءمة لأصدقاء والدي الذين سيحضرون من لندن".

تردّدت فيرجينيا قبل أن تقول: "وقائمة الضيوف، هل ترغب في رؤية توصياتي؟".

قالت أليس: "استقررنا على القائمة النهائية الليلة الماضية، ولكن إذا كان لديك اسم أو اسمان تريدين إضافتهما فأخبريني بذلك".

سألت فيرجينيا وهي تحاول ألا تبدو يائسة: "أليس هناك أي شيء يمكنني القيام به للمساعدة؟".

قال كلارنس: "لا، شكرًا لك، لقد فعلت ما يكفي بالفعل"، طوى منديله ونهض من مكانه.

وأردف قائلًا: "اعذريني من فضلك، لا أريد أن أتأخر على الأسقف"، غادر المكان من دون أن يتفوَه بأي كلمة أخرى.

قالت لها أليس: "عليَ إنجاز الكثير من الأعمال، لأن كل شيء يجب أن يكون جاهزًا بحلول يوم

الجمعة".

بعد الفطور، تجوّلت فيرجينيا في الحديقة، محاولة أن تفهم سبب هذا التغيير المفاجئ في المواقف، إلا أن حقيقة أنها لا تزال تحتفظ بدوير هاوس وخمسة آلاف جنيه إسترليني شهريًا، ومزهريتي مينغ اللتين أكّد السيد لي وونغ أنهما تساويان مليونًا، جعلتها على الأقل تشعر ببعض الراحة، ولكن ابتسامتها قد اختفت عندما رأت كاميلا وزوجها يخرجان من مكتب مدير العقارات.

تناولت فيرجينيا الغداء بمفردها، ثم قرّرت الذهاب إلى المدينة لشراء بعض الملابس الجديدة، حيث كانت تنوي التخلص من احتياجات الأرملة لحظة مغادرتهم جميعًا، وعندما عادت إلى القلعة في ذلك المساء، لاحظت الضوء القادم من أسفل باب المكتبة، وقد استطاعت سماع صوت كاميلا الحاد.

تناولت فيرجينيا العشاء بمفردها في غرفتها، وفكرة واحدة كانت تدور في ذهنها باستمرار، وهي تمنّي لو أن بيري لا يزال على قيد الحياة.

***

عندما دخلت فيرجينيا دير سانت ألبانز كان مكتظًا بالفعل، وقد رافق المرشد الكبير الأرملة الدوقة عبر الممر إلى مقعد في الصف الثاني، فلم تقدر على الاحتجاج بينما كانت ألف عين تراقبها.

عندما دقّت ساعة الكاتدرائية الدقات الأولى من الإحدى عشرة دقة، وبدأ عزف الأرغن، نهض المصلون نهضة رجل واحد.

كان التابوت ملفوفًا بالزخارف والأوسمة، وقد عبر في الممر محمولًا على أكتاف ستة حراس، تلاهم أفراد العائلة مباشرة، وبمجرد وضعه على النعش في القنصلية، أخذ الدوق وشقيقتاه وأبناء شقيقته

أماكنهم في الصف الأمامي، من دون أن ينظروا إلى الخلف.

كانت الخدمة ضبابية بالنسبة إلى فيرجينيا، فلم يُسمح لها بالتقدم إلى الأمام إلا لإلقاء حفنة من التراب على التابوت قبل أن تعود إلى الصف الثاني، وبمجرد مغادرة العائلة وعدد قليل من الأصدقاء المقربين المقبرة، كان عليها أن تعود إلى القلعة برفقة بيرسي عم الدوق، الذي وافقها الرأي في أنه لا بد من وجود رقابة، ولكنهم كانوا جميعًا تحت الضغط كبير.

خلال حفل الاستقبال، خالطت فيرجينيا الضيوف، فكان بعضهم لبقين ومتعاطفين معها فقدَموا إليها التعازي، بينما ابتعد الآخرون عنها في اللحظة التي اقتربت منهم، ومع ذلك فقد تمَ تفادي الإهانة الكبرى إلى أن غادر آخر ضيف، وحان موعد تحدث كلارنس إليها لأول مرة خلال ذلك اليوم.

قال لها: "بينما كنت في الخدمة، تمَ حزم جميع ممتلكاتك ونقلها إلى دويرهاوس، وهناك سيارة تنتظر أن توصلك على الفور، وسيكون هناك اجتماع عائلي في مكتبي عند الساعة الحادية عشرة صباح الغد، وأتمنى أن تحضريه، ثم أضاف قائلًا: "هناك بعض الأمور الجادة التي أودَ مناقشتها معك"، لقد ذكَرها أسلوبه الحازم بوالدها.

من دون أن ينطق الدوق بأي كلمة أخرى، اتجه إلى الباب الأمامي، وفتحه منتظرًا مغادرتها مكتبه لتقضي أول أيامها في المنفى.

في اليوم التالي، وصلت سيارة لتنقلَها إلى القلعة، التي كانت قبل أيام قليلة فقط عالمها الوحيد.

انفتح الباب الأمامي للقلعة عندما اقتربت السيارة، وبعد عبارة روتينية: "صباح الخير يا سيدتي"،

رافقها الخادم الشخصي إلى مكتب زوجها القديم، فقرع لوماكس الباب بهدوء ثم فتحه، ووقف جانبًا للسماح للدوقة بالدخول.

قال كلارنس وهو ينهض من مكانه خلف المكتب: "صباح الخير"، وانتظر حتى جلست فيرجينيا على الكرسي الوحيد المتاح لها، فابتسمت لشقيقتيه، ولكنهما لم تبادلاها الابتسامة.

بدأ كلارنس بكلامه قائلًا: "شكرًا لقدومك، فقد وجدنا أنه من المفيد إخبارك بما خططنا للقيام به في المستقبل".

كان لدى فيرجينيا شعور بأنه يعني: "مستقبلك".

قالت له: "هذه مراعاة من قبلك".

"أعتزم تقديم تقرير إلى فوجي خلال أيام قليلة، ولن أعود قبل عيد الميلاد، وأليس ستعود إلى نيويورك يوم الاثنين".

سألت فيرجينيا وهي تأمل في أن يعودوا إلى رشدهم: "إذًا من سيدير الفلكية؟".

"أوكلت هذه المسؤولية إلى شين وكاميلا - بناء على رغبة والدي - بعد أن وافقني على رغبتي في أن أكون جنديًا دائمًا، لأنني لم أخلق لأكون مزارعًا، وسيعيش شين وكاميلا والطفلان في القلعة، لتحقيق رغبة أخرى لوالدي".

قالت له فيرجينيا: "هذا منطقي للغاية، ولكن آمل في أن تسمحوا لي بالمساعدة، على الأقل خلال الفترة الانتقالية؟".

تحدَثت كاميلا للمرة الأولى قائلة: "لن يكون ذلك ضروريًا، فقد تلقينا عرضًا جيدًا لمزرعتنا في نيوزيلندا، وسيعود زوجي لإتمام عملية البيع والتعامل مع أمور شخصية أخرى، وبعد ذلك سيعود

لتولي إدارة العقار،
ويمكنني تسيير الأعمال بمساعدة السيد موكستون، حتى يعود".
"لقد فكّرت فقط..."
قالت كاميليا: "لا داعي لذلك".
قال كلارنس: "لقد فكّرنا في كل شيء، وأخشى يا فيرجينيا، أن هناك مسألة أخرى يجب أن أناقشها معك".
تململت فيرجينيا في مقعدها بقلق.
قال كلارنس، وهو يقلب الصفحة الثالثة من الوثيقة التي وقّعت عليها فيرجينيا: "لقد لفت انتباهي السيد موكستون إلى أن والدي ومن دون علمي، قد منحك قرضًا بقيمة مئة وخمسة وثمانين ألف جنيه إسترليني، ولحسن الحظ، كان لدى موكستون الحسَ الواعي لإضفاء الطابع الرسمي على المبلغ الذي اقترضته منه"، تمنّت فيرجينيا فجأة لو أنها قضت وقتًا أطول في قراءة أول صفحتين.
كانت مدة القرض خمس سنوات بمعدل فائدة خمسة في المئة، ومن أبرز شروطه أنه في حال توفي أبي قبل تسديد القرض، عليك دفع المبلغ بالكامل خلال ثمانية وعشرين يومًا.
لقد استشرت محاسبي الخاص، وقد أخبرني - وقد ركّز انتباهه إلى رسالة ملقاة على المكتب - بأن المبلغ المحدد مع الفائدة المتراكمة يصل حاليًا إلى 209145 جنيهًا إسترلينيًا، لذلك يجب أن أسألك، يا فيرجينيا، إذا كان لديك ما يكفي من المال لتغطية هذا المبلغ.
"لكن بيري أخبرني بأنه إذا مات قبلي، وأنا أتذكر

كلماته حرفيًا: *سجلك سيصبح نظيفًا*".

سألتها كاميلا: "هل لديك أي دليل على ذلك؟".

'لا، لكنه قال كلمته التي ينبغي بالتأكيد أن تكون كافية".

قالت كاميلا: "نحن لا نناقش كلماته، بل كلماتك".

قال لها كلارنس: "وإن فعل ذلك، فهو بالتأكيد لم يُعلم موكستون بأي ترتيب من هذا القبيل، كما لم يذكر ذلك في الاتفاقية الأصلية، التي وقّعها والدي أيضًا". فاستدار كلارنس حتى تتمكّن فيرجينيا من رؤية التوقيع الذي تعرفه جيدًا.

قالت متلعثمة، وهي غير قادرة على التفكير في أي شيء آخر: "سأضطرَ إلى استشارة محاميّ".

قالت أليس: "لقد استشرنا محامينا، وأكّد السيد بلاتشفورد أنه لم يذكر أبي في وصيته، أي هدية من هذا القبيل، بل ورد فقط مبلغ خمسة آلاف جنيه إسترليني، وعكّازه ومزهريتان من الخزف".

كبتت فيرجينيا ابتسامتها.

وتابع كلارنس قائلًا: "إذا كنت غير قادرة على سداد القرض، فقد توصّل محاسبنا إلى حل وسط، وآمل أن تجديه مقبولًا".

عاد إلى الرسالة: "إذا حجبنا مخصصاتك الشهرية البالغة خمسة آلاف جنيه، فسيتمّ سداد المبلغ بالكامل خلال أربع سنوات تقريبًا، وبذلك نستردّ القرض".

قاطعته كاميليا قائلة: "ومع ذلك، إذا توفّيت خلال الأربع سنوات القادمة، دعيني أؤكّد لك، أن سجلك سيصبح نظيفًا".

ظلت فيرجينيا صامتة لبعض الوقت قبل أن تصيح به: "ولكن كيف سأتمكّن من العيش خلال تلك

المدة؟".

قال كلارنس: "لقد أخبرني والدي، في أكثر من مناسبة، بأن أخاك يمنحك راتبًا شهريًا سخيًا، فقد قلت له ذات مرة إنك لم تكوني قادرةً على إنفاقه، لذلك كنت أفترض...".

"لقد أوقف دفع هذا الراتب يوم تزوجت من والدك".

"نأمل في أنه ما إن يعرف ظروفك الحالية، سيكون على استعداد إلى إعادة مخصصاتك، وإلا فسيتعيّن عليك الاعتماد على أصولك الكبيرة، والتي ذكرتها لوالدي أيضًا، أما إذا كنت قادرةً على سداد كامل مبلغ القرض خلال ثمانية وعشرين يومًا، فسيؤدّي ذلك إلى حل المشكلة برمتها.

أحنت فيرجينيا رأسها وأجهشت بالبكاء، ولكن عندما نظرت إلى الأعلى، كان من الواضح أن أحدًا منهم لم يتأثر بألمها.

قالت كاميلا: "ربما تكون هذه فرصة جيدة لنا لمناقشة بعض الأمور المنزلية، كما أوضح أخي، سيتولَى زوجي إدارة العقار، وستعيش عائلتنا هنا في القلعة، وكلارنس وأليس سيزوران المكان من وقت إلى آخر، ولكن في غياب أخي، سأكون سيدة قلعة هيرتفورد"، انتظرت كاميليا اختيار كلماتها قبل أن تكمل: "كما أودَ أن أوضح، حتى لا يكون هناك سوء فهم في المستقبل، أنك لن تكوني موضع ترحيب هنا في أي وقت، وهذا يشمل عيد الميلاد أو أي عطلة أخرى، كما أنك لن تحاولي الاتصال بأي من طفلي أو بأعضاء طاقم القلعة، وقد أوضحت للسيد لوماكس أمنياتي".

نظرت فيرجينيا إلى كلارنس ثم إلى أليس، ولكن كان واضحًا أن الأسرة كانت قد اتفقت على رأي

واحد.

قال لها كلارنس: "ما لم يكن لديك ما تسألين عنه حول ما يتعلق بترتيبات حياتك المستقبلية، فليس لدينا أي شيء آخر نناقشه معك".

35

نهضت فيرجينيا من مكانها، وبعد شعورها بانتقاص قدرها غادرت الغرفة للحفاظ على ما بقي لها من الكرامة، فسارت ببطء في القاعة نحو الباب الأمامي، الذي فتحه الخادم الشخصي من دون أن ينطق بكلمة، وهكذا خرجت من القلعة للمرة الأخيرة، وكل ما سمعته كان صوت صرير الباب وهو يغلق خلفها.

كان باب آخر قد فُتح لمرورها عبره، والعودة إلى دوير هاوس، وفور وصول فيرجينيا إلى منزلها، توجَهت مباشرة إلى مكتبها، والتقطت سماعة الهاتف، واتصلت برقم هاتفي في لندن، فردَ على مكالمتها شخص بدا ودودًا، وكان أول من رحَب بها في ذلك اليوم.

"كم يسعدني أن أسمع صوت حضرتك، كيف يمكنني مساعدتك؟'.

"أودَ تحديد موعد للقائك في أسرع وقت ممكن، يا سيد بولتيمور، لأنني غيّرت رأيي".

36

قال بولتيمور: "ليس لدي شك في أنك اتخذت قرارًا حكيمًا، ولكن هل يمكنني أن أسأل ما الذي جعلك تغيّرين رأيك؟".

"زوجي الراحل كان يخشى أن يسيء الناس الظن به إن باع ميراث العائلة".

سألها بولتيمور: "والدوق الجديد، ما رأيه في ذلك الأمر؟'.

"إن كلارنس بصراحة لن يميّز الفرق بين مينغ وتابروير".

حاول بولتيمور أن يكتم ضحكته، وقال ببساطة: "حضرتكِ، قبل أن توافقي على عرض المزهرتين في المزاد، قد ترغبين في معرفة أنني تلقيت عرضًا بقيمة سبعمائة ألف جنيه إسترليني من تاجر من شيكاغو، وأنا واثق من أنني أستطيع دفعه إلى رفع المبلغ إلى ما فوق المليون، ويمكن أن يتمَ ذلك من دون أن يعلم أحد بأن الصفقة قد تمَت".

"ولكن من المؤكد أن التاجر سيبيع هاتين المزهريتين إلى أحد زبائنه؟".

"هذا مؤكَد ويمكنه أن يحقق في الوقت نفسه أرباحًا طائلة من بيعهما، ولهذا أنا واثق من أنهما ستباعان في المزاد بسعر أعلى بكثير".

"ولكن إذا عرضت المزهريتين في المزاد، فهناك احتمال أن يشتريهما التاجر نفسه بأقل من مليون".

"إذا كانت المعروضات بهذه الأهمية فذلك غير مرجح، يا سيدتي".

وتابع قائلًا: "وعلى الرغم من ذلك ما زلت أعتبر أن عرضهما مخاطرة، لأنني تواصلت بالفعل مع مجموعة من كبار المختصين في هذا المجال، وقد

أظهروا جميعًا اهتمامًا كبيرًا بهما، بما في ذلك مدير المتحف الوطني الصيني في بكين".

قالت فيرجينيا: "لقد أقنعني كلامك، وماذا سأفعل؟".

"فور توقيعك على نموذج براءة الذمة، نتولّى إنجاز باقي الأمور، وقد حان الوقت للاستفادة من تخفيضات الخريف، والتي تعدَ دائمًا واحدة من أشهر تخفيضات العام، وقد اقترحت بالفعل أن نعرض مزهريتي هيرتفورد على غلاف الكتالوج، فكوني مطمئنةً، لن يساور عملاؤنا أدنى شك في مدى أهمية هاتين المزهريتين".

"هل يمكنني أن أطلب منك الحفاظ على السرية التامة، يا سيد بولتيمور؟".

"بالطبع، سيدة فيرجينيا".

"أنا حريصة للغاية على ضرورة حصر الدعاية على نطاق ضيق قبل المزاد، وبلوغها الحد الأقصى بعده".

لا ينبغي أن يشكّل ذلك مشكلة، خاصة وأن المراسلين الفنيين من جميع الصحف الوطنية سيحضرون المزاد، وإذا دُفع بالمزهريتين السعر الذي نتوقّعه، فسيؤدي ذلك إلى إثارة اهتمام الصحافة، لذا يمكنك التأكد من أنه في صباح اليوم التالي، سيكون للجميع دراية بنصرك الكبير".

قالت فيرجينيا: "أنا لست مهتمةً بالجميع، بل بفرد واحد من عائلة محددة".

***

قالت فيرجينيا "يا لها من وضيعة مطلية بالذهب!".

سألت بريسيلا بينفهام، ما إن رُفعت أطباق الحلوى

عن المائدة: "هل هي سيئة إلى هذه الدرجة؟".

"بل أسوأ من ذلك بكثير، وعلى الرغم من أنها تمتلك لقب الدوقة، وقد عاشت أجواء نعم العيش ورفاهيته، إلا أنها ليست أكثر من زوجة مربي أغنام من منطقة الأنتيبود".

"قلتِ إنها الابنة الثانية؟".

"صحيح، ولكنها تتصرَّف كما لو كانت مالكة قلعة هيرتفورد".

"ألن يتغيّر هذا الوضع إذا تزوج الدوق، وقرّر استعادة مقعد عائلته؟".

"هذا غير مرجح، لأن كلارنس متزوج من الجيش، ويأمل في أن يكون الكولونيل القادم في الفوج".

"مثل والده من قبله".

قالت فيرجينيا: "إنه ليس مثل والده، ولو كان بيري على قيد الحياة، لما سمح لهم أبدًا بإهانتي بهذه الطريقة، ولكنني أنوي أن أضحك عليهم جميعًا أخيرًا".

أخرجت كتالوج مزاد حديث الطباعة من حقيبتها، وأعطته إلى صديقها.

سألتها بريسيلا، وهي تنظر بإعجاب إلى الغلاف: "هل هاتان المزهريتان اللتان أخبرتني عنهما؟".

"نعم، وسترين المبلغ الذي سأحصل عليه، إذا وصلت إلى القطعة الثالثة والأربعين".

قلبت بريسيلا الصفحات، وعندما وصلت إلى القطعة الثالثة والأربعين، وهي عبارة عن مزهريتي مينغ، تعودان إلى حوالي عام ألف وأربعمائة واثنين وستين، وما إن تفحصت عيناها المبلغ الذي تمَ تقديره، فغرت فمها من دون أن تتفوَه بكلمة.

تمكَنت في النهاية من قول: "يا لكرم الدوق!".

قالت لها فيرجينيا: "لم تكن لديه أي فكرة عن قيمتهما الأصلية، وإلا ما كان ليتركهما لي".

"لكن من المؤكد أن العائلة ستكتشف أمرهما قبل البيع".

"إن ذلك غير مرجح، فكلارنس مختبئ في مكان ما في بورنيو، وأليس في نيويورك تبيع زجاجات العطور، وكاميلا لا تغادر القلعة أبدًا ما لم تضطرَ إلى فعل ذلك".

"لكنني اعتقدت أنك تريدين أن يكتشفوا قيمتهما الحقيقية؟".

"أجل ولكن بعد البيع، عندما أكون قد صرفت الشيك، وحتى ذلك الحين، لا أريدهم أن يسمعوا بالمزهريتين وقد أخبرني السيد بولتيمور، الذي يدير المزاد، أنه تلقى مكالمات من العديد من المراسلين الفنيين الرائدين، لذلك يمكننا أن نتوقَع تغطية واسعة من الصحافة في الصباح التالي، وهو الوقت الذي سيكتشفون فيه قيمة المزهريتين، وبحلول ذلك الوقت سأكون قد صرفت المال، وآمل أن تكوني قادرةً على حضور المزاد مساء الخميس المقبل يا بريسيلا، وبعد ذلك يمكنك الانضمام إليَ لتناول العشاء في أنابيل للاحتفال، حتى إنني حجزت طاولة بيري المفضلة، وسنقوم بذلك مثل الأيام الغابرة".

كرَرت بريسيلا كلامها، بينما كان النادل يقدَم إليهما القهوة: "الأيام الغابرة، ما يذكَرني بأن أسألك، هل سمعت أخبارًا عن حبيبك السابق، بعد انقلابك الصغير على صفقة ميلور ترافل؟".

"إذا كنت تقصدين جايلز، فقد أرسل إليَ بطاقة تهنئة بعيد الميلاد لأول مرة منذ سنوات، ولكنني لم أردَ على هذه المجاملة".

"أرى أنه عاد إلى الواجهة".

أضافت فيرجينيا وهي تحتسي القهوة: "نعم، لقد خدعته أخته، ولكنه كان متساهلًا معها للغاية، وأتوقع أنه سيتركها تفلت من العقاب".

"والآن هي بارونة".

قالت فيرجينيا: "لقد حصلت على مكانها في مجلس اللوردات لأنها دعمت مارغريت تاتشر، ودافعت عن قادة حزب المحافظين، وهذا وحده كان يكفي لاستبعاد التفكير في التصويت لحزب العمال".

"لكي نكون منصفين يا فيرجينيا، يجد الصحفيون أنها تقوم بعمل جيد إلى حد ما بصفتها وكيلة وزارة الصحة".

"كان الأجدى لها أن تقضي وقتها في القلق بشأن صحة أفراد عائلتها، ولا سيما أن حفيدتها قد أصبحت مدمنة على المشروب والمخدرات وإقامة علاقات ثلاثة، والاعتداء على الشرطة، إلى أن انتهى الأمر بها إلى السجن".

ذكّرتها بريسيلا قائلة: "لقد كانت ليلة واحدة فقط، وقد عادت إلى سليد في الفصل التالي".

قالت لها فيرجينيا: "لابد أن شخصًا ما قد شدَ خيوطًا بإحكام ليجعل ذلك ممكنًا".

قالت بريسيلا: "ربما طليقك، فهو قد يكون معارضًا، ولكنني أظنّ أن نفوذه لا يزال قويًا".

سألتها فيرجينيا متعمّدة تغيير الموضوع: "وماذا عن زوجك؟ أتمنى أن تكون علاقتكما على ما يرام"، بينما كانت تأمل في أن تسمع خلاف ذلك.

"لا يزال ينتج مئة ألف معلب من معجون السمك أسبوعيًا، مما يسمح لي العيش برفاهية مثل الدوقة،

وإن لم أكن كذلك بالفعل".

"وهل لا يزال ابنك يستلم العلاقات العامة في فاردنغز كوفمان؟"، تساءلت فيرجينيا ساخرة، إلا أن بريسيلا أجابت متجاهلةً سخريتها:

"نعم، إنه كذلك، في الواقع كلايف يأمل في ألا يمَر وقت طويل قبل أن يطلبوا منه الانضمام إلى المجلس".

"يجب أن يساعده روبرت في تحقيق ذلك، كونه صديقًا قديمًا لرئيس مجلس الإدارة".

سألتها بريسيلا متعمِّدة أن تردّ واحدة بواحدة: "وكيف حال ابنك؟".

"فريدي ليس ابني، وأنت تعلمين ذلك جيدًا يا بريسيلا، وقد سمعت أنه هرب من المدرسة، وكان هروبه سيحلّ كل مشاكلي، ولكنه للأسف عاد بعد أيام قليلة".

"من يعتني به أيام العيد؟".

"أخي آرتشي، وهو يعتمد على دخل معمل تقطير الأسرة، والذي كان قد وعدني أبي بأن يتركه لي".

قالت بريسيلا وهي تنظر إلى قائمة سوثيبنز: "ولكن أداءك لم يكن سيئًا للغاية، أيتها الدوقة".

قالت فيرجينيا: "ربما تكونين على حق، ولكنني ما زلت على يقين من أنني سأضحك أخيرًا"، عندما وقف النادل أمامهما، لم يكن متأكدًا من منهما ستسدّد الفاتورة، وعلى الرغم من أن فيرجينيا دعت بريسيلا للانضمام إليها لتناول طعام الغداء، إلا أنها كانت تدرك تمامًا أنها إذا كتبت شيكًا فسوف يُرتجع، ولكن ذلك الوضع كان على وشك التغيير.

قالت فيرجينيا وهي تنظر إلى الاتجاه الاخر: "أدفع في المرة القادمة، فلا تنسي يوم الخميس ليلًا في

أنابيل".

***

عندما عادت بريسيلا بينغهام إلى منزلها في بولتونز، تركت كتالوج سوثيبنز على الطاولة في القاعة.

قال بوب عندما رأى الغلاف: "رائع جدًا، هل تفكّرين في المزايدة؟".

قالت بريسيلا: "فكرة جيدة، ولكن عليك بيع الكثير من معجون السمك قبل أن أفكّر في ذلك".

"ولماذا أنتِ مهتمة بهذا المزاد؟".

"إن فيرجينيا تعرض في هذا المزاد مزهريتين للبيع، بعد أن تمكّنت عائلة هيرتفورد إيجاد طريقة للتملّص من دفع مخصصاتها الشهرية".

قال بوب: "أودَ أن أسمع رأي آل هيرتفورد في هذه القصة قبل أن أحكم على هذه المسألة".

بينما كان بوب يتصفّح القائمة بحثًا عن القطعة الثالثة والأربعين، أطلق صفيرًا خفيفًا عندما قرأ المبلغ التقديري، وقال: "أكاد لا أصدّق أن العائلة قد استغنت عنهما".

"لم تستغنِ عنهما، وإنما تركهما الدوق لفيرجينيا في وصيته من دون أن تكون له أدنى فكرة عن قيمتهما"، زمّ بوب شفتيه من دون أن يتفوّه بكلمة.

قالت بريسيلا: "بالمناسبة، هل ما زال عرضك قائمًا للذهاب إلى المسرح هذه الليلة؟".

قال لها بوب ": نعم، لدينا تذاكر لحضور مسرحية *اوبرا الشبح* وسترفع الستارة عند السابعة والنصف".

قالت بريسيلا وهي تتجه إلى الطابق العلوي: "حسنًا لا يزال لدي متسع من الوقت لتبديل ملابسي".

انتظر بوب إلى أن دخلت إلى غرفة النوم، ثم التقط الكتالوج وتسلّل إلى مكتبه، وما إن جلس على الكرسي، حتى ركَز انتباهه على القطعة الثالثة والأربعين، وأخذ وقتًا في دراسة مصدر المزهريتين، إلى أن بدأ يفهم سبب اعتبارهما مهمتين للغاية، ثم فتح درج مكتبه السفلي، وأخرج ظرفًا بنيّا كبيرًا، ووضع الكتالوج فيه، وكتب عليها بأحرف كبيرة:

دوق قلعة هيرتفورد

قلعة هيرتفورد،

هيرتفورد شاير.

ألقى بوب بالمغلف في صندوق البريد عند الناصية، وعاد إلى المنزل قبل خروج بريسيلا من الحمام.

37

قال بولتيمور وهو ينقر بالمطرقة: "تمَ البيع بمئة وعشرين ألف جنيه".

وتابع قائلًا: "القطعة التاسعة والثلاثون، وانتقل إلى الصفحة التالية من القائمة، طبق زواج من اليشم الأبيض يعود إلى فترة تشيان لونغ، هل أفتتح المزايدة بعشرة آلاف جنيه؟".

نظر بولتيمور إلى الأعلى فرأى الدوقة الأرملة هيرتفورد تدخل برفقة سيدة أخرى لم يتعرَف إليها، فقادهما أحد المساعدين إلى أسفل الممر المركزي، وعلى الرغم من أن غرفة البيع كانت مكتظة، إلا أن مقعدين شاغرين بالقرب من المقدمة قد حجزا لهما، وبعد أن تمَت إزالة لافتتي الحجز بسرعة جلست السيدتين، وقد استمتعت فيرجينيا بالهمهمة من حولها فور وصولها، وعلى الرغم من أن عملية البيع بدأت عند الساعة السابعة صباحًا، إلا أن السيد بولتيمور نصحها ألا تحضر قبل 7.45، لأنه لم يكن يتوقَع أن تعرض القطعة الثالثة والأربعون قبل 8.15 أو ربما 8.30.

جلست هي وبريسيلا في الصف الخامس، فقد أكَد لها بولتيمور أنهما أفضل مقعدين في الصالة على عكس مقاعد المنزل في مسرح ويست إند، ونظرًا إلى أن فيرجينيا لم تكن مهتمة بطبق زواج من اليشم من حقبة تشيان لونغ، فقد حاولت استيعاب ما كان يدور حولها، وهي تأمل ألا يبدو عليها أنها تحضر مزادًا كبيرًا للمرة الأولى.

أمسكت بيد بريسيلا، وقالت لها: "إنه مثير للغاية"، أعجبت بالرجال الذين ارتدوا سترات العشاء، وقد بدا واضحًا أنهم سينتقلون إلى إنجاز أعمال أخرى فور انتهاء المزاد، كما ارتدى بعضهم بذلات أنيقة

وربطات عنق ملونة، فبدوا وكأنهم في عرض للأزياء لا في مزاد، كما كان يحاول كل منهم التفوق على الآخر ومنافسته كما يتنافس الممثلون ليلة افتتاح مسرحية جديدة.

أخبرتها بريسيلا بأنه في بعض الأحيان تقرِّر هؤلاء النساء اللواتي يخطِّطن للحصول على قطعة معينة أثارت إعجابهن، وأخذها معهن إلى المنزل في ذلك المساء، في حين أن بعض الرجال يقدِّمون عروضًا أعلى، فيرفعون المبلغ أكثر فأكثر لمجرد التأثير في المرأة التي ترافقهم، وأحيانًا قد يحصل ذلك من أجل امرأة قد أثارت إعجابهم كانت حاضرة في المزاد.

كانت القاعة كبيرة ومربعة الشكل، ولم يكن فيها أي مقعد فارغ، وقد خمَّنت فيرجينيا أن عدد الحاضرين في هذه القاعة التي تغصّ بهواة جمع التحف الفنية والتجار والفضوليين حوالي أربعمائة عميل محتمل، بالإضافة إلى العدد الكبير الذي كان يقف في الخلف.

وقف السيد بولتيمور في مقدمة منصة مرتفعة نصف دائرية سمحت له برؤية مثالية لضحاياه.

وخلف المنصة وقف عدد قليل من كبار الموظفين الخبراء في مجالات اختصاصهم استعدادًا إلى تقديم المساعدة والمشورة عند الضرورة، بينما كان آخرون يدوِّنون ملاحظات تتعلَّق بالمزايد الذي رسا عليه المزاد إلى جانب السعر النهائي للقطعة التي حصل عليها، وإلى يمين بولتيمور جلس عدد من الرجال والنساء يحملون دفاتر ملاحظات مفتوحة وأقلامًا، وهم على أهبة الاستعداد للكتابة، وقد فصلهم عن سائر الحاضرين حبل مشدود أمامهم، فافترضت فيرجينيا أنهم صحفيون.

قال بولتيمور: "لقد بيع الطبق، باثنين وعشرين ألف جنيه".

"القطعة الأربعون، مجسّم خشبي منحوت ومزخرف متعدد الألوان للوهان غالس، يعود إلى عام 1400، والعرض الافتتاحي قدره مئة ألف".

من الواضح أن عملية البيع قد تمّت في بدايتها، فكانت فيرجينيا مسرورة عندما بيع مجسّم لوهان مقابل مئتين وأربعين ألف جنيه إسترليني، أما هي فما كانت ستدفع أكثر من أربعين ألفًا كأعلى تقدير.

"القطعة الإحدى والأربعون، نموذج نادر لأسد مصنوع من اليشم الأخضر".

لم يكن لدى فيرجينيا أي اهتمام بالأسد الذي حمله أحد العمال ليراه الجميع بوضوح، فنظرت إلى يمينها ولاحظت للمرة الأولى وجود طاولة طويلة، مرتفعة قليلًا، عليها دزينة هواتف بيضاء اللون، وكل واحد من هذه الهواتف يشغله عضو من كادر سوثبي، وقد أوضح لها بولتيمور أنهم يمثلون العملاء في الخارج، أو بالأحرى الذين لا يريدون أن يظهروا في غرفة البيع، على الرغم من أنهم كانوا يجلسون في بعض الأحيان بحذر بين الجمهور، وكان ثلاثة موظفين يضعون أيديهم بثبات على السماعة، وهم يهمسون بسرية إلى عملائهم، بينما بقي من يشغل الهواتف التسعة الأخرى صامتين، لأن هؤلاء العملاء -مثلها - لم يكونوا مهتمين بالأسد الصغير، فتساءلت فيرجينيا عن عدد الهواتف التي سترنّ عندما يفتح بولتيمور المزايدة على القطعة الثالثة والأربعين.

"القطعة الثانية والأربعون، مزهرية يوهوتشنبينج زهرية اللون، وهي نادرة للغاية مطلية بالمينا ذات أرضية صفراء، والعرض الافتتاحي قدره مئة ألف".

بدأ قلب فيرجينيا يخفق بسرعة، بعد أن اقترب موعد الإعلان عن مزهريتي مينغ، وعندما نقرت المطرقة، وأعلن بولتيمور عن بيع القطعة الثانية والأربعين بسعر مئتين وستين ألف جنيه إسترليني، اجتاحت القاعة التوقعات حول القطعة التالية التي ستعرض للمزايدة، فنظر بولتيمور إلى الدوقة، وابتسم لها ابتسامة لطيفة، بينما وضع اثنان من العمال مزهريتين رائعتي الجمال على حاملين منفصلين على المنصة.

"القطعة الثالثة والأربعون، هي زوج فريد من مزهريات سلالة مينغ، تعودان إلى عام 1462، كانتا هدية من الإمبراطور جياكينغ إلى دوق هيرتفورد الرابع في أوائل القرن التاسع عشر.

هاتان المزهريتان في حالة ممتازة، وملكيّتهما تعود إلى سيدة إنكليزية صاحبة لقب "الدوقة"، فابتسمت فيرجينيا بينما كان الصحفيون يدوّنون ملاحظاتهم.

"العرض الافتتاحي..."، ساد صمت مطبق لم تشهده القاعة سابقًا، وتابع قائلًا: "ثلاثمائة ألف جنيه"، في الحال تحوّل الصمت إلى ثرثرة، فانحنى بولتيمور إلى الخلف بشكل عرضي، وحدّق إلى الحاضرين في القاعة.

"أعرض ثلاثمائة وخمسين".

شعرت فيرجينيا بمرور الوقت ببطء شديد، على الرغم من مرور بضع ثوانٍ فقط قبل أن يقول بولتيمور: "شكرًا لك يا سيدي"، بينما أشار إلى أحد المزايدين، كان يجلس في مؤخرة القاعة.

أرادت فيرجينيا أن تنظر حولها، ولكنها تمكّنت بطريقة ما من كبح جماح فضولها.

قال بولتيمور: "أربعمائة ألف"، ثم وجّه انتباهه إلى صف الهواتف الممتد إلى يساره، فكان ثمانية

موظفين يطلعون عملاءهم على مسار تقدّم عملية البيع.

كرّر قائلًا: "أربعمئة ألف". رفعت شابة متأنقة تشغل أحد الهواتف يدها، ثم تابعت التحدث إلى موكلها، فقال بولتيمور: "العرض مقدّم من عميل عبر الهاتف بأربعمائة ألف"، ثم حوّل انتباهه على الفور إلى رجل أنيق يجلس في الجزء الخلفي من الصالة: "أعرض أربعمئة وخمسين ألفًا"، غمغم قبل أن يعود إلى أحد الذين يشغلون الهواتف، وما إن ارتفعت يد الشابة حتى أومأ بولتيمور برأسه وقال: "خمسمئة ألف"، ثم عاد إلى الرجل الجالس في مؤخرة الغرفة، الذي هزّ برأسه، فقال بولتيمور وعيناه تجتاحان الغرفة مرة أخرى: "أنا أبحث عن خمسمئة وخمسين"، وكرّر قائلًا: "من سيعرض خمسمئة وخمسين ألف جنيه"، كانت فيرجينيا قد بدأت تتمنّى لو أنها قبلت بعرض التاجر من شيكاغو، حتى أعلن بولتيمور: "خمسمئة خمسين"، فارتفع صوته: "لدي مُزايد جديد"، وهو ينظر إلى مدير المتحف الوطني الصيني.

عندما عاد إلى العميل عبر الهاتف، كانت يد الشابة مرفوعة بالفعل، وقال: "ستمئة ألف"، ثم أعاد انتباهه إلى المدير الذي كان يتحدّث بحماسة إلى الرجل الجالس إلى يمينه قبل أن ينظر أخيرًا إلى الأعلى ويؤمئ إلى بولتيمور إيماءة خفيفة.

قال بولتيمور: "لقد وصل المبلغ إلى ستمئة وخمسين ألفًا"، ناظرًا مرة أخرى إلى الشابة التي تتحدّث عبر الهاتف، فاستغرق الرد وقتًا أطول قليلًا، ولكن في النهاية رفعت اليد، فقال بولتيمور: "سبعمئة ألف جنيه إسترليني"، مدركًا أن ذلك الرقم سيكون رقمًا قياسيًا عالميًا لمزاد بيع قطع صينية.

كان الصحفيون يكتبون بحماسة أكثر من أي وقت

مضى، كونهم يدركون أن قراءهم يحبَون الأرقام القياسية العالمية.

همس بولتيمور: "سبعمئة ألف" بنبرة تبجيل محاولًا إغراء المدير، ولكن من دون محاولة استعجاله، بينما واصل حديثه مع زميله، قال: "سبعمئة ألف؟"، كما لو كان مبلغًا زهيدًا، فحصلت حركة في الجزء الخلفي من القاعة حاول أن يتجاهلها، فقد تقدَم شخصان إلى الأمام، وكانا يشقّان طريقهما بين الحشد، وقد شتَت تقدَمهما تركيزه، وعندما رفع مدير المتحف يده، قال بولتيمور: "لدي سبعمائة ألف"، وهو يلقي نظرة خاطفة باتجاه من يشغل الهواتف، ولكنه لم يعد قادرًا على تجاهلهما، فكانا رجلًا وامرأة يسيران في الممر باتجاهه، ولكن لا فائدة من تقدَمهما، لأن لا مقاعد شاغرة، وقال من جديد: "لدي عرض بسبعمئة وخمسين ألفًا"، مفترضًا أن الزوجين سيعودان أدراجهما بعد أن يدركا أن لا مقاعد شاغرة في الصفوف الأمامية، ولكنهما لم يتوقّفا.

قال بولتيمور: "لدي عرض بسبعمئة وخمسين ألفًا"، وبعد إيماءة أخرى من المدير، عاد إلى الشابة التي تشغل الهاتف، فحاول ألا يفقد تركيزه، مفترضًا أن حارس الأمن سيظهر ويرافق الزوجين اللذين اقتحما المكان إلى الخلف بلباقة، وبينما كان يحدَق إلى الهاتف، أعلن صوت أجش وحازم: "أنا أقدَم إليك أمرًا من المحكمة بمنع بيع مزهريتي هيرتفورد مينغ"، وسلَم الرجل الوثيقة إلى بولتيمور، فرفع يده تمامًا مثل الشابة التي تشغل الهاتف لأخذها منه، ثم أعطاها إلى أحد الخبراء.

وتابع بولتيمور قائلًا: "لدي ثمانمئة ألف"، بينما كان الرجل الذي يرتدي الملابس الأنيقة يتقدم نحو

الخبراء الجالسين خلف المنصة، بعد أن استلم أحدهم الوثيقة، ونزع الشريط الأحمر، ودرس محتواها.

اقترح بولتيمور: "العرض بقيمة ثمانمئة وخمسين ألفًا؟"، بدأ بعض الجالسين في الصف الأمامي بالثرثرة حول ما سمعوه للتو، وبحلول الوقت الذي وصلت فيه الهمسات إلى المدير، كان كل شخص في الغرفة تقريبًا يتحدَث باستثناء فيرجينيا التي حدَقت ببساطة إلى الرجل والمرأة الواقفين بجانب المنصة.

قال صوت من خلف بولتيمور: "مارك"، فاستدار وانحنى قليلًا وهو يستمع بعناية إلى نصيحة محامي سوثبي، ثم أومأ برأسه، ورفع نفسه إلى أقصى ارتفاع له وأعلن بأكبر قدر من الجاذبية: "سيداتي وسادتي، يؤسفني أن أبلغكم بأن القطعة الثالثة والأربعين لا يمكن بيعها"، فتلقى الجميع كلماته بذهول وضجَت القاعة بالثرثرة والصخب.

ومن دون تضييع للوقت، قال بولتيمور: "القطعة الرابعة والأربعون، وعاء مزجَج أسود اللون من عهد أسرة سونغ..." ولكن لم يُظهر أحد أدنى اهتمام بسلالة سونغ.

حاول الصحفيون جاهدين اكتشاف سبب سحب القطعة 43، بعد أن أدركوا أن المقال الذي كانوا يأملون في أن يمتدَ إلى بضعة أعمدة في قسم الفنون سيتصدَر الآن الصفحة الأولى، ولسوء الحظ بالنسبة إليهم أصبح خبراء دار سوثيبنز مثل الصينيين، شفاه مغلقة ووجوه غير ودودة.

تجمَع عدد من المصورين وحاصروا الدوقة بسرعة، وعندما بدأت المصابيح تومض، التفتت إلى بريسيلا من أجل الحصول على دعمها ومواساتها

في محنتها، ولكن صديقتها كانت قد اختفت ولم يعد لها أي أثر.

38

"شرط الأرستقراطيين".

قالت فيرجينيا وهي تنظر إلى المحامي: "ليس لدي أدنى فكرة عما تتحدَث عنه".

قال السير إدوارد: "إنه بند شائع بما فيه الكفاية، وغالبًا ما يتمَ إدراجه لضمان إرادة حماية أصول أفراد الأسرة الثرية من جيل إلى جيل".

احتجت فيرجينيا على ذلك قائلة: "لكن زوجي ترك المزهريتين لي".

"لقد تركهما لك بالفعل، ولكنهما، وأقتبس البند المرتبط بوصيته، هدية يمكنك الاستمتاع بها خلال حياتك فقط، وبعد ذلك ستعودان إلى ملكية الدوق الحالية". قالت فيرجينيا: "ولكنهما كانتا في القبو منذ أجيال، ولم تقدَر العائلة قيمتهما".

"قد يكون الأمر كذلك يا سيدتي، ولكن بند الأرستقراطيين ينصّ بالتحديد على أن أي هدية قيمتها تزيد عن عشرة آلاف جنيه ينطبق عليها هذا البند".

احتدم صدر فيرجينيا سخطًا، وقالت: "ما زلت لا أعرف ما الذي تتحدَث عنه".

"حسنًا اسمحي لي بأن أشرح لك. غالبًا ما يتمَ إدراج بند من هذا النوع لضمان الحفاظ على العقارات الأرستقراطية التي يمكن أن تفككها الإناث غير المنتميات إلى العائلة. والمثال الأكثر شيوعًا هو عندما يطلَق أحد أفراد الأسرة زوجته، وتحاول تلك الزوجة السابقة المطالبة بقطع ثمينة من المجوهرات أو الأعمال الفنية أو حتى الممتلكات، على سبيل المثال، وفي حالتك يسمح لك بالعيش في دويرهاوس في عقارات هيرتفورد لبقية حياتك،

إلا أن صكوك الملكية تظلّ باسم الدوق، وعند وفاتك سيعود المنزل تلقائيًا إلى ملكية العائلة".

"وهذا ينطبق على المزهريتين أيضًا؟".

قال العجوز: "أخشى أن هذا البند ينطبق عليهما، لأنهما وبلا شك يساويان أكثر من عشرة آلاف جنيه".

قالت فيرجينيا بمرارة: "لو بعتهما بنفسي بدلًا من عرضهما في مزاد من دون علم الدوق، لكان ذلك أكثر حكمة".

قال السير إدوارد: "لو حصل ذلك، لكنت ارتكبت جريمة يحاسبك عليها القانون، لأنه من المفترض أنك تعرفين القيمة الحقيقية للمزهريتين".

قالت فيرجينيا كما لو أنها تتحدّث إلى نفسها: "لكنهم لم يكتشفوا ما إذا كان...".

قال السير إدوارد: "حسنًا، كيف اكتشفوا ذلك؟ إنه سؤال منطقي، وقد سألت الممثلين القانونيين لآل هيرتفورد عن سبب عدم تنبيهك إلى البند المرتبط ببيع ما ورثته عن الدوق الراحل ما إن علموا بأن احتمال البيع قد يحدث، ولو فعلوا ذلك، لتجنّبت إحراجًا لا مبرّر له، ناهيك عن العناوين التي ستتصدّر الصحف الوطنية في اليوم التالي، والتي ستكشف حقائق لا داعي لنشرها".

"ولماذا لم يحذّروني من ذلك البند؟".

"يبدو أن شخصًا ما أرسل للعائلة نسخة من قائمة سوثبي، إلا أنها لم تثر اهتمام أحدهم في ذلك الوقت، كما لم يتعرّف أي منهم إلى المزهريتين، على الرغم من أنهما كانتا معروضتين على الغلاف".

طرحت فيرجينيا سؤالها قائلة: "حسنًا، كيف اكتشفوا ذلك؟".

"من الواضح أن ابن أخ الدوق، تريستان، هو الذي نبّههم إليهما، ويبدو أنه معتاد على التسلل إلى المطبخ خلال العطلة المدرسية، وقد تعرَّف إلى المزهريتين الموجودتين على غلاف الكتالوج، وأخبر والدته بأنه رآهما آخر مرة في الطابق السفلي، فاتصلت السيدة كاميلا بمحامي الأسرة، السيد بلاتشفورد، الذي لم يضيّع الوقت في الحصول على أمر من المحكمة بمنع بيع المزهريتين، وبعد أن نجحوا في ذلك، استقلّوا القطار التالي إلى لندن - ووصلوا، على حد تعبير السيد بلاتشفورد - في الوقت المناسب.

"ماذا كان سيحدث لو أنهم وصلوا بعد بيع المزهريتين وانتهاء المزاد؟".

"كان من الممكن أن يتسبّب ذلك في معضلة عائلية يصعب حلّها".

كان ذلك سيترك الدوق أمام خيارين، إما السماح بإتمام عملية البيع والحصول على ثمنهما، وإما مقاضاتك لتسديد المبلغ بالكامل، وفي هذه الحالة أنا ملزم بإبلاغك بأنه لن يكون أمام القاضي أي خيار سوى الحكم لصالح هيرتفورد، بل وربما كان سيحيل القضية إلى النيابة العامة لتقرّر ما إذا كنتِ قد ارتكبت جريمة تستحقين السجن من أجلها.

احتجت فيرجينيا على كلامه: "لكنني كنت أجهل بند الأرستقراطيين".

قال السير إدوارد: "جهل القانون ليس دفاعًا عن النفس، وعلى أي حال، أظن أن القاضي سيجد صعوبة في تصديق أنك لم تختاري المزهريتين بعناية شديدة، وأنك لم تعرفي قيمتهما الحقيقية، كما يجب أن أحذرك، أن هذا الرأي يعود أيضًا إلى السيد بلاتشفورد".

"فهل يجب إعادة المزهريتين إلى الدوق؟"

"المثير للسخرية، لا، لأن على آل هيرتفورد أن يتقيّدوا بنصّ القانون، بالإضافة إلى وصية زوجك الراحل، لذلك سيتمّ إرسال المزهريتين إليك للاستمتاع بهما لبقية حياتك ومع ذلك، أبلغني السيد بلاتشفورد أنه إذا قمت بإعادتهما خلال ثمانية وعشرين يومًا، فلن تتخذ الأسرة أي إجراء قانوني بحقك، وأنا أعتبر ذلك كرمًا منهم في ظل هذه الظروف التي تواجهينها".

"ولكن لماذا يريدون المزهريتين الآن، في حين أنهم سيحتفظون بهما مع مرور الوقت؟".

"أودّ أن أخبرك بأن إمكان حصولهم على مليون جنيه، قد تكون الإجابة عن هذا السؤال، سيدتي، إن السيد بولتيمور كان على اتصال بالدوق، وقد أخبره بأن لديه مشتريًا للمزهريتين في شيكاغو".

"رجل عديم الأخلاق".

"ومع ذلك، ما زلت أنصحك بإعادتهما يوم التاسع عشر من تشرين الأول، إذا كنت لا تريدين المواجهة في المحكمة، وقد تكون مدة المحاكمة طويلة وتكاليفها باهظة".

لم يُترك لفيرجينيا أي خيار سوى إرجاعهما إلى الدوق، قالت له: "بالطبع سأستفيد من نصيحتك سيد إدوارد، من فضلك أكد للسيد بلاتشفورد أنني سأعيد المزهريتين إلى كلارنس في التاسع عشر من تشرين الأول".

***

تمّ التوصل إلى اتفاق بين السير إدوارد والسيد بلاتشفورد يقضي بإعادة مزهريتي سلالة مينغ إلى دوق هيرتفورد الرابع عشر إلى منزله في إيتون

سكوير، قبل التاسع عشر من تشرين الأول، في المقابل وقّع كلارنس على اتفاق قانوني يلزم العائلة بألا تتخذ أي إجراء ضد فيرجينيا، دوقة هيرتفورد، أرملة الدوق، كما وافق أيضًا على تغطية التكاليف القانونية للصفقة.

تناولت فيرجينيا طعام الغداء الذي دام وقتًا طويلًا برفقة بوفي بريدجوتر في نادي مارك في التاسع عشر من تشرين الأول، ولم تعد إلى المنزل في تشيلسي حتى الساعة الرابعة تقريبًا، وفي ذلك الوقت كانت الأضواء في الساحة مضاءة.

جلست وحدها في الغرفة الأمامية لشقتها الصغيرة وحدَقت إلى المزهريتين، على الرغم من أنها امتلكتهما لبضعة أشهر فقط، ولكنها مع مرور الأيام، أصبحت تقدَر ما كانت تنظر إليه، فقد اعتبرتهما عملين فنيين أثريين، وكان عليها أن تعترف - ولو لنفسها فقط - بأنها ستفتقدهما، ومع ذلك فإن خوض معركة قانونية أخرى، ودفع أتعاب السير إدوارد الباهظة قد أعاداها إلى العالم الحقيقي.

أشار بوفي بعد أن فتح الزجاجة الثانية من ميرلوت إلى أهمية الكلمات: "في أو قبل"، وكان من دواعي سرور فيرجينيا أن تحصل على القليل من المرح على حساب كلارنس.

بعد عشاء خفيف، دخلت إلى الحمام، فبقيت طويلًا بين الفقاعات، وهي تفكَر مليًا في ما يجب أن ترتديه في هذه المناسبة، التي ستكون بمثابة ليلة ختامية، فاستقرَت على اللون الأسود، وهو اللون الذي كان يفضَله زوجها الراحل، خاصة عندما اصطحابها إلى إيتون سكوير بعد قضاء أمسية في أنابيل.

لم تستعجل فيرجينيا، لأنها كانت تدرك أن توقيتها يجب أن يكون مثاليًا، وقبل أن يُسدل الستار، في الساعة 11.40 مساءً خرجت من الشقة، واستقلّت سيارة أجرة، فطلبت من السائق المساعدة في وضع صندوقين كبيرين في الخلف، فلم يكن في إمكانه أن يكون خدومًا أكثر من ذلك، وما إن استقرّت فيرجينيا على المقعد الخلفي حتى سألها السائق: "إلى أين يا سيدتي؟"

"32 إيتون سكوير، وهل يمكنك القيادة ببطء، لأنني لا أريد أن يلحق بالمزهريتين أي ضرر".

"بالطبع يا سيدتي".

جلست فيرجينيا على حافة المقعد، وضغطت بيديها بقوة على المزهريتين، بينما كان سائق سيارة الأجرة يقود السيارة من تشيلسي إلى إيتون سكوير، من دون أن يتخطّى السرعة الأولى أبدًا.

عندما توقفت سيارة الأجرة أخيرًا خارج رقم 32، استرجعت ذكرياتها مع بيري، فشعرت بمدى افتقادها إليه، ثم ترجّل السائق وفتح لها الباب الخلفي.

قالت وهي تترجّل من السيارة: "أيمكن أن تساعدني على وضع المزهريتين في أعلى الدرج؟"، انتظرت حتى وضعهما على الدرج، ثم أضافت قائلة: "أيمكنك الانتظار؟ ستكون بضع لحظات فقط، ثم ستعيدني إلى المنزل".

"بالطبع، يا سيدتي".

نظرت فيرجينيا إلى ساعتها، فكان لا يزال أمامها من تسع دقائق إلى اثنتي عشرة دقيقة، لقد نفّذت ما عليها من الصفقة، فضغطت على جرس الباب، وانتظرت حتى انبعث ضوء من الطابق الثالث، وبعد لحظات قليلة ظهر وجه مألوف عبر النافذة، فابتسم

كلارنس عبر النافذة وهو ينظر إليها بتعالٍ.

سألها محاولًا ألا يبدو غاضبًا: "هل هذه أنت يا فيرجينيا؟"

"بالتأكيد يا حبيبي، حضرت لأعيد المزهريتين".

نظرت مرة أخرى إلى ساعتها: "أعتقد أنك ستجد أنه لا يزال هناك سبع دقائق قبل حلول منتصف الليل، لذلك نفَذت ما عليَ من الصفقة"، ثم انبعث ضوء من غرفة ثانية، فظهرت كاميلا من نافذة غرفتها، وقالت: "لقد حضرت في الوقت المناسب".

ابتسمت فيرجينيا ابتسامة رقيقة لابنة زوجها، وكانت على وشك العودة إلى سيارة الأجرة، ولكنها توقفت للحظة ورمقت المزهريتين نظرة أخيرة، ثم انحنت وبكل القوة التي امتلكتها، رفعت إحداهما عاليًا فوق رأسها مثل رافع الأثقال الأولمبي، وبعد أن جمدت في مكانها للحظة، سمحت لها بالانزلاق من بين أصابعها، فتحطَم الكنز الوطني الرائع البالغ من العمر خمسمئة عام على الدرج الحجري، وتناثرت أجزاؤه في النهاية إلى مئة قطعة.

أُضيئت الأنوار في أرجاء المنزل كله، وكانت عبارة "العاهرة اللعينة" من بين عبارات كاميلا الأكثر تحفظًا، ولكي تنجز مهمتها، تقدَمت إلى الأمام كما لو كانت تتلقى مكالمة هاتفية، والتقطت المزهرية الثانية، ورفعتها عاليًا فوق رأسها مثل الأولى، وعندها سمعت الباب يُفتح من خلفها.

اندفع كلارنس إلى الأمام وصرخ "لا، أرجوك!" لكن فيرجينيا أفلتت المزهرية، فإذا بالتحفة الصينية الثانية التي لا يمكن تعويضها تتحطَم إلى قطع صغيرة متناثرة في كل مكان.

سارت فيرجينيا ببطء على الدرج، وشقت طريقها بحذر عبر فسيفساء من الخزف المتناثر في كل

مكان باللونين الأزرق والأبيض، وركبت سيارة الأجرة التي كانت تنتظرها.

عندما انطلق السائق في رحلة العودة إلى تشيلسي، نظر إلى المرآة ليرى ابتسامة عريضة ترتسم على وجه فيرجينيا، ولم تنظر إلى الوراء لاستطلاع المذبحة التي أحدثتها، لأنها هذه المرة قرأت الوثيقة القانونية بندًا بندًا، ولم يكن هناك أي ذكر للحالة التي يجب أن تكون عليها مزهريتا المينغ عند إعادتهما "في أو قبل التاسع عشر من تشرين الأول".

عندما انعطفت السيارة مباشرة من إيتون سكوير، دقَت الساعة في الكنيسة اثنتي عشرة دقة.

سيباستيان كليفتون

1984-1986

39

"لقد طلبت رؤيتي أيها الرئيس".

"هل يمكنك الانتظار للحظة يا فيكتور، بينما أوقّع على هذا الشيك؟ في الواقع سيكون عليك التوقيع عليه أيضًا".

"لمن هذا الشيك؟".

"إنه لكارين بارينغتون، لقد استحقّته بعد أن اجتازت خط النهاية في ماراثون لندن".

قال فيكتور: "صحيح"، أخرج قلمه ووقّع على الشيك، وقال له: "لقد بذلت جهدًا جبارًا، فأنا لا أعتقد أنه في إمكاني اجتياز تلك المسافة خلال أسبوع، بينما قامت بذلك بأقل من أربع ساعات".

قال سيب: "أما أنا فلن أحاول القيام بذلك أبدًا، ولكنني لم أستدعِك لهذا السبب فقط، بل كنت بحاجة إلى رؤيتك لسبب آخر"، تغيّرت نبرة صوته، وهو يتابع كلامه قائلًا: "أريدك أن ترتقي إلى مستوى أعلى، وتتحمّل المزيد من المسؤوليات".

ابتسم فيكتور، كما لو أنه يعرف ما سيقترحه عليه الرئيس.

"أريدك أن تصبح نائب رئيس البنك، وذراعي اليمنى".

لم يحاول فيكتور إخفاء خيبة أمله، بينما لم يتفاجأ سيب، بل كان يأمل في أن يتأقلم مع هذا الوضع، وإن لم يكن على الفور، على الأقل مع مرور الوقت.

"من سيكون رئيسك التنفيذي؟".

"أنوي عرض هذه الوظيفة على جون آشلي".

"لكنه يعمل في البنك منذ عامين فقط، وهناك شائعات أن بنك باركليز على وشك أن يعرض عليه تولّي رئاسة مكتبه في الشرق الأوسط".

"لقد سمعت هذه الشائعات أيضًا، وهذا ما دفعني إلى عرض هذا المنصب عليه، لأننا لن نتحمَل خسارته".

قال فيكتور بصوت حاد: "تُقدَم له منصب نائب المدير؟"، لم يستطع سيباستيان التفكير في رد مقنع، وتابع فيكتور كلامه: "ولكن لا فائدة من محاولاتك، لأنك تعلم جيدًا أنه سيجد أنك عيّنته في هذا المنصب ليكون مجرد ديكور وسيرفضه بالتأكيد".

قال له سيب: "ليس هذا ما أراه، كما أنني لا أعتبر أنك حصلت على مجرد ترقية، بل على إعلان بأنك خليفتي الطبيعي".

"إنها تفاهات، هل نسيت أننا في العمر نفسه؟ لا، إذا جعلت آشلي الرئيس التنفيذي، فسيفترض الجميع أنك اخترته خليفتك الطبيعي، لا، سأرفض هذه الترقية".

"لكنك لا تزال مسؤولًا عن قسم الصرف الأجنبي، وهو أحد أهم أقسام البنك وأكثرها ربحًا".

"كما أن على هذا القسم أن يقدَم تقاريره مباشرة إلى الرئيس التنفيذي، إن كنت قد نسيت ذلك".

"سأصدر قرارًا أنك في المستقبل ستقدَم التقارير إليّ مباشرة".

"لن يُعتبر ذلك أكثر من ترضية، والجميع سيعرفون ذلك. لا، لن أقبل بعرضك، وإذا كنت لا تشعر بأنني أستحقّ أن أكون مديرًا تنفيذيًا، فلن تترك لي أي

خيار سوى الاستقالة".

قال سيباستيان: "هذا آخر ما أريده"، بدأ صديقه القديم يجمع أوراقه من دون أن ينطق بأي كلمة، وبعد أن غادر المكتب أغلق الباب خلفه بهدوء.

أقنع سيب نفسه، وهو يردّد: "ستكون الأمور على ما يرام".

***

قالت كارين بعد أن قرأت الرسالة: "لقد كنت تؤجّل ممارسة تلك اللعبة لسنوات".

احتجَ جايلز قائلًا: "ولكني تجاوزت الستين من العمر".

ذكّرته كارين قائلة: "إنها القلعة في مواجهة القرية، وليس إنكلترا ضد جزر الهند الغربية، على أي حال كنت تخبرني دائمًا بأنك كنت تتمنى أن تحقق النجاح الخاص بك".

"في عزّ شبابي، وليس في نهاية حياتي".

وتابعت كارين كلامها قائلة، متجاهلة غضبه وتوتره: "لقد قطعت وعدًا على فريدي بالمشاركة في المباراة"، لم يستطع جايلز التفكير في إجابة مناسبة.

"دعنا نواجه الأمر، إذا كان في إمكاني الجري في ماراثون، ففي إمكانك بالتأكيد المشاركة في مباراة كريكيت في القرية"، نطقت بالكلمات التي أسكتت زوجها أخيرًا.

قرأ جايلز الرسالة مرة أخرى وتأوّه، وهو جالس إلى مكتبه، فأخرج ورقة من درج مكتبه، وأزال الجزء العلوي من قلمه وبدأ في الكتابة.

عزيزي فريدي، يسعدني أن أنضمّ إلى فريقك ...

***

قال الشاب الذي أثارت إعجابه الرسومات السبعة التي مُنحت جائزة المؤسس: "يا لها من رسومات رائعة!"

ردَت الشابة: "هل تعتقد ذلك؟".

"نعم بالتأكيد، إنها فكرة ذكية اتخذها الفنان موضوعًا لرسوماته، فقد رسم سبع مراحل من اجتياز المرأة سباق الماراثون، وقد بدت كلها رائعة!".

قالت وهي تنظر إليه عن كثب: "أوه، لقد فاتني ذلك"، أشارت إلى ملابس الشاب التي تدلّ على أنه لم ينظر في المرآة قبل مغادرته إلى العمل في ذلك الصباح، لا شيء يبدو منسجمًا مع الآخر، كان يرتدي جاكيت هاريس تويد أنيقة وقميصًا أزرق وربطة عنق خضراء وبنطالًا رماديًا، وينتعل حذاء بنيًا، لكنه أظهر مشاعر رقيقة وحماسة تجاه عمل الفنان الذي كان واضحًا جدًا أنه عمل مميز.

قال وهو يتأقلم مع المهمة الموكلة إليه: "كما تلاحظين، فقد اتخذ الفنان موضوع امرأة تجري في ماراثون، وقد رسم المراحل السبع للسباق، فالرسم الأول عند خط البداية، فكانت المتسابقة في حالة إحماء، ولكنها قلقة بعض الشيء ويقظة في الوقت نفسه، ثم قال مشيرًا إلى الرسم الثاني: "لقد وصلت إلى إشارة الخمسة أميال، ولا تزال مليئة بالثقة، في الوقت الذي وصلت فيه إلى عشرة أميال - وانتقل إلى الرسم الثالث - من الواضح أنها بدأت تشعر بالتعب".

سألت، وهي تنظر باهتمام أكبر إلى الرسم، الذي دعاه الفنان بأنه الجدار: "والرابع؟"، انظري فقط إلى التعبير المرتسم على وجه العداءة، والذي لا يترك لك أدنى شك في أنها بدأت تتساءل عما

إذا كانت ستتمكّن من إنهاء السباق"، أومأت إليه برأسها، وتابع قائلًا: "والخامس يظهر أنها تتشبّث بتجاوز المسافة كما أفترض من أجل عائلتها، فقد رفعت ذراعيها لهم، ولكن حتى في أثناء رفع الذراعين، يظهر خط دقيق واحد، ما يظهر بلا شك الجهد العظيم الذي بذله هذا الفنان"، مشيرًا إلى الرسم السادس، وهو يواصل الشرح بإسهاب: "نرى هنا عبورها خط النهاية، رافعةً ذراعيها كلتيهما بانتصار"، وبعد لحظات - في الرسم الأخير - سقطت على الأرض منهكة، بعد أن قدَمت كل ما لديها، فكوفئت بميدالية ظهرت معلقة حول رقبتها، لاحظي أن الرسام قد أضاف اللون الأصفر والأخضر للشريط، وهما اللونان الوحيدان المشتركان في جميع الرسومات السبعة، يا له من عمل رائع جدًا!".

"يجب أن تكون فنانًا، فلديك إحساس مرهف".

قال لها وهو يبتسم ابتسامة دافئة: "كنت أتمنى ذلك، أذكر آخر مرة فزت بجائزة فنية كانت في المدرسة، فقرَرت بعدها التقدم للحصول على مكان في سليد، ولكنني رُفضت".

"هناك كليات فنون أخرى".

"نعم، وقد تقدَمت إلى معظمها غولدسميث وتشيلسي ومانشستر، حتى إنني ذهبت إلى غلاسكو لإجراء مقابلة، ولكن النتيجة كانت دائمًا نفسها".

"آسفة جدًا".

"لا داعي للأسف، لأنني أخيرًا سألت عضوًا في إحدى لجان المقابلات عن سبب رفضي".

"وماذا قال لك؟".

قال الشاب، وهو يمسك بطية السترة، وقد بدا

أكبر بعشرين عامًا: "لقد كانت نتائجك في المستوى الأول رائعة بما فيه الكفاية، ومن الواضح أنك كنت متحمسًا للموضوع الذي رسمته، فلديك طاقة وحماسة كبيرتان، ولكن للأسف لديك شيء مفقود".

سألته: "ما هو؟".

أجاب: "الموهبة".

"أوه، يا للقسوة!".

"لا، إنه الواقع، واستمز بالتساؤل عما إذا فكَرت في التدريس، ما أضاف الملح إلى الجرح، لأنه ذكَرني بكلمات جورج برنارد شو *أولئك الذين يستطيعون ولا يستطيعون، في إمكانهم التدريس*، ولكن بعد ذلك فكّرت في الأمر، وأدركت أنه كان على حق".

"حسنًا، أنت الآن مدرس؟".

"نعم، لقد قرأت تاريخ الفن في الكينغز، وأنا الآن أُدرّس في مدرسة القواعد في بيكهام، وأظنَ أنني أستطيع القول إنني فنان أكثر من تلاميذي، حسنًا، معظمهم"، ثم ابتسم ابتسامة خفيفة.

ضحكت قائلةً: "حسنًا، ما الذي يعيدك إلى سليد؟".

"أذهب إلى معظم معارض الطلاب على أمل اكتشاف طالب لديه موهبة حقيقية، ويمكنني إضافة عمله إلى مجموعتي، على مر السنوات التقطت كيجي أيتشيسون وماري فيدين وحتى حصلت على رسم بسيط بقلم الرصاص من هوكني، لكنني أودَ إضافة هذه الرسومات السبعة إلى مجموعتي".

"ما الذي يمنعك من الحصول عليها؟".

"لم يكن لديَ الشجاعة لأسأل عن سعرها، فصاحبتها قد فازت للتو بالجائزة، وأنا متأكد من أنني لن أتمكّن من دفع ثمنها".

"كم تعتقد أنها تستحقّ؟".

"لا أعرف، لكنني سأقدّم كل ما أملكه لامتلاكها".

"كم تملك من المال؟".

"عندما تحققت من رصيدي المصرفي في المرة الأخيرة، كان يزيد على ثلاثمئة جنيه بقليل".

"إذًا أنت محظوظ، لأنني أعتقد أن سعرها مئتان وخمسون جنيهًا".

"دعينا نذهب ونكتشف ما إذا كنتِ على حق، قبل أن يشتريها شخص آخر"، قال وهما يتجهان نحو مكتب المبيعات: "بالمناسبة، اسمي ريتشارد لانغلي، لكن أصدقائي ينادونني ريك".

قالت وهما يتصافحان: "مرحبًا بك، اسمي جيسيكا كليفتون، لكن أصدقائي ينادونني جيسي".

40

قالت كارين: "إذا سحبت سترتك إلى الأسفل، فلن يلاحظ أحد أنه لا يمكنك إغلاق الزر العلوي".

ذكّرها جايلز بأنه قد مرَ عشرون عامًا منذ أن لعب آخر مرة، ثم شدَ بطنه وحاول للمرة الأخيرة إغلاق الزر العلوي لسروال الكريكيت الذي حصل عليه من أرتشي فيونيك، فانفجرت كارين ضاحكة عندما انتزع الزر واستقرّ عند قدميها: "أنا متأكدة من أنك ستكون بخير يا عزيزي، فقط تذكّر ألا تركض خلف الكرة، وإلا سينتهي الأمر إلى كارثة"، كان جايلز على وشك الانتقام منها عندما طرق الباب.

قال: "هيا"، وداس بقدمه على الزر المتمرد.

فُتح الباب ودخل فريدي الغرفة، مرتديًا ملابس أنيقة باللون الأبيض، وقال: "أنا آسف لإزعاجك يا سيدي، ولكن قد حصل تغيير في الخطة".

بدا جايلز مرتاحًا، إذ افترض أنه على وشك إبلاغه بإلغاء المباراة، ما يمكنه من الخلود إلى النوم.

وتابع قائلًا: "الخادم الشخصي، قائد فريقنا، صرخ في اللحظة الأخيرة متخبطًا من الألم بعد إصابة أوتار ركبته، ولن يتمكّن من أن يلعب في فريق أكسفورد ضد كامبريدج، وأعتقد أنك ستكون الخيار الأفضل لتحلَ محله".

واحتجَ جايلز قائلًا: "لكنني لا أعرف أعضاء الفريق الآخرين".

"لا تقلق يا سيدي، سأطلعك على كل ما يجري، فأنا كنت أقوم بالمهمة، ولكنني لست متأكدًا من كيفية تحديد المواقع، ولكن هل يمكن أن تكون جاهزًا لإلقاء القرعة بعد عشر دقائق؟ أسف لإزعاجك يا سيدة بارينغتون"، ثم غادر المنزل.

قالت بعد إغلاق الباب: "هل تعتقد أنه سينادينى كارين؟".

قال لها جايلز: "دعيه يخطو خطوة واحدة في كل مرة".

***

عندما رأى جايلز قطعة الأرض البيضاوية الكبيرة التي تشبه الجوهرة في أرض القلعة لأول مرة، كان يشك في أن يجد مكانًا أكثر روعة لمباراة الكريكيت، فقد غطَت الغابة الوعرة التلال التي أحاطت بمساحة فدانين من الأرض الخضراء المسطحة.

قدَم فريدي جايلز إلى هاميش مونرو، الشرطي المحلي وقائد القرية، وهو رجل في الأربعين من عمره، وقد بدا في حالة أفضل منه، وبالتأكيد لم يواجه أي مشكلة في تزرير بنطاله.

خرج القائدان إلى أرض الملعب معًا قبل الساعة الثانية، ونفَذ جايلز روتينًا لم يقم به منذ سنوات، فاستنشق الهواء قبل أن ينظر إلى السماء الصافية، إنه يومٌ دافئ وفقًا للمعايير الاسكتلندية، وقد زيَنت بعض السحب المتفرقة الأفق الأزرق الذي بدا مختلفًا من دون مطر، ولحسن الحظ لا بوادر تدلَ على تساقطه، فتفقَد الملعب، فبدا سهلًا باللون الأخضر، يناسب لاعبي البولينغ السريع، وأخيرًا نظر إلى الجمهور، فكان عدد الحاضرين أكبر بكثير مما كان يتوقَعه، ولكن ديربي محلي، حوالي مئات المتفرجين تناثروا حول الحبل الحدودي في انتظار بدء المباراة.

صافح جايلز قائد فريق الخصم.

"سيكون خيارك يا سيد مونرو"، قالها قبل قذف عملة معدنية في الهواء.

أعلن مونرو وجه العملة التي اختارها، فانحنيا كلاهما للتأكّد من وجه العملة بعد أن تستقرَ على الأرض.

قال جايلز وهو يحدّق إلى صورة الملكة: "الخيار لك يا سيدي".

قال مونرو من دون تردّد: "سنضرب"، وسرعان ما عاد إلى الجناح ليطلع فريقه، وبعد بضع دقائق رنَ الجرس وخرج من الجناح اثنان من الحكام يرتديان معاطف بيضاء طويلة، وشقا طريقهما ببطء إلى الميدان، كان أرتشي فينويك والقس ساندي ماكدونالد هما الحكمان.

بعد لحظات قليلة، قاد جايلز مجموعة اللاعبين غير المألوفين إلى أرض الملعب، لقد وضع خطةً للهجوم، وفقًا لنصيحة فريدي، ثم ألقى الكرة إلى هيكتور برايس خادم القلعة.

***

في وقت لاحق من ذلك المساء، وبينما كان جايلز وهاميش مونرو يستمتعان بقليل من المرارة المحلية في فينويك آرمز، قال قائد القرية: "لعب طفلك أدوارًا رائعة، وستعاني فرق أقوى بكثير من فرقنا من مهارته، وأظنَ أن ذلك لن يحصل في المستقبل البعيد".

قال له جايلز: "إنه ليس ابني، ولكنني أتمنى لو كان كذلك".

41

قالت سامانثا: "هل تعلم أن لدى جيسيكا صديقًا جديدًا؟".

لطالما حجز سيباستيان الطاولة نفسها في لا كابريس، في زاوية لا يستمع أحد إلى محادثته، كما يستطيع رؤية الزبائن جيدًا، فكان يسعده أن المرايا الزجاجية المعلقة على الأعمدة الأربعة في وسط الصالة تسمح له بمراقبة الزبائن، في الوقت الذي لا يستطيعون فيه رؤيته.

لم يكن لديه أي اهتمام بنجوم السينما الذين بالكاد تعرَف إليهم، أو بالسياسيين الذين كانوا يأملون في أن يتمَ التعرف إليهم، أو حتى بالأميرة ديانا التي تعرَف إليها الجميع، بل كان اهتمامه الوحيد بمراقبة المصرفيين ورجال الأعمال الآخرين لمعرفة مع مَن كانوا يتناولون الطعام، لأن أكثر من يعلم أن الصفقات المهمة تُعقد على طاولة العشاء.

سألته سامانثا عندما لم يعلَق على ما قالته: "إلى من تحدَق؟".

همس إليها: "إلى فيكتور".

نظرت سام حولها، ولكنها لم تستطع تحديد موقع أقدم أصدقاء سيب.

قالت بعد احتساء قهوتها: "أنت توم مختلس النظر(1)".

قال لها سيب: "والأهمَ من ذلك أنهما لا يستطيعان رؤيتنا".

"هما؟ هل يتناول العشاء مع روث؟".

"لا، إلا إذا فقدت بضع بوصات من خصرها ووضعتها على صدرها".

"أحسن الظنّ يا سيب، من المحتمل أنها عميلة لديه".

"لا، أعتقد أنه هو العميل".

"لقد ورثت خيال والدك النابض بالحياة، فربما كان بريئًا كليًا".

"أنت الشخص الوحيد الذي يؤمن ببراءته في هذه الصالة".

قالت سام: "لقد أثرت اهتمامي الآن"، استدارت مرة أخرى، ولكنها ما زالت غير قادرة على رؤية فيكتور، فقالت له: "أكرِّر، أنت توم مختلس النظر".

قال سيب متجاهلًا غضب زوجته: "وإذا كنت على حق، فلدينا مشكلة كبيرة".

قالت سام: "بل فيكتور من ستكون لديه المشكلة، وليس أنت".

قال لها، وهو يخرج محفظته: "ربما، ولكنني ما زلت أرغب في الخروج من المكان من دون أن يلاحظ وجودنا".

"كيف تخطّط للقيام بذلك؟".

"من خلال تنظيم التوقيت".

مازحته قائلة: "هل ستقوم بنوعٍ من المراوغة؟".

"لا، لن أقوم بتمثيلية درامية، بل سنبقى في مكاننا حتى يتوجّه أحدهما إلى الحمام، وإذا ذهب فيكتور، فيمكننا أن نخرج من دون أن يلاحظنا أحد، أما إذا ذهبت المرأة، فسنغادر بتكتم، من دون أن نجعله يعتقد أننا اكتشفنا لقاءه بتلك المرأة".

قالت له سام: "ولكننا إذا تحدّثنا إليه، قد نكتشف أنه بريء تمامًا".

"إن كان بريئًا فسيريحني ذلك على أكثر من مستوى".

قالت سام: "أنت بارع إلى حد ما في اختلاس النظر، وربما يعود ذلك إلى تجاربك الكثيرة".

'ليس تمامًا، ولكنك ستجدين حبكة مشابهة في إحدى روايات أبي".

"ماذا لو لم يذهب أي منهما إلى الحمام؟".

قال سيب مستسلمًا: "عندها سنحبس داخل هذا المكان لفترة طويلة جدًا، ولكنني سأطلب الفاتورة، كي نكون مستعدين إن اضطررنا إلى الخروج بسرعة، أنا آسف يا سام، ولكن هل طرحت عليّ سؤالًا قبل أن يتشتت ذهني؟".

"نعم، تساءلت عما إذا كنت تعرف أن جيسيكا لديها صديق جديد".

قال سيب، وهو يتحقق من الفاتورة قبل تسليم بطاقته الائتمانية: "ما الذي أوحى لك بهذه الفكرة؟".

"لم تكن معتادة على الاهتمام بمظهرها".

ألا يتماشى ذلك مع طالبة الفنون؟ إنها تنظر إليّ دائمًا كما لو كانت ترتدي ملابس منظمة أوكسفام، ولا يمكنني القول إنني لاحظت أي تغيير".

"هذا لأنك لا تراها في المساء عندما تتوقف عن كونها طالبة فنون وتتحول إلى امرأة شابة، فلا تبدو سيئة أبدًا".

قال سيب وهو يمسك بيد زوجته: "ابنة والدتها، لنأمل فقط في أن يكون حبيبها الجديد أفضل من البرازيلي اللعوب، فلا أعتقد أن سليد ستكون بهذا الهدوء مرة ثانية"، قال ذلك وهو يوقع على الفاتورة.

"لا أعتقد أنها ستسبب أي مشكلة هذه المرة، فعندما جاء صديقها لاصطحابها، كان يقود بولو لا

فيراري".

"ولديك الجرأة على تسميتي توم مختلس النظر؟ حسنًا متى ستسنح لي الفرصة لمقابلته؟".

"قد لا يحصل ذلك قريبًا، لأنها حتى الآن لم تعترف بأن لديها صديقًا، على كل حال، أنا أخطَط..."

"إنها تتجه نحونا".

استمرَ سيب وسام بالدردشة، بينما مرَت شابة طويلة وأنيقة بجانب طاولتهما.

قالت سام: "حسنًا، أنا أحبَ أسلوبها".

"ماذا تعني".

"الرجال كلهم يشبهون بعضهم، ينظرون إلى ساقي المرأة ووجهها وجسدها، كما لو كانوا في سوق للحوم".

سأل سيب مدافعًا عن نفسه: "وما الذي تبحث عنه المرأة؟".

"أول ما لاحظته كان فستانها الذي كان بسيطًا وأنيقًا، وكذلك حقيبتها كانت أنيقة من دون أن تعود إلى أحد المصممين، كما أن حذاءها بدا منسجمًا مع مجموعتها المثالية، وأجد نفسي مجبرة على أن أُخرَب ما تفكَر فيه يا سيب، لكن كما نقول في الولايات المتحدة، هذه السيدة راقية".

"إذًا ما الذي تفعله برفقة فيكتور؟"

"ليس لديَ أدنى فكرة، ولكنك مثل معظم الرجال، إذا رأيت صديقًا برفقة امرأة جميلة، فإنك تسيئ الظن على الفور".

"ما زلت أعتقد أنه من الأفضل أن ننسحب من دون ملاحظتنا".

"افضل أن أذهب وألقي التحية على فيكتور، ولكن إذا كنت...".

"هناك شيء لم أخبرك به، أنا وفيكتور لم نعد نتحادث في الوقت الحالي، وسأشرح السبب في أثناء عودتنا إلى السيارة".

نهض سيب، وشقّ طريقه بين طاولات المطعم، متجنبًا طاولة فيكتور، وعندما فتح النادل الباب الأمامي لسامانثا، نقده سيب خمسة جنيهات.

سألته سام، فور صعودها إلى السيارة وجلوسها في المقعد المجاور له: "ما الذي يجب أن أعرفه".

"فيكتور غاضب لأنني لم أعرض عليه منصب مدير تنفيذي".

قالت له سام: "أنا آسفة لسماع ذلك، ولكن يمكنني أن أتفهّم شعوره، ومن الذي عيّنته مديرًا تنفيذيًا؟"

قال سيب: "عندما سلك طريق بيكاديللي، وانضمّ إلى حركة المرور في وقت متأخر من الليل: جون أشلي".

"لماذا فضّلته على فيكتور؟".

"لأنه الرجل الأمثل للوظيفة".

"لكن فيكتور كان دائمًا صديقًا مخلصًا وصادقًا، ويقف إلى جانبك في الأوقات الصعبة وخاصةً عندما تكون محبطًا".

"أعلم، ولكن تلك الصفات لا تكفي لتعيين شخص ما مديرًا تنفيذيًا لبنك كبير ذائع الصيت، كما أنني عرضت عليه منصب نائب الرئيس، ولكنه استاء من قراري واستقال على الفور".

قالت سام: "أستطيع تفهّمه، حسنًا، وكيف ستقنعه ليبقى في مجلس الإدارة؟".

"أتى حكيم من كوبنهاغن ليحاول إقناعه، ويثنيه عن قرار الاستقالة".

عندما توقّف سيب عند إشارة حمراء، سألته سام:

"وهل نجح في إقناعه؟".

***

كان جايلز يخرج من مكتبه مسرعًا ليصل في موعده، وعندما التقى بأرتشي فينويك خارج مكتبه، تابع سيره، وهو يقول له:

"إذا كان الأمر يتعلَق بدعم الحبوب الذي تقترحه الحكومة يا آرتشي، فيمكنك أن تحصل على موعد في وقت لاحق، فقد تأخرت بالفعل عن رئيس الجلسة".

قال له آرتشي: "لا، لم أحضر لمناقشة موضوع دعم الحبوب، بل أتيت من إسكتلندا هذا الصباح على أمل أن يكون لديك متسع من الوقت لمناقشة مسألة شخصية تتعلَق بفريدي".

قال له جايلز: "بالطبع"، دخلا إلى مكتبه، وقال لسكرتيرته: "تأكَدي من عدم إزعاجي في أثناء اجتماعي مع اللورد فينويك"، وأغلق الباب خلفه، ثم قال وهو يحمل زجاجة من غلين فينويك: "هل يمكنني أن أسكب لك كأس ويسكي يا أرتشي؟ لقد قدَمها إليَ فريدي في عيد الميلاد".

قال آرتشي، بعد أن جلس في الجهة المقابلة لجايلز: "لا شكرًا، على الرغم من أن ذلك يجعلني واثقًا بأنك لن تندهش من قدومي لرؤيتك لمناقشة مسألة تتعلَق بفريدي، فأنا أعلم بأنك مشغول، لذا سأحاول ألا آخذ الكثير من وقتك".

"إذا كنت ترغب في مناقشة المشاكل التي تواجه الصناعة الزراعية الإسكتلندية، يمكنني توفير خمس دقائق لك، أما إذا كان الأمر يخصَ فريدي، فخذ وقتك بالكامل".

"شكرًا جزيلًا، ولكنني سأدخل مباشرة في

الموضوع، لقد اتصل بي مدير فريدي مساء أمس ليقول إن الفتى فشل في امتحان القبول في فيتس".

"لكنني عندما قرأت أحدث تقرير له في نهاية الفصل الدراسي، تساءلت عما إذا كان سيحصل على منحة دراسية".

قال آرتشي: "كذلك توقّع مدير المدرسة، ولهذا السبب طلب أوراقه، فبدا واضحًا أنه لم يبذل جهدًا".

"لكن لماذا قد يفعل ذلك؟ الفيتس واحدة من أهمّ المدارس في إسكتلندا".

قال أرتشي: "قد تكون الإجابة عن سؤالك هي عبارة في *إسكتلندا* لأنه خاض اختبارًا مشابهًا في وستمنستر بعد أسبوع، وكان من بين الأوائل الستة".

قال جايلز: "لا أعتقد أننا بحاجة إلى طلب مساعدة فرويد لفهم ذلك، لذلك كل ما أحتاج إلى معرفته، إن كان يريد الالتحاق بالدوام النهاري أم يفضّل أن يكون طالبًا داخليًا؟".

"لقد وضع إشارةً في المربع الذي يحمل علامة الدوام النهاري".

"إنه طريق طويل للذهاب إلى فينويك هول والعودة كل يوم، وبما أن وستمنستر على بعد مرمى حجر من بابنا الأمامي، أعتقد أنه يحاول إخبارنا بشيء ما".

أضاف أرتشي وهو يهزّ براسه، عندما بدأ هاتف المكتب يرنّ: "على أي حال لقد اختار غرفة نومه".

أمسك جايلز بالسماعة وأنصت للحظة قبل أن يقول: "أسف أيها الرئيس، لقد استجدّ أمر طارئ،

ولكنني سأكون في مكتبك خلال ثوانٍ"، وضع جايلز الهاتف جانبًا، وقال: "لماذا لا تنضمَ إلي وكارين لتناول العشاء في سميث سكوير هذا المساء، ويمكننا مناقشة التفاصيل معًا؟".

قال أرتشي: "لا أعرف كيف أشكرك".

وقف جايلز، ثم توجّه إلى الباب، وهو يقول: "أنا من يجب أن أشكرك، إنه الخبر السار الوحيد الذي تلقّيته خلال هذا اليوم، سأراك عند الثامنة تقريبًا".

سأله آرتشي: "هل من أمل في مناقشة دعم الحبوب الذي اقترحته الحكومة في وقت ما؟"، لكن جايلز لم يردَ على سؤاله، بل غادر المكتب بسرعة.

***

سأل سيب: "ما سعر كونارد الفوري هذا الصباح؟".

أجاب جون آشلي: "سعره أربعة جنيهات واثنا عشر بنسًا، فقد ارتفع بنسين عن يوم أمس".

"هذه أخبار سارة على جميع الأصعدة".

"هل تعتقد أن والدتك ندمت يومًا على بيع بارينغتون؟".

"نعم، ولكن لحسن الحظ، هي ترهق نفسها في وزارة الصحة لدرجة أنه ليس لديها متسع من الوقت للتفكير في الأمر".

"وما وضع جايلز؟".

"أعلم أنه ممتن للغاية للطريقة التي تعاملت بها مع حقيبة العائلة، لأنها تتيح له متابعة مهمته الأولى".

"التعارك مع والدتك؟".

"شيء من هذا القبيل".

"ماذا عن خالتك غريس؟".

"إنها تراك رأسماليًا مبتذلًا، أو على الأقل هكذا

تصفني، لذلك لا أظنّ أنها ستفكّر فيك بشكل أفضل".

احتجَ آشلي قائلًا: "ولكنني جعلتها شبه مليونيرة".

"صحيح، ولكن ذلك لن يمنعها من تحديد واجبات تلاميذها هذه الليلة في أثناء قضم شطيرة الجبن".

"ولكن نيابة عنها يا جون، لقد أحسنت عملًا، هل هناك شيء آخر علينا مناقشته؟".

"نعم، يؤسفني أن أقول إنه لدينا ما سنناقشه، أيها الرئيس، وأنا لا أدري كيف يمكنني التعامل مع المسألة".

فتح آشلي ملفًا أُشير إليه بكلمة خاص، وفتّش بين بعض الأوراق، فتفاجأ سيب بارتباك الرجل الذي لعب في الصف الأول في فريق هارلكوينز، ولم يتردّد أبدًا في مواجهة أي عضو من أعضاء مجلس الإدارة، كما بدا له محرجًا بشكل واضح.

"تحدّث، جون".

"افتتحت الآنسة كانديس لومباردو حسابًا مؤخرًا في البنك، وقد ضمنها نائب رئيس مجلس الإدارة".

قال سيب: "أهذا هو اسمها؟".

"هل تعرَفت إليها؟".

"دعنا نقل إنني التقيت بها صدفة، حسنًا، ما المشكلة؟".

"لقد سحبت بالأمس خمسة آلاف جنيه، من دون أن يكون في حسابها جنيه واحد، وقد اشترت بالمبلغ معطفًا من الفرو من هارودز".

"كيف تمكّنت من صرف الشيك؟".

"لأن فيكتور ضمن لها السحب على المكشوف، ولا أملك الصلاحية لوضع حد لسحوباتها من دون استشارتك".

قال سيب، وهو ينظر إلى صورة الرئيس المؤسس للبنك: "سوف يتقلّب أرنولد هاردكاسل في قبره، اعتاد أن يكون مغرمًا بالقول لا تقل أبدًا لا، ما لم يُطلب منك التوقيع على ضمان شخصي".

"هل يجب أن أتحدّث إلى فيكتور؟".

عاد سيب إلى كرسيه، وفكّر في الاقتراح للحظات، فقد تمكّن حكيم من إقناع فيكتور بالبقاء في مجلس الإدارة، وتولّي منصب نائب الرئيس، لذلك كان آخر ما سيسعى إليه أن يدفعه إلى تغيير رأيه.

قال لجون في النهاية: "لا تفعل شيئًا، لكن أطلعني إذا قدّمت السيدة لومباردو أي شيكات أخرى"، وتابع جون قائلًا: "اعتقدت أنك تريد أيضًا أن تعرف أن حساب ابنتك قد تجاوز 104.60 جنيهًا إسترلينيًا، ليس مبلغًا كبيرًا، ولكنك طلبت مني أن أطلعك...".

قال سيب: "هذا صحيح، ولكن لكي نكون منصفين، يا جون، لقد قبضت للتو ألف جنيه مقابل سبعة من رسوماتها".

فتح أشلي ملفًا ثانيًا وفحص كشف حساب بنكي آخر: "لم تقدّم هذا الشيك أيها الرئيس، في الواقع كان إيداعها الأخير يبلغ مئتين وخمسين جنيهًا إسترلينيًا، والشيك يعود إلى ريتشارد لانغلي".

قال سيب: "الاسم لا أعرفه، ولكن أبقني على اطلاع".

تجهّم وجه أشلي.

"ماذا يعني هذا المظهر؟".

"أفضل التعامل مع رئيس كونارد على التعامل مع ابنتك".

42

اجتمع الأربعة في المرسم وبدا واضحًا أنهم لا يشعرون بالراحة.

قالت سامانثا وهي تسكب كوبًا من الشاي لريتشارد: "يسرّني أن ألتقي بك أخيرًا".

قال الشاب الذي جلس متوترًا في الجهة المقابلة لها: "وأنا أيضًا، يا سيدة كليفتون".

سأله سيب: "كيف تقابلتما؟".

قالت جيسيكا: "اصطدمنا ببعضنا في معرض فاوندرز برايس".

قال ريتشارد: "أذهب إلى جميع معارض الكلية الفنية، آملًا في اكتشاف موهبة جديدة قبل أن يقتنصها ويست إيند، عندما لا أكون قادرًا على تحمّل تكاليف أعمالها".

قالت سامانثا، وهي تقدّم إلى ضيفها شطيرة الخيار: "هذا منطقي للغاية".

سأله سيباستيان: "هل التقطت أي شيء ذا قيمة مؤخرًا؟".

قال ريتشارد: "نعم، فقد حصلت على فرصة حقيقية، وهي مجموعة من الرسومات الرائعة لفنان غير معروف بعنوان *المراحل السبع للمرأة*، والتي فازت بفاوندرز برايس، ولم أصدّق حظي عندما علمت كم يبلغ ثمنها.

قال له سيب: "ولكن سامحني لقول إنني مندهش من أنك استطعت دفع ألف جنيه من راتبك بصفتك معلمًا".

"لم أدفع ألف جنيه، يا سيدي، بل دفعت مئتين وخمسين جنيهًا فقط، ولم يتبقّ لدي ما يكفي في حسابي لاصطحاب الفنان إلى تناول العشاء".

"لكنني أعتقد أن... لم يكمل سيب الجملة عندما نظرت إليه سامانثا نظرة حادة، بينما بدت ابنته محرجة، فقرَر تغيير مسار الحديث، وقال: "سأكون على استعداد لتقديم ألفين مقابل تلك الرسومات، ثم يمكنك دعوة الفنان لتناول العشاء بانتظام".

قال ريتشارد: "إنها ليست معروضة للبيع، ولن تكون كذلك أبدًا".

"ثلاثة آلاف؟".

"لا، شكرًا لك، يا سيدي".

"إذًا سنبرم صفقة عادلة، يا ريتشارد، إذا كنت ستتخلَى عن ابنتي يومًا ما، فستبيعني الرسومات مقابل ألفي جنيه".

قالت سامانثا بحدة: "سيباستيان! ريتشارد هو صديق جيسيكا، وليس عميلًا في مصرفك، وعلى أي حال أنت خارج ساعات العمل في المصرف".

قال له ريتشارد: "لن يحصل ذلك يا سيدي، فأنا لا أنوي الانفصال لا عن ابنتك ولا عن الرسومات".

قالت جيسيكا وهي تبتسم ابتسامة رقيقة: "لا يمكنك الفوز بها جميعًا، يا أبي".

قال سيب، كما لو انه يبرم صفقة المليون دولار: "وإذا تخلَت عنك جيسي، هل ستعيد النظر بالصفقة؟".

قالت جيسيكا وهي تمسك بيد ريتشارد: "انس تلك الصفقة، يا أبي، فهذا لن يحدث، لقد فقدت الرسومات، وأنت على وشك أن تفقد ابنتك، لأنني أخطط للانتقال إلى منزل ريتشارد".

كان سيباستيان على وشك أن يقترح... عندما تدخلت سامانثا قائلة:

"هذه أخبار رائعة، أين ستعيشان؟".

قال ريتشارد: "لديَ شقة في بيكهام، بالقرب من مكان عملي".

قالت جيسيكا: "لكننا نبحث عن منزل أكبر".

سألهما سيب: "لاستئجاره، أم لشرائه؟ لأنه في ظل ظروف السوق الحالية، أودَ أن أوصي...".

قالت سامانثا: "أرى أنه يجب أن يترك لهما اتخاذ قراراتهما الخاصة بنفسيهما".

قال سيب متجاهلًا كلام زوجته: "من المنطقي أكثر أن تشتري منزلًا، وباستخدام الألفين اللذين وعدتك بهما، سيكون لديك ما يكفي لدفع عربون الشقة".

قالت سامانثا: "تجاهل كلامه".

وقفت جيسيكا قائلة: "أنا أفعل ذلك دائمًا، استعجل يا أبي، فنحن ذاهبان إلى ICA لمشاهدة معرض للسيراميك يعتقد ريتشارد أنه يبدو واعدًا".

أضاف ريتشارد: "وما زلت قادرًا على الدفع، ولكن إذا كان لديك ألفان للاستثمار يا سيدي، أودَ أن أوصي...". ضحكت سامانثا، ولكن ريتشارد بدا وكأنه ندم على كلماته.

قالت جيسيكا: "وداعًا يا أبي"، وانحنت وقبَلت جبهته، ثم وضعت مغلفًا في جيبه الداخلي، على أمل ألا يلاحظ ريتشارد ما فعلته.

مدَ ريتشارد يده، وقال: "وداعًا يا سيدي، سررت بلقائك".

"وداعًا يا ريتشارد، أتمنى أن تستمتع بالمعرض".

قال ريتشارد: "شكرًا، سيدي". رافقتهما سامانثا إلى الباب لوداعهما.

بينما كان سيب ينتظر عودة سام، أخرج المغلف من جيبه، وفتحه وأخرج شيكًا خاصًا به بقيمة ألف

جنيه، لأول مرة رسا المزاد على صاحب العرض الأدنى.

اقترح سيب عندما عادت سامانثا إلى المرسم: "أعتقد أنه كان في إمكاني التعامل مع ذلك بشكل أفضل".

"هذا سعر بخس، حتى بالنسبة إلى المعايير البريطانية، ولكنني مهتمة أكثر برأيك في ريتشارد".

"إنه شاب لطيف، ولكن لا أحد سيكون جيدًا بما يكفي لـجيسي"، صمت للحظة قبل أن يضيف: "لقد كنت أتساءل ماذا سأهديها بمناسبة عيد ميلادها الحادي والعشرين، ربما أقدِم إليها منزلًا؟".

"هذا آخر ما ستفعله".

"لمَ لا؟". قالت له: "لأنه ببساطة سيذكّر ذلك ريتشارد بأنه مفلس، ما سيجعله يشعر بأنه مدين لك، وعلى أي حال، جيسيكا عنيدة مثلك تمامًا، وسترفض عرضك بالتأكيد، تمامًا كما رفضت الألفي جنيه".

ما إن سلَم سيب الشيك إلى سامانثا، حتى ضحكت بصوت عالٍ، ثم اقترحت قائلة: "ربما ينبغي أن نسمح لهما بأن يعيشا حياتهما كما يشاءان، وقد نتفاجأ أيضًا بأنهما سينجحان من دوننا".

"لكنني كنت أعني فقط...".

قالت عندما بدأ الهاتف يرنّ: "أنا أعرف ما تعنيه يا عزيزتي، ولكنني أرى أن ابنتك قد تفوّقت عليك".

"آه، لديّ شعور بأن ريتشارد يريد أن يعرف ما إذا كنت على استعداد لرفع عرضي إلى أربعة آلاف".

"من المرجح أن تكون والدتك، قد أخبرتها بأننا سنلتقي بصديق جيسيكا الجديد للمرة الأولى، وقد تكون اتصلت لكي تعرف رأينا فيه". فالتقطت

سماعة الهاتف.

"مساء الخير سيدة كليفتون، أنا جون أشلي".

"أهلًا جون، هل احترق البنك؟"

"ليس بعد، ولكنني بحاجة إلى التحدث إلى سيب بشكل عاجل".

"آسف على إزعاجك في هذا الوقت المتأخر، يا رئيس، ولكنك طلبت مني أن أبلغك إذا قدمت الانسة لومباردو أي شيكات أخرى بمبالغ كبيرة".

"كم تبلغ قيمة الشيك هذه المرة؟".

"بلغت قيمته اثنين وثلاثين ألفًا".

كرّر سيب كلامه قائلًا: "اثنين وثلاثين ألف جنيه؟ أوقف تسديد المبلغ في الحال، وإذا لم يحضر فيكتور غدًا، فسوف أتحدث إلى فريقنا القانوني. جون، عد إلى منزلك الآن، فقد ذكّرتني زوجتي، بأنك خارج ساعات الدوام المصرفي، لذلك ليس هناك ما يمكنك القيام به الليلة".

بدت سامانثا قلقةً، فسألته: "أهناك مشكلة، يا حبيبي؟".

ما إن أنهى المكالمة، حتى التقط الهاتف مرة أخرى وبدأ بالاتصال، وقال: "نعم، أخشى ذلك، هل تتذكَرين تلك المرأة التي رأيناها برفقة فيكتور في كابريس؟".

"كيف يمكنني أن أنساها؟".

"حسنًا، أعتقد أنها ستخدعه لتسلب أمواله".

"هل تتَصل بفيكتور؟".

"لا، أتصل بأرنولد هاردكاسل".

"هل الوضع سيئ؟".

"إنه سيئ جدًا".

***

عانقتها وهي تقول: "مرحبًا، جيسي، أنا سعيدة لأنك تمكّنتِ من تحقيق هدفك".

"لا مجال لتفويت هذه الفرصة، يا غرايسون".

قال لها ريتشارد: "تهانينا على فوزك بفاودرز برايس. حسنًا، لن يمرَ وقت طويل قبل أن يعرض ويست إند أعمالك".

بينما ابتعدت فنانة المعرض عنهما للتحدث إلى طالب آخر، قالت جيسيكا: "من فمك إلى باب السماء".

همس إليها ريتشارد، بينما كانا يتجوّلان في المعرض: "ما رأيك في ذلك؟".

"إنه معرض رائع، رغم أنني غير متأكدة بشأن دمية الدب".

"لم أكن أسألك لا عن المعرض ولا عن الدمية، وإنما عن الانطباع الذي خلّفته لدى والديك".

"كما أخبرتك، أمي تجدك جذابًا، وكانت كلماتها بالضبط، أنتِ فتاة محظوظة".

"أشك في أن والدك شاركها في الرأي".

قالت جيسيكا وهي تحدّق إلى مزهرية رائعة: "لا داعي للقلق بشأن أبي، ما إن تبدأ أمي بالتأثير عليه، سيتأقلم مع الوضع الجديد".

"آمل ذلك، لأنه لا ينبغي أن يمرَ وقت طويل قبل أن نخبرهما".

***

صباح اليوم التالي جلس رئيس مجلس الإدارة والرئيس التنفيذي ومحامي البنك حول طاولة بيضاوية في مكتب سيباستيان عند الساعة الثامنة.

طرح سيب السؤال الأول على جون: "هل حصلت

على معلومات عن فيكتور؟".

قال جون أشلي: "لم يره أحد منذ ليلة الجمعة، وقد أخبر سكرتيرته بأنه سيقوم برحلة عمل، ولكنه سيعود في الوقت المناسب لاجتماع مجلس الإدارة".

قال سيب: "لكن الاجتماع لن يكون قبل عشرة أيام، أليس لدى كارول أي فكرة عن مكانه؟".

"لا، ولم يترك حتى رقم هاتف".

قال سيب: "ولكن هذا التصرف ليس من عادة فيكتور".

"أخبرتني كارول بأنه لم يفعل ذلك من قبل".

"فضولي وفضولي".

"هل تعتقد أن الوقت قد حان للاتصال بباري هاموند؟".

اقترح أشلي قائلًا: "أنا متأكد من أن تعقب أثر فيكتور واكتشاف نوايا الآنسة كانديس لومباردو لن يستغرق وقتًا طويلًا".

قال سيب: "لا، لا يمكن أن نعيّن محققًا خاصًا لتعقب أثر نائب رئيس البنك، هل كلامي واضح؟".

قال أشلي وهو يفتح ملفه الذي لا ينضب: "نعم أيها الرئيس، ولكن الآنسة لومباردو قدمت شيكًا آخر بالأمس للحصول على موافقة فورية".

سأله أرنولد: "كم المبلغ هذه المرة؟".

قال أشلي: "إنه اثنان وأربعون ألفًا".

"هل لديك أي فكرة عن الدافع إلى سحب هذا المبلغ؟"

أجاب أشلي: "لا أيها الرئيس، لا أعلم".

درس سيب ميزانية لم يسبق أن درس مثيلها،

وكان على وشك أن ينطق بكلمة واحدة لإعلام فريقه بما يشعر به بالضبط، ولكنه تراجع بعد أن فكّر بشكل أعمق.

توجّه بالسؤال إلى محامي البنك: "ما وضعنا القانوني؟".

"إذا كان في الحساب مبلغ يفوق قيمة الشيك، أو كان الضمان يغطّي هذا المبلغ، فلا خيار أمامنا سوى سداد الشيك خلال ثمانٍ وأربعين ساعة".

"فلنأمل إذًا أن يعود فيكتور قريبًا، أو أن يتّصل بنا على الأقل في اليومين المقبلين".

سأل أرنولد: "أليس هناك أي إشارة إلى مكانه، المكالمات الهاتفية أو بطاقات الائتمان أو فواتير الفنادق أو تذاكر الطائرة، أي مستند يشير إلى مكانه؟".

قال أشلي: "لا شيء حتى الآن، وقد أعطيت سكرتيرته تعليمات تقتضي الاتصال بي فور معرفة أي أخبار عنه، ولكنني لست متفائلًا، لأنه ينتابني شعور بأنه إذا عثرنا على فيكتور، فلن تكون الآنسة لومباردو بعيدة عنه".

قال أرنولد: "هناك شخص آخر قد يعرف مكانه".

سأله سيب: "مَن يكون؟".

"زوجته".

قال سيب: "بالتأكيد لا، روث هي آخر شخص أودّ الاتصال بها في ظل أي ظرف من الظروف".

قال أرنولد: "في هذه الحالة أيها الرئيس، ليس لدينا خيار سوى تسديد آخر شيك خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، ما لم تكن تريد مني إبلاغ بنك إنكلترا بالمسألة برمتها، ويبقى السؤال عما إذا كان في إمكاننا تأجيل دفع أي شيكات أخرى حتى عودة

فيكتور".

قال سيباستيان: "لا، فالسماح للسيدة العجوز في شارع تريدنيدل بنشر غسيلنا الوسخ، سيكون أسوأ من إخبار روث. سدّد الشيك، ودعونا نأمل ألا تقدَم الآنسة لومباردو شيكًا آخر قبل ظهور فيكتور".

***

قال سيباستيان: "ماذا تقولين؟!".

كرَرت سامانثا: "إنها حامل".

"سأقتله".

"في الحقيقة، لن تفعل شيئًا من هذا القبيل، وعندما ستقابل ريتشارد في المرة القادمة، سوف تهنئه".

"علام سأهنئه؟".

"نعم، ولا تدع الشك يساورهما في مدى سعادتك".

"لماذا سأفعل ذلك بحق الجحيم؟".

"لأن البديل لن تحتمل التفكير فيه، وهو أن تفقد ابنتك، وألا تتمكّن من رؤية حفيدك أبدًا، وإن كنت قد نسيت، فقد واجهت موقفًا مشابهًا من قبل، ولستَ بحاجة إلى مواجهة الموقف نفسه مرة أخرى".

سألها سيباستيان بعد أن تغيّرت نبرة صوته: "هل سيتزوَجان؟".

"لم أسأل جيسي".

"لماذا لم تسأليها؟".

"أنا متأكدة من أنهما سيخبراننا بقرارهما عندما يكونان مستعدين".

"أنت هادئة للغاية، في ظل هذه الظروف".

"بالطبع، أنا أتطلَع إلى أن أكون جدة".

قال سيب: "يا إلهي! أسأكون جدًا؟!".

"الفايننشال تايمز وصفتك بأنك أحد أذكى الرجال في المدينة!" ابتسم سيباستيان، وضمَ زوجته إلى صدره، وقال: "في بعض الأحيان أنسى كم أنا محظوظ لأنني تزوجتك، يا حبيبتي"، أنار المصباح الذي يقع إلى جانب السرير وجلس.

"يجب أن نتَصل بأمي ونخبرها بأنها ستصبح الجدة الكبرى".

"إنها تعرف بالفعل".

"هل كنت آخر من يعلم؟".

"آسفة، لقد كنت بحاجة إلى دعم كل قوات الردع قبل أن أبلغك بهذا الخبر".

قال سيب، وهو يطفئ المصباح: "لم يكن هذا الأسبوع عاديًا بالنسبة إلي".

***

قال أشلي: "لقد اكتشفت سبب سحب اثنين وأربعين ألف جنيه، أيها الرئيس".

قال سيب: "كلي آذانٌ صاغية".

"إنها دفعة أولى لشراء مبنى في ساوث باريد، كان مركزًا للمواعدة".

"هذا كل ما نحتاج إليه، إذًا من الوكيل؟".

"سافيلس".

"حسنًا، على الأقل نعرف الرئيس".

"لقد تكلَمت بالفعل مع السيد فوغان، وقد أخبرني بأنه سيقدَم شيكًا موقعًا من الآنسة لومباردو، لتسوية الممتلكات في وقت لاحق، كما ذكَرني بلباقة أنه إذا لم تتمَ عملية البيع، فإن الآنسة لومباردو ستخسر الوديعة".

"دعونا نأمل في أن يعود فيكتور في الوقت المناسب لاجتماع مجلس الإدارة، وإلا بحلول نهاية الأسبوع المقبل، ستكون على الأرجح قد استحوذت على نادي بلاي بوي".

43

سأل فريدي، وهو ينظر إلى الاستعدادات، ما معنى كلمة "مارتينيت؟".

أجابت كارين: "ملتزم بالانضباط، وأعتقد أن الكلمة فرنسية الأصل".

"كيف يمكن أن تتقني اللغة الإنكليزية، يا كارين، وأنت نشأت في ألمانيا؟".

"لقد استمتعت دومًا بتعلّم اللغات عندما كنت في المدرسة، لذلك عندما التحقت بالجامعة درست اللغات الحديثة وأصبحت مترجمةً فوريةً، وهكذا قابلت جايلز".

سأل جايلز، وهو ينظر إلى الجريدة المسائية: "هل اخترت مجال تخصصك عندما ستلتحق بالجامعة؟".

قال فريدي: "سفك(2)".

قالت كارين: "أنا لي دراية بالسياسة والفلسفة والاقتصاد، لكنني لم أسمع أبدًا بالسفك".

"السياسة والفلسفة والكريكيت، إنها فصول دراسية معروفة في أكسفورد".

قال جايلز: "نعم، ولكن ليس من أجل مارتينيت، وأظنّ أنك كنت تبحث عن الكلمة في قاموس أكسفورد المنقح، باختصار ستجد أن كلمة مارتينيت قد تمّ استبدالها بمارغريت تاتشر بصفتها مصدرًا أساسيًا".

قالت كارين: "لا تعره اهتمامًا، سيستخدم أي عذر للحديث عن رئيسة الوزراء".

قال فريدي: "لكن الصحافة تعتقد أنها تجيد عملها".

اعترف جايلز: "عملها متقن بالنسبة إلي، والحقيقة أننا وضعناها على الحبال عندما غزا الأرجنتينيون جزر فوكلاند، ولكن منذ ذلك الحين أصبحت مثل جيمس بوند، فعلى الرغم من أن الرصاص لا يزال ينطلق من كل اتجاه، إلا أنها دائمًا تنحرف في الوقت المناسب".

سأله فريدي: "وماذا عن وكيلة وزارة الصحة؟ هل سيتعيّن عليها الانحراف أيضًا، بعد أن عادت إلى مقاعد البدلاء الأمامية؟".

قال جايلز بلهجة حادة: "إن الرصاص على وشك أن يصيبها".

"جايلز، عد إلى رشدك، إنها أختك التي تتحدّث عنها، وليست عدوك".

"إنها أسوأ من العدو، فلا تنسي أن إيما أصبحت تلميذة مارغريت تاتشر المباركة، ولكن عندما قدّمت مشروع القانون -هيئة الخدمات الصحية الوطنية- الأخير إلى مجلس النواب، نويت تفكيكه فقرة فقرة، حتى لا تعتبر التعيين مصدر ارتياح ومبارك".

قالت كارين: "لو كنت مكانك لتوخيت الحذر، يا جايلز، فبعد أن عملت في المركز الطبي الملكي في بريستول، أصبحت على علم بالخدمات الصحية أكثر منك".

"آه، لكنك نسيت أن المناقشة لن تجري في غرفة اجتماعات المستشفى، بل على أرضية مجلس النواب حيث كنت أنتظر لبعض الوقت".

قالت كارين: "ربما يكون من الحكمة أن تستجيب لتحذير غريس، من أن إيما تعرف كل أساليبك، لأنها على عكس السياسيين، كما انها ضليعة في هذا المجال".

قال جايلز: "أظنّ أنك تقفين في صف المحافظين".

قالت كارين: "أنا بالتأكيد لست كذلك، فلم أعد أؤيّد أي حزب منذ زمن، والفضل يعود إلى إيما، فهي التي غيّرتني".

"خائنة".

"لا على الاطلاق، لقد وقعت في حبك، لا في حب حزب العمال".

"ولكننا تعاهدنا على أن نكون معًا في السراء والضراء".

"أسوأ في تلك الحالة بالذات".

"أنا آسف لمقاطعتك، ولكنني أردت فقط أن أعرف معنى كلمة مارتينيت".

قالت كارين: "تجاهل جايلز، إنه دائمًا ينسى نفسه خلال المناقشات الجدية، خاصة عندما تكون أخته متورطة في المناقشة".

سأل فريدي: "هل يمكنني حضور المناقشة؟".

قال جايلز: "هذا يعتمد على الحزب الذي ستدعمه".

"الحزب الذي ستكون سياسته منفتحة على الآخر".

قالت كارين: "هذا كلام منطقي".

قال فريدي: "ربما لم يحن الوقت لإخبارك بأنني انضممت إلى الشباب المحافظين".

بدأ جايلز يترنّح، ثم سأله وهو يتشبّث بحافة الموقد: "ماذا فعلت؟".

"وسيزداد الأمر سوءًا".

"كيف يمكن أن يسوء؟".

"لقد أجرينا للتو انتخابات في المدرسة، وترشحت

عن مقعد المحافظين".

سأل جايلز: "وماذا كانت النتيجة؟".

"أنت لا تريد أن تعرف".

قالت كارين: "لم يفز بأغلبية ساحقة فقط، بل إنه الآن يريد أن يسير على خطاك، ويصبح عضوًا في البرلمان، ولكن من المؤسف أنه لن يجلس بجانبك في المجلس".

***

"عندما يصل السيد كوفمان يا توم، هلا تطلب منه القدوم إلى مكتبي قبل اجتماع مجلس الإدارة".

ألقى البواب التحية على الرئيس وقال له: "بالطبع يا سيدي".

عبر سيب الردهة بسرعة، واتجه إلى المصاعد.

على الرغم من أن ثمانية أعضاء لم يحضروا بعد، إلا أن سيب عندما صعد إلى الطابق العلوي، كان جون آشلي وأرنولد هاردكاسل ينتظرانه في الممر.

تجاوزهما إلى مكتبه قائلًا: "صباح الخير أيها السيدان، تفضلا بالجلوس، اعتقد أنه ينبغي لنا مناقشة بعض الأمور قبل وصول فيكتور، إذا افترضنا أنه سيحضر".

"لنبدأ بما لديك يا جون، ما آخر المستجدات؟".

فتح أشلي ملفه الذي يزداد سماكة يومًا بعد يوم، وقال:

"لقد قدم السيد فوغمان شيكًا بمبلغ ثلاثمئة وعشرين الف جنيه إسترليني، وعلى كل حال وافق على ألا نسدده على الفور، لأننا ما زلنا في فترة التسوية".

قال له سيب: "هذا الموقف يدل على مراعاته الأوضاع، ومع ذلك يظل عميلًا موثوقًا به منذ

سنوات عديدة، ما الذي يجب علينا فعله يا جون إذا فشل فيكتور في الحضور؟".

"اتصل بباري هاموند واطلب منه تتبع أثر فيكتور أينما كان، لأنني لا أشك في أنه سيجد الفتاة برفقته أيضًا".

اقترح أرنولد قائلًا: "ولكن القيام بذلك يترتب عليه مخاطر كثيرة".

قال جون: "ولكنني أرى أنها تجاوزت حدود السماح لها باستنزاف أموال فيكتور أكثر".

قال سيب وهو يتفقد ساعته: "مع الأسف هذه الاستعارة صحيحة".

"لقد أحسن تصوير الواقع".

سمعوا نقرة خفيفة على الباب، فنظر الثلاثة بترقب، وما إن فُتح الباب حتى دخلت راشيل إلى المكتب، قالت وهي تسلِّم نسخة من جدول الأعمال إلى سيب: "لقد وصل بعض المدراء للتو، وهم ينتظرونكم في غرفة الاجتماعات".

"هل السيد كوفمان بينهم، يا راشيل؟".

"لا، أيها الرئيس، لم أرَه هذا الصباح".

قال سيب بعد إلقاء نظرة سريعة على جدول الأعمال: "أقترح أن ننضمّ إلى زملائنا، وألا نقول شيئًا عن السيدة لومباردو حتى تسنح لنا الفرصة للتحدث إلى فيكتور على انفراد".

قال الرئيس التنفيذي والمستشار القانوني للبنك معًا: "نوافقك في الرأي".

نهض الرجال الثلاثة من أماكنهم من دون أن ينطقوا بكلمة أخرى، فخرجوا من مكتب الرئيس، وتوجّهوا إلى غرفة الاجتماعات، حيث انضمّوا إلى زملائهم.

قال سيب الذي لم يناد عمه باسمه الأول إلا بعد أن أصبح رئيس مجلس الإدارة: "صباح الخير يا جايلز، هل أن أفهم أنك أنت وأمي لن تتحدَثا إلى بعضكما بعد الآن، أما تمَ إقرار قانون هيئة الخدمات الصحية الوطنية؟".

"هذا صحيح أيها الرئيس، لن نتحادث بعد اليوم إلا عبر المنبر".

ابتسم سيب، لكنه لم يستطع منع نفسه من الاستمرار بالنظر خلسةً نحو الباب، أخذ المدراء الآخرون أماكنهم حول طاولة غرفة الاجتماعات، لكن أحد الكراسي ظل شاغرًا، ولكن سيب كان مثل والدته يتمسَك ببدء اجتماعات مجلس الإدارة في الوقت المحدد، وعندما نظر إلى ساعته، كانت التاسعة إلا دقيقة واحدة، فجلس في مقدمة الطاولة، وقال: "صباح الخير أيها السادة، سأطلب من أمين سر الشركة قراءة محضر الاجتماع الأخير".

قام السيد ويتفورد من مكانه إلى يمين الرئيس، وقرأ المحضر كما لو كان يقرأ الدرس في كنيسته المحلية، فحاول سيب التركيز على ما يقرأه، ولكنه كان يلقي نظرات خاطفة إلى الباب، على الرغم من أنه لم يكن متفائلًا بحضوره، لأنه يعرف أن فيكتور لم يتأخر يومًا عن اجتماع مجلس الإدارة، وعندما جلس ويتفورد، نسي سيب أن يسأل زملاءه المدراء إذا كانت لديهم أية أسئلة، وتمتم ببساطة: "البند رقم واحد"، وكان على وشك أن يطلب من الرئيس التنفيذي تقديم تقريره الشهري، عندما فُتح باب غرفة الاجتماعات واندفع نائب الرئيس المتوتر.

قال فيكتور قبل أن يجلس: "أنا أعتذر أيها الرئيس، فقد تأخرت رحلتي بسبب كثافة الضباب،

وقد توجَب على قائد الطائرة الدوران عدة دورات قبل أن يُسمح له بالهبوط في المدرج".

قال سيب بهدوء: "لا مشكلة يا فيكتور، فقد فاتتك قراءة محضر الاجتماع الأخير فقط، وكنت على وشك الانتقال إلى البند الأول المتعلَق باللوائح المصرفية الجديدة للحكومة، أيمكن أن تبدأ جون؟"

فتح آشلي ملفًا ونظر إلى الملاحظات الوفيرة التي أعدَها، والملخص الذي كان على وشك أن يتشاركه مع زملائه، وقال: "يبدو أن المصرفيين إلى جانب وكلاء العقارات وأعضاء البرلمان يتمَ تصنيفهم الآن على أنهم الأعضاء الذين لا ينالون ثقة أبناء المجتمع كغيرهم".

قال جايلز: "وفقًا لذلك كل ما عليَ فعله هو أن أصبح وكيل عقارات، وهكذا أكون قد تمكَنت من إدارة الأعمال الثلاثة معًا".

قال سيب بعد أن تلاشت الضحكات: "ما المحصلة النهائية؟".

"يمكننا أن نتوقَع مزيدًا من التدقيق في الشؤون اليومية للبنك، وعمليات تفتيش أكثر صرامة من الهيئات التنظيمية، إلى جانب سلسلة من اللوائح الجديدة، فجيفري هاو مصمم على أن يظهر وكأنه مكنسة جديدة تُنظَف المدينةَ، وغالبًا ما تتبع الحكومات المحافظة هذه السياسة، ولكنها تُهمل عادة بعد بضع عظات مُختارة جيدًا من المستشار في مأدبة رئيس بلدية ثيلورد".

تشتَتت أفكار سيب مرة أخرى، وبعد أن عبَر المدراء عن آرائهم المتوقعة، باستثناء جايلز الذي لا يمكن التكهن بآرائه، عاد إلى العالم الحقيقي عندما أدرك أن زملاءه المدراء كانوا ينظرون إليه بانتظار ردِه.

قال سكرتير الشركة: "هل أنتقل إلى البند الثاني؟".

قال سيب: "البند الثاني، لقد عاد اللورد بارينغتون لتوه من روما، وأعتقد أنه يحمل بعض الأخبار المثيرة، أيمكن أن تطلعنا على ما في جعبتك، جايلز؟".

أطلع جايلز مجلس الإدارة على زيارته الأخيرة للمدينة الخالدة، حيث عقد اجتماعات مع السيد مينيجاتي، رئيس بنك كاسالدي، بهدف إبرام صفقة شراكة طويلة الأمد بين المؤسستين، وأعقب تقريره مناقشة بين المدراء، لخصها سيب بتوصية جايلز جنبًا إلى جنب مع فريق مختار، أن ينتقلوا بالمناقشات إلى المرحلة التالية ومعرفة ما إذا كان يمكن الاتفاق على اقتراح موضوعي للاندماج على أن يكون كلا الرئيسين وصيين على مجلسيهما.

قال سيب: "مبروك يا جايلز، نحن نتطلَع إلى تقريرك القادم، يجب أن ننتقل الآن إلى البند رقم ثلاثة"، لقد بدأ يفكِر مرة أخرى في البند الوحيد الذي سيكون على جدول الأعمال، عندما يعقد المساعد اجتماعًا خاصًا مع نائب الرئيس، على الرغم من أنه كان عليه أن يعترف بأن فيكتور بدا أكثر استرخاءً منه.

شعر سيب بالارتياح عندما سأل أمين سر الشركة: "أي عمل آخر؟".

أعلن فيكتور، من أقصى الطاولة: "نعم"، رفع سيب حاجبه، بينما تابع فيكتور كلامه قائلًا: "ربما تساءل بعض زملائي أين كنت خلال الأيام العشرة الماضية، وأشعر بأنني مدين لكم جميعًا بالتفسير"، وفي الحال وافق ثلاثة مدراء على ذلك.

وتابع فيكتور كلامه قائلًا: "عندما أصبحت نائبًا لرئيس مجلس الإدارة، كان من بين المسؤوليات

التي كلفني بها الرئيس الاهتمام بسبل تعامل البنك مع التبرعات الخيرية، ولا بد أن أعترف أمامكم بأنني افترضت أنها لن تكون مهمة شاقة، ومع ذلك ما كان من الممكن أن أكون مخطئًا أكثر من ذلك، فسرعان ما اكتشفت أن البنك لم تكن لديه سياسة محددة، ووفقًا لمعايير منافسينا كانت تبرعاته شحيحة، وما كنت لأدرك كم هي شحيحة إلا عندما طلبت مني السيدة بارينغتون أن يدعمها البنك في الماراثون. وعندما وضعت قائمة بأسماء الرعاة، شعرت بالخجل، إذ جمعت من باركليز ونات ويست والدكتور غريس بارينغتون أموالًا تفوق ما تمكَن من جمعها بنك فارذنغز كوفمان، وقد دفعني ذلك أيضًا إلى زيادة الاهتمام بالمؤسسة الخيرية التي كانت تدعمها"، وهنا استحوذ نائب الرئيس على انتباه مجلس الإدارة بالكامل.

"ترسل المؤسسة الخيرية المعنية بعثات إلى إفريقيا حيث يقوم جراح القلب المتميز الدكتور مجدي يعقوب بإجراء عمليات جراحية للأطفال الصغار الذين ما كان لديهم أي أمل في البقاء على قيد الحياة لولا تلك المؤسسة الخيرية".

سأل السيد ويتفورد، الذي كتب كل كلمة قالها نائب الرئيس: "ما المهمة بالضبط؟".

"تتألف المهمة من خمسة أشخاص، وهم جراح وطبيب ومرشدان ومدير، وكلهم يقدَمون خدماتهم من دون مقابل، وغالبًا ما يضحّون بعطلاتهم للقيام بهذا العمل الخيري".

ابتسم فيكتور لرئيس مجلس الإدارة الذي أردف قائلًا: "اقترحت ليدي بارينغتون أن أقابل الانسة كانديس لومباردو، وهي عضوة نشطة في مجلس إدارة المؤسسة الخيرية، لذلك دعوتها لتناول

العشاء".

سأل أمين سر الشركة: "وكأنني أعرف هذا الاسم".

قال كلايف بينغهام: "إنها ملكة جمال لومباردو، كما فازت بلقب أكثر امرأة جذابة على هذا الكوكب، وهذا من قبل قراء مجلة جي كيو، وإذا صدَقت ما نشرته الصحف، فهي حاليًا على علاقة بعمر الشريف".

قال فيكتور: "ليس لدي أي فكرة عما إذا كان ذلك صحيحًا، ولكن كل ما يمكنني قوله هو أننا عندما تناولنا العشاء، سرعان ما اتضح مدى التزامها بالقضية الإنسانية، وقد دعتني الآنسة لومباردو للقيام برفقتها برحلة إلى مصر لمشاهدة المجهود الجبار الذي كان يقوم به الدكتور يعقوب وفريقه في ذلك البلد، وهو المكان الذي أمضيت فيه الأيام العشرة الماضية، حضرة رئيس مجلس الإدارة، وأعترف بأنني قضيت معظم وقتي إما مغمى عليَ أو متوعكًا".

قال كلايف وقد أذهله كلامه: "أغمي على نائب الرئيس؟".

"أغمي عليَ في أكثر من مناسبة، ويمكنني أن أؤكَد لكم أن مشاهدة طفل صغير، وقد فُتح صدره يُضعف أقسى القلوب".

وما إن صعدت على متن الطائرة للعودة إلى الديار، حتى اعتزمت على تقديم الكثير من التبرَعات، وأوصي أعضاء مجلس الإدارة أن يتولَوا دور المصرفيين التابعين للمؤسسة الخيرية، من دون دفع أي رسوم، وقد وافقت بالفعل على أن أصبح أمين الصندوق الفخري.

قال سيب: "إذا اقتبست كلماتك، يا فيكتور، إنها صفقة عظيمة، وما الذي يمكن أن يقوم به البنك

لتقديم المساعدة؟".

"يمكننا أن نبدأ من خلال تقديم مساهمة كبيرة إلى صندوق مارسدن الخيري، كي يتمكّنوا من مواصلة عملهم من دون الحاجة إلى المعاناة من الفقر".

سأل جايلز: "هل تفكّر في مبلغ محدّد؟".

"نصف مليون في السنة على مدى السنوات الخمس المقبلة"، شهق شخصان أو أكثر ممن يجلسون حول الطاولة قبل أن يواصل فيكتور كلامه قائلًا: "وأنا أعلم أن مجلس الإدارة سيكون سعيدًا لمعرفة الامتيازات التي سيحصل عليها البنك عند تقديم التبرعات، وأهمها إعفاء ضريبي بنسبة 40 في المئة".

سأله جون آشلي: "كيف تتوقّع أن تكون ردة فعل مساهمينا عند تخصيص هذا المبلغ الضخم للأعمال الخيرية؟".

اقترح سيب قائلًا: "إذا كان السيد كوفمان تحدّث إلى الجمعية العمومية أظنّ أنهم سيقولون إن المبلغ ليس كافيًا".

أومأ عضو أو أكثر من أعضاء مجلس الإدارة برؤوسهم، بينما ابتسم الآخرون.

قال أمين سر الشركة: "لكن لا يزال يتعيّن علينا شرح سبل إنفاق الأموال"، قال فيكتور: "في جميع الأحوال، سيكون ذلك أقل من واجبنا الائتماني، وأنا مستعدّ لأتولى تلك المهمة، إذا شمح لي بالتحدث إلى مساهمينا حول هذا الموضوع في اجتماع الجمعية العمومية، فأنا متأكد من أنني لن أحتاج إلى تذكيرهم بأن البنك حقّق مؤخرًا أكثر من 11 مليون جنيه إسترليني من استحواذ السيد الفايد على هارودز. ومع ذلك يجب أن أعترف بأنني من دون موافقة مجلس الإدارة، قمت بدفع دفعة

مقدمًا للحصول على عقار في ساوث باريد خلف رويال مارسدين، حتى تتمكَن المؤسسة الخيرية من إنشاء مقرها بالقرب من المستشفى، وقد تمكَنت من الحصول عليه بسعر زهيد، لأن المبنى سبق استخدامه من قبل إحدى الوكالات.

"لماذا لم ترسل إلى أعضاء مجلس الإدارة إشعارًا بالشراء؟".

قال له سيب: "كانت المكالمة الهاتفية كافية، لذلك كان في إمكان مدرائنا التنفيذيين مناقشة اقتراحك قبل اجتماع مجلس الإدارة اليوم، وبدلًا من ذلك، يبدو أنك تضعنا أمام الأمر الواقع".

"أعتذر أيها الرئيس، ولكنني نسيت أن أبلغك بأن الأميرة ديانا، صديقة الدكتور يعقوب، كانت بالرحلة نفسها التي قمت بها إلى مصر، وقد طلب منا فريقها الأمني عدم الكشف عن موقعنا أو أسماء أي شخص آخر في الرحلة"، وتابع فيكتور، وهو ينظر مباشرة إلى سيب: "وافترضت أنه إذا كان هناك حالة طوارئ حقيقية، فلن تتردَد في الاتصال بزوجتي، فهي الشخص الوحيد الذي كان يعرف بمكاني"، أومأ ثلاثة مدراء إليه موافقين.

قال فيكتور: "أخيرًا، أعلم أنكم ستسعدون جميعًا بمعرفة أن البروفيسور يعقوب سيعقد مؤتمرًا صحفيًا في فندق مارسدن الخميس المقبل للإعلان عن موافقة الأميرة ديانا على أن تكون راعية المؤسسة الخيرية".

قال كلايف: "أحسنت، يمكن أن يحسّن ذلك من صورة البنك".

قال فيكتور بحدة: "لم يكن ذلك ما دفعني إلى دعم مثل هذه القضية العظيمة".

قال أرنولد: "ربما لا، لكن في حين أن المستشار ما

زال يتعثر، فلن يلحق ذلك بنا أي ضرر".

قال سيب: "ربما ستكتب اقتراحًا لننظر فيه في اجتماع مجلس الإدارة في الشهر المقبل، ووزعه قبل وقت كافٍ من عقد الاجتماع لكي نفكّر فيه بجدية".

"لقد قمت بصياغة ملخص موجز، بينما كنت على متن الطائرة التي كانت تدور بنا في الجو هذا الصباح، يا رئيس، وفور إنجازه، سأرسل نسخًا إلى جميع أعضاء مجلس الإدارة".

كان معظم المدراء يهزّون برؤوسهم، عندما أغلق فيكتور الملف أمامه.

قال سيب: "شكرًا لك، الآن كل ما علينا أن نقرّره هو موعد الاجتماع المقبل".

تمّت مراجعة اليوميات، وفور الاتفاق على موعد، أنهى سيب الاجتماع.

قال وهو يجمع أوراقه: "هل يمكنك أن تخصّص لحظة للقائي، يا فيكتور".

"بالطبع أيها الرئيس: "تبع فيكتور سيب الذي غادر القاعة، ثم عبر الممر متجهًا إلى مكتبه، وكان على وشك إغلاق الباب خلفه، عندما لاحظ أن جون آشلي وأرنولد هاردكاسل كانا يتبعانهما.

ما إن جلس الأربعة جميعًا حول الطاولة البيضاوية، بدأ سيب بالقول: "لقد قلقنا يا فيكتور، عندما قدّمت الآنسة لومباردو ثلاثة شيكات في أثناء غيابك للحصول على مبالغ طائلة، ولم يسبق لي أنا وأرنولد وجون أن سمعنا بها".

قال فيكتور: "لم تسمعوا بها من قبل؟ على أي كوكب تعيشون؟".

عندما لم يحاول أي منهم الدفاع عن نفسه، سقطوا

كبنس واحد.

بدا مذهولًا وهو يقول: "آه، جميعكم افترضتم أن..."

قال أرنولد مدافعًا: "حسنًا، يجب أن تنظر إلى المسألة من منظورنا".

قال فيكتور: "ولكي نكون منصفين، لا أعتقد أن الانسة لومباردو تصدَرت الصفحة الأولى من فايننشال تايمز في الكثير من الأحيان".

انفجر المدراء الثلاثة الآخرون ضاحكين.

"أعترف بأنني لم أحصل على موافقة مجلس الإدارة على شراء المبنى، ولكنني كنت قلقًا من أن نفقده بينما كان سعره متدنيًا، لذا سمحت للآنسة لومباردو بفتح حساب، وقد ضمنته".

قال جون آشلي بتحفظ: "لكن ذلك لا يفسَر سحب خمسة آلاف جنيه لشراء معطف من فرو المنك من متاجر هارودز".

"لقد كان المعطف هدية عيد ميلاد روث، وقد أردت أن أفاجئها به، وبالمناسبة هل هذا هو السبب الذي دفعك إلى محاولة الاتصال بي؟".

قال له سيب: "بالتأكيد لا، لقد أردنا أن نبلغك بأن جايلز قد يكون قام بانقلاب كبير في روما، قبل أن تقرأ عنه في الصحف".

قال له فيكتور: "محاولة جيدة، ولكنني أعرفك منذ وقت طويل جدًا يا سيب، فقد تكون هذا الشخص الذي تبعني، وسأخبرك بما سأفعله، لن أذكر هذا الموضوع مرة أخرى، ما دمت ستؤيَد اقتراحي بدعم المؤسسة الخيرية في اجتماع مجلس الإدارة المقبل".

"هذا يبدو وكأنه ابتزاز".

"نعم، أعتقد ذلك".

تمتم سيب: "كان يجب أن أستمع إلى زوجتي في المقام الأول".

قال له فيكتور: "ربما كان من الحكمة أن تفعل ذلك، فبعد كل هذه الأحداث، لم أكن أخطَط لذكر ذلك أمام المجلس، ولكن سامانثا غمزتني بينما كنت تتسلّل بطريقة سخيفة من كابريس".

هاري وإيما كليفتون
1986 - 1989
44

عندما استيقظ هاري، حاول أن يتذكّر حلمًا بدا كأنه لم ينته، هل كان كابتن فريق إنكلترا للكريكت مرة أخرى وعلى وشك أن يركض ركضة الفوز ضد أستراليا في لوردز؟ لا، بقدر ما يتذكّر، كان يركض للوصول إلى حافلة، والتي كانت دائمًا على بعد أمتار قليلة منه. تساءل ما الذي يمكن أن يستنتجه فرويد من ذلك.

شكّك هاري في النظرية القائلة إن الأحلام لا تدوم إلا لحظات قليلة، كيف يمكن للعلماء التأكد من ذلك؟ رمشت عيناه، فاستدار وحدّق إلى الأرقام الخضراء المضاءة على ساعة المنبه5:07 الوقت أكثر من كافٍ للتفكير بالسطور الافتتاحية التي خطرت في ذهنه قبل الاستيقاظ.

كان صباح اليوم الأول قبل البدء بكتاب جديد هو الوقت الذي يسأل فيه هاري نفسه عن سبب عدم عودته إلى النوم بدلًا من الشروع مرة أخرى في روتين قد يستغرق عامًا على الأقل، ويمكن أن ينتهي به إلى الفشل، بعد كل شيء. لقد تجاوز العمر الذي يحصل فيه معظم الناس على ساعاتهم الذهبية، وينقادون للاستمتاع بما تبقّى من عمرهم، كما تنظر إليهم شركات التأمين. والله يعلم أنه لم يكن بحاجة إلى المال، ولكن إذا كان الاختيار بين الاكتفاء بما حقّق من أمجاد أو الشروع في مغامرة جديدة، فلم يكن قرارًا صعبًا، فهو كان منضبطًا كما وصفته إيما، أما بالنسبة إلى سيباستيان فكان يصفه ببساطة بالمهووس.

بقي هاري ساكنًا خلال الساعة التالية ومغمض العينين، بينما كان يراجع الفصل الأول مرة أخرى، على الرغم من أنه فكّر في الحبكة لأكثر من عام، إلا أنه كان يعلم أنه ما إن يبدأ القلم بالانسياب على أول صفحة، حتى تتحوّل أحداث القصة إلى مسار جديد يمكن ألا يكون قد تنبّأ به قبل ساعات قليلة.

لقد فكّر مليًا، ورفض الكثير من السطور الافتتاحية، واعتقد أنه استقرَّ أخيرًا على أحدها، ولكن ذلك يمكن أن يتغيّر بسهولة في مسودة لاحقة، وهو يدرك تمامًا أنه لو كان يأمل في أن يجذب خيال القراء وينقلهم إلى عالم آخر، فعليه أن يلفت انتباههم في الفقرة الافتتاحية، وبالتأكيد في نهاية الصفحة الأولى.

قرأ هاري العديد من السير الذاتية لمؤلفين آخرين للاطلاع على النهج الذي نهجوه للقيام بمهنتهم، فكان العمل الجاد الذي لا بديل عنه وحده هو المشترك بينهم جميعًا، فقد خطط بعضهم لحبكة روايتهم بالكامل حتى قبل التقاط القلم أو البدء بالنقر على آلة كاتبة، بينما قام آخرون بوضع مخطط تفصيلي لبقية الكتاب بعد الانتهاء من الفصل الأول، أما هاري فقد اعتبر نفسه محظوظًا دائمًا لأنه أجاد كتابة الفقرة الأولى، ناهيك عن الفصل الأول. فهو عندما كان يمسك بقلمه في الساعة السادسة من صباح كل يوم، لم تكن لديه أي فكرة إلى أين ستقوده أفكاره، ولهذا قال الايرلنديون إنه لم يكن كاتبًا بل روائيًا.

كان الشيء الوحيد الذي يجب تحديده قبل الانطلاق في رحلته الأخيرة، هو أسماء الشخصيات الرئيسية.

كان هاري يعلم بالفعل أن الرواية ستبدأ بمشهد

احتفال صبي يبلغ من العمر خمسة عشرة أو ستة عشرة عامًا بعيد ميلاده مع والديه في مطبخ منزل صغير ومتواضع يقع في الشوارع الخلفية في كييف، ولا بد أن يكون اسم الصبي يمكن اختصاره، لأن الاسم وحده سيمكّن القراء عندما يتابعون القصتين المتوازيتين من تحديد ما إذا كان في نيويورك أو لندن، فاعتبر اسم جوزيف/جو مرتبطًا بديكتاتور شرير، واسم مكسيم/ماكس يناسب جنرالًا، واسم نيكولاي/نيك ملكيًا جدًا، فاستقرّ أخيرًا على ألكسندر/ساشا.

كما يجب أن يكون اسم العائلة سهل القراءة، حتى لا يقضي القراء نصف وقتهم في محاولة تذكّر هوية الشخصيات، وهي مشكلة واجهها هاري عندما قرأ رواية الحرب والسلام، على الرغم من أنه قرأها باللغة الروسية، ففكّر باسم كرافيك، دزيوبا، بيلينسكي، إلى أن استقرّ على كاربينكو.

كان اسم الأم أكثر أهمية، لأن الأب سيقتله عناصر الشرطة السرية بوحشية في الفصل الافتتاحي، كما يجب أن يكون أنثويًا، ولكن وقعه قوي بما يكفي ليؤمن القارئ بأنها تستطيع تربية ابنها بمفردها، على الرغم من العقبات التي قد تعترض طريقها. في النهاية كان مقدرًا لها تشكيل شخصية بطل الكتاب، فاختار هاري اسم الأب ديميتري، واسم الأم إيلينا، وهو اسم نبيل، ولكنه يوحي بالقوة والقدرة على الصمود في وجه المصاعب، ثم عاد إلى التفكير في سطر الافتتاح.

في الدقيقة الخامسة والأربعين رمى اللحاف، ونهض من السرير، فوضع قدميه بثبات على السجادة، ثم نطق بالكلمات التي ردَدها بصوت عالٍ كل صباح قبل ذهابه إلى المكتبة: "أرجوك

دعني أفعل ذلك مرة أخرى"، فهو يدرك بشكل قاطع أن تأليف القصص نعمة لا ينبغي التفريط بها أو اعتبارها أمرًا بديهيًا.

لقد صلَى أن يموت مثل بطله ديكنز، بصمت.

دخل إلى الحمام، وخلع ملابس النوم، وأخذ حمامًا باردًا، ثم ارتدى قميصًا وبنطالًا رياضيًا وجوربي تنس وسترة من سترات فريق كرة قدم مدرسة بريستول غرامام، فهو كان يضع ملابسه على الكرسي بترتيب قبل الخلود إلى النوم، ويرتديها في اليوم التالي.

أخيرًا انتعل هاري حذاءً جلديًا باليًا، وغادر غرفة النوم، متوجهًا إلى الطابق السفلي، وهو يتمتم: "ببطء وتركيز، ببطء وتركيز"، وعندما دخل المكتب، سار باتجاه مكتبه الكبير المصنوع من خشب السنديان، والذي يقع بجانب نافذة كبيرة تطلَ على البستان، فجلس على كرسي جلدي منتصب ذي أزرار خلفية حمراء، ونظر إلى الساعة الموجودة على المنضدة أمامه، فهو لا يبدأ الكتابة قبل مضي خمس أو ست دقائق على جلوسه إلى مكتبه.

نظر إلى يمينه فرأى مجموعة من الصور المؤطرة لإيما وهي تلعب السكواتش، وسيباستيان وسامانثا وهما في إجازة في أمستردام، وجيك وهو يحاول تسجيل هدف، وقد ذكّرته لوسي آخر أفراد الأسرة، وهي بين ذراعي والدتها، بأنه الآن أصبح الجد الأكبر، وفي الجانب الاخر من المكتب كان هناك سبعة أقلام رولر بول سيتمَ استبدالها خلال أسبوع، وأمامه كراسة مكونة من 32 ورقة مسطرة بقياس A4، والتي يأمل في أن يتمَ ملؤها بـ 2500 إلى 3000 كلمة بحلول نهاية اليوم، ما سيعني أن المسودة الأولى للفصل الأول قد اكتملت.

أزال غطاء قلمه، ووضعه على المكتب المجاور له، وحدَق إلى ورقة بيضاء فارغة وبدأ بالكتابة:

لقد انتظرت لأكثر من ساعة ولم يتحدث إليها أحد...

***

اتبعت إيما روتينًا منضبطًا ومنتظمًا مثل روتين زوجها، وإن كان مختلفًا تمامًا، فعندما فازت مارغريت تاتشر بولاية ثانية، رقَت إيما إلى منصب وكيلة وزير الصحة في مجلس وزارة الولاية، اعترافًا بالمساهمة التي قدَمتها خلال فترة ولايتها الأولى.

كانت إيما غالبًا ما تتذكَر كلمات مايسي مثل هاري تمامًا، ما جعلها تسعى جاهدة ليتمَ تذكرها بأكثر من كونها أول امرأة تولَت رئاسة شركة عامة، ولكنها لم تكن تدرك أنها عندما قبلت بهذا التحدي أنه سيحرَضها ضد شقيقها الذي اختاره نيل كينوك بذكاء ليتبعها ويتعلَم منها، كما لم تساعدها إشارة صحيفة ديلي تلغراف إلى جايلز بصفته واحدًا من أكثر السياسيين الموقرين في ذلك الوقت، وربما أفضل خطيب في أي مجلس.

إن كانت تسعى إلى هزيمته في المجلس، فهي تدرك أن الأمر لن يكون من خلال تقديم بعض الأجوبة السريعة والذكية أو بأسلوب مؤثر لا يُنسى، بل كان عليها الاعتماد على وسائل أكثر وضوحًا، كالتحكم الكامل بتوجيهاتها، وفهم التفاصيل التي من شأنها إقناع أقرانها بمتابعتها عندما ينقسم المجلس.

يبدأ روتين إيما الصباحي في الساعة السادسة صباحًا، وبحلول الساعة السابعة تكون في مكتبها في مجلس ألكسندر فليمنغ لتوقع الخطابات التي

أعدَها موظف حكومي كبير في اليوم السابق، وكان الاختلاف بينها وبين العديد من زملائها البرلمانيين، أنها كانت تقرأ كل حرف في هذه الخطابات، من دون أن تتردَد في إضافة ملاحظات إذا اختلفت مع صاحب الخطاب، أو شعرت بأنه تمَ التغاضي عن نقطة حاسمة.

قرابة الساعة الثامنة صباحًا، تصل بولين بيري، سكرتيرتها الخاصة، لاطلاع إيما على جدول أعمال اليوم، وقد احتاج خطاب كانت ستلقيه في الكلية الملكية للجراحين في ذلك المساء إلى تعديل بسيط قبل أن تنشره الصحافة.

عند الساعة 8.55 صباحًا، كانت تسير في الممر، فتنضمَ إلى وزير الصحة لحضور "اجتماع الصلاة" اليومي، جنبًا إلى جنب مع جميع الوزراء الآخرين في مجلس الوزراء، فيقضون ساعة في مناقشة سياسة الحكومة للتأكد من أنهم جميعًا ينشدون الترنيمة نفسها، لتجنب أن تنتهي إحدى ملاحظاتهم غير الرسمية، والتي قد يلتقطها صحفي متيقظ بكل سهولة ليحوّلها إلى قصة مثيرة تتصدَر في اليوم التالي الصفحة الأولى في إحدى الصحف الوطنية.

إيما لا تزال مستاءة من ذلك العنوان، *الوزيرة تدعم بيوت الدعارة*، الذي تصدر الصحف بعد أن صرَحت بعفوية قائلة: "أنا أتعاطف مع محنة النساء اللاتي يجبرن على ممارسة الدعارة"، من دون أن تحسب حسابًا لنتائج كلامها، وعلى الرغم من أنها لم تغيَر رأيها، إلا أنها تعلَمت منذ تلك اللحظة التعبيرعن آرائها بحذر شديد.

في ذلك الصباح كان الموضوع الرئيسي المطروح للمناقشة هو مشروع القانون المقترح حول مستقبل الخدمات الصحية الوطنية، والدور الذي سيؤديه

كل واحد منهم وفقًا لنظرته إلى أي تشريع في كلا المجلسين، وسيقدَم الوزير مشروع القانون في مجلس النواب، بينما ستقود إيما الحكومة في مجلس الشيوخ، وكانت تعلم أنه سيكون تحديها الأكبر حتى الآن، لأسباب لا تقلّ عن أن شقيقها على حد قوله، سيكون بانتظارها.

في الحادية عشرة صباحًا، تمَ نقلها عبر جسر وستمنستر إلى مكتب مجلس الوزراء لحضور اجتماع للنظر في الآثار المالية المترتبة على الحكومة للوفاء بالتعهدات التي قدمها الحزب في البيان الانتخابي الأخير، كما سيتعيّن على بعض زملائها تقديم تضحيات تتعلّق بمشاريعهم الشخصية، إذ كان كل وزير يعلم أن مجرد الوعد بخفض التكاليف في إدارته كونه أكثر كفاءة، لن يكون كافيًا.

تناولت الغداء مع لارس فان هاسل، وزير الصحة الهولندية في مكتبها، بغياب موظفي الخدمة المدنية، فبدا رجلًا مغرورًا ومتغطرسًا، ولكنه عبقريّ جدًا، وهو يدرك ذلك، إلا أنها كانت على يقين من أنها ستتعلَم خلال ساعة واحدة من لارس، وهما يتناولان شطيرة ويحتسيان كأسًا من النبيذ أكثر مما ستتعلَمه من معظم زملائها خلال شهر واحد.

في فترة ما بعد الظهر، كان يتوجَب على إدارتها الإجابة عن الأسئلة في مجلس اللوردات، وعلى الرغم من أن شقيقها قد تلقى الضربة العرضية، إلا أنه لم تُرق الدماء، ولكن بعد ذلك عرفت أنه كان يحتفظ بمدفعيته الثقيلة لوقت عرض مشروع قانون الخدمة الصحية الوطنية على مجلس النواب.

تبع الأسئلة اجتماع مع بيرتي دينهام، المنسق

العام للكتلة النيابية، لمناقشة هؤلاء الأعضاء الذين جلسوا على مقاعد الحكومة، وقد أعربوا عن مخاوفهم عندما نشرت الورقة البيضاء المتعلَقة بمشروع القانون للمرة الأولى، فكان بعضهم صادقًا، وبعضهم الآخر غير مطلع، في حين أن الذين أقسموا على ولائهم الدائم للحزب إذا غرض عليهم رتبة النبيل اكتشفوا فجأة أن لديهم أفكارًا خاصة بهم تؤدي إلى تغطية مواتية في الصحافة الوطنية.

ناقشت إيما المنسق العام للكتلة النيابية حول من يمكن أن يتعرَض للتخويف أو التملق أو الإطراء، وقد تبيَن أن حالة أو أكثر قد تتعرَض للرشوة إلى جانب الوعد بالحصول على مكان ضمن وفد برلماني لبعض المناطق الجديدة يوم الاقتراع، وقد حذَرها بيرتي من أن الأرقام قد تبدو متقاربة جدًا.

غادرت إيما مكتب المنسق العام للكتلة النيابية، لتعود إلى الوزارة وتطَلع على آخر المستجدات أو المشاكل التي قد تظهر خلال النهار، نورمان بيركينشو، الأمين العام للكلية الملكية للتمريض - لم تستطع إيما إلا أن تتساءل عن المدة التي ستستغرقها امرأة قبل أن تشغل هذا المنصب- كانت تطالب بزيادة في الراتب بنسبة 14 في المئة لأعضاء الكلية، وقد وافقت على لقائها، لإبلاغها بأن الحكومة إذا وافقت على مطالبها، فإن نظام التأمين الصحي سيفلس، ولكنها كانت تعلم جيدًا أنها لن تعير كلماتها أي انتباه.

عند الساعة 6.30 مساءً كانت إيما قد تأخرت عن حضور حفلة مشروبات في نادي كارلتون في سانت جيمس، حيث ستلتقي المحافظين وتستمع باهتمام إلى آرائهم حول كيفية إدارة الحكومة، والابتسامة لا تفارق وجهها، ثم ستنتقل إلى الكلية

الملكية للجراحين، ما يمنحها ما يكفي من الوقت للتحقق من خطابها في السيارة، وإجراء المزيد من التصحيح، والمزيد من الحذف، وأخيرًا وضع خط تحت الكلمات الرئيسية التي يجب التأكيد عليها.

وعلى عكس هاري، كان على إيما أن تكون في أبهى حالاتها في المساء، مهما شعرت بالإرهاق، وقد قرأت ذات مرة أن مارغريت تاتشر تنام لمدة أربع ساعات فقط في الليل، وتكون دائمًا في مكتبها عند الساعة الخامسة صباحًا، لتكتب الملاحظات للوزراء ورؤساء الدوائر وموظفي الخدمة المدنية والأصدقاء القدامى، وهي لم تنس أبدًا أي مناسبة، فكانت ترسل بطاقات التهنئة بعيد ميلاد أو ذكرى زواج أو بولادة حفيد، وقد أرسلت إلى إيما مؤخرًا بطاقة تهنئة بولادة حفيدتها، وأضافت إليها ملاحظة: "لا تنسي، أن تفانيك وعملك الجاد يمكن أن يفيدا جيل لوسي لاحقًا".

وصلت إيما إلى المنزل في جادة سميث بعد منتصف الليل بقليل، فكان عليها أن تتصل بهاري، ولكنها لم ترغب في إيقاظه، لأنه سيستيقظ في السادسة صباحًا، للعمل على الفصل الثاني، ثم توجَهت إلى المكتب لفتح صندوق أحمر آخر، تمَ تسليمه في أثناء تناول العشاء مع رئيس الكلية الملكية للجراحين، فجلست وبدأت العمل على المسودة الأولى لخطاب كانت تعلم أنه قد يحدَد مسار حياتها السياسية بالكامل.

"أعزائي اللوردات، إنه لشرف لي أن أقدَم إلى مجلس النواب القراءة الثانية لمشروع قانون نظام الخدمة الصحي للحكومة للنظر فيه.

اسمحوا لي أن أبدأ بقول...".

45

سألت إيما هاري بعد أن غادرا المنزل للقيام بنزهة مسائية إلى تشيو ماغنا: "ما الذي جعل ذلك يخطر في بالك؟".

قال لها هاري: "أنت تعرفين أنني أجريت الفحص السنوي مؤخرًا، وقد تلقيت النتائج هذا الصباح".

قالت إيما، وهي تحاول ألا تبدو قلقة: "آمل في أنه لا يوجد ما يدعو للقلق؟".

"كل شيء على ما يرام، ولكن يبدو أنني تجاوزت كل الفحوصات ماعدا واحدًا، وعلى الرغم من أنني توقفت عن الركض، إلا أن الدكتور ريتشاردز كان راضيًا لأنني ما زلت أسير لمدة ساعة كل صباح".

قالت إيما: "أتمنى أن أفعل الشيء نفسه".

"ستؤكد مديرة مكتبك أن ذلك ليس ممكنا أبدًا، ولكن على الأقل أنتِ تحاولين تعويض ذلك في عطلة نهاية الأسبوع".

قالت إيما وهما يسيران على طول الممر باتجاه الطريق الرئيسي: "قلت لي إن نتائج فحوصاتك كانت جيدة ما عدا واحدًا".

"يقول الطبيب إن مستوى الفوسفات القلوي لديَ عالٍ، وعلى الرغم من أنه لا يجد أي داعٍ للقلق، ولكنه يرى أنه يُستحسن استشارة رأي طبيب ثانٍ".

"أوافقه في الرأي، ففي النهاية يمكنك إجراء عملية جراحية في الوقت الحاضر، أو اللجوء إلى علاج كيميائي، واستعادة صحتك خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع".

"أحتاج إلى سنة أخرى فقط".

قالت إيما بعد أن تجمدت في مكانها: "ما الذي تعنيه؟"

خلال ذلك الوقت يُفترض أن أكون قد أنهيت هيدز يو وين ووفيت بشروط العقد الذي أبرمته مع الناشر.

"ولكنك تدرك تمامًا، يا عزيزي، أنه بحلول ذلك الوقت ستتدفق أفكارك الجديدة، وستتزاحم في رأسك، هل يمكن أن أتجرأ على أن أسألك عن سير أمور هذا الكتاب؟"

"يعتقد كل مؤلف أن أحدث أعماله هي أفضل إنجازاته على الإطلاق، وأنا لست استثناءً، ولكن لا يكون لديك دليل حقيقي حتى تقرئي المراجعات، أو كما يقول آرون غوينزبورغ، عندما تكشفين أن صناديق النقود لا تزال توثّق المبيعات، وفور انتهاء الزحام الأولي يبقى لديك الكلمات الشفهية للاعتماد عليها فقط".

قالت أيما: "فليذهب آرون غوينزبورغ إلى الجحيم، كيف تجده أنت؟".

قال هاري وهو يربت على صدره بثقة كبيرة: "إنه أفضل إنجازاتي على الإطلاق، ولكن بعد ذلك، من يدري؟ هل يمكنك أن تكوني واثقة من كيفية إلقائك خطابك؟".

"هناك شيء واحد فقط متأكدة منه، وهو أن زملائي سيعلمونني كيف كان أدائي لحظة جلوسي، ولن ينتظروا ثلاثة أسابيع ليخبروني برأيهم".

"كيف يمكنني أن أقدّم لك المساعدة؟"

"يمكنك الحصول على نسخة من خطاب جايلز حتى أتمكّن من معرفة ما الذي سأواجهه".

"تحدّثي إلى كارين، فأنا على يقين من أنها تستطيع أن تحصل على نسخة".

هذا بالضبط ما اقترحه سيب، ولكنني قلت له إن

جايلز إذا اكتشف ما قامت به، فلن أكون الشخص الوحيد الذي لن يتحدّث إليه.

قال هاري: "خطاب جايلز سيكون مثل فالستاف (3)في تدفق مستمر، ويحتوي الكثير من الأفكار العظيمة، ولكن معظمها غير عملي، وبالتأكيد لا يمكن تحمّل تكلفتها، جنبًا إلى جنب مع فكرة أو أكثر من الأفكار القيمة التي تشبه الذهب الخام يمكنك سرقتها، وربما حتى إلحاقها بخطابك قبل الانتخابات القادمة".

"أنت عجوز ماكر يا هاري كليفتون، كان يمكن أن تكون سياسيًا عظيمًا".

"كان يمكن أن أكون سياسيًا مروّغا، فأنا لم أحسم حتى الآن أمر الحزب الذي سأدعمه، مع أنني أميل عادة إلى أن أكون الشخص المعارض، ولكن مواجهة الصحافة والناخبين، ستكون كافية لجعلي زاهدًا".

سخرت إيما من كلامه، وهما يمشيان باتجاه القرية، ثم قالت له: "أي سر تخفيه حتى يجعلك تبدو مذنبًا؟".

"كل ما أرغب في الاعتراف به هو أنني أنوي الاستمرار بالكتابة حتى أموت، كما أن في هذه العائلة عددًا كافيًا من السياسيين بالفعل، على أي حال لم تجيبي عن سؤالي، بل تملَصت من الإجابة مثل أي سياسي مراوغ، كيف يبدو خطابك؟

"إنه جيد بما فيه الكفاية، ولكنني قلقة من أن يكون مملًا بعض الشيء ولا يلائم الوقت الحالي، فأعتقد أنني تعاملت مع معظم تحفظات زملائي، ولو بقي واحد أو اثنان منها من دون حل، وبصراحة يحتاج الخطاب إلى فكرة مدوية من شأنها أن تُبقي جايلز متسمرًا في مكانه، وكنت امل أن يكون لديك متسع من الوقت لقراءته وإبداء رأيك فيه بصدق

وصراحة".

"طبعًا سأفعل، على الرغم من أنني أظنّ أن جايلز قلق مثلك تمامًا، ويرغب في أن يحصل على نسخة من خطابك، لذلك لن أكون قلقًا للغاية".

"هل يمكنني أن أطلب خدمة أخرى؟".

"اطلبي ما تريدينه، يا عزيزتي".

قالت إيما، وهي تشبك ذراعها في ذراعه: "عدني بأنك ستستشير طبيبًا أخصائيًا، وإلا سأقلق بشأن صحتك".

قال هاري بينما كانا يمرّان بكنيسة الأبرشية، ثم سلكا ممرًا يقودهما عبر المروج إلى مانور هاوس: "أعدك بذلك، ولكن في المقابل، أودّ أن أطلب منك طلبًا".

"يبدو أن طلبك ينذر بالسوء".

"إنني سأنام مطمئن البال إذا كتبنا وصيتينا".

"لمَ تتطرّق إلى هذا الموضوع؟".

"لإدراكي أنني سأبلغ السبعين العام المقبل، وأنني سأفي بعقد الناشر قريبًا، ناهيك عن ولادة حفيدة جعلتني الجد الأكبر، وسيكون تصرفنا غير مسؤول إن لم نتأكّد من أن الأمور ستكون على ما يرام بعد وفاتنا".

"إن تفكيرك مريع، يا هاري!".

"ربما، ولكن لا ينبغي تجنبه، فليست وصيتي التي تشكّل المشكلة، لأنني باستثناء بعض الهدايا للجمعيات الخيرية والأصدقاء القدامى، تركت كل أملاكي لكم، وهو أمر منطقي ومناسب في الوقت نفسه من الناحية الضريبية، ووفقًا لـسبب تكمن المشكلة الحقيقية في وصيتك".

"ما لم أمت قبلك، يا عزيزي، عندها كل خططك

للمستقبل...".

"هذا غير مرجح، لأنك ستجدين أن خبراء التأمين، مثل وكلاء المراهنات، يحصلون عادة على الاحتمالات الصحيحة، وهي الطريقة التي يكسبون بها رزقهم، وقد أجرت شركات التأمين حاليًا إحصاء يظهر أن النساء سوف تفوق أعمارهن أعمار أزواجهن بسبع سنوات وسيكون متوسط عمر الرجل أربعة وسبعين عامًا، بينما سيكون متوسط عمر زوجاتهم واحدًا وثمانين عامًا".

"لا شيء عادي فيك، يا هاري كليفتون، وعلى أي حال فقد خطَطت للموت بعد أسبوعين تقريبًا من موتك".

"لماذا بعد أسبوعين؟"

"لا أريد أن يجد القس المنزل غير مرتب".

لم يستطع هاري الكفَ عن الابتسام، وهو يقول لها: "كوني جادة للحظة يا عزيزتي، لنفترض أننا نموذجيان، فأنا أكبر منكِ بعام، ومن المتوقَع أن تعيشي ثماني سنوات بعد موتي".

"إحصائيات لعينة".

"ومع ذلك، أعتقد أن الوقت قد حان لكتابة وصيتك، وترك كل ما تملكينه للأولاد، لتقليل ضرائب الإرث التي لا تزال بقيمة 40 في المئة، على الرغم من وعود السيدة تاتشر بتخفيضها".

"لقد فكَرت بجدية كبيرة في هذا الأمر، أليس كذلك يا هاري؟".

"إن مرض السرطان بمثابة تنبيه لا ينبغي تجاهله، على أي حال قرأت النص الموجز في بوليصة تأمين الحياة في شركة برودينشل للتأمين، ولم أتمكَن من العثور على أي إشارة للخلود".

"آمل ألا نجري هذه المحادثة مرة ثانية".
"يكفي أن نجريها مرة واحدة في السنة، ولكنني سأشعر بسعادة أكبر عندما أعرف أن وصيتك أصبحت جاهزة".
"لقد تركت بالفعل مانور هاوس لسيباستيان ومعظم مجوهراتي لسامانثا وجيسيكا ولوسي".
"ماذا عن جيك؟".
"لا أعتقد أنه سيناسبه وضع عقد من اللؤلؤ، على أي حال لديَ شعور بأنه ورث أسوأ سمات والده، وسينتهي به الأمر إلى أن يصبح مليونيرًا".
أمسك هاري بيدها بينما كانا يدخلان إلى المنزل.
قال لها: "سيتمكّن من تحقيق أمور أكثر متعة".
"أين ترغب في أن تقضي إجازتك الصيفية هذا العام؟".
"في جزيرة صغيرة في المحيط الهندي، حيث لن يتمكّن زملائي من العثور عليَ".

***

قالت كارين: "لم نرَ هاري وإيما منذ أسابيع، لمَ لا ندعوهما لتناول الغداء يوم الأحد؟"
قال جايلز وهو يشدّ طية سترته: "ليس لديَ أي نية على التآخي مع العدو، حتى يتمَ الإدلاء الأخير بأصوات الناخبين وانهزام المحافظين".
"أوه، بحق السماء يا جايلز، إنها أختك".
"لا يُثبت ذلك سوى كلمة والديَ".
"إذًا متى يمكنني دعوتهما؟".
"ليس قبل أن يرحل القادة والملوك".
"ما الذي تتحدّث عنه؟".
"هل تعتقدين، للحظة واحدة، أن ويلينغتون كان

سيفكرَ في تناول الطعام مع نابليون في الليلة السابقة لمعركة واترلو؟".

قالت كارين: "لو فكرَ في ذلك، ربما كان مشهدًا استثنائيًا لكل من يعنيه الأمر".

ضحك جايلز، وقال: "لدي شعور بأن نابليون يوافقك الرأي".

"كم من الوقت علينا الانتظار قبل أن نكتشف من منكما سينفى إلى سانت هيلينا؟".

"لن يطول الأمر، فقد تحدّد موعد مؤقت للمناقشة يوم الخميس في التقويم البرلماني الأسبوعي".

"هل أجرؤ على أن أسأل كيف تسير عملية كتابة خطابك؟".

"في أفضل حال، كما أستطيع أن أقول بثقة تامة بأنه سيتمَ الترحيب به من خلال التلويح بأوراق الطلب والتصفيق المطول والحماسي"، صمت للحظات، ثم تابع جايلز كلامه قائلًا: "في الواقع، لم يكن لدي أدنى شك في تأثيره، يا عزيزتي، وكل ما يمكنني قوله إنني لم أعمل قط بجدية كما عملت على هذا الخطاب".

"حتى لو ربحت المناظرة، هل لديك حقًا أي فرصة لهزيمة الحكومة بينما لديها أغلبية ساحقة؟".

"ستكون الفرصة كبيرة جدًا، إذا انضمَ إلينا المتشددون والليبراليون في المجلس، ويكاد ذلك أن يكون قريبًا، كما علمت أيضًا أن عشرة من المحافظين لم يكونوا سعداء على الإطلاق بمشروع القانون، ولا يزالون مترددين، ولو أمكنني إقناع بعضهم بتغيير ولائهم، أو الامتناع عن التصويت فقط، فسنكون متقاربين جدًا".

"لكن من المؤكد أن المنسقين العامين للكتلة

النيابية المحافظة سيعملون على تملق أو تهديد أو حتى رشوة أي من المنشقين المحتملين؟".

"لن يسهل القيام بذلك بين اللوردات، لأن المنسقين ليس لديهم الكثير من الوظائف لعرضها عليهم، كما لا يمكنهم التلميح للسياسيين الشباب الطموحين بمنحهم الترقيات أو درجات الشرف، في حين يمكنني مناشدة غرورهم من خلال الادعاء بأنهم رجال ضمير وشجعان ومستقلون، ويصنعون مستقبل الأمة الواعد قبل صنعه لحزبهم".

سألته كارين: "ماذا عن النساء؟"

"إن رشوة النساء أصعب بكثير".

"أنت وغد يا جايلز بارينغتون".

"أعلم يا حبيبتي، لكن عليكِ أن تفهمي أن كوني وغدًا هو ببساطة جزء من الوصف الوظيفي للسياسي".

قالت له كارين بجدية للمرة الأولى: "إذا فزت بالتصويت، فهل يعني ذلك أن إيما يجب أن تستقيل؟".

"كل شيء مباح في الحب والحرب".

"آمل أن يكون لديك بعض العبارات المبتذلة أفضل من هذه العبارة في خطابك".

قال جايلز وهو ينتعل خفيه: "أنت خائنة"، ثم دخل إلى الحمام، وفتح صنبور الماء الساخن، وبينما كان ينظر إلى المرآة التي غطاها البخار بسرعة قصوى، قال بصوت جهوري: "كيف يمكن للوزيرة أن تدَعي تفهّم محنة أم يافعة في دارلينجتون، دونكاستر أو دورهام؟"، سأل كارين، بعد أن استعاد نبرة صوته الطبيعية: "أي واحدة مناسبة أكثر برأيك؟"

قالت له كارين: "دارلينجتون، لأنه من غير المرجح

أن تكون أيما قد ذهبت إلى هناك".

ثم تابع قائلًا: "... أو المصاعب التي يعاني منها عامل منجم من جنوب ويلز، يقضي نصف حياته في حفرة، أو من يقيم في المرتفعات، ويبدأ عمله عند الرابعة فجرًا، هؤلاء هم الأشخاص الذين يلجأون إلى مستشفياتهم المحلية عندما يمرضون، ليكتشفوا أنه تمَ إغلاقها من قبل المحافظين غير المكترثين لمعاناتهم وغير المراعين لأوضاع الصعبة، وأنهم لا يهتمَون بإنقاذ الأرواح، بل بجمع النقود فقط".

اقترحت كارين قائلة: "حتى يتمكّنوا من بناء مستشفى أكبر مجهز بأحدث المعدات على الطريق العام مباشرة؟".

تابع جايلز متجاهلًا مقاطعة زوجته: "كيف يمكن للسيدة الشريفة والسوية أن تفهم..."

"كم من الوقت ستقضيه هناك يا جايلز؟".

"توقَفي عن المقاطعة يا امرأة، لقد بدأت للتو بخاتمة خطابي".

"وأنا بحاجة إلى استخدام الحمام الآن".

خرج جايلز من الحمام، وتابع وهو يلوَح بفرشاة الحلاقة وهو يقول لها: "أتجرئين على اتهامي بتكتيكات مخادعة؟".

لم تعلَق كارين على كلامه بل اكتفت بالتحديق إلى زوجها الذي لم يُنه الحلاقة، ثم دخلت إلى الحمام.

التقط جايلز أحدث نسخة من خطابه عن الطاولة التي بجانب السرير، واستبدل دورهام بدارلينجتون.

"وكيف يمكن للسيدة الشريفة والسوية أن تأمل في أن تفهم..." انحنى إلى الأمام وشطب كلمة *الأمل*، واستبدلها بكلمة *بداية*، وعندما فُتح باب

الحمام، قالت له كارين:

"وكيلة الوزير ستذكّر اللورد النبيل بأنها تتفهَم تمامًا، وأنها قد حصلت على امتياز رئاسة أحد أكبر مستشفيات نظام التأمين الصحي البريطاني في البلاد لمدة سبع سنوات".

سألها جايلز: "إلى جانب من تقفين؟". قالت كارين: "لن أحسم أمري حتى أستمع إلى الطرفين، لأنني حتى الآن، استمعت إلى طرف واحد فقط، ولعدة مرات".

قال جايلز: "الحب والشرف والطاعة"، وعاد إلى الحمام لإنهاء الحلاقة.

قالت له كارين، قبل أن يُغلق الباب: "لم أقدِم لك وعدًا بأن أطيعك".

جلست كارين على حافة السرير، وبدأت بقراءة خطاب جايلز، كان عليها أن تعترف، بأنه لم يكن سيئًا.

ثم فُتح باب الحمام فظهر جايلز حليقًا تمامًا.

قال لها: "حان الوقت لمناقشة الأمور الأكثر إلحاحًا، أين سنمضي العطلة هذا العام؟ فكّرت في قضاء بضعة أيام في جنوب فرنسا، ويمكننا الإقامة في لاكولومب دور، وزيارة متحف ماتيس، والقيادة على امتداد ساحل الكورنيش، حتى يمكننا قضاء عطلة نهاية الأسبوع في مونت كارلو".

"في برلين".

كرر جايلز كلامها قائلًا، وهو يجلس إلى جانبها على السرير: "برلين؟".

قالت كارين بحزم: "نعم، لديَ شعور كبير بأنه لن يمرّ وقت طويل قبل أن ينهار هذا الجدار البربري أخيرًا، فالالاف من رجال بلدي ونسائه يقفون يوميًا

في الجانبين الغربي والشرقي من الجدار محتجين بصمت وبشكل سلمي على تقسيم البلاد، وأودَ أن انضمَ إليهم".

قال جايلز وهو يضع ذراعه حول كتفيها: "وهذا ما ستقومين به، سوف أتصل بوالتر شيل فور وصولي إلى المكتب، فإذا كان هناك أي شخص يعرف ما يحدث وراء الكواليس، فسيكون والتر".

قالت كارين، وهي تدخل إلى الحمام: "أين يمكن أن تمضي إيما عطلة هذا العام؟".

انتظر جايلز أن تُغلق الباب خلفها قبل أن يقول بفتور: "جزيرة سانت هيلانة، إذا تسنى لي اقتراح اسم المكان".

46

قال الطبيب المتخصص في شارع هالي، وهو ينظر إلى مريضه من الطرف الثاني من المكتب: "يجب أن أعترف، يا سيد هاري، بأنني لم أقرأ أيّا من كتبك، إلا أن زميلي السيد ليفر من المفتونين برواياتك، وقد شعر بالأسف لدى سماعه أنك اخترت أن تجري عملية جراحية بدلًا من الخضوع للعلاج الكيميائي، وهو مجال تخصصه، هل يمكنني سؤالك إن كنت مصرًا على قرارك؟"

"إنني مصرَ بالتأكيد يا سيد كيربي، وقد ناقشت مسألة علاجي مطولًا مع طبيبي العام، الدكتور ريتشاردز وزوجتي، وكلاهما ارتأيا أن أجري العملية".

قال له كيربي: "حسنًا، سؤالي التالي، وأعتقد أنني أعرف الإجابة مسبقًا، هل تفضّل إجراء العملية على حسابك الخاص أم على حساب الخدمات الصحية الوطنية؟".

قال له هاري من دون تردد: "في هذا الموضوع بالذات، لم يكن لديَ الكثير من الخيارات، فلو أن زوجتك ترأست المركز الطبي الملكي لسبع سنوات، ثم أصبحت وزيرة الصحة، فأنا على يقين من أن المسألة ستكون محسومة".

"حسنًا، كل ما نحتاج إلى مناقشته هو تحديد موعد إجراء العملية، فقد درست نتائج فحوصاتك وأوافق طبيبك العام الرأي على أنه طالما أن نتائج فحص مستضد البروستات النوعي الخاص بك يتراوح بين أربعة وستة في المئة، فلا داعي للخوف، ولكن نظرًا إلى أنها تتزايد باطراد عامًا بعد عام، فقد يكون من الحكمة عدم تأجيل العملية لفترة أطول، وإذا أخذنا ذلك بعين الاعتبار، أود

أن أحجز لك موعدًا خلال الأشهر الستة القادمة، وسيمنحك ذلك ميزة إضافية، بدلًا من أن تُتهم بتجاوز قائمة الانتظار بسبب صلاتك القوية بالمسؤولين".

"بصراحة هذا الوقت يناسبني أيضًا، فقد أكملت للتو مسودتي الأولى لآخر رواياتي، وأنا أنوي أن أسلَمها لناشري قبل عيد الميلاد مباشرة".

قال كيربي وهو يقلب صفحات مذكرة مكتبه الضخمة: "إذا تمَت تسوية هذه المشكلة، هل يمكننا تثبيت الموعد في السابع عشر من كانون الثاني عند الساعة العاشرة؟ وأقترح عليك إلغاء مواعيدك خلال الأسابيع الثلاثة التي تلي العملية".

دوّن هاري ملاحظة في دفتر يومياته، ورسم ثلاث علامات نجمية في أعلى الصفحة، ووضع خطًا على بقية أيام الشهر.

تابع كيربي كلامه قائلًا: "أُجري العمليات عادة في مستشفيي غاي وسانت توماس، وأفترض أن مستشفى توماس ستكون أكثر ملاءمة لك ولزوجتك".

"أجل تمامًا، شكرًا لك".

"لا يزال لدينا مشكلة صغيرة واحدة نشأت منذ استشارتك الدكتور ريتشاردز الأخيرة"، حرَك كيربي كرسيه ونظر إلى شاشة على الجدار، وقال وهو يشير بضوء ليزر دقيق إلى الشاشة: "إذا نظرت إلى هذه الصورة الشعاعية بدقة فستلاحظ أن الخلايا السرطانية محصورة حاليًا في منطقة صغيرة واحدة"، ثم أضاف قائلًا وهو يُكبّر الصورة: "ومع ذلك إذا نظرت بدقة أكثر فسترى أن واحدة أو اثنتين من هذه الخلايا الخبيثة تحاول الانتشار، وأنوي إزالتها كلها قبل أن تنتشر إلى باقي أعضاء

جسمك، حيث ستكون قادرة على الحاق ضرر كبير بصحتك. فعلى الرغم من أننا طوّرنا مؤخرًا علاجًا لسرطان البروستات، إلا أنه لا يمكنني قول الشيء نفسه بالنسبة إلى سرطان العظام أو الكبد، وهو المكان الذي تتجه إليه هذه الخلايا الخبيثة".

أومأ إليه هاري موافقًا.

"الآن، أتوقّع يا سيد هاري، أن تطرح عليّ بعض الأسئلة".

"كم ستستغرق العملية؟ وكم أحتاج إلى أن أتعافى؟".

"تستغرق العملية عادة من ثلاث إلى أربع ساعات، وبعد ذلك ستحتاج إلى فترة نقاهة لمدة أسبوعين، ولكن المريض العادي يعود إلى طبيعته بعد ثلاثة أسابيع على الأكثر، كما ستترك العملية الندبات الصغيرة على معدتك، ولكنها ستزول بسرعة كبيرة، وأتوقّع أن تعود إلى مكتبك للكتابة خلال شهر".

قال هاري: "هذا مطمئن"، فتردّد قبل أن يقول له: "كم مرة أجريت هذه العملية؟".

قال كيربي: "أكثر من ألف مرة، لذلك أعتقد أنني أصبحت أجري هذه العملية بمهارة".

نهض هاري من مكانه، وصافح الجراح، وهو يقول: "شكرًا لك، أتطلّع إلى الالتقاء بك من جديد في كانون الثاني".

قال كيربي: "لا يتطلّع أحد إلى لقائي مرة ثانية، ولكن في حالتك، أعتبر أنه شرف كبير لي أنك اخترتني لأجري لك الجراحة، وربما لم أقرأ أيًا من كتبك، ولكنني كنت قد بدأت أمارس مهنة الطب، عندما ألقيت خطابك أمام لجنة جائزة نوبل في ستوكهولم نيابة عن أناتولي باباكوف"، وأخرج قلمًا

من داخل جيبه، ورفعه في الهواء، وقال: "القلم أمضى من السيف".

قال هاري: "أنا أشعر بالإطراء والذهول في الوقت نفسه".

قال كيربي وقد ارتسمت على وجهه نظرة استغراب: "لم الذهول؟".

"شعرت بالإطراء لأنك لا تزال تتذكّر خطابي، ولكن أذهلني أنك كنت في بداية عملك وقتها، فهل أنا متقدِّم في السن إلى هذا الحدّ؟"

قال كيربي: "بالتأكيد لا، وعندما أجري عمليتك، ستكون بصحة جيدة لمدة عشرين عامًا أخرى".

***

همست له أيما: "ما رأيك؟".

اعترف ريتشارد قائلًا: "لا يمكنني الادعاء أنها كانت خياري الأول من بين اللوحات التي يمكن أن تشارك بها جيسيكا للفوز بالميدالية الذهبية للأكاديمية الملكية للفنون".

"وليست خياري أيضًا، وأنت تدرك تمامًا أنه كان في إمكانها أن تشارك بإحدى لوحاتها التقليدية، والتي كانت ستمنحها فرصة مؤكدة الفوز".

قال سيباستيان: "لكنها لا تزال إحدى لوحاتها المميزة أيضًا، يا أمي".

همست إليه إيما قائلة: "سيب، إنها لوحة واقٍ ذكري عملاق".

"إنها كذلك بالفعل، ولكن عليك أن تنظري عن كثب لتكتشفي قيمتها الحقيقية".

قالت إيما: "نعم، يجب أن أعترف بأنني عجزت عن اكتشاف قيمتها الحقيقية، وربما تكون لطيفًا بما يكفي لتوضيح ما تعنيه هذه اللوحة".

تدخّلت سامانثا لإنقاذ سيب، وقالت: "إنها تمثل نظرة جيسي إلى البشرية، ففي داخل الواقي الذكري صورة رجل عصري".

"لكن هذا.."

أكّد هاري قائلًا: "نعم"، وتابع كلامه قائلًا من دون أن يقدرعلى كبح جماح لسانه أكثر: "إنه قضيب منتصب في دماغ الرجل".

قالت إيما: "وفي أذنيه...".

قاطعتها جيسيكا وهي تقول: "أحسنت يا ماما، أنا سعيدة لأنك فهمت أبعادها بدقة".

قالت سامانثا: "انظرِي عن كثب إلى العينين، وسترين صورتين لامرأتين عاريتين".

"نعم أستطيع رؤيتهما بوضوح، ولكن لمَ يمدّ الرجل لسانه؟".

قال لها سيب: "لا أستطيع أن أتخيّل السبب، يا أمي".

قالت إيما وقد بدت غير مقتنعة بكلام سامانثا: "هل يمكن أن يشتريها أحد بثلاثة آلاف جنيه؟".

قال سيب: "أنا أنوي شراءها".

"هذا ولاء كبير منك لأعمال ابنتك، يا عزيزي، ولكن أين ستعلّقها؟".

"في صالة المصرف حتى يراها الجميع".

"سيباستيان، إنها مجرد لوحة لواقٍ ذكري عملاق!".

"إنها كذلك بالفعل، يا أمي، وأظنّ أن زبونًا أو أكثر من زبائننا المنفتحين سينظرون إليها على هذا النحو".

قالت إيما: "ولا شك في أنك تستطيع شرح المقصود من العنوان أيضًا *كل سبع ثوان*".

أنقذ سيباستيان ظهور رجل أنيق المظهر ووقف إلى جانبهم، وقال لإيما: "مساء الخير أيتها الوزيرة، اسمحي لي أن أعبّر عن سروري لحضورك أنت وزوجك إلى الأكاديمية الملكية للفنون".

"شكرًا لك، يا سيد هيو، ما كنا لنفوّت ذلك".

"هل من سبب معين دفعك إلى الانضمام إلينا على الرغم من جدول أعمالك المزدحم؟".

قالت إيما مشيرة إلى لوحة *كل سبع ثوانٍ*، وهي غير قادرة على إخفاء حرجها: "حفيدتي".

قال الرئيس السابق للأكاديمية الملكية للفنون: "لا بد من أنك فخورة بحفيدتك للغاية، فهي لم تعتمد على نفوذ أفراد عائلتها البارزين".

"أظنّ أنه عندما يكون والدك مصرفيًا ذائع الصيت، وجدتك شخصية سياسية تنتمي إلى حزب المحافظين، لا ترغب في مشاركة أصدقائك الفنانين هذه المعلومات، كما أشك في أنها أخبرتك بأن في منزلنا لوحتين من لوحاتك معلّقتين على الجدار".

قال السيد هيو: "أشعر بالإطراء، ولكنني أعترف بأنني أتمنى لو كنت أمتلك موهبة حفيدتك".

"هذا لطف منك، ولكن هل يمكنني أن أسألك عن رأيك الصريح في أحدث أعمال جيسيكا؟".

ألقى الرئيس السابق نظرة فاحصة على لوحة *كل سبع ثوان*، قبل أن يقول: "لوحة أصلية ومبتكرة، توسّع حدود خيال المرء، كما أرى أنها متأثرة بمارسيل دوشامب".

قال سيباستيان: "أوافقك في الرأي يا سيد هيو، وهذا هو بالضبط ما سيدفعني إلى أن أشتري اللوحة".

"أخشى أن أبلغك بأنها بيعت بالفعل".

قالت إيما مشككة: "أيمكن أن يشتريها أحد؟".

"نعم، لقد اشتراها تاجر أميركي فور افتتاح المعرض، وقد أصيب عدد كبير من الزبائن الآخرين بخيبة أمل ما إن علموا بأنها بيعت".

أذهل إيما ما سمعته، فوقفت عاجزة عن الكلام.

"أستميح منكم عذرًا، فقد حان الوقت لإعلان الفائز بالميدالية الذهبية لهذا العام"، انحنى السيد هيو انحناءة خفيفة قبل أن يبتعد عنهم، ويتّجه إلى المنصة في نهاية الصالة.

كانت إيما لا تزال مذهولة وعاجزة عن الكلام، عندما بدأ اثنان من المصورين بالتقاط صور لها، وهي تقف بجانب اللوحة.

طوى أحد الصحفيين صفحة من دفتر ملاحظاته، وقال لها: "هل يمكنني أن أسألك أيتها الوزيرة، ما رأيك في لوحة حفيدتك؟".

"إنها أصلية ومبتكرة، توسّع حدود خيال المرء، كما أرى أنها متأثرة بمارسيل دوشامب".

قال الصحفي بعد أن دوّن كلماتها: "شكرا لكِ أيتها الوزيرة"، ثم ذهب مسرعًا.

"أنت لستِ عديمة الحياء، يا أمي، ولكن جرأتك توسّع حدود خيال المرء، وأراهن أنك لم تسمعي بدوشامب مطلقًا قبل اليوم".

قال هاري: "لنكن منصفين، والدتك لم تتصرّف على هذا النحو قبل أن تصبح سياسية".

انبعثت نقرة خفيفة على الميكروفون، فاستدار الجميع لمواجهة المسرح.

"مساء الخير سيداتي، وسادتي، أدعى هيو كاسون، وأودّ أن أرحّب بكم في معرض الأكاديمية الملكية للفنون، وبصفتي رئيس لجنة تقديم

الجوائز، يشرِّفني أن أعلن الآن اسم الفائز بالميدالية الذهبية لهذا العام، عادةً أبدأ بكلمات تمهيد حول مدى صعوبة اتخاذ القرارعلى لجنة الحكم، ومدى سوء حظ المتسابقين الذين لم تسنح لهم الفرصة للفوز، ولكن لن أقول ذلك في هذه المناسبة، لأن اللجنة أجمعت على منح الميدالية الذهبية هذا العام..."

***

في صباح اليوم التالي قالت أمينة السر عندما انضمَت إلى الوزيرة في مكتبها: "لابد أنك فخورة بحفيدتك، فهي ستكون من الأسماء اللامعة في المستقبل".

"نعم، لقد قرأت المقالات في صحف الصباح، واطّلعت على كل تفاصيل دراسة اللوحة، لكن أخبريني يا بولين، ما نظرتك إليها؟".

"إنها لوحة أصلية ومبتكرة وتوسّع حدود خيال المرء".

قالت إيما من دون أن تحاول إخفاء تهكّمها: "هذا كل ما أحتاج إليه، ولكنني متأكدة من أنني لست مضطرةً إلى تذكيرك بأنها لوحة لواقٍ ذكري عملاق، وقد تصدّرت الصفحة الأولى في صحيفة صن".

"كما حصل هذا الواقي الذكري على تغطية أكبر من حملة العلاقات العامة الحكومية من أجل ممارسة الجنس الآمن، التي أطلقتها العام الماضي".

قالت إيما مبتسمة: "حسنًا، لقد استطعت تصدّر عناوين الصحف، عندما قلت إنني آمل في أن تكون الحملة مخترقة، هل لديك أي شيء آخر، يا بولين؟".

"لقد قرأت للتو النسخة الأخيرة من خطاب المناقشة التي ستجري يوم الخميس المقبل، معالي

الوزيرة".

"وهل أشعرك بالنعاس؟".

"وجدته عاديًا بعض الشيء".

"يا له من أسلوب لائق للقول إنه ممل!".

"حسنًا، أعتقد أن إدراج بعض الفكاهة في الخطاب لن تضرَ به".

"خاصة إن كانت الفكاهة هي حصن أخي المنيع".

"قد يحدث ذلك فرقًا إذا كانت الصحافة مصيبة في رأيها بالنسبة إلى احتمال أن تكون نتائج المنافسة متقاربة جدًا".

"ألا يمكننا الاعتماد على الحقائق لإقناع المترددين؟".

"ما كنت لأعتمد على الحقائق وحدها، أيتها الوزيرة، وأعتقد أن عليكِ أن تعلمي أن رئيسة الوزراء طلبت معرفة الخطط البديلة في حال خسرنا التصويت".

"هل طلبت ذلك حقًا؟ إذًا من الأفضل أن أراجع الخطاب مرة أخرى في نهاية هذا الأسبوع، إلا أن المضحك أنه لو لم يكن أخي من أنافسه، لكنت طلبت منه أن يضفي على الخطاب حسَه الفكاهي".

قالت لها بولين: "أنا متأكدة من أنه كان سيرغب في ذلك لو لم يكن منافسك، ولا شك في أن هذا هو السبب الذي دفع كينوك إلى منحه هذه المهمة في المقام الأول".

قالت إيما: "المهمة التي بالكاد يبرع فيها، وهل من شيء آخر؟".

"نعم، أيتها الوزيرة، أتساءل إن كان في إمكاني مناقشة مسألة شخصية معك".

"أهذه المسألة ملحَة إلى هذه الدرجة، يا بولين؟

ولكن لا بأس، يمكنك ذلك".

"هل تابعت أحدث الأبحاث الصادرة عن الولايات المتحدة بشأن الحمض النووي؟".

قالت إيما: "لا أستطيع القول إنني اطلعت عليها، لأنك تعلمين أن صناديقي الحمراء تعجّ بالمستندات التي يتطلّب قراءتها الكثير من الوقت".

"وجدت أن أحدث ما تحقّق في هذا المجال قد يثير اهتمامك".

قالت إيما مستغربة: "لماذا؟".

"لقد توصّل العلماء إلى وسيلة لحسم صلة القرابة بين أي شخصين مشكوك في قرابتهما".

سألت إيما بهدوء: "كيف عرفتِ تلك المسألة؟"

"عندما يتمّ تعيين أي وزير، نُعدّ ملفًا يتناول كل المعلومات المتعلّقة بحياته، كي نكون على اطلاع بها، ونتمكّن من مواجهة الصحافة إن أرادت الحصول على معلومات تخصّ ماضيه".

"وهل تواصلت الصحافة معكم بشأن هذا الموضوع؟".

"لا، لكنني كنت لا أزال تلميذة في المدرسة عندما جرت المحاكمة في مجلس الشيوخ وصدر الحكم بشأن تحديد المولود الأول والوريث الشرعي للقب بارينغتون وممتلكات العائلة بين أخيك جايلز وهاري كليفتون، وقد رأى الجميع أن القضية كانت رومانسية جدًا في ذلك الوقت، كما شعرت بالسعادة عندما صوّتوا لصالح أخيك، لأن ذلك سمح لك بالزواج من الرجل الذي تحبّينه".

قالت لها إيما: "وأخيرًا صار في إمكاني اكتشاف حقيقة صحة حكمهم، ولكنني أحتاج إلى القليل من الوقت قبل اتخاذ هذا القرار، لأنني بالتأكيد لن أتخذ

قراري من دون موافقة هاري".

"بالطبع، أيتها الوزيرة".

"بولين، لقد قلت إنك تحتفظين بملف عني، وهل هذا يعني أنك تحتفظين بملفات عن كل وزير؟".

"أجل بالتأكيد لدينا ملفات عن كل الوزراء، إلا أن ذلك لا يعني أنني سأكون على استعداد للإفصاح عن أي معلومات تتعلَق بوزير غير سوي، أو آخر قُبض عليه وهو يدخن الماريجوانا في قصر باكنغهام...".

"سأطرح عليك سؤالًا واحدًا فقط، يا بولين، هل كان من بين هؤلاء الوزراء مترددون؟".

"للأسف لا، أيتها الوزيرة".

47

على الرغم من أن معظم أعضاء مجلس الشيوخ قد اتخذوا قرارهم قبل وقت طويل من إجراء المناقشة الحاسمة، إلا أن إيما وجايلز كانا يدركان أن مصير مشروع القانون يحدَده الآن حوالي عشرة وزراء يجب إقناعهم لتأييد المشروع أو رفضه.

استيقظت إيما في ذلك الصباح في وقت مبكر، وقرأت خطابها قبل أن تغادر المنزل.

تدرَبت إيما على إلقاء الفقرات الرئيسية بصوت جهوري، وقد تألف جمهورها من هاري وحده، وعلى الرغم من أنه قدَم بعض الاقتراحات المفيدة، إلا أنها رأت أن مسؤوليتها في الحكومة لا تسمح لها بحرية بالمبالغة الخطابية التي يتمتَع بها جايلز كونه في المعارضة، ولكن في النهاية كان هدفه الوحيد إحراج الحكومة، أما هدفها فكان أن تحكم بعدل.

عندما وصلت إيما إلى مكتبها في ألكساندر فيلمينغ، شعرت بالسرور عندما وجدت أن مواعيدها المقررة على جدول أعمالها قد تأجَلت إلى يوم آخر، كي تتمكَن من التركيز على ما يشغل ذهنها في الوقت الحالي.

لقد أمضت الساعات القليلة قبل البدء بالسباق الذي سيحسم النتيجة، مثل أي رياضي لا يهدأ، وهو يستعدَ للانطلاق وتحقيق الفوز في المباراة النهائية، ولكنها وضعت في اعتبارها أنه في السياسة لا جوائز للمركز الثاني.

خلال الأسبوع الماضي، حاولت توقَع كل الأسئلة المحرجة التي قد تُطرح في أثناء المناقشة، حتى لا يفاجئها أي سؤال، ولكن هل كان الكولونيل مونتغمري مصيبًا في رأيه أن تسعة أعشار المعركة

تُربح في مرحلة التحضير وقبل إطلاق الرصاصة الأولى؟

كانت إيما ترتجف من التوتر والقلق، عندما ركبت السيارة التي ستقلّها إلى قصر وستمنستر.

ما إن وصلت حتى توجّهت إلى غرفتها، وتناولت شطيرة، واحتست قهوة سوداء، ثم راجعت خطابها مرة أخرى مضيفة بعض التغييرات الطفيفة، قبل أن تشقّ طريقها إلى القاعة.

***

عندما دقت ساعة بيغ بن مرتين، أخذ رئيس الجلسة مكانه على المنصة بانتظار أن يبدأ الحدث الأهم في هذا اليوم، ثم نهض الأسقف ورسستر عن كرسي الأساقفة، ليصلّي من أجل المجلس المجتمع، وقد كان ورسستر وأقرانه الشيوخ يدركون تمامًا أهمية المناقشة التي ستجري اليوم، وحقيقة أنه على الرغم من وجود أكثر من ألف عضو من الأعضاء المورثين الذين لديهم الحق في حضور المناقشة، إلى جانب ستمئة من الأعضاء الدائمين، إلا أن القاعة لم تكن تستوعب أكثر من خمسمئة شخص فقط، لذلك لم يكن مفاجئًا أن تكون المقاعد محجوزة كلها.

في البداية بدأ وزير الداخلية بالإجابة عن الأسئلة الواردة على الجدول، ولكن قلة من الأعضاء كانوا مهتمين بالإجابات، فضجَت القاعة بالهمهمات.

وشيئًا فشيئًا أخذت القاعة تعجّ بالحاضرين بانتظار الحدث الرئيسي.

وعندما دخل جايلز القاعة استقبله زملاؤه بحفاوة، فبدا مثل ملاكم في الأوزان الثقيلة، وهو يخطو خطوات ثابتة في اتجاه الحلبة، ثم جلس في المكان المخصّص له في الصف الأمامي، وبعد

لحظات ظهرت إيما فرحّب بها زملاؤها بحرارة مماثلة، وهي تشق طريقها إلى المقعد المخصّص لها بجانب رئيس الجلسة بعد أن مرَت بصف المقاعد المخصصة لوزراء الحكومة الممتدّ على طول القاعة.

وبعد أن أجاب الوزير على السؤال الأخير، أشار رئيس الجلسة إلى البدء بالحدث الرئيسي، فنهض اللورد بيلستيد من مكانه، ووضع خطابه على المنبر، وبكل ثقة قدّم تحية الافتتاح نيابة عن الحكومة.

ما إن انتهى من تحيته الافتتاحية، نهض اللورد كليدوين، الذي كانت له دراية بالقدر نفسه بالتقاليد، ليردّ من مقاعد المعارضة.

ثم تبع ذلك سلسلة من الخطب التي ألقيت من المقاعد الخلفية، وقد استمع إليها جايلز وإيما، مثل بقية أعضاء المجلس بدرجات متفاوتة من الاهتمام، وكان الجميع ينتظرون بفارغ الصبر سماع خطابي اللورد بارينغتون من بريستول دوكلاندز، الذي سيلخّص موقف المعارضة من القانون المقترح، والوزيرة كليفتون التي ستعرض وجهة نظر الحكومة بشأنه.

لم يغادر جايلز أو إيما القاعة خلال المناقشات، كما لم يأخذا استراحة لتناول الطعام، بل واصلا الاستماع إلى ما يدلي به زملاؤهما، وهما يدوّنان الملاحظات العرضية المتعلّقة بنقاط معينة.

وعلى الرغم من ظهور بعض المقاعد الحمراء الشاغرة بين الساعة السابعة والتاسعة، إلا أن إيما وجايلز كانا يعلمان أن المقاعد ستمتلئ بحلول الوقت الذي سينهض فيه المتحدث الأخير ليدلي برأيه من المقاعد الخلفية، وكان المقعد الوحيد الفارغ هو مقعد الملكة الذي تحتله عادة عندما تلقي

خطابها عند افتتاح البرلمان.

كانت الممرات تحت العرش وبين المقاعد الحمراء مليئة باللوردات الذين لم يتمكّنوا من تأمين مقاعد لهم، وقد وقفوا إلى جانب العديد من أعضاء مجلس العموم في الجزء الخلفي من القاعة بمن فيهم وزير الخارجية الذي أكّد لرئيسة الوزراء بأنه تمّ اتخاذ الاجراءات اللازمة لضمان مشروع القانون الذي سيتيح للحكومة إحراز تقدم في برنامجها التشريعي قبل أن ينفد الوقت بسرعة ويفوت أوان القيام بالإصلاحات، ولكن النظرات المرتسمة على وجوه أولئك الحاضرين أظهرت بوضوح أنهم غير متأكدين من إمكان حصول ذلك.

ألقت إيما نظرة خاطفة على سترنجرز غاليري، فرأت أفراد عائلتها جالسين في الصف الأمامي، ولكنهم كانوا أيضًا أفراد عائلة جايلز، وكانت واثقة من أن آراءهم منقسمة بالتساوي، فهاري وسيباستيان وسامانثا يدعمونها، في حين أن كارين وغريس وفريدي يدعمون جايلز، أما جيسيكا فيترك لها القرار الحاسم في العائلة، كما رأت أن انقسامهم يعكس انقسام كل من في القاعة.

عندما جلس اللورد صاموئيل، الرئيس السابق للكلية الملكية للطب بعد إلقائه خطابه، انطلقت الهمسات في أرجاء القاعة، وعندما وقف جايلز لم يظهر أي إشارة تدل على توتره، فأمسك بجانبي المنبر بقوة، وقبل أن يبدأ بخطابه انتظر أن يسود الصمت.

"أيها السادة، أقف أمامكم هذا المساء وأنا أدرك أن مصير الخدمات الصحية الوطنية في هذا البلد يقع بين أيديكم، وأنا أتمنى لو كنت أبالغ في كلامي، ولكنني أخشى أنني لست كذلك، لأنه الليلة

أيها السادة، أنتم وحدكم ستقرِّرون إذا كان هذا المشروع المريع - لوَّح بمشروع القانون عاليًا فوق رأسه - سيصبح قانونًا نافذًا أو مجرد عنصر يجمع حوله المهتمين بهوامش التاريخ، ولست مضطرًا إلى تذكيركم بأن حزب العمال، بقيادة كليمنت أتلي، لم يؤسّس نظام الخدمات الصحية الوطنية، ولكنه دافع عن وجوده منذ تولّيه السلطة، وكلما عانى هذا البلد من مشاكل ناجمة عن إدارة المحافظين، كان يلقى عبء إيجاد الحل المناسب على عاتق حزب العمال لضمان نجاة نظام الخدمات الصحية الوطنية من هجوم المهرطقين الذين يقتحمون بوابات البلد المقدس".

ضجّت القاعة بالهتافات، ما أتاح لجايلز قلب الصفحة والتحقق من الفقرة التالية.

وبعد أن تنهّد تنهيدة طويلة تابع قائلًا: "أيها السادة، أشعر بالخجل من الاعتراف بأن آخر هؤلاء المهرطقين كان من أفراد عائلتي، وأعني الوزيرة إيما كليفتون".

تشارك جناحا المجلس في الضحك، في ذلك الوقت تمنّت إيما لو أن لديها القدرة على الانتقال من الإعلان عن مسائل في غاية الدقة والخطورة إلى الدعابات المحببة خلال فترة وجيزة، ودفع المجلس في الوقت نفسه إلى التصويت لصالح القانون المقترح.

قضى جايلز الدقائق العشرين التالية في تفنيد نص المشروع بندًا بندًا، مع التركيز بشكل خاص على البنود التي كان المحافظون مترددين بشأنها، فلم تستطع إيما إلا إبداء الإعجاب بالمهارة التي نال بها شقيقها ثناء رجال الدولة من المحافظين القلائل الذين ظلّوا مترددين، قبل أن يضيف: "لا يسعنا

إلا أن نأمل في أن الرجال والنساء الذين يتمتّعون بضمير حي سيظهرون شجاعتهم واستقلاليتهم عندما يحين وقت التصويت، وألا يقوموا في اللحظة الأخيرة بتجاهل معتقداتهم الحقيقية، من خلال الاختباء وراء القناع الزائف للولاء الحزبي".

كان أداء جايلز رائعًا، وكان الزملاء والمعارضون على حد سواء يبدون إعجابهم، وهم جالسون على مقاعدهم، بينما كان يستمرّ جايلز بإلقاء خطابه السحري، كما لو أنه ميرلين، عندما ألقى تعويذته على المجلس فسحره بالكامل.

كانت إيما تدرك تمامًا أنه سيتعيّن عليها أن تزيل تأثير تلك التعويذة لإعادة زملائها إلى العالم الحقيقي إن كانت تأمل في الفوز بالتصويت.

قال جايلز بصوت خافت: "أيها السادة، اسمحوا لي بأن أنهي خطابي، بتذكيركم بالقوة التي تمتلكونها هذه الليلة، فليس لديكم سوى فرصة أخيرة للقضاء على مشروع القانون الذي ستكون آثاره خطيرة، إذا أصبح قانونًا نافذًا، إذ سيعلن نهاية نظام الخدمة الصحية الوطنية الذي نؤمن به، كما سيلطّخ ذكرى ماضيه المجيد، ولن يبقى منه سوى الإنجازات العظيمة الماضية".

انحنى صوب المنبر، ونظر ببطء إلى المقاعد الأمامية المخصصة لوزراء الحكومة قبل أن يقول: "أيها السادة، نص المشروع هذا لا يثبت سوى أن الديناصورات ليست موجودة فقط في متحف التاريخ الطبيعي".

انتظر أن يكفّ الضحك الذي ضجّت به القاعة قبل أن يخفض صوته، ويكمل كلامه قائلًا: "سيلاحظ بوضوح من درس المشروع بدقة غياب كلمة مهمة، أما من لم يدرسه بعمق فليقم بذلك لاحقًا، ولكنني

أوكد لكم جميعًا أنكم لن تجدوا كلمة الرحمة، إلا أن ذلك لا يجب أن يفاجئكم، لا سيما وأن الوزيرة التي أعدَت هذا القانون قد حرمت الممرضين والممرضات من أجرهم التقاعدي".

انبعثت الصرخات من مقاعد المعارضة مردَدة: "يا له من عارا"، بينما كان جايلز يحدَق إلى أخته تابع قائلًا: "وليس عليكم أن تقرأوا بين السطور لتدركوا أن الهدف الحقيقي للحكومة عبر إقرار هذا المشروع هو استبدال كلمة العام بكلمة الخاص، لأن أولويتها هي خدمة أولئك الذين يستطيعون تحمَل تكلفة المرض، فوزراء هذه الحكومة ينظرون إلى مواطنينا الذين لا يستطيعون تحمل تلك التكلفة على أنهم مجرد متاع، وهذه هي الفلسفة السائدة لهذه الحكومة التي ستمارس هذه السياسة على الدوام".

أكمل جايلز كلامه بصوت جهوري قائلًا: "أيها السادة، أدعوكم للتصويت ضد هذا القانون الجائر، حتى يتسنى للمواطنين الاستفادة من الخدمة الصحية الوطنية الحقيقية التي تقدمها لهم الحكومة، وأنا أؤمن بأن جميع الرجال - صمت للحظات وهو يحدَق إلى أخته - والنساء متساوون في الحقوق والواجبات ولا سيما ما يتعلَق بالاهتمام بصحتنا، أيها السادة، أنا لا أطلب منكم، بل أنا أتوسَل إليكم، أن تأخذوا حاجات مواطنينا بعين الاعتبار عندما تدلون بأصواتكم هذه الليلة، وأن ترفضوا هذا القانون بشكل قاطع".

جلس وسط هتافات مدوية وتلويح بالأوراق من خلفه، بينما قوبل بصمت مطبق من المقاعد المقابلة.

وعندما خمدت الهتافات، نهضت إيما ببطء من مقعدها، ووضعت خطابها على المنبر، وأمسكت

بجانبيه بقوة، آملة ألا يلاحظ أحد شدة توترها.

بدأت بصوت مرتجف قائلة: "أيها السادة، سيكون من الفظاظة أن أدلي برأي سلبي بأداء أخي، السيد بارينغتون، ولكن أداءه مع الأسف الشديد لم يكن جيدًا، لأنني أظنّ أنكم عندما ستقرأون كلماته بتمعن، سترون أن خطابه كان مسهبًا من الناحية اللغوية وموجزًا من الناحية المنطقية لافتقاره إلى الحقائق".

انبعث في القاعة همهمات تأييد خفيفة أطلقها زملاؤها الذين كانوا يؤيّدونها، بينما بقي الأعضاء المعارضون صامتين.

"لقد أمضيت سبع سنوات وأنا أدير المركز الطبي الملكي في بريستول، لذلك لا يتعيّن عليّ إثبات مدى قلقي بشأن مستقبل الخدمة الصحية الوطنية مثل أي شخص يجلس على المقاعد المقابلة، وعلى الرغم من الكلام العاطفي والمعسول الذي أدلى به السيد جايلز، إلا أن هناك حقيقة واضحة، وهي أن علينا تسديد فواتير الاستشفاء وضمان التوازن المالي، ومن أجل ذلك يجب أن يتوفَّر تمويل حقيقي وفعلي للمشروع من الأموال التي ستجمع من الضرائب التي ستفرض على الأشخاص القادرين".

كانت إيما سعيدة برؤية بعض الرؤوس التي تومئ إليها إيجابًا، فبعد أن لقي خطاب جايلز استحسانًا كبيرًا، كان يترتب عليها أن تشرح التفاصيل الدقيقة للقانون المقترح، وقد شرحت لأعضاء المجلس القانون بندًا بندًا، ولكنها لم تكن قادرة على إضرام شعلة العاطفة التي أشعلها شقيقها بنجاح.

عندما فتحت صفحة أخرى، أدركت ما وصفه جدها اللورد هارفي ذات مرة بفقدان انتباه أعضاء

المجلس، وهي اللحظة التي يصبح فيها الأعضاء غير مبالين، فيبدأون بالثرثرة، وهي لحظات حرجة مؤثرة أكثر من نبرة السخرية أو صرخات العار.

عندما نظرت إلى الأعلى رأت عضوًا مسنًا على وشك أن يغرق في النوم، وبعد لحظات ارتفع غطيطه في القاعة، فلم يبذل الأعضاء الجالسون حوله أي محاولة لإيقاظه، إذ بدا جليًا أنهم كانوا يستمتعون بإزعاجه الوزيرة، فأدركت إيما أن الدقائق تمرّ قبل أن يُطلب من المجلس التصويت لاحتساب الأصوات، فقامت بقلب صفحة أخرى، وقالت:

"والآن أودّ أن أعبر عن شكري للعمود الفقري لنظام الرعاية الصحية، من ممرضاتنا وممرضينا الرائعين، الذين..."

نهض جايلز من مكانه مقاطعًا الوزيرة مقتحمًا أرض العدو بشراسة، فسكتت إيما على الفور، سامحة لأخيها بالكلام، فقال لها:

"أنا ممتن للسيدة الوزيرة لأنها أفسحت لي المجال بالتعليق على كلامها، ولكن هل لي أن أسألها، إن كانت تعتبر أن الممرضات والممرضين يؤدّون عملًا رائعًا، فلماذا لا يتلقّون سوى زيادة ثلاثة في المئة على الراتب؟"، بدا مقتنعًا بأن إيما كانت على وشك أن تُهزم، فجلس، وقد ضجَت القاعة بأصوات عالية توافقه في الرأي، ردّت إيما على سؤاله قائلة: "سألني السيد جايلز- إن كنت أتذكّر كلماته بشكل صحيح- عن تخلّف الحكومة عن رفع رواتب الممرضين والممرضات بنسبة أربعة عشر في المئة"، أومأ إليها جايلز برأسه بقوة، بينما تابعت كلامها قائلة: "لذلك أنا ملزمة بأن اسأله كيف يتوقّع أن تؤمّن الحكومة هذه المبالغ الإضافية لدفع هذه

الزيادة؟".

وسرعان ما عاود جايلز الوقوف مستعدًا لتوجيه ضربته القاضية: "يمكن أن يحصل ذلك من خلال فرض ضرائب على ذوي الدخل المرتفع، الذين يستطيعون أن يدفعوا مبالغ أكبر لمساعدة المحرومين"، ثم جلس وسط الهتافات والتصفيق، بينما انتظرت إيما بصبر أن تهدأ القاعة وهي لا تزال على المنبر.

قالت وهي تلتقط ملفًا أحمر سلّمها إياه وزير الخزينة في ذلك الصباح: "يسرّني أن السيد جايلز اعترف بأن البداية تكون بفرض ضرائب أكبر، وأن ذلك كل ما يتطلّبه توفير الزيادة على الأجور، وإذا كان هذا المجلس يعتقد أن حزب العمال يمكنه تغطية زيادة قدرها أربعة عشر في المئة على رواتب الممرضات والممرضين عن طريق زيادة الضرائب على الذين يجنون أربعين ألف جنيه إسترليني أو أكثر في السنة، فدعوني أخبركم، بأن ذلك سيتطلّب زيادة ضريبية قد تصل إلى تسعة وثلاثين في المئة سنويًا"، ثم أضافت بعد أن استعارت حسّ شقيقها الفكاهي للسخرية من طرحه: "وأنا أعترف بأنني لم أدرك أن معدل الضريبة البالغ ثلاثة وتسعين ألفًا كان قد وضعه حزب العمال، لأنني لم ألحظه في بيانهم، الذي قرأته كلمة كلمة".

سمعت إيما صوت الضحكات التي انبعثت من خلفها، على الرغم من أنها لم تتمكّن من رؤية زملائها وهم يرفعون أصابعهم لأخيها وهم يكرّرون: "ثلاثة وتسعين في المئة. ثلاثة وتسعين في المئة...".

انتظرت أن يسود الصمت قبل أن تضيف قائلة: "لعلَّ السيد جايلز يمكنه أن يخبر المجلس بالأفكار الأخرى التي لديه لتغطية تلك المبالغ الإضافية".

ظل جايلز صامتًا في مكانه.

"هل يسمح لي باقتراح وسيلة لجمع الأموال اللازمة التي قد تساعد في الوصول إلى هدفه وهو رفع الرواتب بنسبة أربعة عشر في المئة؟".

بعد أن استعادت إيما انتباه المجلس، قلبت صفحة من ملف وزير الخزينة الأحمر، وأعلنت قائلة: "في البداية، يمكنني أن ألغي المستشفيات الثلاث الجديدة المخطط لها في ستراثكلايد ونيوكاسل وكوفنتري، ولعل ذلك يحلَ المشكلة، ولكن ضعوا في اعتباركم أنني سأحتاج إلى إغلاق ثلاث مستشفيات أخرى العام المقبل، ولكنني لست على استعداد لتقديم هذه التضحية، لذلك ربما ينبغي أن أنظر إلى ميزانيات بعض الإدارات الأخرى وأرى ما لدى زملائي ليقدَموه".

قلبت صفحة أخرى، وقالت:

"يمكننا تقليص خططنا للجامعات الجديدة، أو سحب الزيادة البالغة ثلاثة في المئة على مخصصات ضمان الشيخوخة، ولعل ذلك يحلَ المشكلة، أو يمكننا تقليص عدد قواتنا المسلحة من خلال تدخلاتنا الخارجية"، قالت بازدراء: "لا، لا، لا يمكننا فعل ذلك، ليس بعد أن عارض السيد جايلز بشغف أي تخفيضات في ميزانية الجيش قبل شهر واحد فقط".

غرق جايلز أكثر في مقعده وهو يشعر بالإحراج الشديد.

"وإذا استعدنا سجل السيد جايلز عندما كان وزيرًا للخارجية، ربما كنا قد أغلقنا عددًا كبيرًا من سفاراتنا، فلابد أن ذلك سيفي بالغرض وفقًا لنظريته، كما يمكننا أن نتركه يقرر أي واحدة منها، أهي وشنطن أو باريس أو ربما موسكو أو بكين

أو طوكيو؟ كما أرى أنني ملزمة أن أسأله، هل هذه فكرة أخرى من أفكار حزب العمال التي لم يشر إليها في بيانه؟".

ضجّت مقاعد وزراء الحكومة بالضحك والهتافات.

تابعت إيما كلامها ما إن ساد الصمت مرة أخرى: "لا يا سيدي، الحقيقة هي أن الكلمات رخيصة، ولكن الأفعال مكلفة، فمن واجب الحكومة التي تتحمّل المسؤولية النظر في الأولويات والتأكد من وجود إيرادات قادرة على تغطية النفقات، وقد ورد هذا التعهد في بيان حزب المحافظين الذي أتمسّك بكل كلمة وردت فيه".

كانت إيما مدركة أنه لم يتبقَّ لها سوى دقيقتين، وأن تشجيع زملائها المؤيدين كان يستهلك الكثير من الوقت.

"لذلك يجب أن أخبر أعضاء المجلس الكرام بأنني أعتبر التعليم ورواتب المتقاعدين والدفاع ودورنا في المحافل العالمية لا يقلّ أهمية عن الطبابة، ولكن اسمحوا لي بأن أؤكّد لسيادتكم، أن كل المسائل التي تتعلّق بالصحة مقدسة، وقد حاربت حكومتنا بشراسة للحفاظ على ميزانية تلك المستشفيات الثلاث الجديدة"، صمتت للحظة، ثم رفعت صوتها، وقالت: "هذا الصباح وافق وزير الخزانة على أن الطاقم التمريضي سيحصل على زيادة في الأجور بنسبة ستة في المئة".

ضجّت أصوات المقاعد خلفها وسط هتافات متواصلة.

تخلّت إيما عن الصفحات الأخيرة من خطابها، وقالت وهي تنظر مباشرة إلى شقيقها: "لا شيء من ذلك سيكون ممكنًا إذا سرتم على خطى السيد جايلز وصوّتم ضد مشروع القانون المقترح، وإذا

كنث، كما يصفني، مهرطقة على البوابات المقدسة لدائرة الصحة الوطنية، إذًا يجب أن أخبره بأنني أعتزم فتح تلك البوابات للسماح لجميع المرضى بالدخول إلى المستشفيات والحصول على حقهم بالشفاء، نعم أيها السادة، إننا أحرار عند المواجهة، على حد قول بطل جايلز كليمنت أتلي، ولهذا السبب أيها السادة، لا أتردَد في حثكم على الانضمام إلى العالم الحقيقي ودعم هذه المشروع، وعندما سأعود إلى وزارتي غدًا، يمكنني الشروع في إجراء التغييرات اللازمة التي ستضمن مستقبل الخدمة الصحية الوطنية من دون السماح لها بأن تضعف جنبًا إلى جنب مع أخي اللورد بارينغتون والذي يُفترض أنه لا يزال يتذكَر بفخر الأيام الخوالي. أنا، أيها السادة، سأخبر أحفادي، وأولاد أحفادي، بالأيام المشرقة التي تحققت فيها أعظم الإنجازات، ولكن ذلك لن يكون ممكنًا إلا إذا دعمتم هذا المشروع، ووافقتم الليلة على إقراره، شكرًا لكم، أيها السادة" وبعد إنهاء خطابها تمَ الانتقال إلى المتحدث التالي.

جلست إيما على وقع أعلى تصفيق حدث الليلة، بينما جلس جايلز وقد تراجع إلى الوراء غير قادر على أن يرفع رأسه إلى الأعلى، وكل ما أمكنه القيام به أن يتظاهر بالملل والسماح لإيما بحفر قبره السياسي، وعندما نظرت إيما عبر القاعة إلى شقيقها، رفع يده التي لمست جبهته ونطق كلمة "قبعة"، للدلالة على إعجابه الشديد بخطابها، ولكنهما كانا يدركان جيدًا أنه لا يزال يتعيّن عليهما انتظار التصويت، وعندما رنَ الجرس، بدأ الأعضاء يشقّون طريقهم نحو أروقة التصويت، فدخلت إيما بهو المؤيدين، فرصدت واحدًا أو اثنين من الموالين المترددين يدلون بأصواتهم، ولكن هل سيكون ذلك كافيا؟ بعد أن أعطت اسمها للعضو الذي يجلس

خلف مكتبه العالي، ويسجِّل أسم كل عضو يدلي بصوته، عادت إلى مقعدها وانضمَت إلى صفوف المترقبين نتائج التصويت وسط الثرثرات التي غالبًا ما تنطلق مثل الهواء الساخن الذي يهبّ من كلا الجانبين، فانتظر الأعضاء عودة المنسق العام للكتلة النيابية وإصدار حكم المجلس.

حلَ صمت مطبق في القاعة عندما اصطفَ السادة الأربعة وساروا ببطء نحو الطاولة في مركز القاعة، فرفع المنسق العام بطاقة، وما إن تحقّق مرتين من الأرقام، أعلن قائلًا: "المؤيدون إلى اليسار، بلغت أصواتهم أربعمئة واثنين وعشرين"، حبست إيما أنفاسها، بينما تابع المنسق العام قائلًا: "أما المعارضون إلى اليمين، فقد بلغت أصواتهم أربعمئة وأحد عشر صوتًا، وقد فاز المؤيدون، فاز المؤيدون".

انطلقت الهتافات من المقاعد خلف إيما، وبينما كانت تشقّ طريقها بين الحشود لمغادرة القاعة، وجدت نفسها محاطة بالأنصار الذين أبلغوها بأنهم لم يشكّوا أبدًا في فوزها، فابتسمت وشكرتهم، وأخيرًا تمكّنت من الانفصال عنهم والانضمام إلى هاري وأفراد العائلة، فشعرت بالراحة عندما وجدت جايلز يفتح زجاجة شمبانيا، فملأ كأسها ورفع كأسه قائلًا: "نخب إيما، التي لم تفز فقط بالمناقشة، ولكنها فازت أيضًا في المعركة كلها، كما توقّعت والدتنا أنها ستحرز النصر دائمًا".

ما إن غادر باقي أفراد الأسرة حتى عاد هاري وجايلز وإيما وكارين وفريدي إلى منزلهم في جادة سميث، فاستلقت إيما على فراشها منهكة، ولكن مزيج الأدرينالين وفرحة الانتصار جعل النوم أمرًا مستحيلًا.

***

في صباح اليوم التالي، استيقظت إيما في الساعة السادسة، وكان جسدها المتشنج يشير إلى رغبتها في الحصول على المزيد من الراحة.

ما إن استحمت وارتدت ملابسها، حتى أسرعت إلى الطابق السفلي، لتطّلع على المقالات الخاصة بالجلسة في أثناء احتساء فنجان الشاي، وربما تناول شريحة ثانية من الخبز المحمص والمربى، فكانت الصحف موضوعة على طاولة الطعام، وما إن قرأت العنوان في صحيفة *التايمز* حتى انهارت قواها، فجلست على أقرب كرسي، واضعة رأسها بين يديها، فلم تكن تلك نيتها أبدًا.

اللورد بارينغتون يستقيل بعد الهزيمة المذلة في مجلس اللوردات.

أدركت إيما في الحال أن كلمة *استقالة* هي تعبير برلماني ملطف للإشارة إلى إقالته من منصبه.

48

النهاية

وضع هاري قلمه، وقفز من مكانه وهو يصرخ: "هللويا!"، وهو ما كان يفعله دائمًا عندما ينتهي من كتابة روايته، ثم جلس مجددًا، ونظر إلى السقف، وقال: "شكرًا"، ثم قام بإجراء طقس آخر من طقوسه يقوم به فور انهاء كتابه، وهو إرسال ثلاث نسخ من المسودة إلى ثلاثة أشخاص، حتى يتمكّنوا من قراءة هيدز يو وين للمرة الأولى، بينما سيعاني من القلق المعهود منتظرًا سماع آرائهم، ولكنهم جميعًا كان لديهم روتينهم الخاص مثله، الأول كان ناشره الأميركي، آرون غوينزبورغ، الذي سيغادر مكتبه ويعود إلى المنزل في اللحظة التي سيرى فيها الرواية على مكتبه، بعد أن يعطي تعليمات واضحة بألا يُقاطعه أحد حتى ينتهي من القراءة، وبعد ذلك يتّصل بهاري، متجاهلًا فارق الوقت بين أميركا وإنكلترا، وغالبًا ما يمكن استبعاد وجهة نظره لأنه يكون دائمًا متحمسًا للكتاب.

والثاني هو إيان تشابمان، ناشره الإنكليزي الذي كان ينتظر دائمًا نهاية الأسبوع لقراءة الكتاب، وبعد ذلك يتّصل بهاري مباشرة في صباح يوم الاثنين ليطلعه على رأيه، وهو اسكتلندي ولا يستطيع إخفاء مشاعره الحقيقية، ما كان يجعل هاري أكثر قلقًا وتخوفًا.

أما الثالث فكان الأكثر تفصيلًا في إبداء الرأي من بين قرائه الثلاثة، كانت أخت زوجته، غريس، التي لم تكن تقدِم رأيها بشكل عام فحسب، بل كان يترافق مع تقرير مكتوب مكون من عشر صفحات، وأحيانًا كانت تنسى أنه ليس أحد تلاميذها،

فتصحح له الأغلاط القواعدية والإملائية، إلا أن هاري لم يعتبر أبدًا أن غريس من المعجبين الواضحين بوليام وورويك إلى أن اعترفت ذات مرة بعفوية بأن لديها ولع بالروايات الإيحائية المتمثلة في كتابات كينغسلي أميز وغراهام غرين وأنها كانت تفضّل إيان فليمنغ إلا أن نظرتها إلى الايحائية كانت تقوم على اعتبارها وسيلة للتسلية.

كان هاري يصطحب غريس لتناول طعام الغداء في غاريك بعد إبداء رأيها بكتابه، ثم يرافقها إلى عرض مسرحي يختاره بقلم الكاتب المسرحي المفضل لديها، تيرينس راتيجان.

ما إن تمَ إرسال النسخ الثلاث عن طريق البريد حتى بدأ بالترقّب الذي طال انتظاره، وبعد انتهاء فترة الترقّب والقلق أجمع قراء هاري الثلاثة على أن رواية هيدز يو وين كانت خروجًا عن نمطه المعتاد، الأمر الذي جعله أكثر تخوفًا.

لقد فكّر في السماح لجايلز، الذي كان لديه الكثير من وقت الفراغ مؤخرًا، وسيباستيان أشد معجبيه المتحمسين لرواياته، بأن يكونا من بين القراء الأوائل لروايته الجديدة، ولكنه قرّر في الوقت نفسه عدم الخروج عن روتينه المعتاد، فسيسمح لهما بأن يقرآ المسودة النهائية في عيد الميلاد، بعد أن يقترح المحرر التغييرات اللازمة.

الآنسة إيلين واربورتون، عانس هذه الأبرشية، كانت امرأة يشتبه هاري في أنها تعيش بمفردها في شقة أسفل الأرض، مثل الخلد، فلم تكن تظهر حتى الربيع، وخلال تلك الأشهر الشتوية، كانت تقضي وقتها في العمل على المسودات البائسة لكتّابها، وتصحيح أخطائهم، والتي كان بعضها غير منطقي لدرجة أنه لا يمكن لأحد اخر أن يلاحظها،

في حين أن الاخرين كثيرو العواء. كما كانت تحبّ أن تصفهم، لو لم يتمَ تصحيح مسوداتهم، لكانوا قد تسبّبوا في وصول ألف رسالة ناقدة إلى مكتب المؤلف مشيرين إلى غبائه، فلم تسمح الآنسة واربورتون لهاري بأن ينسى أن جنيف لم تكن عاصمة سويسرا، وأن *تايتانيك* غرقت في 15 أبريل، وليس في 14.

في لحظة من التبجح المتذبذب، ذكّرها هاري ذات مرة بأن عيني مدام بوفاري في فلوبير قد تغيّرتا من اللون الأسود إلى البني فالأزرق ثم إلى الأسود مرة أخرى في أقل من مئة صفحة.

قالت له: "أنا لا أعلّق على الكتب التي لم أقم بتحريرها"، من دون أي إشارة إلى السخرية.

ستكون إيما من بين آخر من يقرأ المسودة فلن تقرأها حتى تصبح في صيغتها النهائية، بينما على الآخرين الانتظار حتى يوم النشر ليتمكّنوا من الحصول على النسخة المطبوعة.

كان هاري قد خطّط لقضاء عطلة استراحة فور الانتهاء من الكتاب، كان بعد ظهر يوم السبت سيصطحب جايلز إلى ملعب ميموريال غراوند، ويشاهدان فريق بريستول يلعب ضد منافسه القديم باث، وفي المساء سيأخذ إيما إلى مسرح بريستول أولد فيك لرؤية باتريشيا روتليدج.

عندما رنّ جرس الهاتف، أول ما فكّر فيه هاري أن الوقت لم يكن قد حان لإنهاء أي من قرائه من قراءة الكتاب، فرفع السماعة ليسمع صوت جايلز المألوف على الطرف الآخر من الخط.

"أعتذر منك يا هاري، ولكنني لن أتمكّن من الانضمام إليك من أجل مباراة الركبي يوم السبت، كما علينا تأجيل الغداء يوم الأحد". لم يكن هاري

بحاجة إلى السؤال عن السبب، لأن جايلز بادر إلى القول فورًا: "لقد اتصل بنا والتر شيل، وأبلغنا أنه أخيرًا سيفتح الألمان البوابات الفاصلة، وسيتدفق المواطنون عبر الحدود، وأنا اتصل من مطار هيثرو، لأنني وكارين على وشك الصعود إلى متن الطائرة المتجهة إلى برلين، ونأمل في أن نصل إلى هناك قبل أن يبدأوا بهدم الجدار، لأننا نخطّط لأن نكون جزءًا من فريق الهدم".

قال له هاري: "هذا خبرٌ رائع، ولابد أن كارين مسرورة جدًا، أخبرها بأنني أغبطها في ذلك، لأنه عندما يسألها الناس أين كنتِ في اليوم الذي انهار فيه الجدار، ستتمكّن من إخبارهم بأنها شاركت في هذا الحدث العظيم، وإذا استطعت، أحضر لي حجرًا من ذاك الجدار".

قال له جايلز: "سأضطرّ إلى أخذ حقيبة سفر إضافية، للحصول على أحجار تكفي العديد من الأشخاص الذين طلبوا مني الطلب نفسه".

"تذكّر فقط أنك ستشهد حدثًا عظيمًا سيذكره التاريخ، لذا قبل أن تنام كل ليلة، تأكّد من كتابة تفاصيل ما سيحدث في ذلك اليوم، وإلا ستنسى هذه التفاصيل فور استيقاظك".

قال جايلز: "لست متأكدًا من أنني سأخلد إلى النوم طوال تلك الفترة".

***

سأل رجل الأمن في هيثرو جايلز: "لماذا تحمل مطرقة في حقيبتك، يا سيدي؟".

أجابه جايلز: "أمل في أن أسهم بتحطيم الجدار".

قال رجل الأمن قبل أن يغلق الحقيبة: "أتمنى لو أستطيع أن أنضمَ إليك".

عندما صعد جايلز وكارين على متن طائرة لوفتهانزا، بدا الأمر كما لو أنهما ذعيا إلى حفلة عوضًا عن الانضمام إلى مجموعة من الركاب الذين يربطون عادة أحزمة مقاعدهم بهدوء قبل تلقيهم تعليمات السلامة من مضيفة جوية متحمسة، وبمجرد إقلاع الطائرة، فُتحت زجاجات الشامبانيا، وتجاذب الركاب أطراف الحديث، كما لو كانوا أصدقاء قدامى.

تمسَكت كارين بيد جايلز طوال الرحلة، وهي تقول: "لا أستطيع تصديق ذلك"، وقد ردَدت تلك العبارة عشرات المرات، وقد بدت خائفة من أن يكون ما تعيشه مجرد حلم، وأنهما ما إن يصلا إلى برلين، سينتهي الحفل ويعود كل شيء إلى طبيعته.

وبعد ساعتين بدتا وكأنهما دهرًا، هبطت الطائرة، وفي اللحظة التي توقَفت فيها وفُتح بابها، قفز الركاب من مقاعدهم، من دون الالتزام بالطابور المنظم المعتاد، والذي تميَز به الألمان، واستبدل بتوجيهات غير منضبطة بعد أن اندفع الركاب ونزلواعلى الدرجات بسرعة، ثم ركضوا من مدرج المطار إلى قاعة الاستقبال، في تلك الليلة لا أحد وقف ساكنًا، وفور خروج جايلز وكارين من المحطة انتظرا سيارة الأجرة، فشاهدا صفًا طويلًا من الأشخاص الذين يشاركونهما مخططاتهما، وقد ذهش جايلز عندما تقلَص عدد المنتظرين بسرعة، بعد أن ركب ثلاثة أو أربعة أو حتى خمسة ركاب في كل سيارة أجرة، فكلهم كانوا متجهين في الاتجاه نفسه، وعندما وصلوا أخيرًا إلى مقدمة الصف، انضمَ جايلز وكارين إلى عائلة ألمانية لم تكن بحاجة إلى إخبار السائق بوجهتها.

سأل الشاب الذي يجلس إلى جانب جايلز: "أيها

الرجل الإنكليزي، لماذا أتيت إلى برلين؟".

أوضح له قائلًا: "أنا متزوج من امرأة ألمانية شرقية"، ثم وضع ذراعه حول كتفي كارين.

"كيف هربت زوجتك؟".

"إنها قصة طويلة"، روت له كارين كيف أنقذها جايلز، فاستغرق إخبار قصتها المدة التي أمضوها وهم يجتازون مسافة ثلاثة أميال وسط حركة المرور البطيئة، وقد تحدّثت بلغتها الأصلية، وما إن وصلت إلى نهاية قصتها، حتى بدأ التصفيق الحاد، ونظر الشاب إلى جايلز نظرة احترام وتقدير، بينما لم يفهم جايلز كلمة واحدة مما قالته زوجته.

على بعد ميل استسلم سائق التاكسي، فتوقّف في منتصف الطريق الذي تحوّل إلى حلبة للرقص.

جايلز كان أول من ترجّل من السيارة، فأخرج محفظته، ليدفع أجرة السائق، ولكنه قال ببساطة: "لن أتقاضى أجرًا هذه الليلة"، وقبل أن ينعطف ويعود إلى المطار، نظر إليه نظرة احترام، فهو رجل آخر سيخبر أحفاده بالدور الذي أدّاه في الليلة التي انهار فيها الجدار.

شقّ جايلز وكارين طريقهما يدًا بيد بين الحشود المتجهة نحو بوابة براندنبورغ التي لم يرها أي منهما منذ أن ساعدها جايلز في الهرب من برلين الشرقية قبل عقدين تقريبًا.

ما إن اقتربا من النصب التذكاري العظيم، والذي بناه الملك فريدريك وليام الثاني ملك بروسيا - ولسخرية الأقدار كان يرمز إلى السلام- حتى تمكّنا من رؤية صفوف الجنود المسلحين المصطفين جانبًا، وهم يراقبون الحشود، فكّر جايلز في اقتراح هاري بأن عليه أن يكتب كل ما يشاهده خوفًا من نسيانه، وتساءل حول الكلمات المناسبة التي قد

يختارها صهره لوصف التعابير على وجوه هؤلاء الجنود، فهي لم تكن تعابير الغضب ولا الخوف أو الحزن، بل كانت ببساطة تعابير الدهشة من رؤية المشهد الاحتفالي، فكان الجميع يرقصون حولهم بعد أن تغيّرت حياتهم جذريًا خلال بضع لحظات.

حدّقت كارين إلى الجنود من مسافة بعيدة، وهي تتساءل عما إذا كان ما تراه بعينيها يحصل حقًا، لأنه بدا يصعب تصديقه، هل سيتعرّف إليها أحد الضباط فيعيدها عبر الحدود؟ على الرغم من أن الشعب الموحد كان يحتفل حولها، إلا أنها بقيت غير مقتنعة بأن الحياة لن تعود إلى طبيعتها عندما تشرق الشمس، واستطاع جايلز أن يقرأ أفكارها، فأمسكها بذراعيها، وقال لها: "انتهى كل شيء، يا عزيزتي، يمكنك قلب الصفحة، لقد انتهى الكابوس أخيرًا".

فجأة ظهر أمامهم جندي ألماني شرقي، أصدر أمرًا للجنود المصطفين جانبًا، فحملوا أسلحتهم وابتعدوا عن الحشود، فضجَ المكان بالهتافات بصوت مدوٍّ تأييدًا لرحيلهم.

بينما كان الجميع من حولهم يرقصون ويغنون وهم يحتسون الشراب مستمتعين بنشوة الانتصار، شقَ جايلز وكارين طريقهما بينهم باتجاه الحائط المغطى بالكتابات المندّدة بالتقسيم، وكان مئات من المحتفلين يرقصون حوله، وكأنه قبر عدو منبوذ.

توقّفت كارين وهي تضغط على ذراع جايلز عندما رأت رجلًا عجوزًا يعانق امرأة شابة، فكان من الواضح أنه قد التأم شملهما مثل العديد من الناس في تلك الليلة التي لا تُنسى، أخيرًا بعد ثمانية وعشرين عامًا من الفراق، عمّ الضحك والفرح المختلط بالدموع، فتشبث الرجل العجوز بالحفيدة التي كان يعتقد أنه لن يراها أبدًا.

صرخت كارين: "أريد أن أتسلَق الجدار".

نظر جايلز إلى النصب الذي يبلغ ارتفاعه اثنتي عشرة قدمًا، والذي أصبح يمثل ذكرى فشل التقسيم، وقد تجمّع حوله مئات الشباب، فرأى أن هذه اللحظة مناسبة لتذكير زوجته بأنه يبلغ السبعين من عمره، ولكن بما أن تلك الليلة كانت ليلة سفك كل السنوات الماضية قرّر مجاراتها في رغبتها.

قال لها: "فكرة عظيمة".

عندما وصلا إلى سفح الجدار، عرف جايلز فجأة ما شعر به إدموند هيلاري عندما وصل إلى قمة جبل إيفرست، ولكن شابين نزلا من الأعلى، وشبكا أيديهما معًا، فصنعا الدرجة الأولى من السلم، ليتمكّن من أخذ مكانيهما في القمة، وعندما لم يستطع رفع نفسه تمامًا، مدّ اثنان من المحتفلين أيديهما إلى الأسفل وأمسكا بيديه للانضمام إليهما.

انضمّت إليه كارين بعد لحظة فوقفوا جميعًا جنبًا إلى جنب، وهم يحدّقون إلى الآفاق البعيدة، بينما كانت كارين لا تزال كارين تأبى تصديق أنها عندما ستستيقظ في الصباح لن تجد كل ما تعيشه مجرد حلم. حاول بعض الألمان الشرقيين التسلق من الجهة الأخرى، فمدّت كارين يدها إلى الأسفل لتقديم المساعدة لفتاة صغيرة، كما التقط جايلز صورة فوتوغرافية لامرأتين لم تلتقيا قط، وقد تعانقتا بحرارة كما لو أن هاتين الصديقتين لم تلتقيا منذ سنين طويلة، إن هذه الصورة سينتهي بها الأمر إلى أحد الرفوف في جادة سميث لإحياء ذكرى اليوم الذي عاد فيه العقل إلى الشرق والغرب معًا.

من موقعهما العالي شاهد جايلز وكارين جحافل الناس يتدفقون بقوة في اتجاه الحرية، بينما الحراس الذين كان من الممكن في الليلة السابقة أن

يطلقوا النار على أي شخص يحاول عبور الحدود، وقفوا وهم يحدّقون إلى الجميع في ذهول غير قادرين على استيعاب ما كان يحدث من حولهم.

كانت كارين قد بدأت أخيرًا بالاعتقاد أن الجنّي قد هرب من القمقم الشيوعي، ولكن استغرقها الأمر ساعة أخرى لتستجمع الشجاعة وتقول لجايلز: "أريد أن أريك أين كنت أقيم".

وجد جايلز النزول عن الحائط بنفس صعوبة التسلق، ولكن بمساعدة العديد من الأيادي الممدودة، تمكّن بطريقة ما من الوصول إلى الجهة المقابلة، على الرغم من أنه كان بحاجة إلى التقاط أنفاسه ما إن لامست قدماه الأرض.

أمسكت كارين بيده واندفعا عكس حركة التيارات البشرية المندفعة بقوة في اتجاه واحد، وقادته ببطء نحو المركز الحدودي، فكان الآلاف من الرجال والنساء والأطفال يحملون الأكياس وحقائب السفر، وبعضهم يدفعون عربات الأطفال المحملة بممتلكاتهم، وهم يسيرون في اتجاه واحد، تاركين ذكرياتهم القديمة وراءهم، وقد بدا واضحًا أنهم لن يرغبوا في العودة خوفًا من أن يجدوا أنفسهم محاصرين مرة أخرى.

بعد أن اجتازا الحاجز الأحمر والأبيض، كانا قد غادرا الجهة الغربية، فانضمّ جايلز وكارين إلى عدد قليل من المواطنين الذين كانوا يسيرون في الاتجاه نفسه، فتردّدت كارين للحظة فقط، قبل أن يتجاوزا الحاجز الثاني، ليجدا نفسيهما أخيرًا على أرض ألمانيا الشرقية.

لم يكن في المكان أي أثر لحرس الحدود، أو للضباط الألزاسيين المزمجرين ولا للمسؤولين الرفيعي المستوى الذين يتحقّقون عادة من أن

تأشيرتيهما سليمتان.

لم يكن في المكان سوى مساحة غريبة غير مأهولة، كما لم يكن فيه طوابير سيارات الأجرة التي كان يعجّ بها هذا المكان، ثم مرّا بجانب مجموعة صغيرة من الألمان الشرقيين الذين كانوا راكعين وهم يؤدّون الصلاة بصمت على أرواح أولئك الذين ضحوا بأنفسهم من أجل تحقيق هذا الحدث العظيم.

واصلا شقّ طريقهما بين الحشود التي كانت تقلّ مع كل خطوة يخطوانها، فبدا كل ما يجري أمامهما على خير ما يرام، وقد مشيا لأكثر من ساعة قبل أن تتوقّف كارين أخيرًا وهي تشير إلى مجموعة من المباني السكنية الرمادية المتطابقة، وقد انتصبت على امتداد خط مستقيم، فاسترجعت ذكرى حياتها الماضية التي كادت أن تنساها تقريبًا، ثم قالت لجايلز:

"هذا هو المكان الذي نشأت فيه؟".

نظرت إلى الأعلى وقالت: "الطابق التاسع عشر، والنافذة الثانية إلى اليسار هي المكان الذي قضيت فيه أربعًا وعشرين عامًا من حياتي".

عدّ جايلز الطوابق حتى وصل إلى الطابق التاسع عشر، وتأمّل النافذة الثانية إلى اليسار، والتي كانت صغيرة ومن دون ستائر مسدلة، فحاول جاهدًا تذكّر المكان الذي أمضى فيه أول أربع وعشرين عامًا من حياته، ولكنه لم يستطع أن يتذكّر بدقة المكان من بين بارينغتون هول، والمنزل الريفي في لندن، والقلعة في اسكتلندا التي كان يقضي فيها بضعة أسابيع كل صيف، وبالطبع كانت هناك دائمًا الفيلا في توسكانا، فهل ينبغي أن يأخذ استراحة؟

سأل كارين: "هل تريدين أن تصعدي، وتتعرفي إلى

من يقيم في تلك الشقة الآن؟".

قالت كارين بحزم: "لا، أريد أن أعود إلى المنزل".

ومن دون أن تنطق بكلمة أخرى، أدارت ظهرها للكتل الخرسانية الشاهقة الرمادية اللون، وانضمَت إلى مواطني بلدها الذين كانوا يتوجَهون نحو الغرب للاستمتاع بالحرية التي سلبت منهم وقتًا طويلًا من الزمن، إذ لم تكن يومًا بمثابة حق بديهي من حقوقهم، ولم تنظر إلى الوراء ولا مرة في أثناء توجَههما نحو الحدود، على الرغم من أن القلق عاودها مع اقترابهما من نقطة التقاطع، ولكن سرعان ما تلاشت مخاوفها عندما رأت بعض الحراس الذين يرتدون السترات غير المزررة والياقات المرتخية، يرقصون مع أصدقائهم الجدد الذين لم يعودوا مصنَفين شرقيين أو غربيين، بل هم مواطنون ألمانيون.

وما إن عبرا الحاجز وعادا إلى الجهة الغربية، حتى وجدا الصغار والكبار على حد سواء يحاولون بمطارق ثقيلة وأزاميل حادة والمبارد الخشنة تفكيك جدار طوله 800 ميل قطعًا صغيرة، وهو الجدار الذي يدلَ على الوحشية كما كان رمزًا فيزيائيًا لما وصفه ونستون تشرشل بالستار الحديدي، ففتح جايلز حقيبته، وأخرج المطرقة وسلَمها إلى كارين، وهو يقول لها:

"أنت أولا يا حبيبتي".

إيما كليفتون
1990-1992
49

قالت إيما وهي ترفع كأس النبيذ: "نخب الوقت الذي نجتمع فيه كل عام".

قال جايلز: "عندما نرمي جميعًا ألعابنا من عربة الأطفال، ونرفض الانضمام إلى المشاركة في ألعابك؟".

كرَرت إيما كلامها، متجاهلة تعليق جايلز: "إنه الوقت الذي نجتمع فيه كل عام، لنرفع كأسًا تخليدًا لذكرى جوشوا بارينغتون، مؤسس بارينغتون شيبينغ".

ذكّر سيباستيان الجميع قائلًا: "من ربح ثلاثين جنيهًا وأربعة شلنات وبنسًا في سنته الأولى، ولكنه وعد مجلس إدارته بأنه سيكسب المزيد في المستقبل".

قالت إيما: "بل ربح ثلاثة وثلاثين جنيهًا وأربعة شلنات وبنسًا في الواقع، وقد حصل على أكثر فأكثر بكثير".

قال سيباستيان: "لا بد أنه احتدم غيظًا في قبره، عندما بعنا الشركة لكونارد مقابل ثمانية وأربعين مليونًا".

قالت له إيما: "يمكنك الاستهزاء كما تشاء، ولكن يجب أن نكون ممتنين لجوشوا على كل ما فعله من أجل هذه العائلة".

نهض هاري من مكانه، ورفع كأسه وقال: "أنا أوافق إيما في رأيها، نخب جوشوا".

قال أفراد الأسرة جميعًا بصوت واحد: "نخب

جوشوا".

قالت إيما وهي تضع كأسها على الطاولة: "والآن إلى العمل".

احتجَ جايلز قائلًا: "إنها ليلة رأس السنة، ويبدو أنك نسيتِ أنك ضيفة في منزلي، لذلك سيكون لدينا إجازة لمدة عام".

قالت له إيما بحزم: "بالتأكيد لا، فلوسي وحدها من ستعفى من العمل هذا العام".

قال هاري مبتسمًا لحفيدته التي كانت نائمة بين ذراعي والدتها: "ولكن كوني حذرة، أيتها الشابة، إن اعفاءك مؤقت فقط".

قالت إيما: "هذا صحيح"، وكأن هاري لم يكن يمازحها.

"لقد حان الوقت ليخبرنا الجميع بقراراتهم للعام الجديد".

قال هاري: "الشجعان سيذكّروننا بقرارات العام الفائت".

قالت إيما: "لقد سجّلتها كلها في هذا الدفتر الأحمر الصغير، لتذكير من تخونه الذاكرة بالقرار الذي اتخذه".

قال جايلز، وهو يعيد ملء كأسه: "بالطبع، قد فعلت ذلك أيها الرئيس ماو".

قالت إيما متجاهلة تعليق أخيها مرة أخرى: "من يرغب في البدء؟".

قالت سامانثا: "سأبحث عن وظيفة أخرى".

سأل هاري: "هل تخلَيت عن عالم الفن؟".

"أجل، بعد أن أعلنت مجموعة والاس عن حاجتها إلى نائب مدير، وقد أرسلت سيرتي الذاتية، وآمل في أن أحصل على هذا المنصب".

قالت غريس: "أحسنت، فخسارة كورتولد ستكون مكاسب لوالاس".

قال سيباستيان: "إنها تصعد الدرجة الثانية من درجات السلم، وأراهن أنها في العام المقبل، ستتخذ في ليلة رأس السنة قرار الاستيلاء على رئاسة تيت".

"ما مشاريعك، يا سيب؟ ما الذي تسعى لتحقيقه مع نهاية العام المقبل؟".

"أنوي الاستمرار بإزعاج خالتي غريس بجني المزيد والمزيد من المال، ورفع قيمة المبالغ العائدة إليها".

قالت غريس: "التي يمكنني توزيعها بما يعود على المحتاجين بالفائدة ليصبح دورها أكثر قيمة".

"لا تقلقي، فيكتور يدعم مشاريعك، كما ستؤكّد ذلك كارين".

قالت غريس: "لقد قرأت تقرير السيد كوفمان، وهو يقدّم شكرًا وتقديرًا كبيرين لك وللبنك، يا سيباستيان".

بعد أن دوّنت إيما ملاحظة، نظرت إلى أختها وقالت: "أيقدّم الشكر والتقدير له حقًا؟ غريس، بما أنك واحدة من القلائل بيننا الذين لهم صفة علمية إلى جانب اسمهم، ما الذي خطّطت له للأشهر الاثني عشر القادمة؟"

"يأمل سبعة من طلابي الصغار في أن يحصلوا على منحة في الجامعة هذا العام، وأنا مصممة على مساعدتهم ليحصلوا جميعهم على تلك المنح".

سأل هاري: "ما فرصهم في الحصول عليها؟".

"أنا واثقة من أن الفتيات الأربع سيحصلن عليها بسهولة، ولكنني لست متأكدة تمامًا بشأن الفتيان".

ضحك الجميع باستثناء غريس.

قال جيك: "دوري، دوري!"

قالت إيما: "إن كنت أتذكّر بشكل صحيح، فقد أردت في العام الماضي ترك المدرسة، ألا زلت تريد تحقيق ذلك؟".

قال جيك بحزم: "لا، أريد أن تحصل أمي على تلك الوظيفة".

سألته سامانثا: "لماذا؟".

"لأنك إن حصلت عليها، لن أتأخر في الوصول إلى المدرسة كل صباح".

قال هاري من دون أن يتمكّن من إخفاء ابتسامته: "خذوا الحقيقة من أفواه الأطفال".

احمرّ وجه سامانثا، بينما انفجر باقي أفراد الأسرة بالضحك، وفي النهاية قالت: "إذًا من الأفضل أن اتخذ قرارين هذا العام، واحدًا لي وآخر لجيك".

قالت إيما: "بما أن جايلز يبدو غير راغبٍ في الانضمام إلينا هذا العام، فما هي قراراتك في العام المقبل، يا كارين؟ هل ستشاركين في ماراثون آخر؟".

"أبدًا، ولكنني انضممت إلى لجنة صندوق مارسدن الخيري، وآمل في أن تدعمني الأسرة في هذه المهمة، وبالمناسبة هذا لا يشمل سيباستيان".

"هل هذا يعني أنني لست متورطًا في عملية الدفع هذا العام؟".

قالت كارين: "لا، لقد أقنعت فيكتور بأن البنك يجب أن يقدِم منحته الخاصة، وهي منحة فارنغز كوفمان".

"ما الذي سيكلّفني ذلك؟".

قالت كارين: "سيكلّف البنك خمسة وعشرين

ألف جنيه، لكن بعد ذلك أتوقّع منك تقديم منحتك الخاصة".

كان سيباستيان على وشك الاحتجاج، عندما قالت غريس: "وأنا وجايلز نودَ أيضًا تقديم منحة بارينغتون".

ابتسم جايلز لأخته وأومأ إليها مؤيدًا.

قال هاري: "كما سأفعل أنا وإيما"، ما دفع أفراد العائلة إلى التصفيق الحاد.

قال سيباستيان: "أخشى أن أفكّر في القرار الذي ستتخذينه العام المقبل".

قالت كارين: "لم أنتهِ من قرارهذا العام حتى الآن".

قالت سامانثا: "سيباستيان، جيسيكا، ريتشارد، لوسي وأنا، سنكون سعداء بالانضمام إليكم وتقديم منحتنا الخاصة لتمويل هذا المشروع".

نظر سيباستيان إلى السماء وقال: "جوشوا بارينغتون، لديك الكثير لتجيب عنه".

قالت إيما وهي تدوّن التفاصيل في كتابها الأحمر: "أحسنتِ، يا كارين"، ثم أضافت قائلة، وهي تبتسم لحفيدتها: "دورك يا جيسيكا".

"آمل في أن يكون اسمي في القائمة المختصرة من بين المتنافسين على جائزة تيرنر".

قالت غريس: "لا أستطيع أن أتخيّل سبب كون أحد أفراد تيرنر لن يفوز أبدًا بجائزة تيرنر".

قال هاري: "سيكون ذلك إنجازًا كبيرًا، أيتها الشابة".

قال ريتشارد: "وإذا حقّقت ذلك، فستكونين أصغر فنانة تفوز بالجائزة".

قالت غريس: "قرار يستحقّ السعي لتحقيقه، والآن دورك، يا هاري، ماذا تعمل في الوقت الراهن؟"

"لقد بدأت للتو بكتابة مسلسل يدعى شجرة *الحياة*".

قالت إيما: "أوه، أنا أحبّ الأشجار، وأنت كنت دائمًا تعشق المناظر الطبيعية".

"إنه لا يعني هذا النوع من الأشجار، يا جدتي".

قالت إيما: "أنا لا أفهم، فالشجرة تبقى شجرة".

قال هاري وهو يبتسم لحفيدته: "ما لم تكن رمزية، يا إيما".

"وما قرارك يا جدي؟ هل سيفوز كتابك بجائزة بوكر؟".

قالت غريس: "في إمكاني إخباركم جميعًا إن كان ذلك ممكنًا، لأنني الشخص الوحيد الذي قرأ الكتاب من بين كل الموجودين في هذه الغرفة، فرواية هاري الأخيرة تعدَ من أعظم أعماله حتى الآن، ومن خلالها يكون قد حقّق أكثر من آمال والدته، وهو يستحق أخذ إجازة لمدة عام".

تفاجأ هاري بكلام غريس، فكان يخطّط لإخبار العائلة بأنه سيخضع لعملية جراحية خطرة في كانون الثاني، وأنه لا داعي للقلق، وأنه سيبتعد عن القيام بأي نشاط لبضعة أسابيع فقط.

قال جايلز: "وما قراراتك، يا إيما؟ هل تخطّطين لتكوني رئيس الوزراء في العام المقبل؟"

قالت إيما: "لا أعتقد ذلك"، وأضافت وهي تضع كأسها على الطاولة، وتسكب قليلًا من النبيذ: "لكنني أعتزم أن أكون مهرطقة العام المقبل أكثر مما كنت عليه العام الماضي".

سألها جيك: "ما معنى مهرطقة؟".

قال جايلز: "إنه شخص يصوّت للحزب المحافظ".

"إذًا أريد أن أكون مهرطقًا، إذا كان فريدي يريد

ذلك أيضًا".

قال فريدي: "أنا بالتأكيد سأكون كذلك، وأعتقد أن الأمر أصبح فكاهيًا:

كيف تعمل الطبيعة دائمًا -

كل فتى وكل فتاة -

ولدوا في العالم -

إما أن يكونوا ليبراليين قليلًا أو محافظين قليلًا!"

سألته غريس: "كلمات أي أغنية؟".

"وليام شوينك جيلبرت".

"في أي مسرحية موسيقية؟"

قال فريدي: "يولانثي، وبما أنني مهرطق بالفعل، فقد قرَرت أن أتوصَل إلى قرار جديد هذا العام".

ذكَره جايلز قائلًا: "لكنك لم تحطَم رقم جايلز القياسي بعد".

"ما زلت أنوي ذلك، ولكنني في العام المقبل، سأكون قد غيَرت اسمي".

إعلان فريدي غير المتوقع جعل الجميع ومن بينهم جايك مذهولين وعاجزين عن الكلام، إلى أن تمكَنت إيما أخيرًا من القول: "لكنني أحببت اسم فريدي، وأعتقد أنه يناسبك".

"ليس اسم فريدي الذي أريد تغييره، في بداية السنة الجديدة، أودَ أن يكون اسمي فريدي بارينغتون".

وما إن ضجَت الغرفة بالتصفيق حتى أعقب ذلك تأكَد فريدي من أن الأسرة وافقت على القرار الذي اتخذه للعام الجديد.

بدأ الهاتف يرنَ، وبعد لحظة ظهر ماركهام، وقال: "إنه اللورد وادينغتون عبر الهاتف".

قال جايلز: "أمير المهرطقين، يمكنك أن تردّي على المكالمة في مكتبي، يا إيما".

قالت إيما: "يجب أن يكون الأمر جادًا لكي يتّصل بي في ليلة رأس السنة".

قال ماركهام: "المكالمة ليست لك، سيدتي، بل للورد بارينغتون".

"هل أنت متأكد يا ماركهام؟".

"بالتأكيد، يا سيدتي".

قالت إيما: "إذًا من الأفضل أن تردَ عليه، لتكتشف ما يريده منك".

إن كان قرارا جيسيكا وفريدي قد أذهلا الجميع وجعلاهم غير قادرين على الكلام، فإن مكالمة هاتفية من زعيم اللوردات تسبَبت في جعل أفراد الأسرة جميعًا يتحدّثون في الوقت نفسه، ولم يصمتوا حتى فُتح الباب وعاد مضيفهم إلى الظهور، فنظروا إليه وهم يتطلّعون إلى معرفة ما دار بينه وبين زعيم اللوردات.

ولكن كل ما قاله جايلز: "حسنًا، تلك المكالمة قد غيَرت قرار العام الجديد الخاص بي".

***

في صباح اليوم التالي، قالت إيما بينما كانت تسير برفقة هاري، وهما عائدان إلى مانور هاوس: "سيكون عليك أن تخبرهم بأنك ستجري عملية في وقت ما".

"كنت أنوي القيام بذلك مساء أمس، ولكن غريس وفريدي وجايلز قد سرقوا الأضواء مني".

"لم يستطع جايلز إخفاء مدى سعادته بقرار فريدي".

"هل أخبرك بما أراد اللورد وادينغتون التحدث

إليه؟".

"لا، لم يتفوّه بأي كلمة".

"ألا تعتقدين أنه يمكن أن يغيّر ولاءه السياسي وينضمَ إلى المهرطقين؟".

"أبدًا، هذا ليس أسلوبه، ولكن بما أنك سلّمت الكتاب الآن، هل هناك أي شيء آخر عليك القيام به قبل الذهاب إلى المستشفى؟".

"أتمنى لو يتسنى لي القيام بالكثير".

"هذا مشوق للغاية، ولكن عليك أن تجبني عن السؤال".

قال هاري: "لا، بعد أن قام المحرر والمدقق اللغوي بأداء أفضل ما لديهما، ليس لدي ما يمكنني فعله قبل نشر الكتاب".

"ما الأخطاء التي رصدتها الآنسة واربورتون الجليلة هذه المرة؟".

"رصدت النقطتين اللتين كانتا يجب أن تكونا فاصلتين منقوطتين، كما يبدو أنني استخدم تعبير "بلا شك" كثيرًا في معظم أقسام الكتاب، وهو ما يفعله الجميع في الحياة العادية، ولا يمكن التملّص منه في أثناء الكتابة".

"هل ستقوم بجولة من أجل توقيع كتابك هذه المرة؟"

"أتوقّع ذلك، فسيفترض معظم القراء أنها رواية أخرى لـويليام وورويك، وسأضطرّ إلى إبعاد تفكيرهم عن تلك الشخصية، وأيًا يكن الأمر، سيقوم آرون بالفعل بترتيب جولة في الولايات المتحدة، وسيضغط ناشري في لندن لزيارة مهرجان بومباي للكتب".

"هل التوقيت مناسب؟ كل ذلك يبدو مرهقًا

للغاية".

"كل شيء مريح إلى حد ما، في الواقع سأدخل إلى سانت توماس خلال أسبوعين، وما إن تُنشر الرواية، سأكون قد تعافيت تمامًا".

"لا أعتقد أن عليك العودة إلى هذا المكان بعد خروجك من المستشفى، بل ستبقى في لندن حيث يمكنني أنا وكارين وجايلز الاعتناء بك، في الواقع أخبرت فريق العمل بأنني سأتغيّب لمدة أسبوعين على الأقل".

"أعتقد أن جايلز سيتغيّب فترة أطول من ذلك".

"ما الذي يجعلك تظنّ ذلك؟".

"هناك شائعة تدور حول تقاعد سفيرنا في واشنطن في الربيع".

50

كان المكتب أصغر مما كان يتوقَع، ولكن الألواح الخشبية واللوحات الزيتية الرائعة التي تعود إلى أسلافه أشعرته بالأهمية التاريخية لدوره الجديد. لقد تمَ شرح واجباته بعناية من قبل روفوس أورمي، سكرتيره الخاص، وسيكون دوره إلى جانب الملك، وقد لا يمتلك سوى القليل من القوة الحقيقية في منصبه الجديد، ولكن تأثيره سيكون هائلًا، في الواقع عندما يتعلَق الأمر بالمناسبات الرسمية، سيتبع خطى الملكة، وسيكون رئيس أساقفة كانتربري ورئيس الوزراء خلفهما بخطوة، وكان يساعده فريق صغير مدرب جيدًا، ويهتمَ بكل احتياجاته، رغم أنه تساءل كم سيتطلَب اعتياده على شخص يساعده في ارتداء ملابسه. فخادمه، كروفت، يظهر في الوقت نفسه كل يوم

لأداء واجبات يتمَ توقيتها بالثانية، فينزع ملابسه عدا صدريته وبنطاله، ما يشعره بسخف كبير.

ما إن حضر كروفت حتى بدأ يساعده على ارتداء قميص أبيض كوي في وقت سابق من ذلك الصباح، وعلَق ياقة بيضاء بدبوس في الجزء الخلفي من القميص، وعقد منديلًا من دانتيل مكشكش حول عنقه بدلًا من ربطة العنق، ولم يكن بحاجة إلى النظر في المرآة، لأن كروفت كان مرآته، ثم حوَل الخادم انتباهه إلى ثوب طويل حريري أسود وذهبي، كان يرتديه تمثال خشبي مخصَص لعرض الملابس موضوع في أحد أركان الغرفة، فرفعه بعناية، ثم رفع الثوب حتى يتمكَن المتلقي الجديد من وضع ذراعيه في الكمين الذهبيين الطويلين، فتراجع كروفت قليلًا، وتفحَص سيده، ثم جثا على ركبتيه لمساعدته في انتعال الحذاء النحاسي اللون

واللامع، ثم نهض مرة أخرى وتناول باروكة شعر مستعار ضخمة ومجعدة من رأس تمثال الأزياء الخشبي، وقبل نقلها إلى رأس السيد المستشار، أجرى تعديلًا بسيطًا من اليسار فقط.

كانت مهمة كروفت الأخيرة هي وضع السلسلة التي يعود تاريخها إلى عام 1643 فوق رأسه، وتثبيتها بأمان على كتفيه، كانت تلك هي اللحظة التي استرجع فيها ذكرى أيام الدراسة حين أعدم ثلاثة من أسلافه في برج لندن.

حين ارتدى ملابسه، سُمح له أخيرًا بإلقاء نظرة في المرآة الطويلة، فبدا سخيفًا، ولكن كان عليه أن يعترف لنفسه فقط، بأنه أحبّ ذلك، وأخيرًا انحنى الخادم، بعد أن انتهت مهمته، وغادر من دون أن يتفوّه بكلمة أخرى.

عندما غادر كروفت، دخل القائد أورمي الذي لم يكن ليفكّر أبدًا في دخول الغرفة حتى ينتهي السيد المستشار من ارتداء ملابسه الرسمية.

قال له: "لقد قرأت ورقة الطلب اليوم، أورمي، هل هناك أي شيء آخر يجب أن أقلق بشأنه؟".

"كلا، يا سيدي. ستجيب وزيرة الصحة عن الأسئلة اليوم، ومن الممكن أن تجري مناقشة حادة حول موضوع الإيدز، ولكن لا تقلق بشأن ذلك".

"شكرًا لك"، نظر إلى ساعته فأدرك أنه خلال سبع دقائق، عليه أن يغادر مكتبه في برج الشمال، وينطلق في رحلته إلى غرفة الأمير.

فُتح الباب مرة أخرى للسماح للخادم بالدخول، فانحنى وتحرّك بسرعة خلفه، وهو يحمل طرف ردائه الطويل.

قال أورمي: "لديك ثلاثون ثانية، يا سيدي"، قبل

أن يُفتح الباب مرة أخرى للسماح للمستشار اللورد بالبدء بالرحلة التي تبلغ مدتها سبع دقائق عبر قصر وستمنستر إلى مجلس اللوردات.

سار على السجادة الحمراء وهو يتقدّم ببطء على طول الممر الطويل، فوقف أعضاء المجلس، بينما وقف حراس الأبواب والضباط في جانب واحد وقد انحنوا جميعًا ليس له بل للملكة التي يمثلها، فحافظ على خطى ثابتة، كان يتدرَب عليها في اليوم السابق، عندما لم يكن المجلس منعقدًا. لقد أخبره القائد أورمي بأن عليه ألا يسرع الخطى كما عليه ألا يتباطأ، كي يتمكّن من أن يصل إلى غرفة الأمير قبل لحظات فقط من قرع ساعة بيغ بين مرتين.

بينما كان يتقدّم في الممر الشمالي، كان يتساءل عن عدد زملائه الذين سيكونون في الغرفة لتحيته عندما يجلس على مقعده للمرة الأولى، وعندها فقط سيكتشف ردة فعلهم على احتلاله هذا المنصب المفاجئ.

في الأيام العادية لا يحضر سوى عدد قليل من الأعضاء، وكانوا سينهضون من أماكنهم بينما يدخل اللورد المستشار إلى الغرفة، وينحنون له انحناءة خفيفة، ويظلّون واقفين بينما يؤدّي صديقه القديم، أسقف بريستول، الصلاة اليومية.

شعر بالتوتر أكثر فأكثر، وهو يتقدّم إلى الأمام بخطوات بطيئة، وقد تسارعت نبضات قلبه، وازدادت ضرباته ما إن داس على سجادة غرفة الأمير الزرقاء والذهبية، فلم يعد لديه سوى تسعين ثانية، فاستدار إلى اليمين وشقَ طريقه في الممر الطويل المفروش بالسجاد الأحمر إلى أقصى نهاية المجلس، قبل أن يتمكّن أخيرًا من الدخول.

عندما وصل إلى ردهة الأعضاء، كان الجمهور يقف بصمت، فسمع رنين ساعة بيغ بن الأول يتردَد في المبنى.

وما إن بدأ الرنين الثاني، فتح بوابان اثنان يرتديان ملابسهما الرسمية كاملة أبواب الغرفة الكبيرة للسماح للورد المستشار الجديد بدخول مجلس الشيوخ، فحاول ألا يبتسم عندما رأى ما كان سيطلق عليه إنتاج مسرحي في مسرح يغصّ بالمشاهدين. في الواقع كان على العديد من زملائه الوقوف في الممرات، بينما جلس آخرون على درجات العرش، وقد وقف الجميع عندما دخل الغرفة، وانطلقت صرخات مدوية: "اسمع، اسمع!"، وبدأوا بالتلويح التقليدي بأوراق الطلب، وقد أخبر جايلز فريدي لاحقًا بأن ترحيب زملائه كان أعظم لحظة في حياته.

فقال له: "أعظم من لحظة الفرار من الألمان؟".

اعترف جايلز قائلًا: "كان الشعور بالرعب نفسه".

بينما كان أسقف بريستول يؤدّي الصلاة، نظر جايلز إلى سترينجرز غاليري فرأى زوجته وابنه وأقدم صديق له ينظرون إليه، من دون أن يتمكّنوا من إخفاء مشاعر الفخر التي انتابتهم.

عندما بارك الأسقف أخيرًا جماعته، انتظر أخذ اللورد المستشار مكانه على مقعده لأول مرة، ثم جلس الجميع في مقاعدهم ما إن استقرّ جايلز ورتّب ثيابه، فلم يستطع مقاومة التوقف للحظة قبل أن يومئ برأسه في اتجاه الوزيرة كليفتون للإشارة إلى أنه يمكنها أن تشرع في الإجابة عن السؤال الأول الوارد في ورقة الطلب.

وقفت إيما تخاطب المجلس قائلة: "سيدي المستشار، أنا أعلم أن المجلس كله يريد أن ينضم

إليّ لتهنئتك على تعيينك، وأتمنى لك سنوات طويلة ومريحة في رئاسة المجلس".

دوت صرخات الهتافات التي انطلقت من جميع الجهات فانحنى جايلز لأخته.

***

السؤال رقم واحد.

استدارت إيما لمواجهة المقاعد المتقاطعة، وقالت:

"يمكنني أن أؤكد للورد النبيل، اللورد بريستون، أن الحكومة تأخذ تهديد الإيدز على محمل الجد، فقد خصّصت وزارة الصحة مئة مليون جنيه لإجراء أبحاث حول هذا المرض الرهيب، ونحن نشارك النتائج، التي توصّل إليها العلماء المبدعون وكبار الأطباء المتمرسين، جميع دول العالم المتقدمة على أمل الوصول إلى علاج في أسرع وقت ممكن، كما يجب أن أضيف أنني سأسافر إلى واشنطن الأسبوع المقبل، للاجتماع بوزير الصحة، ويمكنني أن أؤكّد لمجلس النواب أن موضوع الإيدز سيكون في رأس قائمة جدول أعمالنا".

وقف رجل مسن يجلس في الصف الخلفي من المقاعد المتقاطعة ليطرح سؤالًا إضافيًا.

"أنا ممتن لرد الوزيرة، لكن هل يمكن أن أسأل كيف تتعامل مستشفياتنا مع التدفق المفاجئ للمرضى؟".

جلس جايلز واستمع باهتمام إلى الطريقة التي أجابت بها أخته مع كل سؤال طرح عليها، متذكرًا الوقت الذي قضاه في المقعد الأمامي، على الرغم من تردّدها في بعض الأحيان، إلا أنها لم تعد بحاجة إلى التحقق باستمرار من الموجز الذي أعدّه مساعدوها، كما أعجب بالقدر نفسه بقدرتها على قيادة المجلس ببراعة، وهو شيء لم يتقنه بعض

الوزراء.

خلال الأربعين دقيقة التالية، أجابت إيما على أسئلة تتعلّق بمواضيع تناولت تمويل أبحاث السرطان والاعتداءات التي تعرّضت لها أقسام الطوارئ بعد مباريات كرة القدم، ومدى استجابة سيارات الإسعاف لمكالمات الطوارئ.

تساءل جايلز عن مدى صحة الشائعات التي انتشرت في الأروقة، وكان أبرزها أنه إذا انتصر المحافظون في الانتخابات التالية فستعيّنها مارغريت تاتشر زعيمة لمجلس اللوردات، وبصراحة إذا كان ذلك سيحدث، فلا يظنّ أن أيًا من زملائه في مجلس الشيوخ سيتفاجأ، ومع ذلك تردّدت شائعة أخرى مؤخرًا في أروقة السلطة وهي أن عضوًا من حزب المحافظين يستعدّ لتحدي تاتشر لقيادة الحزب، فأستبعد جايلز الفكرة لاعتبارها مجرّد تكهنات، لأنه على الرغم من أن أساليب السيدة تاتشر اعتبرت قاسية من قبل بعضهم، بل دكتاتورية، إلا أن جايلز لم يستطع أن يتخيّل أن حزب المحافظين قد يفكّر في إقالة رئيسة وزراء لم تخسر الانتخابات قط في أثناء تولّيها منصبها.

قالت إيما عندما نهضت للإجابة عن السؤال الأخير الوارد في ورقة الطلب: "لا يمكنني إلا أن أقول للورد النبيل، إن الوزارة ستوافق على بيع الأدوية المقلدة، ولكن ليس قبل أن تخضع لاختبارات دقيقة، فهدفنا هو ضمان ألا يضطرّ المرضى إلى دفع أسعار باهظة لشركات الأدوية التي غالبًا ما تكون أولويتها جني الأرباح وليس علاج المرضى".

جلست إيما على وقع هتاف مدوٍّ، وعندما نهض وزير الخارجية ليحلّ محلها من أجل البدء بنقاش حول جزر فوكلاند، جمعت أوراقها وسارعت إلى

الخروج من القاعة، لأنها لم ترغب في أن تتأخر عن موعدها التالي مع المدافع عن حقوق المثليين إيان ماكيلين، الذي كانت تعلم أن لديه آراء مهمة حول كيفية تعامل الحكومة مع أزمة الإيدز، وكانت تتطلَع إلى إخباره بمدى استمتاعها بأدائه الأخير وهو يقوم بدور ريتشارد الثالث على خشبة المسرح الوطني.

عندما غادرت القاعة، تعثرت فأسقطت بعض الأوراق التي حملها أحد أفراد الحزب العابرين وأعادها إليها، شكرته، وكانت على وشك الانطلاق عندما ناداها أحدهم من خلفها: "معالي الوزيرة، هل يمكنني التحدث إليك؟"

التفتت إيما لترى اللورد صامويل، رئيس الكلية الملكية للأطباء، يلحق بها، فتساءلت إن كانت قد أخطأت في أثناء الإجابة عن الأسئلة، فهو لم يكن من الرجال الذين قد يحرجونها في القاعة، فذلك ليس أسلوبه.

"بالطبع أيها اللورد صامويل، أرجو ألا أكون قد ارتكبت زلة لسان فظيعة في أثناء الرد على الأسئلة؟".

قال صامويل وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة دافئة: "بالتأكيد لا، الأمر فقط أن هناك موضوعًا أودّ مناقشته معكِ، وتساءلت إن كان في إمكانك منحي لحظة من وقتك".

قالت إيما: "بالطبع، سأطلب من سكرتيرتي الخاصة الاتصال بمكتبك وتحديد موعد للاجتماع بك".

"أخشى أن الأمر أكثر إلحاحًا ولا يحتمل التأجيل، حضرة الوزيرة".

"إذًا ربما يمكنك الانضمام إليّ في مكتبي الساعة الثامنة من صباح الغد".

"أفضل أن أراك على انفراد، بعيدًا عن أعين الموظفين المتطفلة".

"إذا سأزورك في عيادتك، أخبرني بالمكان والزمان".

"الساعة الثامنة من صباح الغد، شارع هارلي 47 أ".

***

كانت إيما تدرك جيدًا العداء الشخصي البغيض-كما أعلن بعضهم- بين رئيس كلية الأطباء الملكية ورئيس الكلية الملكية للجراحين بشأن دمج مستشفى جايز وسانت توماس وكينغ في مستشفى واحدة، فكان الأطباء يؤيّدون الدمج، ولكن الجراحين كانوا يعارضون الفكرة، وقد صاح كلا الفريقين: "على جثتي".

كانت إيما حريصة على عدم الانحياز إلى أي طرف، وقد طلبت من الإدارة إعداد موجز يمكنها النظر فيه قبل ليلة من اجتماعها باللورد صامويل، ومع ذلك فإن اللقاءات التي لا تنتهي، والتي اضطرّت إلى تجاوز بعضها، منعتها من قراءة الموجز قبل أن تستلقي في الفراش بعد منتصف الليل بقليل، وبينما كان هاري يشخر، كانت تأمل في أن يبقيها ذلك متيقظة، ولكنها كانت متعبة للغاية لدرجة أنها وجدت صعوبة في التركيز على التفاصيل، وسرعان ما غرقت في نوم عميق.

في صباح اليوم التالي، أعادت إيما فتح الصندوق الأحمر حتى قبل أن تعدَ لنفسها كوبًا من الشاي.

موجز *مستشفى تومي، جايز، كينغ* لا يزال فوق الملفات العاجلة الأخرى، ومن بينها تقريرا الحمض النووي السريان لاثنين من الأكاديميين الأميركيين المتميزين، وكانت تعرف بالفعل نتائجهما الأولية، ولكنها ستحتاج إلى قراءتهما بمزيد من الدقة،

وقبل أن تتمكّن من مشاركة هاري الأخبار السارة، تلقت عدة مكالمات هاتفية في أثناء تناولها الفطور، فلم تسنح لها الفرصة للنظر في الحجج المؤيدة والمعارضة لاقتراح اللورد صامويل، وصل سائقها إلى منزلها عند الساعة 7.25 صباحًا، وكان من المقرر أن يكون يومًا آخر حافلًا بالأعمال.

قرأت إيما المقالات المفصلة من كلا الرئيسين في أثناء رحلتها عبر لندن، ولكنها لم تكن قد قرَرت انحيازها إلى أي من الجانبين في الوقت الذي وصلت فيه إلى هارلي ستريت، فوضعت الملف مرة أخرى في الصندوق الأحمر وتفقدت ساعتها التي أشارت إلى 7.57 فأملت في ألا تستمرَ المناقشة لفترة طويلة، لأنها كانت بحاجة إلى العودة إلى الوزارة، فقد كان ينتظرها اجتماع حول موضوع مثير للجدل مع شخص حذّرتها السكرتيرة الدائمة من أنه يرى أن جميع المحافظين يجب أن يغرقوا عند الولادة، وقد وصفته بولين بأنه شبيه بالملك هيرودس.

كانت إيما على وشك الضغط على جرس رقم 47 أ عندما فتحت لها شابة الباب.

"صباح الخير حضرة الوزيرة، اسمحي لي بأن أقودك إلى اللورد صامويل".

نهض رئيس الكلية الملكية للأطباء عندما دخلت الوزيرة إلى الغرفة، وعندما جلست عرض عليها احتساء القهوة.

قالت إيما التي لم ترغب في تضييع الوقت أكثر من اللازم، وفي الوقت نفسه حاولت ألا تعكس انطباعًا يظهر أنها على عجلة من أمرها: "لا، شكرًا لك".

"كما شرحت لك بالأمس أيتها الوزيرة، الموضوع

الذي أرغب في مناقشته معك شخصي للغاية، ولهذا لم أرد أن نجتمع في مكتبك".

قالت إيما، وهي تنتظر سماع حججه المؤيدة للدمج: "أفهم كلامك تمامًا".

قال لها: "خلال طرح الأسئلة أمس"، خطر في بال إيما على الفور أنها لا بد أن تكون قد ارتكبت بعض الأخطاء الفادحة، وقد كان لطيفًا بما يكفي كي لا يشير إليها في القاعة، وتابع قائلًا: 'لقد لاحظت أنه عندما توقَفت لارتشاف الماء، سكبت قطرات منه على أوراقك، ثم أجبت عن السؤال من دون الرجوع إلى ملاحظاتك حتى لا يلاحظ أحد ما جرى، على الرغم من أنها لم تكن المرة الأولى".

تساءلت إيما إلى أين يقود كل هذا الكلام، ومع ذلك لم تقاطعه.

"وعندما غادرت القاعة، تعثَرتِ فتبعثرت بعض الأوراق".

قالت إيما، وقد بدأت تدور في عقلها أفكار مضطربة: "نعم، لقد حصل ذلك، ولكن لم أظنَ أن أيًا من الحادثتين كانتا مهمتين في ذلك الوقت".

قال صامويل: "أتمنى أن تكوني على حق، ولكن هل لي أن أسأل ما إذا كنت قد وجدت صعوبة في الإمساك ببعض الأغراض مثل كوب الماء أو حقيبتك أو حتى قلمك عند توقيع الرسائل؟".

تردَدت إيما قبل أن تقول: "نعم، أذكر الآن حصول ذلك مرات عديدة بعد أن أشرت إليه، ولكن والدتي كانت تنعتني دائمًا بالخرقاء".

"كما لاحظت أنك تلعثمت عدة مرات بينما كنت تخاطبين أعضاء المجلس بالأمس، هل كان ذلك لأنك كنت تفكَرين في إجابتك، أم لأنك شعرت بأن

كلامك تقيّد بطريقة ما؟".

"أفترض أن ذلك يعود إلى التوتر والإرهاق، لطالما حذّرني أخي من آثار التوتر عندما أكون على المنبر، وقد نصحني بالاسترخاء".

"هل تشعرين بضعف في ساقيك أحيانًا، فتضطرّين إلى الجلوس؟".

"نعم، ولكنني في السبعين من عمري أيها اللورد صامويل، وسأكون أول من يعترف بضرورة ممارسة المزيد من التمارين الرياضة".

"ربما ولكنني أتساءل عما إذا كنت ستسمحين لي بإجراء فحص عصبي قصير، لأنني أشعر بالقلق".

قالت إيما: "بالطبع"، على الرغم من أنها كانت ترغب في الرفض حتى تتمكّن من العودة إلى مكتبها بسرعة.

استغرق الفحص القصير أكثر من ساعة، وقد بدأ اللورد صامويل بسؤال إيما عن تاريخها الطبي، ثم استمع إلى نبضات قلبها، وفحص ردود أفعالها بمطرقة الأباتيلا. ففكّرت في أنه لو كانت تلك الاختبارات مرضية، لاعتذر من إزعاجها وتركها تعود إلى العمل، ولكن إن لم تكن مرضية، فسينتقل إلى تقييم الأعصاب القحفية.

بعد أن أجرى فحصًا تامًا، انتقل إلى فحص فمها، ليرى إن كان هناك تحزُّم في اللسان، فقال اللورد صامويل: "قد يكون الفحص الذي سأقوم به مؤلمًا، في الواقع آمل في ألا يكون كذلك".

لم تدل إيما بأي تعليق عندما أحضر دبوسًا وشرع في غرزه في ذراعها، فأثارت ردة فعل على الفور مصحوبة بصرخة، ما دلّ بوضوح على أنها جعلت صامويل مسرورًا، ولكنه عندما نفّذ الاختبار على

يدها اليمنى، لم تستجب أبدًا.

وعندما غرز الدبوس في فخذها، صرخت: "أخ!"، ولكن عندما تقدَم إلى أسفل عضلة الساق، بدت مثل الوسادة، لأنها لم تشعر بشيء، فانتقل إلى ظهرها، ولكن إيما لم تستطع في معظم الأحيان معرفة ما إذا كان يغرز الدبوس في ظهرها أم لا، وعندما ارتدت بلوزتها، عاد اللورد صامويل إلى مكتبه، وفتح ملفًا وانتظر انضمامها إليه، وما إن نظر إليها، كانت تجلس أمامه، وقد بدا عليها التوتر.

قال بلطف: "إيما، أخشى أن ما سأقوله لك ليس جيدًا".

51

عندما يستقيل الوزير بسبب فضيحة ما، يغمس الصحفيون أقلامهم في الدم، ليستفيدوا من فضيحته، ولكن إن كان عليهم أن يتنازلوا عن مناصبهم بسبب الإصابة بالمرض، فيكون الموقف مختلفًا للغاية، خاصة إذا كان الوزير محبوبًا ومحترمًا.

يتمّ تبادل الرسائل التقليدية بين رئيسة الوزراء وزملائها الذين يتعيّن عليهم الاستقالة بشكل غير متوقع، ولكن في هذه الحالة لا يمكن أن يغيب الأسف الذي شعر به كلا الطرفين.

لقد كانت أكثر الوظائف التي قمت بها إثارة في حياتي، وقد حظيت بامتياز الخدمة في إدارتك.

كتبت رئيسة الوزراء ردًا على رسالتها: مساهمتك الاستثنائية في الحياة العامة، والخدمة غير المحدودة لبلدك، لن تُنسى أبدًا.

لم تعلن رئيسة الوزراء ولا الوزيرة سبب تنحّيها عن منصبها المفاجئ، كما لم يعرف طبيب البلاد الأكبر مريضًا تلقى مثل هذه الأخبار بهذا القدر من الوعي والعنفوان والصبر مثلها، والعلامة الوحيدة التي دلّت على الضعف البشري قد كشفتها إيما عندما رافقها إلى سيارتها، فاتكأت للحظة على ذراعه، لتطلب منه طلبًا واحدًا، فوافق عليه من دون تردد، وبقي اللورد صامويل على الرصيف حتى توارت سيارة الوزيرة عن الأنظار، ثم عاد إلى مكتبه، وكما طلبت منه، أجرى ثلاث مكالمات هاتفية لثلاثة أشخاص لم يتحدّث معهم من قبل، وهم السير هاري كليفتون، اللورد المستشار، ورئيسة الوزراء، فانهار إحداهم وبكى، ولم يستطع متابعة المكالمة، بينما قامت الأخرى على الفور بتعديل جدول

أعمالها، موضحة لموظفيها أنها ترغب في زيارة أحد الأصدقاء، فخلص اللورد صامويل إلى أنهما من طينة السيدة العظيمة نفسها، والتي غادرت للتو غرفة الاستشارات في عيادته، ولكن المكالمة التي كان قلقًا من إجرائها هي التي أجّلها حتى النهاية.

عندما أخبر اللورد صامويل هاري بأن زوجته مصابة بمرض عصبي حركي، ولا يمكنه إلا أن يأمل في أن تعيش لسنة أخرى، وعلى الأكثر ثمانية عشر شهرًا، انهارت قواه، وقد مرّ بعض الوقت قبل أن يتعافى من صدمته لإدراكه أن على أحدهما أن يكون قويًا ليدعم الآخر.

وعندما غادرت إيما الوزارة للمرة الأخيرة، وجدت هاري ينتظرها على عتبة المنزل، فلم ينطق أي منهما بكلمة، ثم ضمّها إلى صدره بقوة، كم يكون الكلام الذي تحتاج إلى قوله متدفقًا عندما يعيش الشريكان معًا لأكثر من خمسين عامًا! لقد أجرى هاري اتصالات هاتفية بكل فرد من أفراد العائلة لإعلامهم بالأخبار الحزينة قبل أن يقرأوا عنها في الصحف، كما كتب نصف دزينة من الرسائل، موضحًا أنه لأسباب شخصية ألغى كل ارتباطاته الحالية، ويعتذر عن الالتزام بأي ارتباطات جديدة سواء أكانت اجتماعية أم مهنية.

***

في صباح اليوم التالي، قاد هاري إيما إلى منزلهما في سومرست حتى يتمكنا من بدء حياتهما الجديدة، فوضع سريرًا لها في غرفة الرسم حتى لا تضطرَ إلى الصعود إلى الطابق العلوي، كما وضع كل ما تحتاج إليه في المكتبة، حتى تتمكن من الرد على أكوام الرسائل التي كانت تصلها عبر البريد، وكان يفتح كل رسالة ويضعها في مجموعة منفصلة،

مجموعة الأسرة، ومجموعة الأصدقاء، ومجموعة الزملاء، الذين عملوا في المركز الطبي الملكي، ومجموعة خاصة بالشابات في البلاد اللواتي لم تكن إيما على علم بهن حتى ذلك الحين، واللواتي لم يرغبن فقط في شكرها، بل أردن تذكيرها مرارا وتكرارا بأنها قدوة لهن.

وكانت هناك كومة كبيرة من الرسائل ترفع معنويات إيما في كل مرة تقرأ فيها إحداها، كانت تردها من زملائها الذين لم يشاركوها آراءها السياسية، ولكنهم أرادوا التعبير عن إعجابهم واحترامهم للطريقة التي كانت تستمع فيها إلى آرائهم، وإبلاغها بأنها أوشكت في بعض الأحيان أن تغيّر انتماءاتهم.

على الرغم من أن بريدها الخاص لم يفرغ لعدة أسابيع، إلا أن إيما ردَت على كل من كتب لها، ولم تكن تتوقَف إلا عندما تفقد القوة للإمساك بقلمها، وبعد ذلك صارت تملي ردودها على هاري ليكتبها، فأضيفت صفة "محرر" إلى مسؤولياته العديدة الأخرى.

ومع ذلك، فقد أصرَت على التحقق من كل حرف قبل إضافة توقيعها، ومع مضي الوقت عندما أصبح ذلك مستحيلًا أيضًا، أصبح هاري يوقَع الرسائل نيابة عنها.

كان الدكتور ريتشارد يزورها مرتين في الأسبوع، وقد أبقى هاري على علم بما يجب أن يتوقَعه، وعلى الرغم من أن الطبيب العام القدير أقرَ بأنه شعر بالعجز تمامًا لأنه لا يستطيع إلا إظهار التعاطف وكتابة وصفات طبية للحبوب التي كان يأمل في أن تخفف آلام إيما. في الأسابيع القليلة الأولى، تمكَنت إيما من الاستمتاع بجولة صباحية حول

المنزل برفقة هاري، ولكن لم يمض وقت طويل قبل أن تضطرَ إلى الاتكاء على ذراعه، ثم أصبحت تعتمد على عصا للمشي قبل أن تستسلم أخيرًا لكرسي متحرك كان قد اشتراه هاري من دون علمها.

وخلال الأشهر الأولى، تولّت إيما أغلب الحديث، فلم تعجز أبدًا عن التعبير عن آرائها الثابتة حول ما كان يحدث في العالم، على الرغم من أنها لم تكن تلتقط الأخبار إلا من صحف الصباح والمساء أو من نشرة الأخبار التي تعرض على شاشة التلفاز، وقد أسعدها مشاهدة الرئيس بوش والسيدة تاتشر يوقّعان معاهدة سلام مع الرئيس غورباتشوف في باريس، ووضع حد للحرب الباردة أخيرًا، ولكن بعد أيام قليلة شعرت بالرعب لمعرفة أن بعض زملائها البرلمانيين القدامى في لندن كانوا يخطّطون لعزل رئيسة الوزراء، ولكن هل كانوا بحاجة إلى تذكيرهم بأن السيدة الحديدية فازت بثلاثة انتخابات متتالية؟ وقد بذلت إيما جهدًا وهي تملي على هاري رسالة طويلة موجهة إلى مارغريت، عبّرت من خلالها عن وجهة نظرها في مسائل عديدة، وذهلت لتلقّيها ردًا أطول من رسالتها، وقد تمنّت لو أنها لا تزال في وستمنستر، لتتجوّل في الممرات وتسمح لزملائها بمعرفة رأيها فيهم، وعلى الرغم من أن دماغها ظل متيقظًا، إلا أن حالة جسدها استمرّت بالتدهور، وأصبحت قدرتها على الكلام أكثر صعوبة مع كل أسبوع يمرّ، ومع ذلك لم تعجز أبدًا عن التعبير عن فرحتها كلما ظهر أحد أفراد الأسرة وأخذ دوره في التجوّل بها حول الحديقة.

كانت لوسي الصغيرة تثرثر بعيدًا عن جدتها، فتطلعها على كل ما كانت تقوم به، وكانت الفرد الوحيد الذي لم يفهم ما الذي يحدث من حوله،

وهذا ما جعل علاقتهما مميزة للغاية.

كان جيك يرتدي بنطالا طويلًا ويتظاهر بأنه قد كبر وأصبح شابًا، بينما كان فريدي، في عامه الأول في كامبريدج، كما كان هادئًا ومراعيًا لوضعها، وكان يناقش معها الأوضاع الحالية كما لو أنها لا تزال في منصبها الرفيع، وقد تمنت لو تعيش طويلًا بما يكفي لرؤيته يشغل مقعدًا في مجلس اللوردات، ولكنها أدركت أن ذلك لن يكون ممكنًا، وقد أخبرت جيسيكا جدتها وهي تدفع كرسيها المتحرك في الحديقة أن معرض *شجرة الحياة* سوف يفتتح قريبًا، وأنها لا تزال تأمل في أن تكون ضمن القائمة المختصرة لجائزة تيرنر، لكنها أضافت: "لا تتوقَعي الكثير"، كان يذهب سيباستيان وسامانثا إلى سومرست كل عطلة أسبوع، وقد حاول سيب بشجاعة أن يظلَ مبتهجًا كلما كان في حضور والدته، ولكنه أخبر خاله جايلز بأنه يشعر بالقلق بشأن والده وأمه معًا.

في ذلك المساء كتب جايلز رسالة إلى أخته غريس: *"إن هاري يركض وحده حول المنزل"*.

قضى جايلز وكارين أطول وقت ممكن في مانور هاوس، وكانا يتصلان بانتظام بغريس، التي كانت ضائعة بين مسؤولياتها تجاه تلاميذها وصحة أختها، وفي اليوم الذي انتهى فيه العام الدراسي وبدأت العطلة الصيفية، استقلَت أول قطار إلى بريستول، وقد أقلَها جايلز في تمبل ميدز، بعد أن حذَرها من مدى تدهور صحة أختهما منذ أن رأتها آخر مرة، فكانت غريس مستعدة لمواجهة ضعف صحة إيما، ولكن الصدمة كانت عندما رأت هاري، الذي أصبح رجلًا عجوزًا، فقامت غريس برعايتهما معًا، ولكن عندما زارهما جايلز في المرة التالية، أبلغته بأنها لا تعتقد أن إيما ستعيش حتى الخريف

القادم.

***

زار هاري *ناشرا* هيدز يو وين ورحلا من دون إضافة أي تأثير على حياة آل كليفتون اليومية، فلم يسافر هاري إلى أميركا من أجل جولته المخطط لها في إحدى عشرة مدينة، كما لم يزر الهند للمشاركة في مهرجان بومباي للكتاب.

خلال تلك الفترة ذهب إلى لندن مرة واحدة فقط، لا لزيارة ناشره، أو لتناول الغداء والتحدَث في فويل الأدبي، وإنما لإخبار روجر كيربي بأنه لن يمضي قدمًا في إجراء عملية سرطان البروستات، لأنه لم يكن على استعداد إلى أن ينشغل عن إيما مهما كانت الفترة الزمنية قصيرة.

أبدى الجراح تعاطفًا معه، لكنه أشار إلى أنه إذا تسلَلت الخلايا السرطانية من البروستات إلى أي عضو من أعضاء جسمه، وهاجمت عظامه أو الكبد، فستكون حياته في خطر، إلا أن هاري لم يبالِ بكلماته.

"دعنا نناقش الأمر مرة أخرى، عندما..."

كان لدى هاري مهمة أخرى عليه أن يقوم بها قبل أن يتمكَن من العودة إلى مانور هاوس، لقد وعد إيما بأن يحضر لها نسخة من روايتها المفضلة من هاتشاردز، حتى يتمكَن من أن يقرأ فصلًا لها كل مساء، وعندما ترجَل من سيارة الأجرة في بيكاديللي، لم يلاحظ النافذة التي عرض فيها كتاب واحد فقط، مع لافتة كتب عليها:

الكتاب الأكثر مبيعًا في السنة

دخل إلى المكتبة وما إن أن وجد نسخة مطبوعة من *الطاحونة على النهر*، حتى قام بتسليم عشرة

جنيهات للشابة خلف المنضدة، فوضعت الكتاب في كيس، وعندما استدار ليغادر المكتبة، ألقت نظرة فاحصة على الزبون، متسائلة للحظة ما إذا كان ذلك ممكنًا.

عبرت إلى طاولة العرض المركزية، والتقطت نسخة من هيدز يو وين وتفحّصت صورة المؤلف على الغلاف الخلفي، قبل أن تحدّق عبر النافذة إلى الرجل الذي يركب سيارة أجرة، ففكّرت للحظة في أنه ربما يكون هاري كليفتون. ولكن بالنظر إلى الصورة عن كثب، أدركت أن الرجل غير الحليق ذا الشعر الرمادي الأشعث الذي اشترى الكتاب أكبر بكثير من هاري كليفتون. في النهاية كانت الصورة التي تمّ التقاطها له قبل أقل من عام، فأعادت الكتاب إلى الرف الأعلى من رفوف الكتب الأكثر مبيعًا، حيث كان طوال الأحد عشر أسبوعًا الماضية.

***

أخيرًا عندما لازمت إيما سريرها، حذّر الدكتور ريتشارد هاري من أن الأمر قد يستغرق أسابيع فقط، على الرغم من أن هاري نادرًا ما تركها وحيدة لأكثر من بضع دقائق، إلا أنه وجد صعوبة في أن يتحمّل رؤيتها وهي تتألّم بشدة، بعد أن صارت بالكاد قادرة على ابتلاع السوائل، وبعد أن عجزت عن الكلام تمامًا، بدأت بالتواصل عن طريق رمش عينيها، مرة تعني نعم، ومرتين تعنيان لا، ثلاث مرات من فضلك، أربع مرات شكرًا لك. فأشار هاري إليها إلى أن ثلاث وأربع مرات تزيد عن الحاجة، ولكنه استطاع سماعها وهي تقول *الأخلاق الحميدة لا تزيد عن الحاجة*.

كلما تسلّل الظلام إلى الغرفة، كان هاري يقوم بتشغيل الضوء بجانب السرير، ويقرأ لها فصلًا آخر،

على أمل أن تغفو بسرعة.

وبعد إحدى زيارات الدكتور ريتشاردز الصباحية، تحدّث إلى هاري بعيدًا عن إيما، وقال له: "لن يطول الأمر كثيرًا".

ما أقلق هاري طول المدة التي ستعاني فيها إيما، فأجابه: "لنأمل أن تكون محقًا".

في ذلك المساء جلس على حافة السرير وواصل القراءة: "*هذا عالم محير، وقد علّم هاري العجوز ما الخطأ فيه*".

ابتسمت له إيما.

عندما وصل إلى نهاية الفصل، أغلق الكتاب ونظر إلى المرأة التي شاركته حياته، والتي من الواضح أنها لم تعد ترغب في العيش وتحمّل هذه الآلام المبرحة، فانحنى وهمس إليها: "أنا أحبكِ يا عزيزتي"، فرمشت عيناها أربع مرات.

"هل الألم يُحتمل؟"، رمشت عيناها مرتين.

"أعدك بأن الألم لن يطول أكثر"، رمشت ثلاث مرات، تبعها نظرة التماس.

قبّلها بلطف على شفتيها، وهمس إليها: "لقد أحببت امرأة واحدة فقط في حياتي"، رمشت أربع مرات، وتابع قائلًا: "وأنا أصلي ألا يمرّ وقت طويل قبل أن نرى بعضنا مرة أخرى"، رمشت مرة واحدة، تلتها ثلاث مرات، فأربع.

أمسك بيدها، وأغمض عينيه، وسأل الله أن يسامحه، ثم التقط وسادة، وقبل أن يغيّر رأيه، نظر إليها مرة أخيرة،

فرمشت مرة واحدة تلتها ثلاث مرات، تردّد قليلًا، فرمشت مرة واحدة، كرّرتها كل بضع ثوان، فوضع الوسادة برفق على وجه إيما، وضغط عليها،

فارتعدت يداها وقدماها للحظات قبل أن تهدأ حركتها وتصبح جثة هامدة، ولكنه استمرَ بالضغط، وعندما رفع الوسادة، كانت ترتسم ابتسامة على وجهها كما لو كانت تستمتع بأول

يوم راحة منذ شهور، فحملها هاري بين ذراعيه بينما كانت أولى أوراق الخريف تسقط.

في صباح اليوم التالي، جاء الدكتور ريتشاردز، فتفاجأ عندما وجد أن مريضته قد ماتت في أثناء الليل، فلم يتفوَه بكلمة، بل كتب ببساطة شهادة الوفاة: *ماتت في أثناء نومها نتيجة إصابتها بمرض في الخلايا العصبية*، فقد كان صديقًا قديمًا قبل أن يكون طبيبًا، فهو كان طبيب الأسرة.

لقد تركت إيما تعليمات واضحة تقضي بإقامة جنازة هادئة، لا يحضرها سوى العائلة والأصدقاء المقربون، من دون زهور، أو تبرعات للمركز الطبي الملكي في بريستول، وقد نُفَذت رغباتها التي تركتها في الرسالة، ولكنها لم تتمكَن من معرفة كم كان عدد الناس الذين كانوا ينظرون إليها على أنها صديقة مقربة.

كانت كنيسة القرية مكتظة بالسكان المحليين، ولكن معظمهم لم يكونوا محليين تمامًا، وقد اكتشف هاري ذلك عندما مشى في الممر للانضمام إلى بقية أفراد الأسرة في المقدمة، بعد أن تجاوز رئيسة الوزراء السابقة التي جلست في الصف الثالث.

لم يستطع تذكَر الكثير عن خدمة الكنيسة، إذ كان عقله مشغولًا، لكنه حاول التركيز عندما ألقى خطاب التأبين، وبعد أن تمَ إنزال النعش في باطن الأرض وتغطية القبر، كان هاري آخر من ترك القبر، وعندما عاد إلى مانور هاوس لينضمَ إلى بقية أفراد الأسرة، وجد أنه لا يستطيع تذكَر اسم لوسي.

راقبته غريس عن كثب وهو يجلس بهدوء في غرفة الرسم حيث التقى بإيما للمرة الأولى، حسنًا، لم يكن لقاءً بالضبط.

أخبرته قائلة: "لقد ذهبوا جميعًا"، لكنه ظل جالسًا في مكانه، وهو يحدّق عبر النافذة، وعندما غابت الشمس خلف أشجار البلوط، نهض من مكانه، ومشى في القاعة، ثم صعد على الدرج ببطء إلى غرفة نومهما، وخلع ملابسه واستلقى على سرير فارغ، من دون أن يهتمّ بهذا العالم.

يخبرك الأطباء بأنه لا يمكنك أن تموت من شدة الحزن، ولكن هاري مات بعد تسعة أيام من وفاة زوجته، وقد أفادت شهادة الوفاة بأن السبب كان إصابته بمرض السرطان، ولكن الدكتور ريتشاردز قد أوضح أن هاري لو كان يريد لكان في إمكانه العيش لمدة عشر سنوات أخرى، وربما عشرين سنة.

كانت تعليمات هاري واضحة مثل تعليمات إيما، فقد أراد جنازة هادئة، وكان طلبه الوحيد أن يدفن بجانب زوجته، فتمّ تنفيذ رغباته، وحين عادت الأسرة إلى مانور هاوس بعد الجنازة، جمعهم جايلز جميعًا معًا في غرفة الرسم وطلب منهم رفع كأس نخب أعز صديق من أصدقائه.

وأضاف قائلًا: "آمل في أن تسمحوا لي بفعل شيء واحد، أعلم بأن هاري لم يكن ليوافق عليه"، فاستمعت العائلة بصمت إلى اقتراحه.

قالت غريس: "بالتأكيد لم يكن ليوافق، ولكن إيما كانت ستفعل، لأنها أخبرتني بأنها تريد ذلك".

نظر جايلز بدوره إلى كل فرد من أفراد الأسرة، ولكنه لم يكن بحاجة إلى الحصول على موافقتهم، لأنه بدا واضحًا أنهم كانوا يوافقونه في الرأي.

هاري آرثر كليفتون
1920-1992
52

ما كانت تعليماته لتكون أكثر وضوحًا، ولكنهم كانوا يخضعون لها منذ عام 1621.

كان اللورد بارينغتون من بريستول دوكلاندز سيصل إلى كاتدرائية القديس بولس في الساعة 10.50 من صباح العاشر من نيسان عام 1992، وفي الساعة 10:53، سيقابله الكاهن المبجل إريك إيفانز، عند الباب الشمالي الغربي، وفي 10:55 سيرافق الكاهن المستشار اللورد إلى الكاتدرائية، ثم يتقدَمان إلى مقدمة صحن الكنيسة حيث يجب أن يقفا، وستكون كلمة الكاهن في الساعة 10:57.

عندما أشارت ساعة الكاتدرائية إلى الحادية عشرة صباحًا، كان عازف الأرغن يعزف نغمات الافتتاح لترنيمة *كل* الناس الذين على الأرض يسكنون، وقد وقفت رعية الكنيسة تغنّي، وبعد تلك اللحظة وحتى المباركة النهائية التي سيقوم بها كبير الكهنة، ستكون مراسم التأبين تحت إشراف القس باري دونالدسون، أسقف بريستول، وأحد أقدم أصدقاء هاري، بينما سيكون لجايلز دور واحد فقط يؤدَيه على المسرح الكنسي، وقد أمضى أسابيع في الاستعداد لهذه الساعة، التي يجب أن تكون جديرة بمكانة أعزّ صديق له، وفي الوقت نفسه تليق به، وهو يدرك أنه ما كان سيوافق على التحضير لها إلا إن طلبت منه إيما ذلك. كان عليه القيام بإجراء تمرين ركض من ميدان سميث إلى شارع باولز في الوقت نفسه بالضبط قبل أسبوع من التأبين، للتأكد من أنه لن يتأخر، فاستغرقت الرحلة 24 دقيقة،

لذلك قرّر أنه سيغادر المنزل في الساعة 10:15، فقال لسائقه: "من الأفضل أن نصل مبكرين ببضع دقائق على أن نكون متأخرين ببضع دقائق، فيمكنك دائمًا إبطاء سرعتك، ولكن حركة المرور في لندن لا تسمح لك دائمًا بالاسراع".

استيقظ جايلز صباح حفل التأبين عند الساعة الخامسة، ولأنه كان يعلم بأنه لن يتمكّن من العودة إلى النوم، ارتدى ثوبه، ونزل إلى مكتبه، وقرأ التأبين مرة أخرى، كما كان يفعل هاري في أثناء التحضير لإلقاء خطبه، أكان يقرأ المسودة الرابعة عشرة أم الخامسة عشرة؟ وقد أجرى بعض التغييرات البسيطة، من تبديل كلمة عرضية إلى إضافة جملة، ما جعله يشعر بأنه لم يعد يستطيع فعل المزيد، ولكنه لا يزال بحاجة إلى التحقق من طول الخطاب.

قرأه مرة أخرى من دون توقف، فاحتاج إلقاءه أقل من خمس عشرة دقيقة، قال له ونستون تشرشل ذات مرة: "يجب أن يستغرق الكلام المهم ساعة في الكتابة مقابل كل دقيقة تلقيها أمام الجمهور، بينما في الوقت نفسه، أيها الفتى العزيز، يجب أن تترك جمهورك مقتنعًا بأن الخطاب يُلقى من دون تحضير"، كان هذا هو الفرق بين مجرد متحدث وخطيب، كما أعلن تشرشل.

وقف جايلز ودفع كرسيه إلى الخلف وبدأ بإلقاء كلمة التأبين كما لو كان يخاطب جمهورًا يتكون من ألف شخص، على الرغم من أنه لم تكن لديه فكرة عن عدد المصلين، وقد أخبره الكاهن بأن الكاتدرائية يمكن أن تستوعب ألفي شخص بسهولة، وقد جمعت هذا العدد في مناسبات نادرة، مثل جنازة أحد أفراد العائلة المالكة، أو مراسم تأبين رئيس

الوزراء، وأحيانا قد لا يجد الحاضرون جميعهم مقاعد شاغرة.

وأضاف قائلًا: "ولكن لا تقلق، فإذا حضر ستمئة شخص، يمكننا ملء صحن الكنيسة، وإغلاقها، وستبدو كأنها تغصّ بالحاضرين، وعبادنا العاديون سيكونون أكثر حكمة".

دعا جايلز أن يمتلئ الصحن، لأنه لم يكن يريد أن يخذل صديقه، ثم عدَل الخطاب للمرة الأخيرة، والذي سيحتاج إلى إلقائه أربع عشرة دقيقة، وعاد إلى غرفة النوم، فوجد كارين لا تزال في ثوب نومها.

قال لها: "ارتدِ ملابسك، فعلينا أن نذهب".

قالت كارين: "بالطبع، يا عزيزي، سأجهز بسرعة، وإذا كنت تفكّر في المشي إلى الكاتدرائية..."، ثم أضافت قبل أن تدخل إلى الحمام: "يمكننا إذا انطلقنا الآن، أن نكون في الكنيسة في الوقت المناسب للترحيب بكبير الكهنة".

بينما كان جايلز يستعرض خطابه في الطابق السفلي، كانت كارين قد جهّزت له قميصًا أبيض، وربطة عنق تعود إلى مدرسة بريستول غرامر، وبذلة سوداء وصلت من المصبغة في اليوم السابق.

ارتدى جايلز ملابسه على مهل، وقد اختار زوجًا من أزرار الأكمام ذهبي اللون قدَمه إليه هاري في يوم زفافه، وعندما نظر إلى نفسه في المرآة، طاف في غرفة النوم، وهو يشعر بقلق شديد، وأخذ يتلو فقرات كاملة من التأبين بصوت جهوري، وهو ينظر باستمرار إلى ساعته، كم ستحتاج من الوقت بعد؟ وعندما ظهرت كارين بعد عشرين دقيقة، كانت ترتدي فستانًا بسيطًا بلون أزرق داكن، لم يره جايلز من قبل، ومزينًا بمشبك صدر ذهبي، فقد أرادت أن

يكون زوجها فخورًا بها.

قالت بهدوء: "حان وقت المغادرة".

عندما غادرا المنزل، شعر جايلز بالارتياح لرؤية توم يقف بجانب الباب الخلفي للسيارة، قال وهو يجلس في المقعد الخلفي، وهو يتفقد ساعته مرة أخرى: "لنتحرَك بسرعة، يا توم".

قاد توم السيارة من ميدان سميث بهدوء يليق بهذه المناسبة، فعبر قصر وستمنستر ودار حول ميدان البرلمان، قبل أن يشقَ طريقه إلى جسر فيكتوريا.

قال جايلز عندما نظر إلى ساعته مرة أخرى: "تبدو حركة المرور كثيفة بشكل غير عادي اليوم".

قال توم: "إنها كالأسبوع الماضي تقريبًا".

لم يعلَق جايلز على واقع أن كل إشارة يمرَون بها كانت تتحوَل إلى اللون الأحمر فور اقترابهم منها، وقد بات مقتنعًا بأنهم سيتأخرون عن موعدهم.

في أثناء عبور جريفينز التي تعلن الوصول إلى مدينة لندن، بدأ جايلز بالاسترخاء للمرة الأولى، لأنه شعر الآن بأنهم سيصلون قبل حوالى عشر دقائق من الموعد المحدد، أو كان من الممكن أن يحصل ذلك، لو لم يطرأ أمر لم يكن يتوقَعه أحد.

كان أمامهم نصف ميل تقريبًا قبل إن يصلوا إلى الكاتدرائية، وقد تمكَنوا بالفعل من رؤية قبتها، ولكن حاجزًا اعترض طريقهم، لم يكن في الأسبوع السابق عندما أجرى جايلز التدريب، وقد لوَح الشرطي بيده لإيقافهم، ففتح توم نافذته، وقال: "اللورد المستشار".

حيّا الشرطي، وأومأ برأسه إلى زميله، فرفع الحاجز في الحال للسماح لهم بالمرور، ما جعل

جايلز يشعر بالراحة لأنهم انطلقوا من جديد، لكنهم كانوا يتحرّكون ببطء، بسبب حشود المشاة التي كانت تتدفّق من الرصيف وتصبّ وسط الطريق، مما جعل السيارة تبدو وكأنها متوقفة.

قال جايلز: "توقّف هنا يا توم، وسيتوجّب علينا أن نمشي المئة ياردة المتبقية".

توقّف توم في منتصف الطريق وهرع لفتح الباب الخلفي، ولكن خلال الوقت الذي وصل فيه، كان جايلز وكارين يشقّان طريقهما بالفعل بين الحشود، وقد وقف الناس جانبًا عندما تعرّفوا إلى المستشار، كما صفق بعضهم بحرارة، وكان جايلز على وشك أن يتفاعل مع تصفيقهم، عندما همست إليه كارين: "لا تنسَ أنهم يصفقون لهاري، وليس لك".

أخيرًا وصلا إلى مدخل الكاتدرائية، وأخذا يصعدان درجاتها، وقوس من أقلام الرصاص رفعها عاليًا أولئك الذين لم يرغبوا في تذكّر هاري بصفته مؤلفًا فقط، ولكن بصفته مدافعًا عن الحقوق المدنية.

نظر جايلز إلى الأعلى ليرى إريك إيفانز، الكاهن المقيم، في انتظارهما على درجة.

قال وهو يبتسم له: "لقد أخطأت تقدير العدد، أليس كذلك؟".

"لا بد أن يكون سحرًا له علاقة بالمؤلفين وحدهم، فغالبًا ما يكونون أكثر شعبية من السياسيين".

ضحك جايلز، وعندما قادهما الكاهن عبر الباب الشمالي الغربي إلى الكاتدرائية، ثم شعر بتوتر بعد أن رأى عددًا كبيرًا من الذين وصلوا متأخرين يقفون بعد أن امتلأت المقاعد كلها، وحتى لو كان لدى بعضهم دعوة للجلوس بجانب الصحن، إلا أن أولئك الذين لم يتلقوا دعوة فقد وقفوا في الخلف مثل

مشجعي كرة القدم على الشرفات المزدحمة.

عرفت كارين أن ضحكات جايلز كانت مزيجًا من التوتر والاضطراب، فهي لم تره قط متوترًا إلى هذه الدرجة،

همست إليه: "استرخِ"، بينما قادهما كبير الكهنة إلى أسفل الممر الطويل بعد نصب ويلينغتون التذكاري، ثم اتجه رعية الكنيسة المتجمعين الى أماكنهم في رأس الصحن.

تعرَف جايلز إلى العديد من الأشخاص في أثناء تقدمهم البطيء نحو المذبح المرتفع، فكان آرون غوينزبورغ يجلس بجانب إيان تشابمان والدكتور ريتشاردز واللورد صامويل، وكان حكيم بشارة وأرنولد هاردكاسل يمثلان فارذنغز، والسير آلان ريدماين بجوار السير جون ريني، بينما كان فيكتور كوفمان وصديقه القديم في المدرسة الأستاذ ديكنز جالسين في الصفوف الأمامية.

كانت امرأتان جالستين بمفردهما، قد فاجأتاه، الأولى سيدة عجوز أنيقة أحنت رأسها عند مرور جايلز، جلست بالقرب من الجهة الخلفية، ومن الواضح أنها لم تعد ترغب في أن يتمَ التعرَف إليها على أنها الدوقة الأرملة كما يُتوقَع أن تكون، بينما جلست في الصف الذي يقع خلف العائلة مباشرة سيدة عجوز أخرى قدمت من موسكو لتكريم صديق زوجها الراحل.

ما إن أن أخذ مكانه وكارين في الصف الأمامي، التقط جايلز ورقة ترتيب الخدمة التي تمَ إعدادها من قبل غريس، وقد تمَ تزيين الغلاف بصورة بسيطة للسير هاري كليفتون رسمتها من فازت مؤخرا بجائزة تيرنر.

كان من الممكن أن يختار هاري ترتيب الخدمة

بنفسه، لأنها تعكس ذوقه الشخصي، وهي اتسامها بالتقليدية والشعبية، ومن دون قلق يمكن وصفها بالرومانسية، التي كانت والدته ستوافقه في اختيارها.

استقبل الرعية الكاهن باري دونالدسون، أسقف بريستول، الذي ترأس الصلاة على روح هاري، وبعد أن قرأ جيك الدرس الأول، كان بالكاد يمكن رؤية رأسه فوق المنصة: "1 كورنثوس 13: *إنْ كنتُ أتكلمُ بألسنة الناس والملائكة..*"

غنت جوقة القديسة ماري ريدكلايف، حيث كان هاري هو الراعي افرحوا لقيام الرب! ثم مشى سيباستيان، بصفته العميد الجديد لعائلة كليفتون ببطء في اتجاه المنصة الشمالية لقراءة الدرس الثاني، رؤيا 21 إلى 37، وبالكاد تمكّن من النطق بالكلمات من دون أن يتلعثم.

"*ورأيت سماءً جديدة وأرضًا جديدة، لأن السماء الأولى والأرض الأولى قد ماتتا، ولم يكن هناك اي بحر متبقٍ...*" عندما عاد إلى مكانه في الصف الأمامي، لم يستطع جايلز إلا أن يلاحظ أن شعر ابن أخته بدأ يتحوّل إلى الرمادي في جهة الصدغ، فبدا مناسبًا تمامًا، للرجل الذي تمَ انتخابه مؤخرًا لمحكمة مصرف إنكلترا.

نهض الرعية لينضمّوا إلى كل من هم خارج الكاتدرائية، وهم يغنّون أغنية هاري المفضلة الرجال والدمى "اجلس، أنت تهزّ القارب"، ربما للمرة الأولى في تاريخ الكاتدرائية، صدحت الصرخات: "إنكور"، في الداخل والخارج على حدٍ سواء، في الداخل حيث قادت الآنسة أديلايد جيش الخلاص ممثلة إيما، بينما كان في الخارج ألف سكاي ماسترسون يؤدون دور هاري.

أومأ كبير الكهنة، فرفع سيد الجوقة عصاه مرة أخرى، وربما كان جايلز هو الشخص الوحيد الذي لم ينضمَ إلى الحشود بينما كان الرعية يغنون، وفعلت تلك الأقدام في العصور القديمة... وقد ازداد توتره مع اقتراب الوقت، فوضع ترتيب الخدمة بجانبه وتمسَك بالمقعد، على أمل ألا يرى أحد أن يديه ترتجفان، وعندما *وصل الرعية إلى مقطع حتى بنينا القدس*... استدار جايلز ليرى كبير الكهنة يقف بجانبه، فانحنى له، فلا بد أن الساعة 11.41.

نهض جايلز من مكانه، وخرج إلى الممر، وتبع كبير الكهنة حتى درجات المنبر، ثم انحنى مرة أخرى، *قبل يتركه في أرض إنكلترا الخضراء مع الأصوات العذبة التي تتردّد في أذنيه*.

عندما استدار جايلز للصعود على الدرجات الثلاث عشرة، تمكّن من سماع هاري يقول له: حظًا سعيدًا أيها الفتى العجوز، أنت ولا أنا.

عندما وصل إلى المنبر، وضع جايلز نصه على المنصة النحاسية الصغيرة، ونظر إلى الناس المحتشدين في الأسفل، فكان مقعد واحد فارغًا فقط، وبعد أن تمَ تقديم السطر الأخير من تحفة بليك، عاد الرعية إلى أماكنهم، فنظر جايلز إلى يساره ليرى تمثال نيلسون، وعينه تحدَق إليه مباشرة، وانتظر هدوء الجمهور قبل أن يقول جملته الافتتاحية:

"لقد كان هذا الرجل أنبل رجال الرومان.

سألني عدد كبير من الناس على مر السنوات عما إذا كان من الواضح، عندما قابلت هاري كليفتون لأول مرة، أنني كنت في حضور فرد مميَز للغاية، فكان يجب أن أقول لا، لم يكن كذلك، في الواقع الصدفة فقط هي التي جمعتنا معًا، ولأكون أكثر

دقة كان للأبجدية الدور الأكبر في جمعنا، لأن اسمي كان بارينغتون، فانتهى بي المطاف إلى سرير مجاور لكليفتون في المهجع، وفي أول يومٍ لنا في مدرسة سانت بيد، وبعد تلك الصدفة الغريبة ولدت صداقة استمرّت مدى الحياة.

منذ البداية بدا واضحًا بالنسبة إلي أنني كنت الإنسان المتفوق، فبعد كل شيء كان الصبي الذي أنام إلى جانبه لا يبكي طوال الليل فقط، بل أيضا يبلّل سريره".

ضجّت الكنيسة بالضحك وقد رافقه هتافات من الخارج تسلّلت بسرعة إلى داخل الكاتدرائية، مما ساعد جايلز على الاسترخاء.

"في صباح التالي عندما تسلّل كليفتون إلى الحمام، استمرّ هذا التفوق الطبيعي بالظهور، فعلى الرغم من أن كليفتون كان لديه فرشاة أسنان، إلا أنه لم يكن لديه معجون أسنان، فاضطرّ إلى استعارته مني، وعندما انضممنا إلى الأولاد الآخرين لتناول طعام الفطور، ظهر تفوّقي أكثر وضوحًا عندما أصبح واضحًا أن كليفتون لم يكن قد تعرّف إلى عجة البيض من قبل، وقد حاول تناولها بالملعقة، وبعد الفطور توجّهنا جميعًا إلى القاعة الكبرى لاجتماعنا الأول، ليفرزنا مدير المدرسة، على الرغم من أنه كان جليًا أن كليفتون لم يكن متساويًا بي بعد كل شيء، كان ابن عامل في الميناء، بينما كانت والدته نادلة، أنا أمي فكانت السيدة بارينغتون، فكيف يمكن أن نكون متساويين؟ ومع ذلك، سمحت له بالجلوس بجواري.

وفور انتهاء الاجتماع، ذهبنا إلى الفصل الدراسي لحضور الدرس الأول، حيث كان كليفتون يجلس بجوار بارينغتون، ولسوء الحظ ما إن قُرع الجرس

معلنًا بدء الاستراحة، تبخر تفوقي الأسطوري بسرعة أكبر من تلاشي ندى الصباح عند شروق الشمس، لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى أدركت أنني سأكون طيلة حياتي ظل هاري، لأنه كان مقدرًا له أن يثبت في العالم الصغير الذي احتللناه في ذلك الوقت أن القلم هو بالفعل أمضى من السيف.

استمرَ هذا الوضع بعد أن تركنا مدرسة سانت بيد والتحقنا بمدرسة بريستول للقواعد، ومن جديد كان مكاني إلى جانب صديقي، ولكن يجب أن أعترف بأنني حصلت على مكاني في المدرسة فقط لأنهم كانوا بحاجة إلى جناح جديد للعبة الكريكيت، وقد دفع والدي ثمنه".

بينما ضحك الذين كانوا خارج سانت بول وصفقوا بحرارة، لم يسمح إلا بالضحك الخفيف داخل الكاتدرائية.

"كنت كابتن لاعبي المدرسة الأحد عشر، بينما حصل هاري على جائزة اللغة الإنكليزية في معرض لأكسفورد، واستطعت أيضًا الحصول على مكان في أكسفورد، ولكن بعد أن أحرزت مئة نقطة في اللوردز لصالح فريق يونغ أم سي سي".

انتظر جايلز أن يهدأ الضحك قبل أن يواصل كلامه قائلًا:

"ثم حدث شيء لم أكن أتوقع حدوثه، فقد وقع هاري في حب أختي إيما، وأعترف بأنه في ذلك الوقت شعرت بأنه كان في إمكانه اختيار امرأة أفضل، في أثناء مواجهة خياره، لم أكن أتخيَل أنها ستفوز بمنحة دراسية لكلية سومرفيل، أكسفورد، وأنها ستصبح أول سيدة تتولَى رئاسة شركة عامة، ورئيسة للمركز الطبي الملكي في بريستول ووزيرة، فلم تكن المرة الأولى أو الأخيرة، التي كان هاري

يثبت أنني كنت على خطأ، فلم أعد بارينغتون المتفوق بعد الآن، وربما لم يكن هذا هو الوقت المناسب لذكر أختي الصغيرة غريس، التي كانت تلميذة في المدرسة، وقد ناضلت حتى أصبحت أستاذة اللغة الإنكليزية في كامبريدج، وهي تحتل الآن المركز الثالث في تسلسل عائلة بارينغتون الهرمي.

لقد تقبّلت أن هاري كان متفوقًا، وقد ساعدني في دروسي، عندما كنا ندرس معًا، كما كان يكتب مقالاتي، بينما كنت أمارس تمارين لعبة الكريكت، إلا أن أدولف هتلر، الرجل الذي لم يلعب لعبة الكريكت مطلقًا في حياته، وضع حدًا لعلاقتنا، وجعلنا نفترق.

لقد أحرجني هاري بمغادرة أكسفورد والانضمام إلى الجيش حتى قبل إعلان الحرب، وما إن حذوت حذوه، حتى كانت سفينته قد أغرقتها سفينة ألمانية، فافترض الجميع أنه غرق في البحر، ولكن لا يمكن التخلص من هاري كليفتون بهذه السهولة، فقد أنقذه الأميركيون، وقضى باقي حربه خلف خطوط العدو، بينما انتهى بي المطاف إلى معسكر ألماني من معسكرات أسرى الحرب، وتولّد في داخلي شعور أنه كان الملازم كليفتون في السرير المقابل لسريري في ويسنبرغ، ولو تحقّق ذلك لكان من الممكن أن أهرب بوقت مبكر أكثر.

لم يتحدّث هاري أبدًا إلى أي شخص عن الأيام التي قضاها وهو يقاتل في ساحة المعركة، على الرغم من حصوله على النجمة الفضية المرموقة تقديرًا لخدمته بصفته قائدًا في الجيش الأميركي، ولكن إذا قرأت اقتباسه، كما فعلت عندما زرت واشنطن للمرة الأولى بصفتي وزيرًا للخارجية، ستكتشف أنه بمساعدة عريف إيرلندي وسيارة

جيب ومسدسين، أقنع المشير الميداني كيرتيل، الضابط القائد لفرقة دبابات الكراك، أن يأمر رجاله بأن يلقوا أسلحتهم ويستسلموا، وبعد ذلك بوقت قصير، تمَ تفجير سيارة الجيب الخاصة بهاري بواسطة لغم أرضي في أثناء عودته إلى كتيبته، فقُتل سائقه، ونقل هاري إلى المركز الطبي الملكي في بريستول، ولم يكن من المتوقع أن ينجو من الحادثة، ومع ذلك كان لدى الله خطط أخرى لهاري كليفتون حتى إنني لم أكن أعتقد أنها ممكنة.

"وفور انتهاء الحرب، وبعد شفاء هاري تمامًا، تزوَج من إيما وانتقل إلى منزل مجاور، على الرغم من أنني أعترف بأن بضعة فدانات كانت تفرَقنا، وبالعودة إلى العالم الحقيقي، أردت أن أكون سياسيًا، بينما كانت رغبة هاري في أن يكون كاتبًا، لذلك بدأنا مرة أخرى سلوك مسارين متعاكسين، وعندما أصبحت عضوًا في البرلمان، شعرت أخيرًا بأننا متساويان، إلى أن اكتشفت أن أعداد الناس الذين يقرأون كتب هاري يفوق الذين يصوَتون لي، وكان عزائي الوحيد أن بطل هاري الخيالي، ويليام وورويك، ابن أنيرل، الحسن المظهر، والذكي واللامع كان شخصية بطولية، وقد بدا واضحًا أنه نسخة عني".

وبينما كان المكان يضجَ بالضحك، قلب جايلز الصفحه التالية.

"لكن الأمر ساء مع كل كتاب جديد كتبه هاري، وقد انضمَ المزيد والمزيد من القراء إلى فيلق المعجبين به، وكل مرة كنت أقف في مرحلة الانتخابات، كنت أحصل على عدد أقل من الأصوات.

كان صاحب فكرة شريفة عامة تنشر الخير بين الجميع.

"وبعد ذلك ومن دون سابق إنذار، كما هو حال القدر الذي يقف إلى جانب هاري، سلكت حياته منعطفًا آخر، عندما عرض عليه منصب رئيس رابطة القلم الإنكليزية لحقوق الإنسان، وهو الدور الذي كان عليه أن يظهر فيه المهارات التي من شأنها أن تكون موضع حسد الكثيرين الذين لا يفكّرون إلا في أنفسهم ويسعون جاهدين إلى أن يكونوا رجال دولة.

أكّدت له أن منصبه في رابطة القلم هو منصب فخري، ولا ينبغي أن يكون متطلبًا للغاية، ولكن من الواضح أنهم لم تكن لديهم أي فكرة عمن كانوا يتعاملون معه، ففي الاجتماع الأول الذي حضره هاري بصفته رئيسًا لرابطة القلم، عرف مصير رجل لم يسمع به سوى القليل منا في ذلك الوقت، وكان يقبع في معسكر سيبيريا.

أراد هاري تحقيق العدالة، فأصبح أناتولي باباكوف اسمًا منتشرًا في العالم، وجزءًا من حياتنا اليومية".

هذه المرة استمرَ الهتاف داخل وخارج الكاتدرائية، وقد أخذ الناس أقلامهم ورفعوها عاليًا في الهواء.

"بفضل تصميم هاري الذي لا يكلَ ولا يملَ، تبنَى العالم الحر قضية الكاتب الروسي العظيم، مما أدَى إلى استسلام ذلك النظام الاستبدادي وإطلاق سراحه في النهاية".

صمت جايلز فترة وجيزة، وهو ينظر إلى انفعال الناس، قبل أن يضيف: "واليوم، زوجة أناتولي باباكوف، يلينا، قدمت من موسكو لتكون معنا، ولتكريم الرجل الذي كان لديه الشجاعة لتحدي الروس في عقر دارهم، جاعلًا من الممكن إطلاق سراح زوجها، والفوز بجائزة نوبل والانضمام إلى عمالقة الأدب الذين يعيشون بعد فترة طويلة من

رحيلهم".

هذه المرة مرَت أكثر من دقيقة قبل أن يتوقف التصفيق الحاد، فانتظر جايلز حتى ساد الصمت التام، ثم تابع قائلًا:

"كم واحد منكم يدرك اليوم أن هاري رفض وسام الفارس، لأنه رفض أن يُكرَم بينما كان أناتولي باباكوف لا يزال في السجن، على الرغم من أن زوجته من أقنعته بأنه يقبل به، ليس اعترافًا بعمله بصفته كاتبًا، ولكن بصفته مدافعًا عن حقوق الإنسان.

ذات مرة سألت هذا الرجل المتواضع اللطيف عما يعتبره أعظم إنجاز له، أهو تصدَر قوائم الكتب الأكثر مبيعًا في العالم، أو حصوله على لقب الفارس أو جعله العالم يدرك شجاعة زميله المؤلف، أناتولي باباكوف؟

فأجابني على الفور: "الزواج من أختك إيما، لأنها لم تتوقَف عن رفع المستوى الذي دفعني إلى آفاق أعلى وأعظم"، إذا كان هاري متفاخرًا في أي وقت مضى، فهذا يرجع إلى فخره بإنجازات إيما، من دون أن يدخل الحسد إلى أفكاره أبدًا، بل كان يسرَه نجاحها كما كان يسرَه نجاح الآخرين.

"كانت حياته صافية وشفافة، وقد اختلطت فيه عناصر ساحرة لدرجة أن الطبيعة كانت تنتصب واقفة أمام إنجازاته، في عائلتنا لدينا تقليد في كل عام جديد، يقوم على الكشف عن قرارنا للأشهر الاثني عشر القادمة، قبل بضع سنوات، اعترف هاري بشكل خجول إلى حد ما، بأنه سيحاول كتابة رواية من الممكن أن تُعجب والدته، التي كانت من أشد منتقديه، وقد سألني: "وأنت يا جايلز، ما قرارك للعام الجديد؟".

قلت له: "سأفقد وزنًا".

انتظر جايلز أن يهدأ الضحك من جديد، وبينما كان يضع يدًا على بطنه، ويحمل نسخة من هيدز يو وين في اليد الأخرى ليراها الجميع، قال:

"اكتسبت خمسة أرطال أخرى، بينما باع كتاب هاري مليون نسخة في الأسبوع الأول من نشره، ولكنه كان سيعتبر أن إشادة أختي غريس، أستاذة اللغة الإنكليزية السابقة في كامبريدج، بروايته التي اعتبرتها تحفة فنية، أهمَ بالنسبة إليه".

صمت جايلز للحظة، كما لو أنه كان يفكّر قبل أن يواصل كلمه قائلًا:

"لقد أخبروني بأن هاري كليفتون مات، وأنا أعلن أن من يجرؤ على تكرار القذف بالشائعات عليه أن ينظر إلى قوائم أفضل المبيعات حول العالم، والتي تثبت أنه لا يزال مراوغًا كبيرًا ويعيش بيننا، وبينما كان على وشك الحصول على الأوسمة والأكاليل اعترافًا بالإنجازات التي قدمها في حياته، قرَر الله أن يستردَ أمانته فيذكّرنا بأنه غير خالد جسديًا، فخسرت أكثر شخص أحببته في هذه الحياة.

وعندما علم هاري للمرة الاولى بمرض إيما المأساوي كان عليه أن يواجه حقيقة أنه لم يكن أمامها سوى عام واحد لتعيش، ومثل أي عقبة اعترضت طريقه في الحياة واجهها وجهًا لوجه، على الرغم من أن هذه المعركة لا يمكن الانتصار فيها.

هجر كل أعماله على الفور وحتى قلمه، ليكرّس نفسه لإيما، فقام ب كل ما في وسعه القيام به للتخفيف من آلامها، ولكن لم يدرك أي منا ممن عاش معهما خلال تلك الأيام الأخيرة الضغوطات الكبيرة التي تعرَض لها، وخلال أيام قليلة من وفاة إيما،

وبعد خسارته الفادحة لم يقدر على تحمَل الألم بعد أن أدَى دور البطل في قصة جديرة بأن تكون إحدى رواياته، فمات هو الآخر.

كنت إلى جانب سريره عندما مات، وكنت أتمنى أن يقدم هذا الرجل الأديب سطرًا أخيرًا لا يُنسى، فلم يخذلني، وقال وهو يمسك بيدي: "جايلز، لقد توصَلت للتو إلى فكرة رواية جديدة"، فقلت له: "أخبرني المزيد".

قال لي: "إنها حكاية عن صبي، وُلد في الشوارع الخلفية لبريستول، وهو ابن عامل في الميناء، وقع في حب ابنة الرجل الذي يملك الأحواض...".

سألته: "ماذا سيحدث بعد ذلك".

قال: "ليس لديَ أي فكرة، ولكن سيكون الفصل الأول جاهزًا في الوقت الذي سأحمل فيه قلمي في صباح الغد". نظر جايلز نحو السماء وقال: "لا أطيق الانتظار لقراءتها"، في محاولة يائسة لكبح ألمه، فلم تعد الكلمات تتدفَق، وقلب الصفحة الأخيرة من صفحات تأبينه، مصممًا على ألا يخذل صديقه، وقال متجاهلًا النص بهدوء:

"صحيح أن هاري طلب خروجًا هادئًا من مسرح الحياة، وقد تجاهلت رغباته"، قال ناظرًا إلى الرعية:

"أنا لست مارك أنتوني، ولكنني أعتقد أن كلماته تنطبق على هاري بقدر ما تنطبق على النبيل بروتوس".

توقَف جايلز للحظة، قبل أن يميل إلى الأمام ويقول همسًا:

"كانت حياته صافية وشفافة، وقد اختلطت فيه عناصر ساحرة لدرجة أن الطبيعة كانت تنتصب واقفة، وهي تقول للعالم كله: كان هذا إنسانًا!

***

أ) [illegible]

ب) politics, philosophy and economics Ppe [illegible]

[illegible] ([illegible])

ج) [illegible]